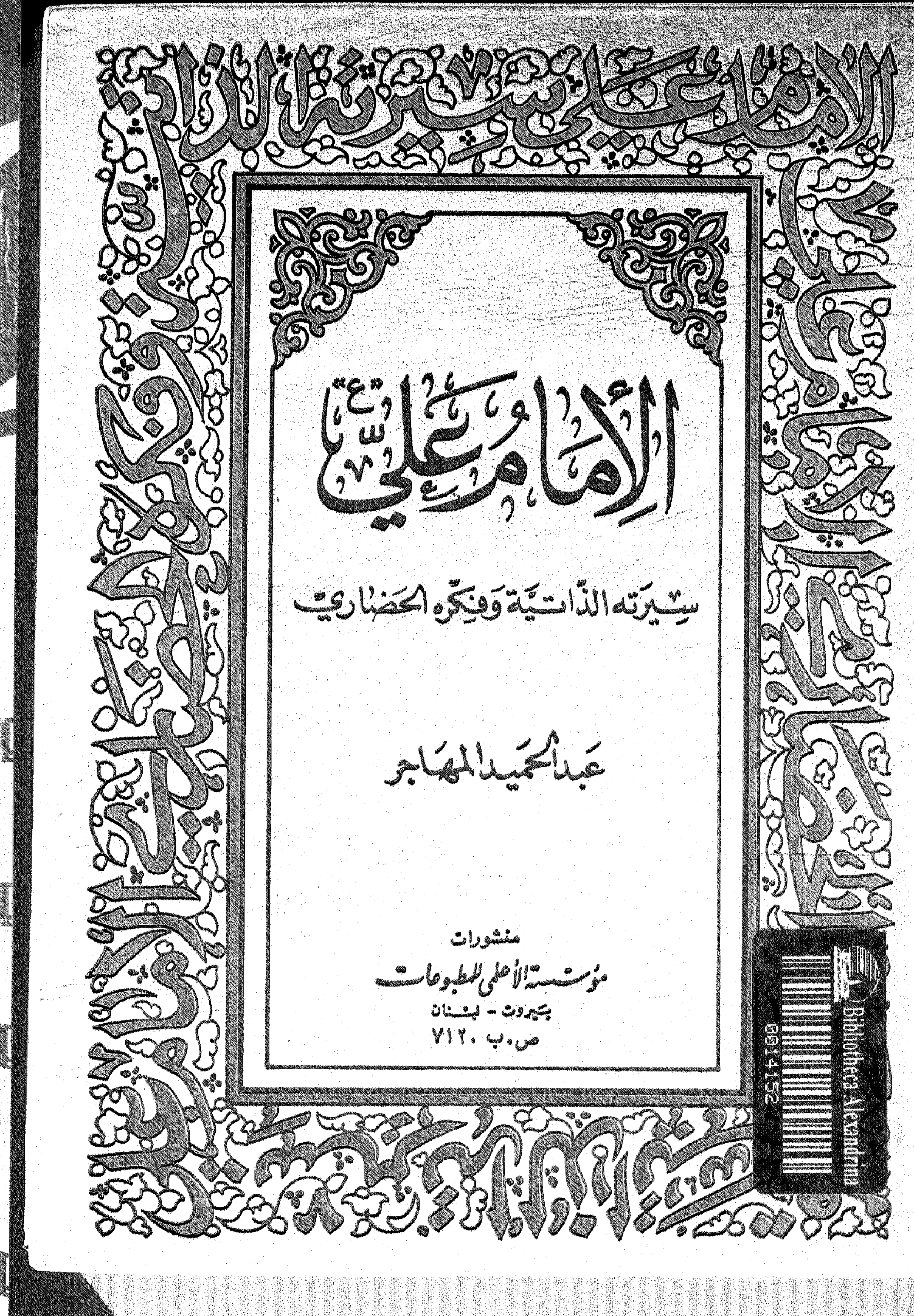
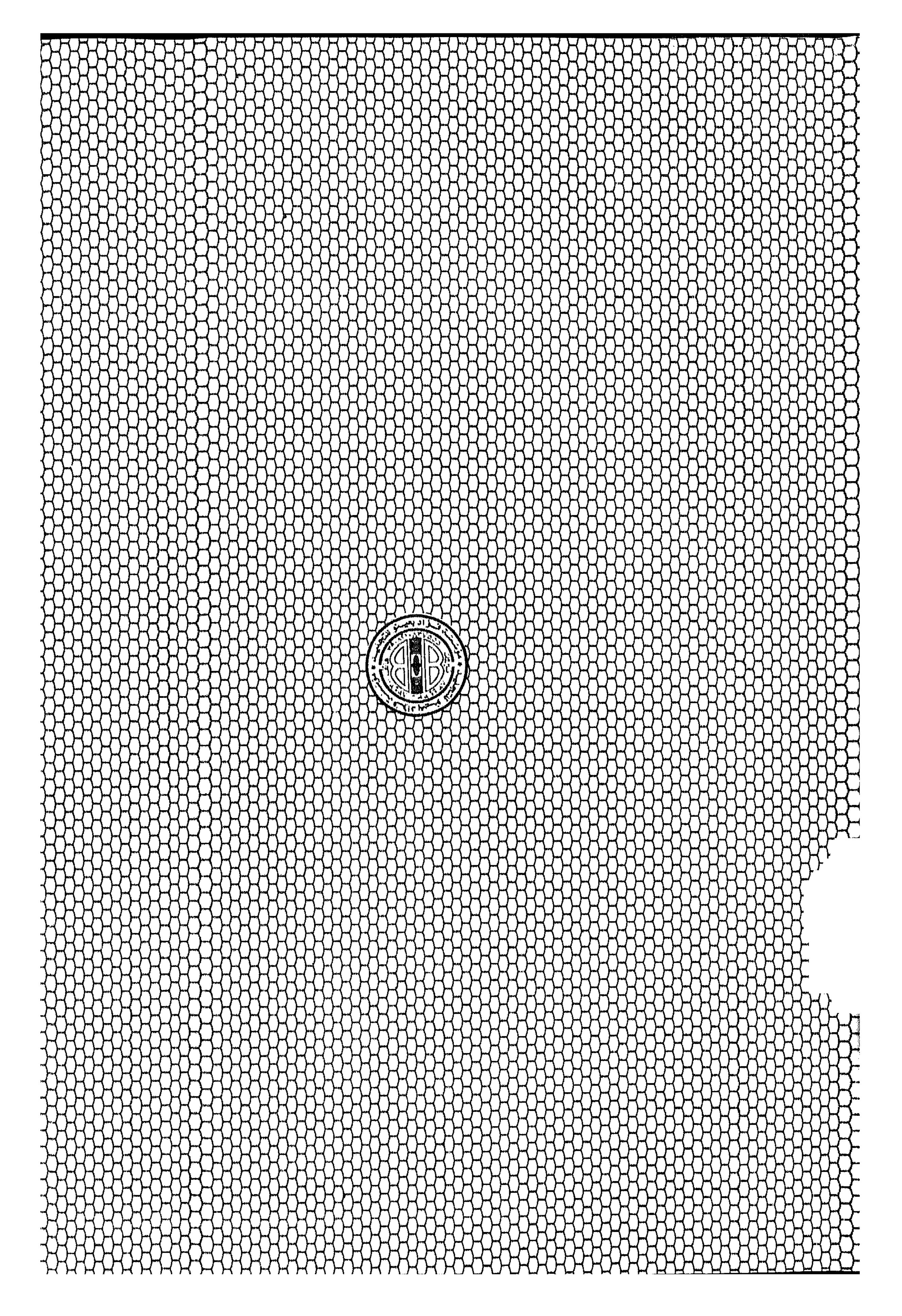


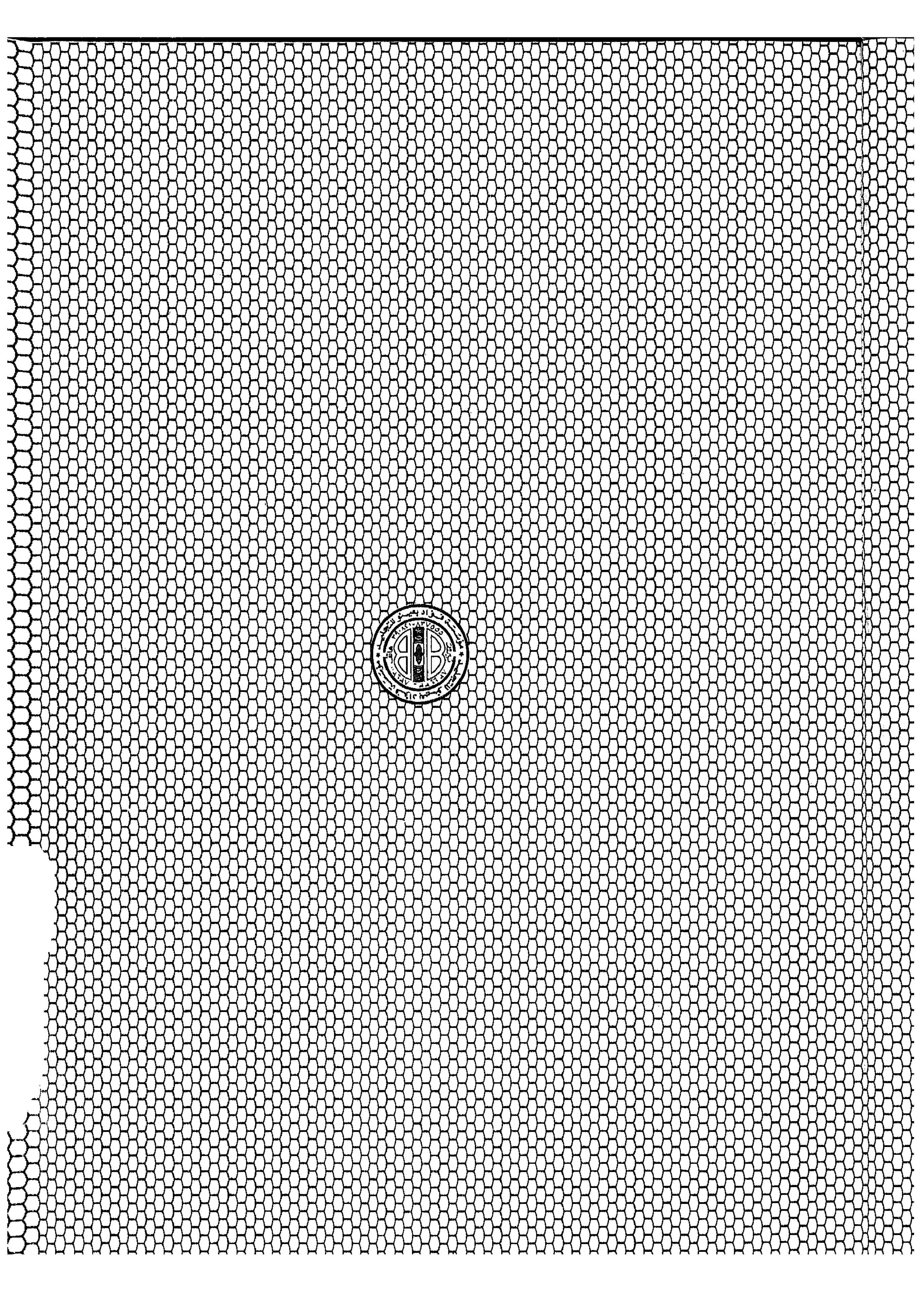
الإمام علي

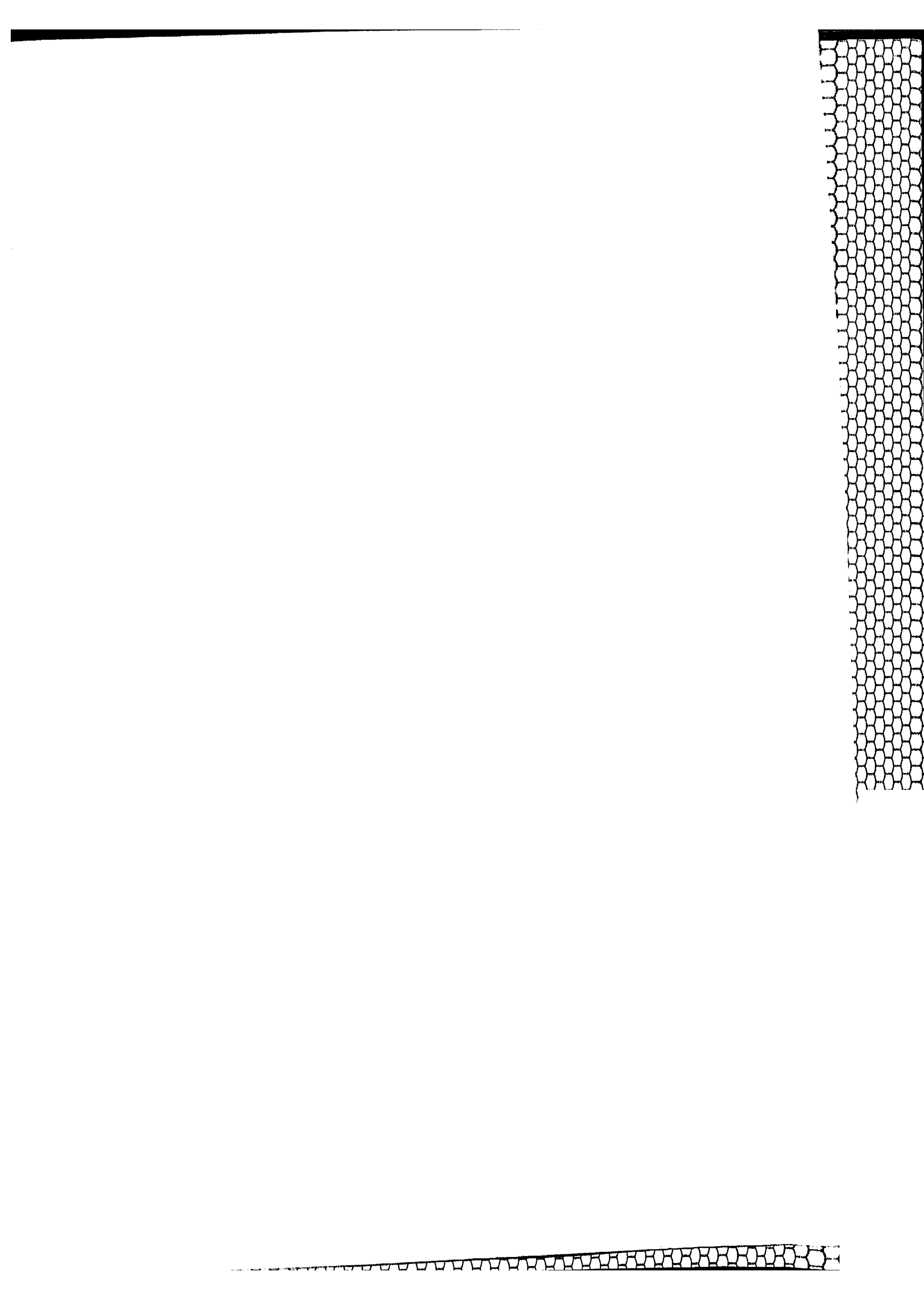
سيرته الذاتية وفكره الحضاري

عبد الحميد المهاجر

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠




مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد



الإمام علي (ع)

سيرته الذاتية وفكره الحضاري

الإمام علي "ع"

سيرته الذاتيّة وفكره الحضاري



عبد الحميد المهاجر

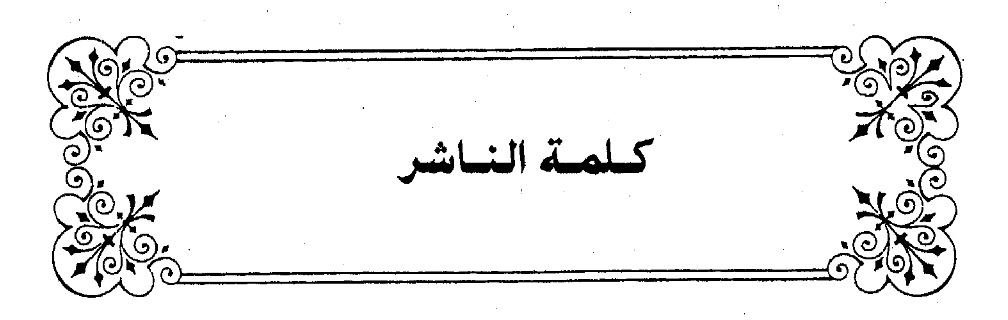
الجزء الأوّل

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص ب : ٧١٢٠

الطبعة الأُولىٰ

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات:
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلمي - ص.ب ٧١٢٠
الهاتف : ٨٣٣٤٥٣ - تلفاكس : ٨٣٣٤٤٧ .



كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصّلاة والسلام على نبيّ الرّحمة ورسول الهدىٰ ، الذي بُعث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأهل بيته الأطهار الميامين ، وبعد :

إن الله تبارك وتعالىٰ قد اختار من خلقه صفوةً من الأنبياء والمرسلين فأرسلهم هداةً للبشر ، ينيرون لهم دامس الظلمة ، ويبيّنون واضح الطريق ، وينقلونهم من ظلام الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، ثم ختم هذه المسيرة الرساليّة بخاتم الأنبياء وسيّد المرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم فحمل الأمانة وبلّغ الرسالة ، وأقام نواة الدولة الإسلاميّة ، وأسّس لصرحها العظيم أساساً متيناً وأقام له دعائم وثيقة لتحمل ذلك البنيان الشامخ الذي سوف يمتدُّ طولاً وعرضاً ، وجمع شمل الأُمّة بعد أن كانت قبائل متناثرة ، فحملت راية الإسلام وتوغّلت بها شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً .

ثم انتقل إلى جوار ربّه بعد أن استودع الأمانة وصيَّهُ ووزيرهُ الإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه ، الذي بايعته الأُمّة ، فنكث قومٌ ، وقسط قومٌ ، ومرق آخرون ، وهم يعلمون أنه باب مدينة العلم وهارون الأُمّة ووليّ المؤمنين .

ولا يخفى على كل منصفٍ ألمَّ بالتاريخ ، مسلماً كان أو غير مسلم ، مسيرة التضحيات الجسام التي قدَّمها الإمام علي ومن بعده سائر أهل البيت عليهم السلام ، في سبيل الحفاظ على الإسلام ؛ فقد تصدَّى هؤلاء الأخيار لكلّ محاولة من شأنها الانحراف بالإسلام عن خطّه الإلٰهي وتوجّهه الرسالي .

والحقيقة إن القلم ليعجز ، وإن البيان ليقف خجولاً ، وهو يحاول الخوض في خضمّ أهل البيت وغَمْرِهم ، لأنهم حملةُ القرآن الكريم ، وهداةُ الناس إلى الصواب . فقد أذهب الله عنهم الرّجسَ وطهّرهم تطهيراً ، وجعلهم خلاصاً لكلّ إنسانٍ يريد الهداية ، وفرض على الناس طاعتهم والانقياد لهم إذ قال في محكم تنزيله ، وهو أصدق القائلين : ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم**﴾ .

وماذا نستطيع أن نقول فيهم ، في الوقت الذي جاء في إحدى خطب الإمام الحسن في بعض مقاماته ، قوله : «نحن حزب الله المصلحون وعترة رسوله الأقربون وأهل بيته الطاهرون الطيّبون وأحد الثقلين اللّذين خلّفهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والثاني كتاب الله فيه تفصيل كل شيء والمعوّل عليه في كل شيء ، لا يخطئنا تأويله بل نتيقّن حقائقه ؛ فأطيعونا فإنَّ طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله ورسوله وأُولي الأمر منكم مقرونة ؛ فإن اختلفتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول» «ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» . وأُحذّركم الإصغاء لهنات الشيطان لكم .

وقد يَسَّرَ الله للإسلام والمسلمين ، وعلى مرّ العصور ، مجموعةً وافرةً من الرجال المخلصين والعلماء المبرّزين ، حملوا فكر أهل البيت وعملوا على توضيحه ونشره ليكون منارةً للتائهين ونبراساً للهداة ويضيء عتمة دروبهم .

وفي طليعة هؤلاء الغيارىٰ فضيلة العلاَّمة الشيخ عبد الحميد المهاجر الذي احتضن فكرهم واستلهم علمهم ، ونذر حياته لهمَّين مَلَكا عليه وجوده : الهمّ الأول هو نشر الإسلام وتبليغه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ،

والهمّ الثاني هو التأكيد على أهمية الدور الذي نهض به أهل البيت للحفاظ على الإسلام في مواجهة كل المنحرفين . . . وهو من أجل ذلك مهاجر مطوّف ، لا ينفكّ متنقّلاً بين مشارق الأرض ومغاربها ، يُضمّخ أرجاءَها وأجواءَها بذكرهم ، فهو تارةً في عواصم ومجاهل أفريقيا ، وتارةً أخرىٰ في عواصم أُوروبا وأميركا وسائر أنحاء المعمورة .

وهو في حِلّه وترحاله لا يفتأ يدعو الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة . وخطابه ليس موجهاً إلى طائفة أو مذهب أو فئة ، بل هو موجّه إلى جميع الناس ، لأنه يعتبر أن الإسلام أكبر من الطوائف والمذاهب والفئات .

وقد كانت محاضراته وخطبه ومجالسه تسجَّل على أشرطة «الكاسيت» وتوزَّع على المؤمنين إيماناً واحتساباً، فكثر عليها الطلب واهتمَّ المؤمنون بها لأنهم كانوا يجدون فيها ضالّتهم ، وما يروي غُلّتهم ، ويتلمسون اليقين ودرب الخلاص وهم يستمعون إلى فضيلة الشيخ المهاجر معلماً وموضحاً ، مفوّهاً وبليغاً .

من أجل ذلك كلّه ، وزيادةً للفائدة وتعميماً لها ، رأينا أن تُنشر هذه المحاضرات والمجالس في كتبٍ يفيد منها أكبر عددٍ ممكنٍ من المسلمين ، فطلبنا من فضيلة الشيخ المهاجر أن يسمح لنا بنقل هذه المحاضرات والمجالس وتفريغها ، وكتابتها عن الأشرطة ليصار إلى طبعها في كتب ، فوافق مشكوراً مأجوراً .

ونظراً لأن لغة المنبر تسير على نمطٍ خاصٍ بها ، فهي ذات طابعٍ وأُسلوب منبريَّيْن ، ولأنها تفيض من ثقافةٍ ذات أبعادٍ شمولية ، وتتميَّز بالاستطراد والتكرار ، وكثرة الأمثال ، وهي من مستلزمات الخطابة الهادفة إلى التوضيح والإفهام والإقناع والتأثير وترسيخ الأفكار في الأذهان ، لا سيّما أن هذه المجالس والخطب لم تُلقَ على جمهورٍ واحدٍ من المستمعين وإنما على جماهير عديدة وفي أوقات متفاوتة ، من أجل ذلك فقد واجهتنا بعض

الصعوبة في إعادة ترتيبها وضبطها وتبويبها بعد سماعها عن الأشرطة .

هـذا من جهة ، ومن جهـة أخرىٰ أصبح من نـافلة القـول إذا وضّحنـا وقلنـا : إن هـذه المحاضـرات والمجـالس لم تُلْقَ لتكـون بين دفّتي كتـاب ، لأنهـا في الأسـاس خـطب منبـريّـة مـرتجلة ، يغلب عليهـا طـابـع المـوعـظة والإرشاد والتعليم .

وتحقيقـاً لمزيـدٍ من الفائـدة والتسهيل قمنـا بتخـريـج الآيـات القـرآنيـة الـواردة في الخطب وحـدّدنا مـراجعها في القـرآن الكريم ، ووضعنـا لبعضهـا عنـاوين تجمع تحتهـا ما ينـاسبها من أفكـار وموضـوعـات ممّـا يسهّـل عمليـة القراءة ويساعـد على التركيـز والاستيعاب ، فكـانت نتيجة مسعـانا الخيّـر هذا الكتـاب الذي سيتبعـه كتب أخرىٰ وقـد بدأنـا بمحاضـراتـه في شهـر رمضـان المبـارك كل ليلة بليلة حيث كـانت مختصة بسيـد البلغـاء ، الإمـام علي عليه‌السلام من بدء ولادته وإلى شهادته عليه‌السلام .

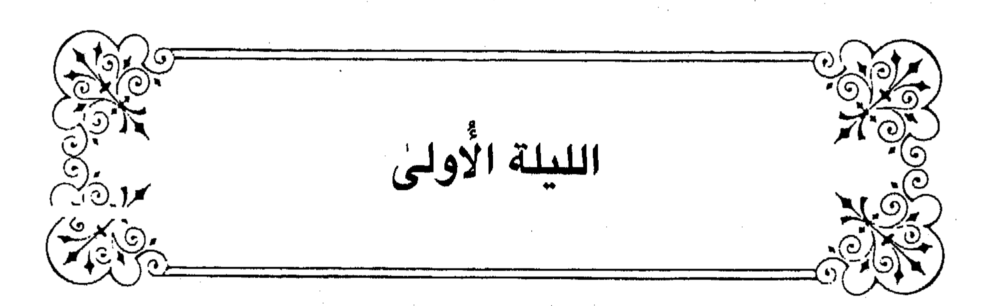
وبعد ، نرجو أن نكون قـد وُفّقنا في عملنـا هذا ، حيث لم يكن رائـدنا إلاَّ بعض الـوفـاء لأهـل البيت سـلام الله عليهم ، والقـربى إلى الله تبـارك وتعـالىٰ . كما أننـا في نهايـة هذه العجـالة لا يسعنـا إلاَّ أن نـردّد مـا جـاء بـه فضيلة العلاّمة الشيـخ عبد الحميـد المهاجـر في مقدمـة كتابـه «الأيديـولوجيـة الإسـلامية» : «إن للقلم دوراً كبيـراً في المعركـة الـدائـرة بين النـور والـظلام والحقّ والباطل . . .» .

وأخيراً ، نتوجّه بالشكر الجزيل إلى فضيلة الشيخ المهاجر لأنـه أتاح لنـا هـذه الفرصـة الثمينة في نشـر هذه المحـاضرات لتكـون غـذاءً مفيـداً لعقـول المؤمنين ، فله الفضـل والأجر ، وعلينـا ما يمكن أن يكـون قد ورد من هنـاتٍ وهفواتٍ من غير قصد ، سوف يغفرها لنا القارىء الكريم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

بيروت في الأول من رمضان ١٤١٢ هـ

الموافق ٥ آذار ١٩٩٢ م **الناشر**



الليلة الأُولىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله ربِّ العالمين ، والصّلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين حبيب إلٰه العالمين أبي القاسم محمد «صلّىٰ الله عليه وآله الطيبين الطّاهرين» .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«أيها الناس ، إنه قد أقبل عليكم شهر الله بالبركة والرّحمة والمغفرة ، شهر هو عند الله أفضلُ الشهور ، وأيامُه أفضل الأيام ، ولياليه أفضلُ الليالي ، وساعاتُه أفضلُ الساعات . هو شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة الله ، وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله ؛ أنفاسُكم فيه تسبيح ، ونومُكم فيه عبادة ، وعملكم فيه مقبول ، ودعاؤكم فيه مُستجاب ؛ فاسألوا الله سبحانه أن يوفّقكم لصيامه ، وتلاوة كتابه . ألا وإن الشقيَّ من حُرِم غُفرانَ الله في هذا الشهر العظيم . واذكروا بجوعكم فيه وعطشكم جوعَ يوم القيامة وعطشه ، وتصدّقوا على فقرائكم ومساكينكم ، ووقّروا كِبارَكم ، وارحموا صغارَكم ، وصِلوا أرحامكم» .

. . . إنها عظمة المنهج الإسلامي في تربية الإنسان . هذه العظمة لا يعرفها إلاّ الإنسان المؤمن الذي امتحن الله قلبه بالتقوى .

في هذه الأيام يتهيأ العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها لاستقبال شهر رمضان العظيم . غير أن المستقبلين لهذا الشهر يختلفون بين واحد وآخر ؛ فهناك من يستقبل هذا الشهر على أنه مائدة سخيّة من الطعام ! وآخر يستقبله بفرح لأنه يسهر فيما يحلو له ويطيب . . . . ولكن هناك من يستقبل هذا الشهر العظيم كما يريد الله له أن يستقبله .

ولتوضيح مسألة الاستقبال نضرب مثلاً فنقول : السماءُ تمطر . . . لكن شرط استقبال المطر والانتفاع به أن يكون في الأرض قوّتان : قوةٌ تشدُّ الماء ، وقوة تنتفع به . وإذا ألقينا نظرة على الأرض نجد فيها هاتين القوّتين ؛ فقوّة أخذ الماء واستدعائه هي قوة الجاذبية الأرضية . . . وقوة الانتفاع به هي التُّربة والعناصر الكيميائية الموجودة في الأرض . فإذا نزل عليها الماء ﴿**اهتزّت وَرَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾[1] .

ومن أجل أن نرى نوراً وإنارة وضياءً ، لا بد من وجود مصباح وزجاجة . . ﴿**المصباحُ في زجاجة الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ**﴾[2] .

وللانتفاع بالشمس لا بد من وجود الأحياء حتى تنتفع بنورها وحرارتها . الشجرة الحيّة تنتفع بالشمس ، والجسم الحيّ ينتفع بالشمس . أما الجسم الميت فإنه لا ينتفع بها .

والقرآن الكريم نزل للأحياء وليس للأموات . ولا نعني بالأموات أُولئك الذين ماتوا فقط ، وإنما القرآن الكريم يطلق على الكفّار صفة الأموات ، وذلك أن قلوبهم ميّتة لا تستقبل الذِّكر ولا تنتفع به .

وشهر رمضان الكريم جاء للأحياء الذين يملكون قلباً حياً ويملكون توجهاً صادقاً لله سبحانه وتعالىٰ . فالإنسان المزوَّدُ بالقابلية والتوجّه ينتفع بهذا الشهر ، وإلاّ فإنه سيمرُّ عليه كما مرَّ شهر شعبان وشهر شوّال .

---

(١) سورة الحج ؛ الآية : ٥ .

(٢) سورة النور ؛ الآية : ٣٥ .

في هذا الشهر ، ومع بدايته ، يدعونا الله دعوةً كريمة لضيافته . إذا دعي أحدٌ إلى ضيافة شخص من ذوي الجاه والاحترام فإنه يسرع لتلبيتها . . . غير أننا ويا للأسف نجد الكثيرين يتغافلون عن دعوة ربِّ العالمين ! والذي يوزّع الدعوة هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : «شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة الله» . . .

ثم بعد ذلك يبيّن لنا الرسول أن المُضيف كريم : «وجعلتم فيه من أهل كرامة الله» لأن الكريم إذا استضافك يُكرمك ولا يُهينك ؛ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالىٰ يُغلق في هذا الشهر أبواب النيران ويفتح أبواب الجنّة .

ثم يقول الرسول : اسألوا الله بقلوب صادقة ونيّات طاهرة أن يوفّقكم لصيام هذا الشهر وتلاوة كتاب الله ، وألا يغلّق دونكم أبواب الجنة المفتّحة ، وألا يفتح عليكم أبواب النيران المغلّقة ، وألا يسلّط عليكم الشياطين المغلولة ، لأن الله يُغلُّ الشياطين في هذا الشهر . . . . وبالرغم من هذه الرّحمة الظاهرة فإننا نجد من يكسر أغلال الشيطان ويستدعيه إليه بأعماله العاصية في هذا الشهر .

ثم يقول الرسول الكريم : «أنفاسكم فيه تسبيح ، ونومكم فيه عبادة» ، لأن النوم يأتي نتيجة إجهاد وتعب من العبادة وقراءة القرآن وقضاء حوائج الناس وزيارة الإخوان وصلة الأرحام . . . فالنوم لا يأتي من التُّخمة ، وإنما يأتي من الإجهاد في هذا الشهر .

وإذ يتوجّه الرسول بهذه الخطبة الدعوة إلى الناس ، يقوم الإمام علي عليه السلام ويقول : «يا رسول الله ! روحي فداك ! ما أفضلُ الأعمال في هذا الشهر ؟» قال : «يا أبا الحسن ! أفضلُ الأعمال الوَرَعُ عن محارم الله» .

ما هي غاية الصيام ؟ لماذا نصوم ؟ . . . صحيح أن في الصيام صحة بدنية وفكرية ، ولكن فيه أيضاً صحة الإرادة وقوّتها . يقول الله : ﴿**لعلّكم تتّقون**﴾ والتقوى هي الإرادة . فإذا قويت الإرادة فإن الإنسان لا ينصاع للشيطان ولا يقدر الشيطان أن يتسلّط عليه ، وبالتالي فإن هذا الإنسان يتورّع

عن محارم الله .

والرسول يفسّر للإمام علي معنى «لعلّكم تتقون» فيقول : «أفضل الأعمال الوَرَع عن محارم الله» .

ثم يقول الرسول : « . . . أيها الناس ! من حسَّن خُلقه في هذا الشهر كان له جواز على الصراط يوم تزلُّ عليه الأقدام» .

نرى بعض الناس في شهر رمضان يزدادون شراسة خلق وانفعالاً واضطراباً وصياحاً . . . في حين يكونون فيما سبق من الشهور هادئين متّزنين حَسَنِي الأخلاق ! وهذا سلوكٌ مخالف لأخلاق الصيام وأخلاق شهر رمضان . لأن شهر رمضان هو شهر التغيير والتحرير : نحرّر فيه أنفسنا من الشيطان ، من الشهوات ، من الانفعالات السلبية الفاسدة : من غضب وحقد وحسد ، ومن نفاق وكذب . . . .

والإنسان الحرُّ هو الإنسان الخَلوق الذي يتعمّق فيه الإيمان ، ولا تتعمّق فيه الشهوات المغلّة لإرادته .

والإيمان هو الإخلاص لله سبحانه . والذي يتعمق الإخلاص هو التقوى والإرادة القوية . . . ولذلك نرى الصدّيقة الزهراء سلام الله عليها تقول : «وجعل الله عليكم الصيامَ تثبيتاً للإخلاص» . فالإخلاص له وجود يحتاج إلى تثبيت . . . . وعندما يتثبّت الإخلاص ينطلق الإنسان في النهج القويم .

وهذا الشهر شهر عظيم لأنّ جميع الكتب السماوية نزلت فيه . . . وفيه ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر . وألف شهر هنا ليس للعدّ الحصريّ ، وإنما للكثرة ، بمعنى أن فضلها يفوق إدراك الحصر والعقل البشري .

فإذا أقبلتَ على الله سبحانه وتعالىٰ من خلال محمد وأهل بيته ، ودخلت عليه من هذا الباب ، يكون ذلك نعم الدخول . إنه إقبال ميمون

لأن قلبك عامرٌ بإيمان مطلق بالله سبحانه ، وبحب كبير لعلي وفاطمة والحسن والحسين أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً . . . هؤلاء الذين يطعمون الطعام في هذا الشهر وهم جياع .

ومن عظمة هذا الشهر أنه يدعونا إلى تحسّس آلام الآخرين ، والصيام أقلُّ ما يُقال فيه أنه يقوّم قلب الإنسان ويجعله محباً للآخرين . . . فإذا استقام القلب ، صار اللسان مستقيماً ، والفكر مستقيماً . . . لكن إذا حدث اعوجاج في القلب مرض القلب ، لأن الأعوجاج مرض : **﴿في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً﴾**(١) .

إن الله عزَّ وجلّ لا يوزّع أمراضاً على الناس ، ولكن زيادة مرضهم هي نتيجة للقانون الطبيعي . فالبدن المريض يفقد المناعة ولا يستطيع مقاومة الأمراض ، فيزداد مرضاً على مرض . وكذلك القلب المعوجّ المائل فإنه ضعيف لا يستطيع أن يدفع الشك والحيرة والقلق والحقد والغيبة والنميمة . . . إنه قلب ضعيف لا غذاء له . وشهر رمضان هو غذاء للقلب وقوة له .

إن الإنسان يحتاج إلى نوعين من الغذاء : غذاء المعدة والجسم ، وغذاء القلب والروح . والغريزة ترشدنا إلى غذاء الجسم ، ولكن الله والقرآن والصيام والدين بوجه عام هي التي ترشدنا إلى غذاء الروح والقلب إلى تقوية الإرادة .

ومن هنا فإننا نجد اسم أهل البيت يهزّ العالم من أقصاه إلى أقصاه . . . فإنك عندما تذكر اسم الحسين عليه السلام ترى القلوب والعيون تتجاوب معك . لماذا ؟ لأن الحسين كان صادقاً وأعطى أنصع صورة لمعنى الإسلام والقرآن والصلاة والصيام . . . الآخرون كانوا يصومون ، ولكن شتان ما بين الصيامين . . . إنه الصيام الذي يمتنع فيه قلب الإنسان عن ذكر من

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٠ .

سوى الله ، إنه صيام العين عن النظر الحرام ، وصيام الأذن عن سماع الغيبة والنميمة . ولذلك أصبح اسم الحسين واسم سيّد الشهداء علماً يهتدى به . وبعد مرور ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ترى قبر الحسين وضريحه له قوة هائلة على اجتذاب الناس واستقطاب القلوب ؛ إنه تعلّق يزداد يوماً بعد يوم ؛ وحتى لو حاول الظلمة أن يقفوا دون هذا المدّ فإنهم لن يتمكنوا من ذلك لأن «ما كان لله ينمو» . . . **﴿فأما ما ينفع الناسَ فيمكُث في الأرض﴾**[1] . لكن الذي لا علاقة له بالله يسقط حتى لو كانت معه كل أبواق الإعلام وكل قوى الظلمة . لاحظ كيف سقطت الشيوعية والماركسية . . . كل العالم شاهد مصرع كارل ماركس وإنجلز ولينين . . . لكن الحسين سلام الله عليه باقٍ ، والرسول والقرآن وأهل البيت يزدادون قوّة يوماً بعد يوم . . . هذه القوة التي نعمل على أن تكون فينا نأخذها من خلال الصيام ، من خلال شهر رمضان المبارك .

وقف الحسين بباب المخيم يقول : من يقدّم لي جوادي وأنا ابن رسول الله ؟ من يقدّم لي جوادي وأنا ابن أمير المؤمنين ؟ ! . . . فأتته زينب بالجواد تقوده ، والدمع من ذكر المصاب يسيل . . . قالت : يا أخي ! أرأيت أختاً قدّمت لأخيها فرس المنيّة ؟؟ .

ودّعها الإمام الحسين ، فأخذت تشمّه في نحره ، وتقبله في صدره . ثم اتجهت إلى المدينة منادية أُمها الزهراء : أماه فاطمة ! وديعةٌ أُخذتْ وأمانةٌ رُدَّتْ ! .

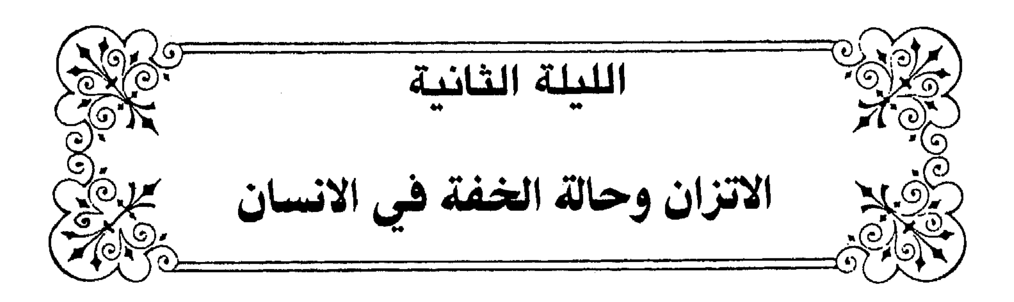
ولما أراد الحسين أن يودّعها ، إذا به يرى عزيزته سكينة تنادي : أبتاه ! قف لي يا نور عيني ! فوقف الحسين إلى ابنته العزيزة سكينة . . . يقول بعض المؤرخين أنه صار يمسح بيده على رأسها ويقول :

سيطول بُعدي يا سكينة فاعلمي ... منك البكاء إذا الحِمام دهاني
لا تحرقي قلبي بدمعكِ حسرةً ... ما دامَ مني الروح في جثماني .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ١٧ .



الليلة الثانية

الاتزان وحالة الخفة في الانسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يُتبع أمّن لا يهدي إلاّ أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون﴾(١) .

نبدأ مجلسنا في هذه الليلة المباركة بموضوع يخصّ شهر رمضان المبارك ، عنيت به : الجانب الإنساني عند الإنسان وهو حالة الاتزان ، والجانب الحيواني وهو حالة الخفّة . وهو كما تلاحظون من الموضوعات العلمية لكنْ ، نطرحه ببساطة حتى يكون واضحاً للجميع .

الجانب الحيواني في الإنسان يتمثّل في الشهوات والغرائز ، والنفس الأمّارة بالسوء والشيطان وغيرها من الصفات التي لا يُحمد عليها حاملها . أما الجانب الإنساني فيتمثّل بالعقل والقلب والضمير والوجدان والروح والملائكة وكل الفضائل والخصال الحميدة . وليكنْ معلوماً أن الإنسان إذا اهتم بالجانب الحيواني ، فالجانب الإنساني يضعف فيه وربما يتلاشى لأنه الجانب الأول ينمو ويتعزّز على حساب الجانب الثاني . لنتحدّث ببساطة أكثر . مَنْ يهتم بشهوته فقط ، الأكل والشرب وإشباع الغرائز والسعي وراء الملذّات وشرب الخمر ، من يهتم بمثل هذه الأمور لا شك أنه يتخلى عن

---

(١) سورة يونس ؛ الآية : ٣٥ .

الجوانب الأخرى أعني بها الفضائل التي هي زينة المرء في هذه الحياة .

إن هذه المجالس التي نحييها في هذه الأيام تغذّي فينا روح الحق والفضيلة والطهارة والتقوى والإيمان فنحيا حياة سعيدة نتقرب فيها إلى الله سبحانه وتعالىٰ فنشعر أننا أحياء نعيش عيش الأحرار لا كالكفّار الذين يطلق عليهم القرآن الكريم صفة الأموات . ما السبب في ذلك ؟ السبب أن الجانب الإنساني ميّت عندهم ، أجسامهم ممتلئة وعقولهم فارغة ﴿**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم**﴾(١) . إذن لكل جانب حالة خاصة ، فلنسعَ جميعاً لنبعد عنّا حالة الخفة في نفوسنا التي تنعكس في الحياة وتُترجم أعمالاً شيطانية تكون سبباً لخفّة موازيننا يوم القيامة ، ولْنَسْعَ دائماً لنكون متّزنين رائدنا العقل المنير المؤمن الذي يكون كالبوصلة التي تهدينا طريقنا المستقيم .

شهر رمضان أيها الأخوة هو شهر الثقل وليس شهر الخفّة ، وليس الثقل على القلب ، وإنما الثقل في الميزان وفي الأعمال وفي الصيام لأن الصيام من أجلّ الفضائل ، إنه ركن من أركان الإسلام . الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء ، روحي فداها ، تقول : «وجعل الله الصيام تثبيتاً للإخلاص» فأنت حين تصوم فكأنك تغذي الجانب الإنساني عندك وتقتل الجانب الحيواني ، تغذي الجانب الإنساني بالابتعاد عن الشهوات والملذات والمسكرات وقول الخنا وتجنّب الموبقات وكل ما يغضب ربّ العالمين ، فإذا بالإنسان في هذا الشهر الفضيل ، شهر رمضان المبارك يضع نصب عينيه إرضاء الله بأعمال يحبّها الله ويرضاها لنا ويحثّنا عليها فإذا بنا نذكر الفقراء عندما نأكل ونذكر المحتاجن عندما نشتري ونذكر المشرّدين عندما نرتاح في بيوتنا ونذكر الله سبحانه وتعالىٰ عندما ننام .

كلّكم تعلمون أيّها الأحبة أن وضع المسلمين اليوم لا يُحسد عليه ،

---

(١) سورة المنافقون ؛ الآية : ٤ .

فهم في حالة ضعف ويلزمهم عناية فائقة مدروسة كي ينهضوا من جديد ويؤدوا الدور الرائد الذي ينتظره منهم النشء الجديد . ثم نحن بحاجة لأن نحفظ شبابنا وأُسرنا ومجتمعاتنا حتى يتسنّى لنا أن نحفظ العالم الإسلامي من الضياع لأن العالم يحترق أمامنا ، وكثير من الشباب يغرقون في بحر من المخدّرات والسكر والقمار والعربدة والفساد يجب أن نخلّصهم ممّا هم فيه اليوم ، وشهر رمضان هو الوقت المناسب للقيام بهذا العمل المهم ودفعهم ليكونوا في الاتجاه الصحيح وتكون ناشئة الليل من أولى مهماتهم . ﴿**إن ناشئة الليل هي أشدّ وطأً وأقوم قيلاً**﴾[1] وناشئة الليل هي صلاة الليل ، إنّما سمّيت ناشئة لأنها مأخوذة من الليل . فالليل والنهار من الإنشاء ، والإنشاء هو الحدث الذي يحدث ولذلك يُقال لليل والنهار حدثان .

وطالما أن الشباب وكل الناس عليهم مسؤوليات جسام في كل يوم فليتحمّلوا مسؤولياتهم بالصلاة وأيّ صلاة أعظم من صلاة الليل والناس نيام ، وهذا شهر رمضان المبارك هو أبو صلاة الليل ، وأبو قراءة القرآن والتوجه إلى الله سبحانه وتعالىٰ .

فَلْتتهيّأ النفوس في هذا الشهر للتقرّب إلى الله وطلب مرضاته وَلْيحرص الشباب في هذا الشهر على الحضور إلى المساجد لتقبّل النصح وكنز العلم المجبول بالتقوى والإيمان وقراءة القرآن الكريم والتهيُّؤ للوقوف في ظلال الله والانتقال من حالة انعدام الوعي والإيمان إلى حالة الاتزان والتعقّل وطلب الغفران ، والسؤال بنيّات صادقة وقلوب طاهرة .

يقول علماء النفس والاجتماع إن الجانب الحيواني في الإنسان ينمو تحت تأثير الفسق في المجتمع ، والنفس تتأثر بما يحيط بصاحبها لجهة الخير أم لجهة الشر ، فكلّما كان المجتمع صالحاً يسود فيه الإيمان وتكثر فيه الفضائل ويخاف فيه الإنسان من غضب ربّه كان الناس ينعمون في راحة بال واطمئنان ، هذه الحالة يعيشها المرء في هذا الشهر المبارك لأنه يُقبل

---

(١) سورة المزمل ؛ الآية : ٦ .

عليكم بالخير ، يقبل عليكم ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : بالبركة والرّحمة والمغفرة ، شهر هو عند الله أفضل الشهور ، وأيامه أفضل الأيام ، ولياليه أفضل الليالي ، وساعاته أفضل الساعات ، وهو شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة الله وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله ، أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة ، وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه فإن الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم ، واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه ، وتصدّقوا على فقرائكم ومساكينكم ووقروا كباركم وارحموا صغاركم وصِلوا أرحامكم واحفظوا ألسنتكم وغضّوا عمّا لا يحلّ النظر إليه أبصاركم وعمّا لا يحلّ الاستماع إليه أسماعكم ، وتحنّنوا على أيتام الناس يتحنّن على أيتامكم ، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم فإنها أفضل الساعات ينظر الله عزَّ وجلَّ فيها بالرحمة إلى عباده يجيبهم إذا ناجوه ويلبّيهم إذا نادوه ويستجيب لهم إذا دعوه .

أنفسكم مرهونة بأعمالكم :

أيها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم ، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخفّفوا عنها بطول سجودكم واعلموا أن الله تعالىٰ ذكره أقسم بعزّته أن لا يعذّب المصلّين والساجدين ، وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ابتعدوا أيها الأخوة عن كل ما من شأنه أن يغذي فيكم الجانب الحيواني ، هذا الجانب الذي تعشش فيه كل أصناف الأوبئة ويتّصف بكل الصفات القبيحة . لعلّكم تلاحظون أن القرآن الكريم عندما يطرح علينا صورة حاكم ظالم فإنه يبيّن لنا لماذا صار هذا الحاكم ظالماً ، فهو عندما يتحدث عن فرعون ترتسم في أذهاننا أحاديث التكبّر والغرائز والشهوات والشياطين والتعلّق بالدنيا والدينار والدرهم وهذه كلّها تصبّ في خانة الجانب الحيواني لدى الإنسان .

يعرض القرآن الكريم صورة فرعون فيقـول : ﴿**ونادى فـرعون في قـومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر**﴾[1] هـذا هو الجـانب المادي الحيـواني ، فقد أتاهم من ناحية المادة والمال .

﴿**وهـذه الأنهـار تجـري من تحتي**﴾[2] أفـلا تبصـرون . ومن ثم يقيس نفسه مع موسى عليه السلام. فموسى الآن راعي غنم وبيـده عصاه ، وعليـه ملابس رقيقـة متواضعـة ، وفرعـون عليه أسـورة الـذهب والفضـة واللؤلؤ والـزبـرجد واليـاقوت ، وإذا كـان هناك من زعيم مـوجود فبـرأيه يجب أن يكـون هـو ذاك الزعيم وليس غيره . لمـاذا هذا التكبـر ؟ لأن الجانب الحيـواني عنده شـديد. قـال ﴿**أم أنـا خيـر من هـذا الـذي هـو مهين ولا يكـاد يبين**﴾[3] ﴿**فلولا أُلقِي عليـه أسورة من ذهب . .**﴾[4] . يلفت أنـظار الناس إليـه : هو عنـده أسـورة الذهب . ﴿**فلولا أُلقِي عليه أسـورة من ذهب أو جاء معـه الملائكـة مقترنين - فاستخف قومه**﴾ لاحظوا هنا الخفّة ، فالجانب الحيواني هنا شـديد . يقـول : ﴿**فـاستخفّ قومـه**﴾ قومـه . لماذا ؟ هنـا يبيّن العلّة ، لأن الجـانب الحيـواني عندهم قد طغى عليهم لأنهم فاسقون .

قال : ﴿**فاستخف قومه فـأطاعـوه إنهم كانـوا قومـاً فاسقين**﴾[5] . هـذا في القرآن الكريم . ولذلك نـرى الزهـراء عليها السلام تقول في خـطبتها في مسجـد أبيهـا رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم تخـاطب القـوم وتقـول : «فـأطلع الشيـطان رأسـه من مغـرزه ، هـاتفـاً بكم فـألفـاكم لـدعـوتـه مستجيبين وللغـرة فيـه مـلاحقين ، فاستنهضكم فوجدكم خفافاً ، وأحمشكم فألفـاكم غضابـاً فوسمتم غيـر إبلكم» وموضع الشاهد هنا قولها «فاستنهضكم فوجدكم خفـافاً» يعني لا يـوجد لـديهم

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٥١ .
(٢) سورة الزخرف ؛ الآية : ٥١ .
(٣) سورة الزخرف ؛ الآية : ٥٢ .
(٤) سورة الزخرف ؛ الآية : ٥٣ .
(٥) سورة الزخرف ؛ الآية : ٥٤ .

ثقل ولا اتزان إذ بإشارة صغيرة من الشيطان تجدونهم يركضون وراءه مستجيبين لهواه لوجود الخفة في النفوس المريضة وحاجتها للثقل والاتزان .

فعلى هذا الأساس أيها الأخوة يجب أن نتساءل : نحن أين ؟ إذا كنّا نحتاج إلى أسوة وقدوة حسنة فعندنا هذه الآية الكريمة التي ذكرتها لكم في مطلع كلامي : ﴿**أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يُتبع أمّن لا يهدي إلاّ أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون**﴾ فالذي يهدي إلى الحق يجب أن تتبعوه ، لا الذي يحتاج إلى هادٍ ومرشد . فهنا نحتاج إلى أسوة وقدوة حسنة ، خصوصاً في هذا الشهر العظيم ، شهر رمضان المبارك ، نحتاج إلى الأسوة والقدوة لتعميق الجانب الإنساني في نفوسنا ليحيا وينمو فينا فتتعزّز أخلاقنا ويستقيم سلوكنا ونتّبع تعاليم ديننا وننشر إسلامنا ونقوم بواجباتنا الدينية في شتّى المجالات وأينما كنّا وحللنا .

الاسلام من خلال شخصية الامام علي عليه السلام :

أيها الأخوة ، في الليالي القادمة ستكون موضوعاتنا التي نتحدث بها إليكم محصورة في شخصيّة الإمام علي ، لأن هذه الشخصية ليس لها حدّ أو جانب معيّن حين نتوقف عنده ، ولن نتعرّض لولادته ووفاته وبعضٍ من سيرة حياته وفضائله فقط ، إنما سنتعرض للحديث عن الإسلام كلّه من خلال شخصية الإمام علي . نعم أيها الأخوة للإسلام كلّه ، لأن الرسول الأعظم قال في يوم الخندق : «برز الإسلام كلّه إلى الشرّك كلّه» .

سنتعرّض للإسلام كلّه في استعراضنا لحياة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام . فنحن لدينا مشاكل كثيرة في جوانب كثيرة من حياتنا : في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والتربية والعلوم على اختلاف أنواعها ، وفي كل شيء تقريباً . والإمام علي هو جامعة الإسلام وفي هذه الجامعة يجد المؤمنون ضالتهم ، وستكونون سعداء إن شاء الله تعالىٰ وأنا أنير لكم الظلمة التي ابتُلينا بها والتي عكسها الكفّار على ديننا فخاف ضعفاء النفوس الدخول إلى قلب هذا الدين السمح والتقاط الجواهر والدرر . فالغنى الحقيقي مكانه الأساسي في ديننا الإسلامي ، وهل أحقّ من الإمام علي ليؤخذ صورة

صادقة ونموذجاً واضحاً عن هذا الغنى ؟ ولماذا سنختار لكم في الليالي القادمة شخصية الإمام علي ؟ أولاً : لأنه خليفة المسلمين جميعاً ، وثانياً : لأن له صفات انفرد بها هو وحده ليست موجودة عند عامة الناس ، ولا عند صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ألم يُرَبِّهِ الرسول بنفسه ؟ ألم يتعهّده منذ صغره ويُنشئه نشأة صالحة ؟ ألم يجعل مهده إلى جانبه ويوجره اللبن وهو بعد طفل رضيع ؟ ألم يقل عليّ في يوم من الأيام : كنت أتبع النبي اتباع الفصيل إثر أمّه ؟ ثالثاً : لأن الإمام علي عليه السلام هو الوحيد من بين الأُمّة الإسلامية الذي جعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخاً له يوم المؤاخاة وقال : هذا أخي .

إننا عندما نتحدث عن على بن أبى طالب ، معناه أننا نجمع المسلمين جميعاً لأن القرآن يقول : ﴿**إنما المؤمنون أخوة**﴾[1] ، ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً**﴾[2] فإذا كان الناس مخلصين للأخوة الصادقة وللاعتصام ولتوحيد الكلمة وعدم التفرقة فَلْيستمعوا لسيرة الإمام أمير المؤمنين ويلتفّوا حولها . لماذا؟ لأن الذي جعله النبي أخاً له أحرى بأن يجمع القلوب على أخوة الإيمان والإسلام .

تذكرون ولا شك أن بعض الإذاعات العربية والإسلامية ، ومنها إذاعة الكويت والقاهرة ، كانت تخصص في مثل هذا الشهر من كل سنة برامج خاصة للتثقيف الديني ، وفي إحدى السنين كانت شخصية الإمام علي بن أبي طالب تستحوذ على كامل البرنامج طيلة ثلاثين حلقة ، هذا عدا الكتب الكثيرة التي أُلّفت عنه وتناولت جوانب حياته كافة ، وهذا شيء طبيعي أن يكون هذا البطل الإسلامي محطّ أنظار كل المؤمنين الذين يحبون أن ينهلوا من معينه ليكون لهم زاداً في هذه الحياة الفانية . عن مثل هذا العظيم يجب أن تُنسج الحكايات لتثقيف الناشئة وليس حكايات ألف ليلة وليلة .

صدّقوني لو أن العاملين في المسارح يلتفتون إلى أهل البيت وإلى أبطال الإسلام عامة بحيث يكونون مادة للعمل المسرحي لكانوا أدّوا خدمة

(١) سورة الحجرات ؛ الآية : ١٠ (٢) آل عمران ؛ الآية : ١٠٣ .

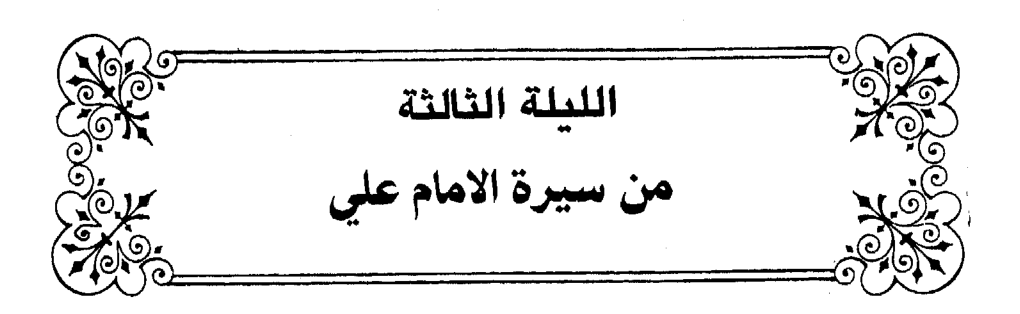
كبيرة لبعض شبابنا الذين يهتمون بأمور الدنيا وتنقصهم الكثير من المسائل التي بواسطتها يتقرّبون إلى الله العليّ القدير . وهذا العمل الذي أنبّه إليه ليس صعباً ، ففي القاهرة مثلاً مُثِّلتْ مسرحية الإمام الحسين ، وكان قد كتبها عبد الرّحمن الشرقاوي وأجازها الأزهر ، عُرِضتْ في قاعة كبيرة من قاعات القاهرة ، كان يمثل دور الإمام الحسين فيها عبد الله غيث ، ودور الحوراء زينب عليها السلام أمينة رزق ، هكذا نقل لي أحد الأخوة العلماء حيث قدّر عدّد الحاضرين بأكثر من ستين ألفاً فيهم الكتاب والمفكرون ورجال السياسة ، وعلى ما نقل لي فأثناء العرض كانت القاعة تضجّ بالبكاء ، وأن بعض الذين اشتركوا في التمثيل كان قد ترك العنان للحيته مدة سنة كاملة لتطول استعداداً للقيام بدور شخصية الإمام الحسين .

مثل هذه الأعمال المفيدة لو قُدّر لها أن تُعرض على مسارحنا بحيث يقوم بتأليفها متخصّصون مؤمنون يبغون من ورائها تعريف الشباب والشابات مَنْ هم أهل البيت وما الدور الذي لعبوه في تاريخ الإسلام ، ومن هم أبطال الإسلام والأدوار التي قاموا بها في التضحية والإستشهاد دفاعاً عن الحق والدين ، أقول لو قُدّر لمثل هذه الأعمال الجليلة أن تُعرض لكنّا أفدنا كثيراً من خبرات المؤمنين في هذا المجال .

ونتساءل وإيّاكم أيها الأحبة إذا كانت القاعة التي عُرضت فيها المسرحية كانت تضج بالبكاء لمرأى شخصيات يمثّلون أدوار بعض أهل البيت فكيف بمن يحضر واقعة الطف ويعيش مأساة الحسين ومقتل الحسين والتنكيل بأهل بيت الحسين ، كيف ستكون حاله عند ذاك ؟؟ وكيف ستكون حال الذي يرى الحسين نفسه ؟؟ .

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الليلة الثالثة

من سيرة الامام علي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سيجعل لهم الرّحمٰن وُداً﴾(١) .

أيُّها الأحبة ! في هذه الليالي الكريمة : ليالي شهر رمضان المبارك ، نرغب في التحدث إليكم عن الإسلام ، من خلال عملاق الإسلام الأعظم سيّد البلغاء وإمام الفصحاء ، عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، ولذلك فإننا في هذه الليلة ، نطرق باب عليّ أمير المؤمنين ليأذن لنا بالدخول . وقبل الدخول في رحاب علي وفي هذه المدرسة العظيمة التي نعيش فيها إن شاء الله ، هذه الليالي المباركة ، نحتاج إلى مقدّمات قصيرة ، لتوضيح المعنى ، وخصوصاً أن هذه المحاضرات هي جديرة بالتسجيل ، لأنَّ أجيالاً كثيرة سوف تقرأ أو تسمع وتهتدي بها إن شاء الله ، ببركات إمام الهدى والتقى ، أمير المؤمنين . وخصوصاً الشباب . لذلك ، فإننا نحتاج إلى مقدمات ثلاث قصيرة جداً نتجه إليها ، حتى يكون البحث واضحاً أمامنا ، ونخرج من المجلس ، وقد حملنا فكراً وعلماً وحملنا صوراً جليلة صادقة وصحيحة عن الإسلام ، وعن علي الإمام عليه السلام، أما المقدّمة الأُولىٰ أيها الأحبّة ، فهي :

---

(١) سورة مريم ؛ الآية : ٩٦ .

أن الإسلام يتألف من الفروع والأُصول . الفروع في العبادات والمعاملات ، والأُصول في العقيدة . الفروع فيها التقليد والاجتهاد والاحتياط فماذا يعني هذا ؟ يعني أنه يمكن أن يكون الإنسان مجتهداً في الفروع أو يكون مقلّداً لمرجع آخر أو يكون محتاطاً . هذا في الفروع مثلاً يوجد عندنا مريض ، وهذا المريض إما أن يكون طبيباً فيعالج نفسه ، لأنه يعرف من خلال تشخيصه للداء أن يصف الدواء ، فهذا اجتهاد . أو أنه يذهب إلى طبيب وهذا هو التقليد أو معناه التقليد . الأُصول لا تقليد فيها ، لماذا ؟ لأنَّ في الأُصول لا بدّ من وجود المعرفة والعلم فيها .

الأُصول تعني التوحيد ، أي أنك تؤمن أن الله واحد . فهذا ليس فيه تقليد ولا يعني أن المرجع الفلاني قال لك ، إن الله واحد وأنت آمنت ، وإذا كان الأمر كذلك واستجبت لذلك الإنسان فإنَّ إيمانك لا شك باطل في هذه الحال ، لأنَّ إيمانك ينبغي أن يكون ثمرة دليل صحيح وقاطع . والنبوة كذلك العدل ،اوالإمامة والمعاد يوم القيامة : فهذه كلها لا تقليد فيها لأنها تحتاج إلى معرفة . والتقليد بلا معرفة ، فالتقليد هو أنك تقلد عالماً وتأخذ منه الحكم الشرعي مباشرة . وبعدُ ، فهل عرفتم هذه المسألة ؟ أي الفرق بين الأُصول والفروع ؟ .

المقدمة الأولى :

مَنْ هو الإمام ؟ وما هو منصب الإمامة ؟ عندما نبحث عن علي أمير المؤمنين ، فإننا نطرق باب الإمام الذي أقام الله الكون بوجوده . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن هو الإمام ؟ وما هو منصب الإمامة ؟ هذا بحث شيّق لشبابنا ، خصوصاً الشباب المثقف ، والسؤال الذي يطرح نفسه : لماذا يجب أن يكون هناك إمام في هذا الكون ؟ وهل يمكن للناس أن يعيشوا من دون إمام ؟ إن هذه الأسئلة ، لا بدّ وأن تجد لها إجابات علمية ودقيقة . هذه هي المقدمة الأُولىٰ ، ونأتي الآن إلى المقدمة الثانية .

المقدمة الثانيـة :

إن الإسـلام يهتم ـ ولا ريب ـ إهتمامـاً بالغـاً في بنـاء الإنسـان الـروحي والبدني . التفتوا لهذه المقدّمات ، لأنَّ فهمها ضـرورة ملحَّة للبحث فـالإسلام لا يغفل جانب البدن أبداً لا سيّمـا الناحيـة الغذائيـة ، التي يشرف وبقـوة ودقة على تنظيمها . ويبلغ هذا الإهتمام في صحـة البدن وسـلامته إلى أنّ الصـائم في شهـر رمضان لـو أفطر في النهـار على طعام مضـر لبدنـه ولصحته ، فعليـه كفّارة مضاعفة يعني ثلاث كفّارات .

وإذا حدث أن أفطر أيضاً صائم على مـاء في النهار ، فـإنَّ هذا المـاء لا ضرر فيه للإنسان ، ومع ذلك فقد وجبت عليه كفّارة ، وهـذه الكفّارة تكـون واحدة من ثلاث : إما أن يصوم شهرين متتالين ، أو أن يطعم ستين مسكيناً أو يعتق رقبة . لكنَّ هذا الصائم إذا أفطر على شيء يضـرّه كأن يتنـاول مثلاً قنينـة خمر ويشـربها أو أن يـأكل لحم خنـزير أو لحم ميتـة أو يشرب دمـاً ، فهذا كله فيـه ضـرر للبدن . وهنـا يتدخـل الإسلام ليقـول له : مـا دمت أفطرت على ضـرر بدنك فإنه يجب عليك أن تدفع كفَّارة مضـاعفة وهي أولاً : أن تصـوم شهرين متتـالين ، وأقل مـا فيها أن تصـوم واحداً وثـلاثين يومـاً بـلا انقـطاع ، ومن ثم تصـوم تسعـة وعشـرين يـومـاً متقـطعـات إن شئت ، وإذا أخللت بـالـواحـد والثلاثين يومـاً ترجـع وتبدأ الصيـام من البدايـة . يعني إذا صمت شهراً كـاملاً وتـوقفت ، فـلا بـدّ أن تعيـد صيـام الشهـر كلّه . إذن في صيـام الشهـرين المتتابعين لا بدّ أن يكـون يوم من الشهـر الثاني ملحقـاً بالشهـر الأول ، وبقية الكفّـارة أي عتق رقبة وإطعـام ستين مسكينـاً . لمـاذا ؟ يقـول الإسـلام لأنـك أوقعت الضرر على بدنك ، لا لأنك أفـطرت فقط . إذن فالبـدن له أهميـة في الإسـلام . لاحـظت كيف تـأتي «المسألـة الفقهيّـة» كمـا أن الإسـلام يهتم بـالجانب الـروحي أيضاً ويقـول : ليس لك أن تجلس مـع من شئت . الإمـام علي عليه السلام والإمـام السجـاد وأهـل البيت ، يقـولـون : ليس لـك أن تجـالس الفسّـاق والفجـرة . ولأن الفـاسق يؤثـر على روحـك تـأثير الفـاجـر أيضـاً .

ومجالس الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار ، بل ويصل به الأمر من الضرر إلى درجة أكبر . وهكذا فإن الإسلام يحفظ روحك ويحفظ لك الجانب الروحي ويقول : لو أن رجلاً شرب الخمر في ثوب طاهر غير نجس ، فإنه يجوز لك أن تصلّي فيه كأنه طاهر . لكنّ الإسلام يقول : الصلاة في ثوب شُربَتْ فيه الخمرة تكون مكروهة كراهية شديدة . لماذا ؟ لأنه حتى هذا الثوب الذي شُرب فيه الخمر يترك أثراً على روحك .

لذلك تجد منهج التربية عند الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام لا يبدأ من يوم ولادة الطفل . ولا يبدأ من يوم انعقاد النطفة في رحم الأُم ، وإنما يبدأ قبل ذلك بكثير ، وهذه فيها عظمة الإسلام . فهو يبدأ في لحظة اختيارك للزوجة ، وقبل انعقاد النطفة تبدأ مناهج التربية . يقول الإسلام : يجب أن تختار أُماً طيّبة (إيّاكم وخضراء الدمن) (من تزوج امرأة لمالها أو جمالها حرمه الله من مالها وجمالها) فينبغي إذن أن لا تتزوجها لأموالها ولا لجمالها ، لأنّ الأموال تذهب والجمال كذلك يذهب . إنما يجب أن تأخذها أي تختارها لدينها وحُسْن خلقها ، لأنها وعاء لتربية أبنائك . لاحظ إذن التربية من أين تبدأ . ثم بعد ذلك يأتي يوم الزفاف . وها أنا اذكركم أيها الشباب بوجوب الاطلاع على كتب الفقه ، ففي ليلة الزفاف لا يوجد لدينا في الفقه الإسلامي ما يتعلق بالرقص أو الطرب أو حفلات الرقص المختلطة ، والتي توزّع فيها كؤوس الخمر ، وإنما في ليلة الزفاف هناك منهج صلاة الزوج والزوجة ، فتبدأ الزوجة بالوضوء ، وكذلك الزوج ويتجه الإثنان إلى الله ، ويصلّي كل منهما ركعتين لله . ففي هذا الجو الروحاني يتغشىٰ العريس زوجته وتتم المعاشرة ، لماذا ؟ لأجل هدف نبيل وغاية إسلامية إنسانية سامية ، أي لتهيئة جوّ نظيف طاهر لانعقاد النطفة ، فإذا انعقدت النطفة بهذا الشكل ، سارت الفطرة مسيرة مستقيمة وليس فيها اعوجاج ، لأنه إذا صار فيها اعوجاج في تلك الحال ، فإنّ الفطرة قد تُصاب باعوجاج ، ويُصاب القلب كذلك بالتصلب والاعوجاج ، وبالتالي ينعكس على اللسان وعلى السلوك وعلى الأخلاق والأعمال وعلى كل

شيء . وانطلاقاً من ذلك ، فما عليكم إلّا أن تلاحظوا في سورة ـ الدهر ـ وهذه هي المقدمة الثالثة .

المقدمة الثالثة :

يقول تعالىٰ في كتابه العزيز :

﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾(١) .

إنَّ هذه الآية الكريمة تتناول الحديث عن الذرَّة ، وفي مدرسة الإمام علي أمير المؤمنين صاحب الفكر العظيم ، يُطرقُ الإسلام هذا الموضوع للمرَّة الأُولىٰ ، وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، وهنا نسأل : ماذا تعني نظرية الإمام عن عالم الذرَّة ؟ والكلام على هذا الجواب سيكون في مكان آخر من هذا الكتاب إن شاء الله .

ولكن يقول الإمام عليّ عليه السلام من خلال قوله تعالىٰ : ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج**﴾(٢) الأمشاج هي التي تتألف من الرجل والمرأة ، مذكّراً بقوله تعالىٰ في الآية الأُخرىٰ ﴿**نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً**﴾(٣) حتى يصل إلى قمَّة التكامل بقوله تعالىٰ : ﴿**ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً**﴾(٤) .

إذن لاحظ الإنطلاق من النطفة التي هي أحطُّ مرحلة إلى أعلى درجة في الكمال والتكامل ، أن يكون الإطعام والعمل لوجه الله لا رياءً ولا مباهاةً ولا حباً بالظهور أو طمعاً بثناء شكور . هذه الاستقامة لاحظوها من أين تبدأ . . . من النطفة ، فإذا كانت النطفة حراماً هنا حديث الاعوجاج .

---

(١) سورة الإنسان ؛ الآية : ١ .
(٢) سورة الإنسان ؛ الآية : ٢ .
(٣) سورة الإنسان ؛ الآية : ٢ .
(٤) سورة الإنسان ؛ الآية : ٨ و ٩ .

علي بن أبي طالب بين محبيه ومبغضيه :

عبد الله بن عباس يقول : كنا نختبر أولادنا ونمتحنهم بحب عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قائلين لهم : أبناءنا ، هل تحبون هذا القادم الداخل للمسجد ؟ فيطلّعون عليه فتنفتح قلوبهم له ويقولون : من ذا الذي يرى الإمام علياً ولا يحبُّه ؟ ! اللَّهمَّ لا تحرمنا من النظر إلى آل بيت رسول الله عليهم أفضل الصّلاة والسّلام . حتى الأطفال إذا ما وقعت أبصارهم على الإمام عليّ عليه السلام، فإنهم يهرولون باتجاهه ناظرين إليه بشوق وحب وإعجاب . لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : (يا عليّ لا يحبك إلاَّ مؤمن ولا يبغضك إلاَّ منافق) فهذا شيء طبيعي .

أيها الأحبة : إن هذا الحب من المؤمنين وأطفال المؤمنين للإمام علي ، يمكن أن يقابله كره من حاقدين ربما وصلوا إلى مرتبة عالية من الدراسة ، فأنا ما زلت أذكر عندما كنت في أميركا قبل سنوات وفي مثل هذا الشهر طبيباً كان يتردّد إلى المجالس التي كنت أقيمها هناك ، وكان يكره الإمام علي ويجادل حباً بالمجادلة فقط ، فكنت إذا أردت إثارته ذكرت له اسم الإمام علي . مثل هذا الطبيب وغيره من الحاقدين يقول عنهم الإمام الحسين «هؤلاء قوم مُلئت بطونهم من الحرام» وكان يسألهم : لماذا تقاتلونني ؟ فيجيبون : بغضاً منّا لأبيك أبي تُراب . عن مثل هؤلاء نتحدث ، إذا تحدّثنا عن اعوجاج النطفة .

حب الامام هو الميزان :

إن حبّ الإمام علي هو الميزان أيها الأخوة ، لماذا ؟ وميزان لأيّ شيء ؟ والجواب : ميزان لصدق العقيدة ! ميزان لاستقامة الفطرة ، فعندما تكون الفطرة مستقيمة والعقيدة صحيحة صافية ، فإنه يكون حبنا لعليّ عليه السلام صافياً ومستقيماً . ! لقد خطرت لي كلمة لها علاقة بجوهر الموضوع :

نحن نقرأ في الزيارة : السلام عليك يا ميزان الأعمال ، وهذا يعتبر دليلاً وإن لم يكن كافياً ، على أن حب عليّ هو الميزان .

في يوم من الأيام سألني أحد الشباب الطيبين ، قال : لماذا نخاطب الإمام علياً في الزيارة ونقول : السلام عليك يا ميزان الأعمال ؟ إنه لسؤال جيّد بل جدير بالوقوف عنده والإجابة عليه ضرورية ، ويصدر عن شاب متوجه وفي مطلع شبابه ، فأجبته هكذا . قلت : أليس الحق مع عليّ وعليّ مع الحق ؟ فعلي هو الحق . والقرآن يقول : ﴿**والوزن يومئذٍ الحق**﴾[1] وفي تفسيرها وتأويلها . حتى الحسكاني من كبار علماء العامّة يذكر أن هذه الآيات نزلت في عليّ أمير المؤمنين ، فهو إذن ميزان الأعمال . لذلك ، الفطرة عندما تكون مستقيمة ، تتجه اتجاهاً كاملاً نحو الحق وباستطاعتي إلى هنا أن أطمئن لوضوح هذه المقدمات .

الامامة هي أساس المنهج التربوي وروح العقيدة :

وهنا أسأل : هل يمكن أن نتصوَّر في عقولنا ، أن هذا المنهج التربوي الذي نتحدث عنه ، يمكن أن يتم من دون مربٍ ؟ هل يمكن ذلك ؟ وكيف يكون ؟ وهل يعقل أن نتصور طباً من دون طبيبٍ ؟ وهل يكفي أن تكون كتب الطب موجودة في كليات الطب ولا يوجد طبيب . وهل يمكن أن تتم معالجة المرض ؟ وهل يكون هندسة من دون مهندس ؟ أو علم من دون معلم ؟ أو كتاب من دون استاذ ؟ كيف يكون هذا الشيء ؟ أو هل يوجد قافلة من دون قائد ومن دون دليل ؟ هذا الشيء لا يمكن . فلا بد إذن من المربِّي . لا بدّ من وجود المعلم ، لا بد من وجود القائد . ولذلك فإنَّ الإسلام لا يمكن أن تكمل مبادؤه ومناهجه إلاَّ بوجود القائد أو بوجود الإمام . فلماذا وُجِدَ الإمام ؟ قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾[2] وإلاَّ إذا لم يكن الإمام موجوداً فإنَّ المسألة تصبح كما لو أنَّ هناك طباً بلا طبيب ، وهندسة بلا مهندس ، فهل هذا صحيح ؟ وهذه أمثلة من الضروري الالتفات إليها ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٨ .

(٢) سورة المائدة ؛ الآية : ٣ .

ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .

من هنا يتأكد للقارىء أنّ كمال الدين وتمام النعمة ورضا الله بالإسلام للمسلمين ديناً ، كان ذلك كله بعليّ أمير المؤمنين عليه السلام .

الإمام علي موجود فالإسلام موجود ، والدين موجود ومعرفتك الله سبحانه وتعالىٰ تكون موجودة ، ولذلك فإنّ الله تبارك وتعالىٰ من بديع صفاته وعجيب صنعه ، أن جعل الفضائل في أُناس يتحلون بحميد الخصال وجميل الفعال ، هم منتهى الكمال في الخَلْق والخُلُق . إنهم آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معادن الحلم وينابيع العلم ، هداة الأنام ومصابيح الظلام .

كما جعل الله الرذائل في أُناس كلهم خبث ودناءة وغدر وقبح ونفاق هذا الشيء طبيعي . فعند مَنْ تجد الفضائل ؟ ؟ ؟ هل تبحث عنها عند معاوية بن أبي سفيان بالله عليك ؟ اذكر معاوية في أول شهر رمضان هل يمكنك أن تجد فضيلة من الفضائل عنده ؟ أبحث عنها وانظرما ترى. المعلم والمربيّ يجب أن يكون عليّ بن أبي طالب طبعاً بوجه عام ، وكما يكون المعلم يكون طلّابه . فإذا كان المعلم علياً عليه السلام فإنّ طلابه مثل معلمهم أي مثله على وجه التقريب . وطلّاب عليّ نذكر منهم على سبيل المثال : عمّار بن ياسر ومالكاً الأشتر وسلمان الفارسيّ . أما إذا كان مثل المربي معاوية فالتلاميذ أو الطلاب سيكونون حتماً مثل عمرو بن العاص وهذا صحيح ؟ ! وطبيعي ! مسيحي كان في الكوفة ، تقع بيده درع عليّ فيأخذها .

قضية الدّرع والاتهام الباطل :

وهذه قضية الدّرع مكررة مع مسيحي ، ومع يهودي ، ومع ذميّ آخر ، مكررة ثلاث مرّات طيلة فترة وجود الإمام أمير المؤمنين في الكوفة ، قال الإمام : يا أخا النصارى هذه الدّرع لي . قال النصراني : لا ، هذه درعي وليست لك ، قال : نذهب إذن إلى القضاء وكان القاضي شريح يومئذٍ . فجاءا يمشيان إليه : أمير المؤمنين عليّ عليه السلام مع ذلك الذميّ ،

وأميـر المؤمنين هـو الحـاكم على أكثـر من ثـلاث أو أربـع قـارات في عـالم اليـوم . فهـو ليس رئيس دولـة محـدودة ، بـل زعيم العـالم في الـدنيـا وفي الواقع ، وهـو إمام السمٰـوات والأرض ، إمام الكـون فيمشي مع ذلـك الذميّ بكل تواضع العظماء البسطاء .

شريح يسأل ما قضيتك يا فلان ؟ يجيب الذميّ : هـذه الدرع لي وأميـر المؤمنين ليس بكـاذب . قـال : وأنت مـا تقـول يـا أميـر المؤنين هـل عنـدك بيّنـة ؟ قال : أصبت يـا شريـح ليس معي بيّنة . طبِّق هـذا الحكم الـظاهـري وإلاَّ فـإنَّ الإمـام لا يُـطلب منـه بيّنـة . وهـذا الحكـم هكــذا على النـاس في المجتمـع . التفتـوا أيهـا الأخـوة ، فهـذه نقـاط يجب أن نلتفت إليهـا ، مثـلاً نسمع أن الإمام علي أسلم وعمره عشر سنين والحال الصحيـح أن الإمام هـو الإسـلام ، فكيف أسلم وعمره عشـر سنين ؟ ! هو الإسـلام وهو النـور . لكنَّ هذه أمور ظاهرة يجب أن تُقال حتى لا تنفرط حبات البحث . ونعود لمـا قالـه شريح لأمير المؤمنين ، قال لـه : أعندك بيّنـة يا أميـر المؤمنين ؟ قال : أصبت يـا شريـح . ليس عندي بيّنـة . ولكنك مـا أنصفت الرجـل إذ دعـوتني بـأميـر المؤمنين ، أعطيتني هذه الصفة . ودعوته باسمه . فخرج الـرجل والـدّرع بيده وعينـاه شـاخصتـان إلى علي أميـر المؤمنين عليه السلام ثم رجـع ودمـوعـه تجـري ، لاحظ هؤلاء النـاس الـذين لا يتعصبـون إلاَّ لمكـارم الفعـال وأهـل العلم والتقوى ﴿**ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**﴾(١) .

قال : الله أكبر ! أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقـاضيني إلى قاضيـه شريح ، وبعد ذلك يترك الدّرع بيدي كأنـه ليست لديـه بيِّنة وهـو البينة ! هـذا هو الإسلام ، هذا هو الحق ، وأنـا اشهد أن لا إلٰـه إلاَّ الله وأشهد أن محمـداً رسول الله . هذه الصورة اجعلوها أمامكم أيها الأحبَّة .

رجـل من الكـوفـة يـذهب إلى الشـام ، لاحظ هنـا قضــاء الإمـام عليّ

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٨٣ .

وقضاء معاوية . هذا الرجل كان يركب جملاً ، وصل إلى الشام وإذا برجل دمشقي تعلق بالجمل وقال يا هذا ، هذه الناقة ناقتي وأنت أخذتها مني في صفين ، قال له : يا فلان هذا جمل وليس بناقة ! قال : لا هذه ناقتي . فذهبا إلى معاوية . الرجل يقول يا معاوية هذا جملي . الدمشقي يقول : يا أمير المؤمنين يا معاوية هذه ناقتي سرقها مني هذا الكوفي . وجاء له بخمسين شاهداً شهدوا كلهم معه . فقضى معاوية بالجمل للدمشقي وقال له معاوية خذ ناقتك الناقة لك لأنك أحضرت خمسين شاهداً . أخذ الجمل وخرج . التفت الكوفي إلى معاوية وقال : أصلح الله الأمير هذا جملي وليس بناقة وأنت ترى ذلك . قال له : صحيح ولكني قضيت . فالجمل يصير ناقة ليس لديّ مانع ، ثم إنه قد جاء بخمسين شاهداً ، هل تكذبهم وتصدق نفسك أنه جمل ؟ ! فأين هذا القضاء من قضاء عليّ عليه السلام فهناك ترى الروحية والإيمان في قضية الدرع ، وهنا تلاحظ البعد عن القيم والمبادىء والمثل العليا وكل ما له علاقة بعدل قاضي قضاة الدنيا والآخرة ! .

لذلك فإننا نسأل الله تعالىٰ ، أن يجعل الفضائل كلها ، في كل إنسان يتحلى بصفات الكمال الجليلة النبيلة من : شجاعة حكيمة وكرم وسخاء وحب ووفاء وعدل ورحمة ، وإيمان وبر وتقوى وإحسان ، وذلك حتى يتوجه قلبك إلى هذه الفضائل أيها القارىء الكريم : وإذا كانت الفضائل عند عليّ بن أبي طالب ، أنحملها نحن أم لا ؟ وكيف نحمل هذه الفضائل ؟ عملها عندما نحب صاحبها وعندما نجانب أعداءه ، هذا هو معنى الدين وهذا هو معنى الولاية لعلي أمير المؤمنين ، لأنَّ المربي الذي يكون في مستوى الإمام عليّ يصلح فينا ثلاثة أشياء وهي : أولاً : الفكر - ثانياً : التحرر من الجهل - ثالثاً : غرس الفضائل الخلقية من عدل ورحمة ومحبة وتلك هي التقوى وروحها العمل الصّالح والإيمان الصادق وهذا كله يشكل حصناً لنا يحمينا من الفساد وشتىٰ أنواع الانحراف في أنفسنا ونوايانا وأعمالنا . فهذه التربية الإسلامية نجدها بكل أبعادها الإنسانية في هذه المثل العليا

التي أشرنا إليها والتي يحمل لواءَها أميرها عليّ عليه السلام . وهذه التربية فكر نيّر وأخلاق فاضلة ، وعمل خلّاق وهذا هو معنى الصيام ومعنى الحب وتقارب القلوب .

قال تعالىٰ : ﴿ربّنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرَّم ربنا ليقيموا الصَّلاة﴾[1] .

لاحظ هنا أن إقامة الصّلاة لها أهدافها النبيلة وفضائلها الروحية الخلقية ، فإذا تحققت كلها عشقت الأفئدة أهلها واتجهت إليهم ، قال تعالىٰ عزَّ من قائل :

﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾[2] ولم يقل هنا فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم ، فلو قال إبراهيم عليه السلام هكذا لاتجهت كل الأفئدة والقلوب إلى الحق ، وهذا خلاف سنّة الكون وسنّة الحياة . الله خلق الناس أحراراً . قال تعالىٰ : ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[3] ودعاء إبراهيم هنا لا يخالف سنَّة الله وليس ضدَّ السنَّة الكونية أبداً . ولاحظ التقارب هنا ، توجد قاعدة في الفيزياء ، والشباب يدرسونها وهي أنّ هناك تقارباً بين المجال الكهربائي والمجال المغناطيسي . يعني لو أخذت مثلاً إبرة مغناطيسية ووضعتها أمامك وحركت موجة كهربائية في سلك ، ترى أن الإبرة تتجه وتتحرك يميناً أو يساراً حسب حركة الموجة الكهربائية ، لماذا ؟ لأن المجال واحد ، فالمجال المغناطيسي يتأثر بالمجال الكهربائي وهكذا . هذه قاعدة في الفيزياء .

إذا نقلنا هذه القاعدة إلى علم النفس وعلم الإجتماع فإنها تصدق مئة بالمئة . فالقلوب المؤمنة تتجه لعلي أمير المؤمنين عليه السلام والقلوب المنافقة تبتعد عنه . هذا شيء واقعي وطبيعي . ولا تنسوا أيها الأحبة أن القلوب

---

(١) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٣٧ .
(٢) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٣٧ .
(٣) سورة الكهف ؛ الآية : ٢٩ .

المؤمنة واحدة لأنها نقية وتقية وصافية وسليمة قال تعالىٰ : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾(١) لماذا لأن قلوبهم مترابطة متحدة .

قال الله في كتابه العزيز :

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرّحمٰن وُداً﴾(٢) .

هذه الآية نزلت في الإمام عليّ عليه السلام وأشار إليها الإمام زين العابدين في خطبته في الجامع الأموي حين قال : «أعطينا ستاً وفضلنا بسبع أعطينا الحلم والعلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبّة في قلوب المؤمنين» وهذه قاعدة عامة ، وعندما تشعر بحب علي أمير المؤمنين عليه السلام يغمر قلبك تموج بحب آل محمد المصطفى حبيب الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك تشعر أو تعلم أنك مؤمن وتعلم أنك متجه إليهم .

هذه هي المقدمات الثلاث . والآن لنا كلمات بسيطة ونلتفت إلى البحوث . في الليالي القادمة سنلتفت إلى بحوث أُخرىٰ وموضوعات أُخرى لها علاقتها بما سمعتموه . وهنا لا بدّ من القول : هل هناك من استطاع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو من الناس جميعاً بعد النبي ، أن يحوي أو يجمع ما حواه وجمعه الإمام عليّ من الفضائل العظيمة ؟ . هذا الإمام الذي تسمعه يتحدث عن الكون وعن جزئيات الكون ذرة ذرة ولحظة بلحظة . وهو القائل : «سلوني قبل أن تفقدوني ، سلوني عن طرق السمٰوات فأعلم بها من طرق الأرض» . وإذا تحدث عن مداخل نفس الإنسان ، يتحدث عن كل خلجات النفس «ما أضمر ابن آدم شيئاً إلاّ وظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه» ويقول أيضاً : «إن لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً ، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض» . هذا في علم النفس ، وإذا جاء إلى الاقتصاد والسياسة فإنه يسيّر العالم بكلمات قصار . «ما رأيت نعمة موفورة إلاّ وإلى جانبها حق مضيّع» ثم يقول : «ما

---

(١) سورة الحجرات ؛ الآية : ١٠ .

(٢) سورة مريم ؛ الآية : ٩٦ .

جاع فقير إلّا بما متّع به غني» ثم نرى الحرية المطلقة في فكرة الإمام عليّ (ع) «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً» . ويقول أيضاً : «الناس إما أخ لك في الدّين أو نظير لك في الخلق» .

وفي التربية يقول : «لا تقصروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم» ، وهذا معناه في فكر الإمام أن التربية طريق بل أصول لكنها ليست ثابتة في الإسلام ، لأن السلوك في الحياة غير ثابت في كل زمان ومكان . وإذا دخل الإمام المسجد ، فإنك ترى الناس وكأنّ على رؤوسهم الطير وهذه حقيقة ثابتة . وإليكم الحادثة التالية : كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في المسجد ودخل أحد المسلمين ، وهذه الحادثة وقعت بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والخليفة الأول كان جالساً . الرجل طرح مسألة فقهية ، وسأله بعض الناس ما المشكلة ؟ قال : أنا أقسمت بالله ألّا أكلّم زوجتي حيناً من الدهر . فما أدري هذا الحين كم يوماً أو سنة لا أدري ، فطرح المسألة على الفقهاء الجالسين ، فقال أحدهم : أنا رأيي كما يقول القرآن أن لا تكلمها إلى يوم القيامة . يعني هناك في ساحة المحشر تكلمها فقط . هذا كثير . قال له كيف ؟ . . . وما هو الدليل ؟ قال : الدليل واضح ، فالحياة الدنيا يعبر عنها القرآن أنها متاع إلى حين يعني إلى حين يوم القيامة . قال تعالىٰ : ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً**﴾(1) فالحين يعني منذ نشأة الإنسان إلى يوم القيامة ، إلى يوم يبعثون . عجيب قال له : أنت قاسي القلب ، كيف لا أكلّم زوجتي . التفت الثاني إليه وقال له : المسألة ليست إلى يوم القيامة وإنما أقل . كم . . . العمر ؟ قال : لا . أقلّ ، وإنما أنا توصلت إلى دليل قاطع إنك تستطيع أن تكلم زوجتك خلال ستة أشهر . يعني الآن تصبر إلى ستة أشهر وبعدها تكلم زوجتك . قال : كيف ؟ قال : لأنّ الله يقول : ﴿**تؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها**﴾(2) والشجرة تعطي كل ستة أشهر ثمراً وأنت أقسمت ألّا

(1) سورة الإنسان ؛ الآية : ١ .

(2) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٢٥ .

تكلّم زوجتك حيناً من الدهر ، إذن تبقى ستة أشهر ثم تكلمها .

أمير المؤمنين عليه السلام كان جالساً . والرجل هذا يحب زوجته وفي ساعة شيطانية أقسم هكذا. وكم هذا عظيم على الإنسان المتقي . ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ فيعرف أنه إذا صار نزاع في البيت وفي الأسرة مع زوجته أن لا يعمق النزاع ، ممكن أنه في اساعة شيطانية ويتعوذ بالله من الشيطان ويحتوي الزوجة والأولاد والأسرة فلا يسمح للنزاع أن يكبر . فهذا الرجل يحب زوجته ، اتجه إلى عليّ أمير المؤمنين - قائلاً له : سيّدي اغثني يا أبا الحسن ، فأنا أقسمت هكذا وارتبطت به فكم هو الحين من الدهر ؟ قال : إذا حلفت في الصباح تكلمها في المساء وإذا حلفت عليها في المساء فكلّمها في الصباح والدليل على ذلك قوله تعالىٰ ﴿**فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون**﴾ الآن هذه الحادثة نحن هنا نلقيها في مجلسنا ، لكن أتدرون كم كان لها من أثر عظيم في وقتها . فقد كانت تهز الجبال ، فالمسألة فقهية . رجل يدخل في مسجد رسول الله ولديه مشكلة ويريد لها حلاً ، ولا يجده . وإذا بالحل عند أمير المؤمنين عليه السلام . أيها الأحبّة ذكرت لكم أن الليلة هي مقدّمة لدخولنا في رحاب أمير المؤمنين عليه السلام والليلة هذه أكرر بعض النقاط :

أولاً : هذا شهر الله العظيم مدرسة الإسلام ومدرسة التربية .

ثانياً : انتخبنا في هذا الشهر واخترنا أعظم شخصيّة بعد رسول الله ، نتكلم عنها ثلاثين ليلة . شخصية الإمام عليّ عليه السلام لماذا ؟ .

منزلة الوصيّ من النبي :

إن مكانة الإمام عليه السلام من خير الأنام ، نبي الهدى والعدل والرّحمة والسلام لها أسبابها العديدة منها أنه انفرد بمواصفات إنسانية نبيلة وعظيمة ، وهي ليست خافية على أحد ، ولم يشاركه فيها أحد منها : أنه أخو النبيّ وهو ربيب النبي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي كان يتبعه في حربه وسلمه وفي كل مراحل حياته ، اتباع الفصيل أثر أُمه ، وهو زوج الزهراء عليها السلام

سيّدة نساء العالمين ، وأبو السبطين الحسن والحسين سيّدي شباب أهل الجنّة ، وهو ناصر الإسلام بسيفه ، بذي الفقار والأجيال تردد إلى اليوم وستبقى تردد إلى يوم القيامة مع جبرائيل (لا فتى إلاَّ عليّ ولا سيف إلاَّ ذو الفقار) علاوةً على زهده وتقواه ، وكرمه ونداه ، ومواساته للمساكين والضعفاء والبائسين والفقراء .

ثم إنني قلت : في سنة ١٩٦٨ كانت الإذاعات العربيّة والإسلاميّة تبث حلقات في شهر رمضان عن حياة الإمام عليّ أمير المؤمنين . ولأن شبابنا يعيشون في حالة من انعدام الوعي ، لأن معظم شبابنا وأبنائنا لا يعرفون من هو علي بن أبي طالب ، فلذلك نلتفت إلى هذه الشخصية العظيمة والوقوف عندها للاستنارة بنورها في سواد ليل الباطل وصولاً إلى نهار الحق الساطع . ولا تنسوا أنّ المسرح له دوره وأهميته في إيضاح هذه الأمور ، إذ سبق لي أن ذكرت لكم مسرحية ثأر الله ـ الإمام الحسين التي كانت في مصر ، وإنما أكرر هذه الكلمة حتى يسمعها الشباب .

قصّة المسرحية وقد مرَّ ذكرها في ليلة الثاني من شهر رمضان المبارك .

فالشخصيات الإسلاميّة عندما نعرضها على المنبر والمسرح والإذاعة والتلفزيون والإعلام في العالم الإسلامي ، هذه الشخصيات تحفظ أبناءنا من الضياع إذا ما ارتوت من ينابيع مكارم أخلاقها العظيمة ، لذلك قررنا أن نتحدث في هذه الليالي عن جوانب في شخصية الإمام أمير المؤمنين لجمع الكلمة ، لأنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جعله أخاً له ، والذي يجعله الرسول أخاه هو احرى بجمع القلوب ، وهذا شيء واضح وطبيعي . لذلك عندما نتجه إلى علي أمير المؤمنين ، ونحفظ أنفسنا ونحن في ضيافة الله في هذا الشهر العظيم ، وفي مدرسة الإمام علي وحياة الإمام علي التي نتعرض لها لا تعني حياته فقط والتي بدأت من يوم مولده إلى يوم وفاته ، وإنما نتطرق إلى نظرياته في السياسة والإقتصاد والاجتماع وعلم النفس والأخلاق والتربية

ومناهج التربية . هذه النظريات والحقائق التي أشار إليها الإمام عليه السلام يجب أن نبحثها وأن نثيرها وأن نتناول من خلالها كلها رأي الإمام أمير المؤمنين في الحرية وفي العدالة الإجتماعية ؟ ! .

العالم كله اليوم أيها الأخوة ، يبحث عن الحرية وهذا صحيح وخير دليل على ذلك ، ما شهده العالم من مصرع كارل ماركس ولينين ومصرع الشيوعية ، كل الشيوعية والنظم الشيوعية تهاوت في العالم . لذلك فإنّ الأجدر بشبابنا أن يلتفتوا إلى هذا الجانب . وأكرر رجائي من الأخوة إخبار إخوانهم ، فلا أحد يعلم بهذا المجلس ، لأنه لي من عادتي البقاء في شهر رمضان ، لأنني في كل سنة أسافر إلى إفريقيا وإلى الخارج ، فالناس هنا لا يدرون ببقائي . وعلى كل حال إن شاء الله لي أن أتشرف بوجوهكم وأكون معكم . فلذلك أخبروا الأصدقاء بهذا المجلس ، للانتفاع ولتعميم الفائدة ليس أكثر . وأسأل الله التوفيق لنا ولكم جميعاً .

أيها الأخوة ! الحسين عليه السلام يوم عاشوراء يقول : (مُلِئت بطونهم من الحرام) لكنهم يقولون : نقاتلك بغضاً منا لأبيك أبي تراب . وكانت هذه من أحسن الكنى التي يعتز بها أمير المؤمنين «عليّ» عليه السلام .

هذه زوجة يزيد كان عمرها سبع سنين ، تركها أبوها عبد الله بن عامر ابن كريز في بيت الإمام عليّ ، وأبوها كان والياً من قبل الإمام عليّ . تخيّل وهي من ذلك السن في خدمة الحوراء زينب ، وزينب تدرسها وعلي عليه السلام يعلمها فكيف تنشأ ؟ إنها كانت قطعة من الفصاحة والبلاغة والعلم . وبعد مقتل الإمام علي أمير المؤمنين وصلح الإمام الحسن ، وانتقال أهل البيت إلى المدينة ، بقيت هذه الفتاة في الكوفة ، لكنها كانت محط أنظار الجميع . الكل يريد أن يتقرَّب لخطبتها . وأبوها من العلماء ، من أصحاب علي أمير المؤمنين ، فكيف يزوجها ليزيد ؟ .

معاوية في تلك الأيام ، كان يمارس الضغط على شيعة أمير المؤمنين ، وكان يتابع ويلاحق أصحاب الإمام عليّ أمثال حجر بن عديّ

وعمرو بن الحمق الخزاعي . .عبد الله بن عامر بن كريز ، زوّج ابنته هند ليزيد ، حتى يتقرّب من البلاط الأموي ، ليخفف الضغط عن شيعة عليّ عليه السلام ويرفع القتل عن حجر بن عديٍّ . ولذلك ذهب عبد الله إلى الشام ليتشفع عند معاوية في حجر ، لكن قبل أن يصل ، كان معاوية قد أمر بقتل حجر بن عدي وأصحابه .

تصوروا أيها الأخوة تلك المرأة «هند» والتي كانت في القصر الأموي ، عند يزيد ، فماذا تصنع ؟ يذكر المؤرخون ومنهم الشيخ التستري ـ رحمة الله عليه ـ والشيخ جعفر وأمثالهم يقولون : كان وجود هند في بيت يزيد كوجود آسيا بنت مزاحم في بيت فرعون ، فقد كانت هند أصيلة ، طيبة ، طاهرة ، مؤمنة ، كانت تتفقد الفقراء والضعفاء والمساكين وكانت تحل لهم مشاكلهم .

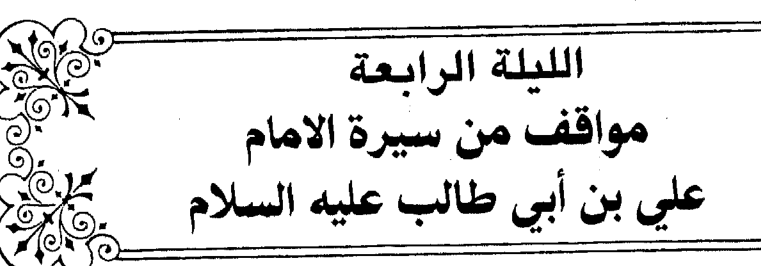
وتذكّروا أنه عندما دخلت عائلة الحسين إلى الشام ، فإنَّ يزيداً لم يسمح لها بالدخول عليه في المجلس وإنما تركها في الخربة عشرة أيام . وفي خلالها ماتت الطفلة رقية . فرقية لم تَرَ مجلس يزيد ، بل ماتت في تلك الأيام ، وفي بعض الأخبار يُروى أنها ماتت من الجوع ، لأن ذلك اللعين كان قد منع عنهم الطعام ، وأرسل إليها رأس أبيها الحسين : هند عرفت بقدوم الأسرى ، فجاءت إلى الخربة وزارت الحوراء زينب وواعدتها بأنها ستدخل على يزيد أثناء دخول العائلة عليه ، وأنها ستتشفع برأس الحسين وبعائلته ، وأنها ستأخذها معها إلى البيت (أي العائلة) وعلى الفور فقد أمر يزيد بإحضار العائلة ولكنّ هنداً كانت في السوق ، فسمعت بدخول عائلة الحسين عليه السلام على مجلس يزيد . فدخلت هي أيضاً إلى ذلك المجلس حاسرة الرأس . إلتفت إليها يزيد وقال : يا هند أما تستحين أن تبرز ي بين الرجال هكذا ؟ قالت : ويحك ؟ ! أنا أستحي وهذه زينب ابنة أمير المؤمنين ، هذه المخدرة الحوراء في مجلسك ؟ .

قال لها : يا هند نوحي على الحسين ! ولماذا قال لها نوحي على

الحسين ؟ لأنها كانت من البكائين على الإمام الحسين ، ولذلك يُقال : إن الله مكّن أن يقام مأتم العزاء على الحسين في بيت يزيد بن معاوية ، فأخذت العائلة وذهبت إلى بيتها ، وذلك بعد إلقاء الخطبة التي توجهت بها زينب «الحوراء» إلى يزيد فهزت بها عرشه وكل عروش الظالمين الكفرة في العالم ، وبعد إلقاء الخطبة والكلام الذي كان وخطبة الإمام السجاد (يزيد ما ظنك بجدنا رسول الله لو رآنا على هذه الحالة) ؟ ولما وقع نظر هند على حال الأسرى بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبينهن الحوراء زينب التي غالبتها الدموع والأحزان ، أنشدت زينب :

هذي يتاماكم تلوذ ببعضها ولكم نساء تلتجي لنساءِ .

إنا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .


الليلة الرابعة
مواقف من سيرة الامام
علي بن أبي طالب عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قال الله تعالىٰ : ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنيٌّ حميد ، وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**﴾(1) .

بالنظر إلى هاتين الآيتين المباركتين يتبيّن لنا أن لقمان هو ابن أخت أيوب النبي وهو من الحبشة ، ولصفائه ورقّة قلبه أنزل الله عليه الحكمة . ومن كلماته لولده أنه قال : يا بني ، إذا كنت في شك من الموت فارفع النوم عنك ولن تستطيع ذلك ، هل يستطيع أحد أن يرفع النوم عن نفسه ؟ .

وإذا كنت في شك من البعث (يوم القيامة) فارفع الانتباه عن نفسك ، بعد اليوم ، ولن تستطيع ذلك . وإذا علمت ذلك ففكّر بهذين الأمرين تجد أن النوم بمنزلة الموت ، وأن الموت بمنزلة النوم ، وأن الانتباه بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت .

---

(1) سورة لقمان ؛ الآيتان : ١٢ ـ ١٣ .

ومن كلماته لولده ، يقول له : صحبت الأنبياء ثمانية آلاف عام (ربما لأن الله مدّ في عمره ، أو لأنه قرأ فكرهم وعاش علومهم فكأنما صحبهم) فحفظت منهم أربع كلمات :

- يا بني إذا كنت بين يدي الله فاحفظ قلبك ، وهذا وقود شهر رمضان ، احفظ قلبك من التوجه هنا وهناك ومن مشاغل الدنيا . احفظه لله سبحانه وتعالىٰ .
- وإذا كنت بين الناس فاحفظ لسانك ، فالمصائب كلّها من اللسان .
- وإذا كنت على مائدة الطعام فاحفظ بطنك . أجلس وأنت تشتهي وقم وأنت تشتهي .
- وإذا كنت في بيت أخيك فاحفظ عينك . لا تقع عينك على ناموس أخيك وعلى عرضه .

هذا هو لقمان الحكيم ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة**﴾ . الحكمة معناها العقل المليء بالعلم والعمل بما في العقل من علم . فالإنسان الذي يتمتّع بعقل سليم راجح وعلم وافر ولا يعمل بهما فلا يُقال له حكيم . والإنسان المتعلم الذي لا يتّصف بالأخلاق ولا يهمّه أمر الله سبحانه وتعالىٰ يكون قلبه جافاً ، لأن الإنسان بمقدار ما يعطي لعقله غذاء وعلماً لا بدّ أن يعطي لقلبه أيضاً . فالعلم للعقل ، والصّلاة والإيمان والدعاء ، والأخلاق للقلب . وهناك فرق كبير بين أن يكون الإنسان متعلماً وأن يكون مؤمناً ، ولكن يمكن للإنسان أن يجمع بين الصفتين فيكون متعلماً ومؤمناً في الوقت نفسه وهنا الجمال والكمال والروعة . مثل هذا الإنسان إذا أراد أن يعطي فعطاؤه يكون مفيداً ، ومفيداً جداً .

أن يقرن الإنسان الإيمان بالعلم من أجمل الصفات . وكلّكم تعلمون أن البدن إذا أُصيب بسوء التغذية فالإنسان يصبح ضعيفاً ، وإذا صار ضعيفاً أصبح عرضةً للأمراض .

كذلك القلب إذا أُصيب بسوء التغذية يقلّ الإيمان عند صاحبه ، وغذاء القلب كما قلنا هو الإيمان ، وباستطاعتنا أن نغذّي إيماننا بطرق عدّة وأهمّها قراءة القرآن الكريم ، واتباع شروط الدين الصحيحة من صلاة وصوم وزكاة وحج وزيارة الأخوان وصلة الرحم وصدق الحديث وعمل الخير والمعروف ، وإغاثة الملهوف ، وذكر الله سبحانه وتعالىٰ باستمرار ، وغير ذلك من الأُمور التي تتقرّب بها إلى الله عزَّ وجلَّ .

كل هذه الأُمور تُعتبر مساعدة جداً في غذاء القلب حتى يكون عامراً بالإيمان والتقوى .

ولا ننسَ أن القلب الضعيف الخالي من الإيمان يكون عرضةً للتلف إذ تغزوه الشكوك ويفتك به القلق فلا ينام صاحبه قرير العين ولا يهدأ له بال ، فالشك مجلبة للقلق ، والقلق مجلبة للهموم ، والهموم مجلبة للأحزان والهواجس والحيرة وسوء الظنّ بالناس ، وسوء الظنّ يولّد الاضطراب النفسي ، والاضطراب النفسي يولد الأمراض والعاهات التي يصعب علاجها ومداواتها ، وهذه قاعدة هندسية معروفة . فكلّما سرنا وكان الطريق منحرفاً ، وكلّما أوغلنا في السّير انحرفنا أكثر فأكثر وهذا من بديهيات الأُمور .

إن الله ، أيها الأخوة ، لا يوزّع أمراضاً على الناس ، الله خير ، الله يهب الصحة والسلامة والعافية ، لكن الإنسان هو الذي يسيء إلى جسمه فيجعله عرضةً للأمراض . علينا بالأخلاق أيها الأخوان ، فهي مهمة ، ومهمة جداً في حياتنا ولهذا قال الشاعر :

وإنما الأُمم الأخلاق ما بقيتْ   فإن همُ ذهبتْ أخلاقهم ذهبوا

هذه الأخلاق ربما تجدونها عند البسطاء من الناس ، وربما لا تجدونها عند بعض المتعلمين ممّن وصلوا إلى مرتبة عالية في العلم ، ألا تسمعون أن بعض الأطباء لا يجرون عمليات للمرضى الفقراء المعوزين إلاّ بعد أن يؤمّنوا لهم آخر فلس من أجورهم ؟ وقِسْ على ذلك كثيراً من أصحاب المهن الذين تخلو قلوبهم من الرأفة والشفقة والأعمال الخيِّرة التي

كـذلك القلب إذا أُصيب بسـوء التغذيـة يقـلّ الإيمـان عنـد صـاحبـه ، وغذاء القلب كما قلنا هو الإيمان ، وباستـطاعتنا أن نغـذّي إيماننـا بطرق عـدّة وأهمّها قراءة القرآن الكريم ، واتباع شروط الـدين الصحيحة من صـلاة وصوم وزكـاة وحـج وزيـارة الأخـوان وصلة الـرحم وصـدق الحـديث وعمـل الخيـر والمعـروف ، وإغاثـة الملهوف ، وذكـر الله سبحانـه وتعالىٰ بـاستمرار ، وغيـر ذلك من الأُمور التي تتقرّب بها إلى الله عزَّ وجلَّ .

كل هذه الأُمـور تُعتبر مسـاعدة جداً في غذاء القلب حتى يكـون عامـراً بالإيمان والتقوى .

ولا ننسَ أن القلب الضعيف الخـالي من الإيمـان يكـون عـرضـةً للتلف إذ تغـزوه الشكوك ويفتـك به القلق فـلا ينام صـاحبه قـرير العين ولا يهـدأ لـه بال ، فالشك مجلبة للقلق ، والقلق مجلبة للهموم ، والهموم مجلبة للأحزان والهـواجس والحيرة وسـوء الظنّ بـالنـاس ، وسـوء الـظنّ يـولّـد الاضـطراب النفسي ، والاضطراب النفسي يولد الأمراض والعـاهات التي يصعب عـلاجها ومداواتها ، وهذه قاعدة هندسية معروفة . فكلّما سرنا وكـان الطريق منحـرفاً ، وكلّما أوغلنا في السّير انحرفنا أكثر فأكثر وهذا من بديهيات الأُمور .

إن الله ، أيهـا الأخوة ، لا يـوزّع أمراضـاً على الناس ، الله خيـر ، الله يهب الصحـة والسلامـة والعافيـة ، لكن الإنسان هـو الذي يسيء إلى جسمـه فيجعله عرضةً للأمراض . علينا بالأخلاق أيها الأخوان ، فهي مهمة ، ومهمة جداً في حياتنا ولهذا قال الشاعر :

وإنمـا الأُمم الأخـلاق مـا بـقيـتْ ... فـإن همُ ذهبتْ أخـلاقهـم ذهبـوا

هـذه الأخـلاق ربمـا تجـدونهـا عنـد البسـطاء من النـاس ، وربمـا لا تجـدونها عنـد بعض المتعلمين ممّن وصلوا إلى مرتبـة عـاليـة في العلم ، ألا تسمعون أن بعض الأطباء لا يجـرون عمليات للمـرضى الفقراء المعـوزين إلاّ بعـد أن يؤمّنوا لهم آخـر فلس من أجورهم ؟ وقِسْ عـلى ذلـك كثيـراً من أصحاب المهن الذين تخلـو قلوبهم من الرأفة والشفقـة والأعمال الخيِّـرة التي

لا يقوم بها إلاَّ أصحاب الضمائر الحيّة الذين يؤمنون بأن للأخلاق دوراً أساسياً في حياة الشعوب الحرّة ؛ علينا ألاَّ نكون كاليهود في قساوة القلوب ، إنهم أقسى الناس قلوباً **﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾**(1) لأنهم ركزوا على أمور بعيدة عن الله سبحانه وتعالىٰ ، إنهم يفتقدون إلى العلاقة بالخالق . فالخالق هو أساس كل شيء ، والدليل على ذلك أن كل علم لا بدَّ له من مرجع ، كما الهندسة لا بدّ لها من مهندس ، كما الطبّ لا بدَّ له من طبيب ، كذلك العلم يحتاج إلى معلم ، والقرآن علم ، ولكن من الذي يعلّمنا ويهذّبنا ؟ إنه الله تعالىٰ .

إن أعظم مدرسة يمكن لنا أن نتعلم فيها دروس الأخلاق وتجارب الحياة هي مدرسة الإمام علي . « أنا مدينة العلم وعليّ بابها » ، وحياة الإمام عليّ كلّها خوارق ومعجزات ، فكل المسلمين يذكرون كيف كانت تطوف به أمّه فاطمة بنت أسد حول الكعبة وتقول : «اللّهم إني مؤمنة بك ، ومصدّقة بما جاء من عندك من كتب ورسل ، اللّهمَّ بحقّ هذا البيت ومن بناه إلاَّ ما يسّرت عليَّ ولادتي» بعد هذا الدعاء يُقال إن جدار الكعبة قد انفرج لها ودخلت الكعبة حيث أطبقت عليها لتخرج بعد ثلاثة أيام وبيدها علي يسبح في النور والإيمان . جاءت به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذه النبي العظيم وجعل مهده إلى جانبه من اللحظة الأولىٰ حيث تولّى تربيته ، وبيده كان أحياناً يسقيه اللبن حتى قال الإمام في يوم من الأيام «كنت أتبعه (للنبي) اتباع الفصيل أثر أمّه» .

لمن نلتجىء إذاً لننهل الأخلاق وسلوك طرق الحق وكنز العلم والفضائل ؟ نلتجىء لعلي بن أبي طالب ، نلتجىء لنهج البلاغة لأن فيه القرآن ، ولأن فيه أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأن فيه كل ما من شأنه أن يهدي إلى الرشاد والحق ونكران الذات والتقرّب من الله ونبذ الدنيا بما فيها من المعاصي والكبائر والملذات الفانية والتطلّع إلى الدار الخالدة ، إلى الجنّة

---

(1) سورة البقرة ؛ الآية : ٧٤ .

كل ذلك نجده مدوّناً في رسائله وخطبه ووصاياه ، فكل رسالة كتاب ، وكل خطبة كتاب ، وكل وصية كتاب قائم بذاته .

تعالوا ، يا أحبائي ، في هذه الليلة المباركة نقتطف بعضاً من وصيته لولده الحسن عليه السلام لنرى مقدار العلم الذي كان يكتنزه في عقله ، وأكثره مستلهم من علاقته برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قال الإمام علي لولده الحسن : من الولد الفانِ ، المقرّ للزمان ، المُدْبِرِ العمر ، المستسلم للدهر ، الذام للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، الظاعن عنها غداً . إلى المولود المؤمّل ما لا يُدرك ، السالك سبيل من قد هلك ، غَرَضِ الأسقام ، ورهينة الأيام ، ورميّة المصائب ، وعبد الدنيا . . . إلى أن يقول :

وجدتك بعضي ، بل وجدتك كُلّي ، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني ، وكأن الموت لو أتاك أتاني ، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي ، فكتبت إليك كتابي مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنيت . (لاحظوا الرقّة في الألفاظ) .

إني أُوصيكم بتقوىٰ الله أي بنيّ ولزوم أمره ، وعِمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، وأيّ سببٍ أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به ؟ أحيي قلبك بالموعظة ، وأمِتْهُ بالزَّهادة ، وقوّه باليقين ، ونوّره بالحكمة ، وذلّله بذكر الموت ، وقرّره بالفناء ، وبصّره فجائع الدنيا ، وحذّره صولة الدهر وفحش تقلّب الأيام ، واعرضْ عليه أخبار الماضين ، وذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأولين .

وسِرْ في ديارهم وآثارهم ، فانظر فيما فعلوا ، وعمّا انتقلوا ، وأين حلّوا ونزلوا ! فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبة ، وحلّوا دار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فاصلحْ مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك (لاحظوا الحكمة ودرر الكلام) وَدَعِ القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لم تكلّف ، وأمسك عن طريقٍ إذا خفت ضلالته ، فإن الكفّ عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال .

كل ذلك نجده مدوّناً في رسائله وخطبه ووصاياه ، فكل رسالة كتاب ، وكل خطبة كتاب ، وكل وصية كتاب قائم بذاته .

تعالوا ، يا أحبائي ، في هذه الليلة المباركة نقتطف بعضاً من وصيته لولده الحسن عليه السلام لنرى مقدار العلم الذي كان يكتنزه في عقله ، وأكثره مستلهم من علاقته برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قال الإمام علي لولده الحسن : من الولد الفانِ ، المقرّ للزمان ، المُدْبِرِ العمر ، المستسلم للدهر ، الذام للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، الظاعن عنها غداً . إلى المولود المؤمّل ما لا يُدرك ، السالك سبيل من قد هلك ، غَرَضِ الأسقام ، ورهينة الأيام ، ورميّة المصائب ، وعبد الدنيا . . . إلى أن يقول :

وجدتك بعضي ، بل وجدتك كُلّي ، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني ، وكأن الموت لو أتاك أتاني ، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي ، فكتبت إليك كتابي مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنيت . (لاحظوا الرقّة في الألفاظ) .

إني أُوصيكم بتقوىٰ الله أي بنيّ ولزوم أمره ، وعِمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، وأيّ سببٍ أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به ؟ أحيي قلبك بالموعظةِ ، وأمِتْهُ بالزَّهادة ، وقوّه باليقين ، ونوّره بالحكمة ، وذلّله بذكر الموت ، وقرّره بالفناء ، وبصّره فجائع الدنيا ، وحذّره صولة الدهر وفحش تقلّب الأيام ، واعرضْ عليه أخبار الماضين ، وذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأولين .

وسرْ في ديارهم وآثارهم ، فانظر فيما فعلوا ، وعمّا انتقلوا ، وأين حلّوا ونزلوا ! فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبة ، وحلّوا دار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فاصلحْ مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك (لاحظوا الحكمة ودرر الكلام) وَدَعِ القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لم تكلّف ، وأمسك عن طريقٍ إذا خفت ضلالته ، فإن الكفّ عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال .

وأْمر بالمعروف تكن من أهله ، وانكر المنكر بيدك ولسانك ، وجاهد في الله حقّ جهاده ، ولا تأخذ في الله لومة لائمٍ . وخُضِ الغمرات للحق حيث كان ، وتفقّه في الدين ، وعوّد نفسك التصبّر على المكروه ، ونِعم الخُلُقُ التصبّر في الحق ، واعلمْ أنه لا خير في علمٍ لا ينفع ، ولا تنتفع بعلمٍ لا يحقُّ تعلّمه .

هل هناك ما هو أبلغ من بعض مقاطع هذه الوصية أيها الأخوة ؟ اقرأوها كاملة في نهج البلاغة وعيشوا في رحاب الإيمان وفي ظلال القرآن .

هذا هو الإمام علي بن أبي طالب ، إنه الرجل الذي يفنى في الله خاصة وقت الصلاة . عندما يصلي الإمام علي يفقد الإحساس بجسمه نهائياً ، إذ يكون خاشعاً متجهاً بكل أحاسيسه إلى الله سبحانه وتعالىٰ . يُروى أنه في أثناء حرب صفين دخلت شظايا النصال في رجله فجاء الإمام الحسن بطبيب وطلب منه انتزاعها ، حيث رأى أن أفضل حالة يمكن أن يُعالَج فيها هي الوقت الذي يؤدّي فيه فريضة الصلاة في حالة السجود ، وقد عالجه الطبيب وهو يصلّي واستطاع انتزاع النصال بسرعة فائقة دون أن يشعر بها الإمام عليّ بأذى يُذكر لأنه فقد إحساسه بالألم وغير الألم ، فعقله وحواسه وكل شعوره إنما تتّجه نحو هدف واحد أثناء الصلاة هو الله تعالىٰ . من هنا نعرف كيف استطاع اللعين ابن ملجم أن يصل إليه ويغدر به ، فقد اختار الوقت المناسب ، الوقت الذي يكون فيه الإمام في خشوع تام ، الوقت الذي يكون فيه غارقاً في العبادة ، وهو وقت الصلاة حيث يناجي فيه الله ويتضرّع إليه ، ويستمد العون منه . ما أعظمك أيها الإمام ، فقد جمعت من الصفات ما لا يمكن لأحد أن تجتمع فيه صفاتك . بأبي أنت وأُمي أيها الإمام ما أعظمك أيها القائد الملهم ، أيها البطل الشجاع ، يا صاحب الرسول ويا رفيقه ، إنك للملمّات أيها الإنسان العظيم .

أيها الأخوة . تقرأون ما يقوله أصحاب السّير في الإمام وتقرأون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يستخلصه ولا يؤثر عليه أحداً ، ويطلبه في أصعب المراحل

التي كان يمرّ فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل ويكلّفه أصعب المهام ، ومن ضمنها تلك التي ربما تؤدّي إلى الاستشهاد في سبيل إعلاء شأن الإسلام . يقول ابن هشام في السيرة النبوية : فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : لا تبتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه . قال : فلما كانت عتمة من الليل اجتمع الملأ من قريش على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه يريدون قتله ، فلمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : نَمْ على فراشي وتسبَّح ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، نَمْ فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم . . . إلى آخر الحكاية .

هذه الحادثة حصلت عندما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة ، وهي دار قصي بن كلاب يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين خافوه ، وقرَّ رأيهم بعد المشاورة على قتله ليستريحوا منه ، فما كان من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ أن التجأ إلى علي بن أبي طالب وطلب منه أن ينام مكانه ، لماذا ؟ لماذا لم يطلب من غيره هذا الطلب ؟ لأنه يعرف من هو علي بن أبي طالب ، هذا الذي لا يخون ، هذا الذي يفديه بروحه ، هذا الذي يتكل عليه في الملمّات لمساعدته في أوقاته الحرجة وأوقات الشدّة عندما يندر وجود الرجال في هذه الحالات التي يصفها الشاعر بقوله :

وما أكثر الأخوان حين تعدّهم ... ولكنهم في النائبات قليل

نام علي في المكان الذي حدّده له النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرير العين غير مبالٍ للنتائج فهو يعلم علم اليقين أن الله يحرسه ولذلك فقد شرى نفسه ابتغاء مرضاته : **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾**(1) .

فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما ... يهدي القراع لسمعك التغريدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى ... أوَما دروا كنز الهدى مرصودا

---

(1) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٠٧ .

في آخر جمعة من شعبان خطب الرسول الأكرم فقال : قد أقبل إليكم شهر الله بالخير والبركة والرّحمة والمغفرة ، شهر هو عند الله أفضل الشهور ، وأيامه أفضل الأيام ، ولياليه أفضل الليالي ، وساعاته أفضل الساعات ، هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله وجعلتم فيه من أهل كرامة الله . وعندما أتمَّ الخطبة سأله أمير المؤمنين : يا رسول الله ، ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ قال : يا أبا الحسن ، الورع عن محارم الله . ثم بكى رسول الله على المنبر فقال الإمام علي : ما يبكيك يا رسول الله ، روحي فداك ، قال : أبكي لما يحل بك في هذا الشهر ، كأني أنظر إلى أشقى الأولين والآخرين يخضب لحيتك من دم رأسك . قال : أوَ يكون ذلك في سلامة من ديني (أي وديني سالم ؟) قال : أجل . قال : إذن لا أبالي .

ولذلك يذكر المؤرخون أنه عندما وقع السيف على رأسه وهو مستغرق في صلاته قال : فزتُ ورب الكعبة .

منهج علي في التربية :

نأخذ مثالين ونحلّلهما :

١ ـ يقول الفلاسفة : قلب الطفل كالورقة البيضاء . ويقول الإمام علي : قلب الطفل كالأرض الخالية .

٢ ـ يقول الإمام علي في وصيته لابنه الحسن : ابتدأتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك .

لو تأمّلنا في المثل الأول نجد أن تشبيه الطفل بالورقة البيضاء لا يؤدّي المعنى المطلوب ، إذ الورقة البيضاء لا عناصر للحياة فيها ، ثم إذا تعرّضت الورقة للمطر مثلاً فإنها تبتلّ وتفقد قيمتها ، وإذا كان عليها كتابة تُمحى وتزول . لاحظوا التشبيه الثاني . إن الإمام علي يشبهها بالأرض الخالية ، والأرض كما تعلمون فيها عناصر الحياة ، ما إن يسقط عليها المطر حتى

ينبت النبات وتعطي الأثمار . فقول الإمام إن الطفل كالأرض الخالية يعني أن الله مودعٌ فيه كل أسباب التربية ، وكل ما في الأمر أنه يحتاج إلى المطر لأن ما أُلقي في الأرض قبلته سواء أكان حلواً أم مراً ، ومن ثمّ يختار الإنسان نوع المزروعات . وهكذا الطفل ، فإن تربته خصبة صالحة للزراعة وما عليك إلاّ أن تتعهّدها بالعناية لتعطيك ما تريد . لاحظوا إذن الفرق في التشبيه في هذا المثل .

في المثل الثاني يقول الإمام علي لابنه الحسن : ابتدأتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ، يعني وأنت شاب طريّ العود . ففي هذه السن يكون الإنسان ذا قوة ونشاط ، ويكون قادراً على تفهم الأُمور والفصل فيها قبل أن تستفحل إلى شرّ ، فالشر كالشجرة الصغيرة في النفس تستطيع قلعها بسهولة وهي صغيرة طريّة الأغصان ، أما إذا نمت فنموّها يكون على حساب عمرك وقوتك ، هي تنمو وتكبر وتشتد وأنت تكبر وتضعف وتصبح عاجزاً ، ساعتها لن تستطيع لا أنت ولا الأقوى منك أن يقلعها لأنها تصبح كالسنديانة ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقلع سنديانة ؟ تصوّروا منهج الإمام علي في التربية ، إنه المنهج الصالح الذي يمكن اعتماده في كل المناسبات من قِبل أعظم رجالات التربية .

قيل لمعاوية مرّة : صف لنا علياً ، فقال : كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يتفجّر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستأنس بالليل ووحشته ، ويستوحش من الدنيا وزهرتها ، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه ، يعظّم أهل الدين ، ويقرّب المساكين . ولقد رأيته في أحد مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، يقول يا دنيا أليَ تعرّضتِ أم إليَّ تشوّقتِ ، لا حان حينك ، طلّقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيها ، يا دنيا غرّي غيري .

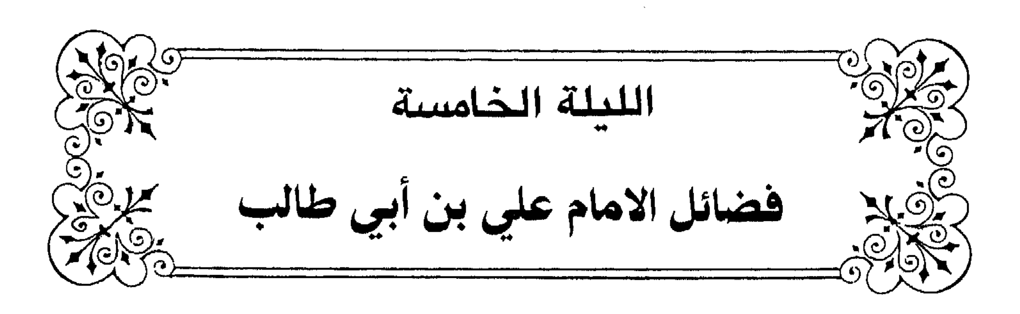
هذا هو الإمام علي بن أبي طالب ، ربما رأوه واقفاً في السوق يبيع

سيفـه ، يقـول من يشتـري هـذا السيف ؟ ثم يقـول : والله لـو أني أملك ثمن العشـاء لما بعت سيفي . وبيـده خزائن الـدنيـا ، هـذا هـو الحكم الإسـلامي العظيم .

أختم هـذه الليلة معكم أيها الأخـوة بهذه الـرواية التي تـدمي القلوب . تقول الرواية إنه كان لمسلم بن عقيل صبيّان أخذهمـا معه إلى الكـوفة ، ولمـا دار دولاب الـزمن ودخل ابن زيـاد الكـوفـة وتفـرّق النـاس عن مسلم ، خـرج مسلم بن عقيـل للقتال وتـرك ولديـه أمانـة عنـد شـريـح القـاضي لبينمـا يـأتي الحسين ويستلمهما ، وتمرّ الأيام والليالي والصبيّان عند شـريح لا يعـرف بهما أحد ولا يسلّمهما لأحـد خوفـاً عليهما من ابن زيـاد . وأخيراً يقعـان في أيدي شرطة ابن زياد فيرسلهمـا إلى السجن ولا يسمح لهمـا باللّحـاق بقافلة السبـايا التي اتجهت نحـو الشام ، ويمضيـان في السجن فتـرة عـامٍ كـامـل ، يبكيـان وينوحان إلى أن رقّ لهما أحد السجان وأخبر زوجتـه بالأمـر ، وعندمـا اكتشف أنهمـا طفلا مسلم بن عقيـل أطلقهما سـراً دون معرفـة أحد ، في هـذا الوقت كـان الحارث الخبيث صـاحب ابن زياد قـد علم أنهما أصبحـا خـارج السجن فقرّر إعطاء جائزة قيّمـة لمن يرشـد إليهما ، وتشـاء الصدف أن يتعـرّف إليهما رجـل ضعيف الإيمـان فيمسـك بهمـا ويسلّمهمـا إلى الحـارث حيث يقتلهمـا ويرسل رأسيهما إلى ابن زياد .

ربّنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ، وربّنـا فاغفـر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبـرار ، ربّنا وآتنـا ما وعـدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .



الليلة الخامسة

فضائل الامام علي بن أبي طالب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هل يستوون ـ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ـ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأتي بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾[1] .

إن فلسفة الحياة عند الإمام علي عليه السلام تتلخص بكلمة قالها لولده الحسن «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً» .

وشهر رمضان مدرسة كبرى لمن يريد أن يفهم ويستوعب فضائله أي فضائل الإمام علي عليه السلام فمن بركات هذا الشهر العظيم أننا نجتمع ونتحدث عن عظمة علي بن أبي طالب عليه السلام التي تبيّن عظمة الإسلام .

نتحدث عن الإسلام من خلال علي ، وعن علي من خلال الإسلام ، فكلاهما جوهر لقضية واحدة .

إن فلسفة الحياة عند علي تقوم على حرية الإنسان وقدرته على

---

(١) سورة النحل ؛ الآيتان : ٧٥ ـ ٧٦ .

الانعتاق من القيود والأغلال التي يكبّل نفسه بها ، أو يرتضيها لنفسه ، كأن يكون عبداً ذليلاً للسلطان ، خاضعاً للشهوات والغرائز التي تتلخص : بحب المال والجاه ومتاع الحياة . . .

يقول الإمام علي عليه السلام : إذا لم يستطع الإنسان أن يحطم الأغلال والقيود التي تكبّله لا يمكن أن يعرف فلسفة وجوده في الحياة ، ولا يمكن أن يعرف طريق التقرّب إلى الله .

ففي أحيان كثيرة نرى تلك ا لغرائز والشهوات والأهواء تقيّد الإنسان وتعيقه ولا تسمح له بالانطلاق . . . ففي دعاء كميل يقول الإمام علي عليه السلام «وحبسني عن نفعي بعد أملي» وله أيضاً : «وخدعتني الدنيا بغرورها ، ونفسي بخيانتها ـ بجنايتها» .

وبالعودة إلى الآيتين ا لكريمتين نرى أنهما جرتا مجرى المثل . وضرب الأمثال في القرآن يكون لأمرين :

أولهما : تبسيط الكلام وتقريبه إلى الأفهام بحيث يصبح أكثر إقناعاً من الأدلة والبراهين ، لأنه يصوّر الأشياء المعقولة بصورة حسية ، فيقرّ بها إلى الأذهان ويحوّلها من التعقيد إلى البساطة والوضوح ، مما يجعل العين تشارك العقل في الاستمالة وتحقيق الهدف المنشود ، كمثل قوله تعالىٰ : **﴿الله نور السّمٰوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾**(١) .

وثانيهما : إن الحق سبحانه وتعالىٰ يريد أن يبيّن الصورة الحقيقية للإنسان : كيف يجب أن يكون ؟ أي طريق يجب أن يسلك ؟ . من الذي يؤثر على حركته في الحياة ؟ . ومن الذي يحرّكه في الحياة ؟؟؟ .

هل يحركه الوحي الذي له علاقة بالعقل والقلب والفطرة ، أم يحركه الشيطان الذي له علاقة بالغرائز والشهوات والأهواء ؟؟ .

---

(١) سورة النور ؛ الآية : ٣٥ .

من هنا تبدأ نقطة الإنطلاق ، وفي هذا الشهر الفضيل بالذات . فعندما يصوم أحدنا لا يعني امتناعه عن تناول الطعام والشراب فقط .

(كم من صائم ليس له من صيامه إلاَّ الجوع والعطش) لأنه امتنع عن الطعام والشراب فقط ، وراح ينتظر وقت الغروب ، على أحرٍّ من الجمر ، حتى يأكل ويشرب . في حين أن الصيام أكبر وأعظم من هذا المعنى .

الصيام يعني صيام ا للسان والقلب والجوارح . . لذا ينبغي على الإنسان ألاَّ يحقد على الآخرين ، وألاّ يحسد أحداً ، وألاّ يتناول أعراض الناس بالقدح والذم . . بل عليه أن يفكر دائماً في الله سبحانه وتعالىٰ ، عليه أن يفكر في سبب وجوده وماهي رسالته في الحياة . . .

من هنا تبدو عظمة شهر رمضان لأنه يركّز على الجانب الإنساني في الإنسان ، يحمله على التقوى ويحضّه على تمتين علاقته بالله سبحانه وتعالىٰ . فتكون حركته بوحي من الله ، وبهدي من العقل والقلب والخُلق السليم لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «من حَسَّن خُلقه في هذا الشهر كان له جوازعلى الصراط يوم تزلّ عليه الأقدام» .

إذاً المسألة عملية ومحاولة للتحسين والتقويم . فعلينا أن نبتعد عن الرذائل ونتقرّب إلى الفضائل ، أن نتحصّن بالمكرمات والخصال الحميدة ونتجنّب السيئات والعادات المشينة . . هذه الأُمور لا تغيب عنّا ، إنما نذكرها للحكم ا لشرعي الملقى على عواتقنا جميعاً . فكلنا مسؤول أمام الله **﴿وقفوهم إنهم مسئُولون﴾**(١) .

إن فلسفة الحياة في هاتين الآيتين تصوّر رجلين ، أحدهما مؤمن والآخر كافر ، تُظهر الكافر بأنه عبد ذليل لا يقوى على شيء ، لا يملك حركته ولا نفسه ولا ماله وعزّه وجاهه ، ولا حتى أية طاقة فيه .

---

(١) سورة الصافات ؛ الآية : ٢٤ .

بالله عليكم فكّروا . . هل يملك الإنسان الكافر الملايين التي يكتنزها حقاً وواقعاً ؟ ! لا أتصوّر ذلك . لأنه لو كان يملكها لوجدها أمامه يوم القيامة . فالذي يملك الأموال في ساحة المحشر يجدها عنده في أول ليلة من ليالي القبر عندما يواجه منكر ونكير ، يقدمان له الفواتير التي أرسلها أمامه. يقولان له : هذه أموالك وهذا عطاؤك . . . وطالما أنه لا يملك شيئاً فهو كافر باع نفسه للشيطان وابتعد عن طريق الله سبحانه وتعالىٰ ، فزلّت به القدم وأنفق أمواله في سبيل الباطل ، ورمى نفسه في حبائل الشيطان .

أما المؤمن فهو الذي يملك نفسه وماله ، ويحيا حياة طيبة عامرة بالتقوى والورع ، هو الذي يدرك أنه إذا أعطى ديناراً سوف يدخل في رصيده **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم﴾**(١) .

فهناك كتّاب موجودون كرام لا يخطئون ولا يزورون **﴿وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين﴾**(٢) .

إذاً المؤمن يملك نفسه لأنه يعرف قيمتها . يقول الإمام علي عليه السلام : النفس قيمتها الجنة فلا تبيعوها بغير الجنة ، هذه هي النفس ، ونحن للأسف لا نلتفت إليها في بعض الأحيان ، لكن إذا أمعنّا النظر نرى أن قيمتها عظيمة وثمنها الجنة .

بالله عليكم ، من يملك الجنة حتى أبيعه نفسي راضياً مرضياً .

وأنت يا أخي تملك درة ثمينة وجوهرة نادرة تساوم عليها الملوك والرؤساء والتجار ! . . هذه الدرة لا يملك ثمنها إلّا إنسان واحد في أقصى الأرض ، فاذهب إليه تدرك قيمتها . لا تساوم عليها أحداً لأنك سوف تقع في الخسران المبين . هذه الدرة هي نفسك التي تملكها بين جنبيك . هذه النفس التي أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم عند حلولها فيه ، فيها نفخة

---

(١) سورة الشعراء ؛ الآيتان : ٨٨ ـ ٨٩ .
(٢) سورة الإنفطار ؛ الآية : ١٠ .

ونفحة من روح الله سبحانه وتعالىٰ .

ألا من يملك الجنة حتى أبيع نفسي إليه ! .

لقد امتثلت الملائكة لأمر الخالق العظيم فسجدت لأن قيمة النفس وثمنها عظيم ، لا يملكها إلّا الله . إذن نفسي أبيعها لمالكها ، وهكذا تتم المبايعة .

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾(١) .

لماذا اشترى ؟ لأنه يملك الثمن ، وهو الجنة . . وهل يوجد أحد يملك الجنة إلّا الله ؟ ! . . .

يقول فُضيل بن يسار: دخلت على حُميد بن قحطبة الطائي في شهر رمضان فوجدت أمامه المائدة في وقت صلاة الظهر ، فقلت خيراً إنشاء الله ، هل أنت مريض يا حُميد ؟ قال : لا والله لست مريضاً . قلت : إذن ربما أنت في سفر ، وإلّا كيف تفطر ، والإفطار من دون عذر جريمة ؟ ! قال : لا ، أنا لست مسافراً ، ولا مريضاً . إذن لماذا تفطر ، ولماذا لا تصوم ؟ ! قال لي : ويلك وما ينفعنى الصيام والصوم والعبادة ؟ . . قلت : وكيف ؟ قال : ذات ليلة أرسل بطلبي الرشيد ، فمثلت بين يديه . فقال لي : بكم تفدي الأمير ؟ قلت : أفديه بالمال والأهل . تبسّم الرشيد وقال لي : اذهب ارتاح فقد آذيناك في منتصف الليل وأزعجناك . يقول : ذهبت وأخذت راحتي ، وإذا مسرور الكبير ـ مدير الشرطة ـ أقبل وقال : أجب ، الأمير يدعوك . فلبست ملابسي وجئت وأنا أرتجف ، وأيقنت أنه سوف يقتلني الليلة . قال : بكم تفدي الأمير هارون الرشيد ؟ وكم يساوي عندك ؟ قلت : أفديه بأهلي ومالي ونفسي . قال : عجيب ، وصلت إلى هنا ؟ ؟ ! ثم تبسّم وقال لي : عد إلى فراشك ، لقد نغّصنا عليك نومك . يقول رجعت ، وبعد لحظات إذا بمسرور الكبير يقبل ويقول : أجب الأمير ،

---

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١١ .

الرشيد يدعوك . يقول : دخلت عليه هذه المرّة ، فقال : ويلك يابن قحطبة ، أجبني بكم تفدي الأمير ؟ . . أنا أمير المؤمنين الرشيد بكم تفديني ؟ . . قلت له : والله أفديك بمالي وأهلي وولدي ونفسي وديني . قال لي : أحسنت ، إذن أنت مثقف وعظيم ، ما دمت تفديني بدينك . قم واذهب مع هذا الغلام واصنع بما يأمرك ونفّذ ما يقول لك .

يقول أدخلني إلى بيت ، وفتح ثلاث غرف أمامه ، وفي كل غرفة عشرون من الشباب العلويين من أبناء علي وفاطمة ، من أبناء رسول الله ، سجنهم الرشيد .

قال الغلام : يأمرك الرشيد يا ابن قحطبة أن تقتل هؤلاء ، وتقطع رؤوسهم ، وترميهم بهذا البئر . قال : بدأت أضرب أعناقهم واحداً واحداً ، وإني لأسمع القرآن من شفاههم ورؤوسهم ، يقرأون القرآن ودموعهم تجري من مآقيهم .

هذه صورة، كانت تتكرر يومياً ، عن أفعال الظلمة وأعوانهم ، يقابلها صورة أولئك المؤمنين من أبناء علي الذين صبروا وتحملوا من أجل الإسلام وأهله .

قال ابن قحطبة : قتلتهم جميعاً ، وآخرهم كان شيخاً طاعناً في السن قال لي قبل مقتله : ويلك ! كيف تقابل جدّنا رسول الله يوم القيامة ؟ ! .

فارتعشت يداي وضعفت ، فالتفت الغلام وقال : يا ابن قحطبة ، أنهِ عليه ، خلّصه . فضربتُ عنقه .

يقول ابن قحطبة : أنا قتلت ستين علويّاً من شبابٍ وكُهَّل في شهر رمضانِ وفي ليلة واحدة ، وتريدني أن أصوم ! .

أنا بعتُ ديني وكلَّ ما أملك لهارون الرشيد ! فما يفيدني الصوم ؟ ! . . لقد خسرت الدنيا والآخرة .

روى فُضيل بن يسار هذه القصة للإمام موسىٰ بن جعفر ، قاضي باب

الحوائج ، فقال الإمام : «والله لَيأسُه من رحمة الله جريمة أكبر من فعله» .

هكذا عرف أهل البيت الإسلام ، وعلى هذا النحو فهموه . . .

﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون﴾(١) .

وبعودتنا إلى الآية الكريمة **﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء﴾**(٢) نرى أن الإسلام عمل بنظام الرق ، لأن انتصار المسلمين على الكافرين لا بدّ أن يخلّف أسرى ، فماذا تصنع بهم ؟ أتقتلهم ؟ أم تسجنهم ؟ والسجن ليس برادع ، بل على العكس فهو يشكل عبئاً على الاقتصاد الإسلامي . إذن أفضل طريقة وأحسن حلٍّ هو نظام الاسترقاق لذا فقد وضع الإسلام برامج ومناهج لتحرير الرقيق ، وخصوصاً في شهر رمضان . وكذلك بالنسبة للعبد فبيت المال مسؤول عن تحريره، وإطلاقه ، وعتق رقبته. ففي الكفارات مثلاً : إن الذي يفطر يوماً في شهر رمضان متعمّداً ، فكفارته واحدة من ثلاث : إما صيام ستين يوماً ، أو عتق رقبة ، أو إطعام ستين مسكيناً .

إذن ، تختلف مسألة الرق في الإسلام عما هي عليه في الغرب ، وعمّا شرّعه إبراهام لنكولن من تحرير العبيد .

إن الآية الكريمة لا تتحدث عن الرق ، وإنما أوردنا ذلك على سبيل المثال ، ولتقريب المعنى إلى الأذهان .

﴿ومن رزقناه منّا رزقاً حسناً﴾(٢) .

فالقول بالرزق الحسن يستدعي ضرورة أن يكون هناك رزق سيء . . فالرزق الحسن يعني الرزق الحلال الذي يكسبه صاحبه بالطرق المشروعة وعرق الجبين .

---

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٨٧ .

(٢) سورة النحل ؛ الآية : ٧٥ .

ثم يقول : ﴿فهو ينفق منه سراً وجهراً﴾ . لماذا ينفق جهراً ؟ لأنه بذلك قد يشجع الآخرين على العطاء ، ويكفّ ألسنة الناس عن الغيبة والنميمة ، كأنْ يقولوا : ذاك إنسان عظيم ولديه أموال ، لكنه لا يحسن على أحد ، ولا يسدّ حاجة المحتاج . . . من هنا كان التبرّع أمام الناس لا ضير عليه ، ولا يُسمى رياءً ، لأن غايته سليمة ومقصده حسن .

أما صدقة السرّ فهي تطفيء غضب الرب .

هكذا فهم أهل البيت الإسلام ، فعملوا وطبّقوا وكان الواحد منهم إذا أعطت يمينه لا تدري شماله . كانوا يطرقون الأبواب ليلاً ، يتصدّقون وهم متنكّرون كي لا يعرفهم أحد .

هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يطرق أبواب المدينة بيتاً بيتاً يتصدّق على المحتاجين ، ويشمل برعايته الفقراء والمساكين ، ويشق الطريق أمام أبنائه الطيبين : الحسن والحسين وعلي بن الحسين . . . . فينهجون على نهجه ، ويحتذون بسيرته .

وقصة أمير المؤمنين مع تلك المسكينة معروفة ، فقد ذهب وجاء بالطعام لأبنائها ومعه قنبر ، دخل عليها وهي تخبز فأخذ يلاطف الأطفال اليتامى ويلقمهم الطعام ويقول : بنـي ، اجعلوا علي بن أبي طالب في حِلّ منكم . .

هذه مناقب علي إنها مثال السمو والرفعة . . ﴿**ومن رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون**﴾ .

لم يقصد هذا الحر وذاك العبد إنما شمل الجنس البشري على الإطلاق .

﴿**الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ فالأمور تحتاج إلى علم وإدراك ، وعلى الإنسان أن يتتلمذ على الإمام علي عليه السلام حتى يعرف هذه الفلسفة ، ويدرك كنه أسرار الوجود . ﴿**وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم**﴾ .

فالأبكم هنا غير الأخرس ، وهو الذي لا يسمع ولا ينطق ، ولا يستطيع أن يُفيد بلسانه أو يستفيد بسمعه .

﴿لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأتي بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾[1] .

منزلة أمير المؤمنين من رسول الله :

يقول الإمام الباقر عليه السلام : «الذي يأمر بالعدل هو جدي علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام وهو على صراط مستقيم» .

إن نظرة سريعة على حياة الإمام علي ترينا أنه الممثل الشخصي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل هو نفس النبي ، وكثيرة هي الأحاديث التي أشارت إلى هذه المنزلة «يا علي ، أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ ، إلّا أنه لا نبي بعدي» .

فكل ما للنبي هو لعلي بن أبي طالب ، باستثناء النبوة .

أسرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الحديث في أذن علي في غزوة تبوك عندما تحرّك الروم وحلفاؤهم للنيل من الإسلام والمسلمين ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجيش قوامه ثلاثون ألف محارب ، مخلفاً علياً على المدينة وقائلاً له : إن القضية خطيرة ولا ينبغي أن نترك المدينة ، فإما أن أقيم فيها أنا أو تقيم أنت . . . .

حزن أمير المؤمنين على فراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال بعض المنافقين الذين في قلوبهم مرض : لقد كره رسول الله صحبة علي معه ، . فتألم الإمام وشكا إلى النبي ، فأخبره النبي بهذا الحديث وقال : (يا علي ، ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ ، إلّا أنه لا نبي بعدي) .

ورد هذا الحديث في صحاح المسلمين وفي صحيح البخاري .

---

(١) سورة النحل ؛ الآية : ٧٦ .

كلنا يعلم أن لكل نبيٍّ وصياً ، من آدم إلى رسول الله . فإبراهيم معه إسحاق وإسماعيل ، ونوح معه سام ، وآدم نفسه معه هبة الله أحد أبنائه ، وموسىٰ معه هارون ، وعيسىٰ معه شمعون والحواريون . . . . فلماذا يكون رسول الله من دون وصي ومن دون ولي ؟؟ . .

فرسالة محمد أثقل من كل الرسالات ﴿**إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**﴾[1] . فكيف أن موسىٰ يحتاج في رسالته إلى أخيه هارون ، ومحمد لا يحتاج إلى أخيه أمير المؤمنين ؟؟ . .

وإذا كان رسول الله لا يحتاج إلى وصي من بعده ، فهل وصلت الأُمة الإسلامية إلى مستوى النضج الكامل بحيث لا تحتاج إلى مرشد أو معلم أو موجّه بعد النبي ؟ ! أم أن التكليف رُفع عن الأُمة الإسلامية بعد وفاة الرسول ؟ .

إن التكليف لم يُرفع ، ولا بدّ ممن يعلّمنا شرائع الإسلام . إذن لا بدّ من عالم متفقّه يعلّمُ الأصول والفروع . لا بدّ من أبي الحسن علي مثال التقوى والشجاعة والفقه والعلم والكرم (أنا مدينة العلم وعلي بابها) .

إن أمير المؤمنين يرفض الأعذار المزيفة ، هناك يوم القيامة ، كأن يقول أحدهم : أنا لا أعرف الإمام علي .

الواحدي في أسباب النزول ، والحسكاني في شواهد التنزيل ، وابن حجر في الصواعق المحرقة ، أمثال هؤلاء عندما يقرأون هذه الآية : ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولون**﴾[2] يقولون : إن الإنسان يُسئل عن ولاية علي بن أبي طالب .

سبقتكُمُ إلى الإسلامُ طرّاً　　　صغيراً ما بلغتُ أوان حلمي

هذا المأمون العباسي ، وتعلمون من هو المأمون ، ومدى خطره على

(١) سورة المزمل ؛ الآية : ٥ .

(٢) سورة الصافات ؛ الآية : ٢٤ .

الإسلام والمسلمين ، فقد قتل الإمام الرضا ، وحاول قتل الإمام الجواد لكنه لم يفعل لأن الإمام الرضا أخبره أن عمره من عمر ولده الجواد ، فإذا قتله كان في ذلك مصرعه .

المأمون هذا حاول أن يُرسي قواعد حكمه ويثبّت أركان دولته فأظهر التشيّع وحبّه لعلي بن أبي طالب ، وجالس الفقهاء وحاورهم ، وله مع إسحاق هذا الحوار الطريف .

سأل المأمون كبير الفقهاء فقال : يا إسحاق ، ما أفضل الأعمال عند بعثة النبي ؟ قال إسحاق : الإخلاص في الشهادتين . قال : أو ليس السبق إلى الإسلام أفضل ؟ . .

إقرأ قوله تعالىٰ : **﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾**[1] قال إسحاق : نعم يا أمير المؤمنين ، السبق إلى الإسلام ، قال : إذن ، الإمام علي هو أسبق الناس إلى الإسلام . قال : ولكنه أسلم وهو حديث السن ، صبي لم يستكمل الحلم . . . وفلان وفلان ، وأبو بكر أسلم قبله . . .

قال : أنا أسألك من أسلم قبل ، علي أم أبو بكر ؟ . . وبعد ذلك أناظرك وأحادثك . قال إسحاق : لا ، علي أسلم قبل كل الناس «أنا أول الناس إسلاماً» قال : إذن ، إذا ثبت أن علياً أسلم قبل الناس ، فهل كان إسلامه إلهاماً من الله أم دعوة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ .

أطرق إسحاق إلى الأرض ، فقال له المأمون : لا تطرق ولا تقل إلهاماً من الله ، فتفضله على رسول الله . قال : إذن ، الرسول دعاه ؟ قال : بلى . قال المأمون : أسألك يا إسحاق ، هل دعاه رسول الله بأمر من الله أم تكلّف الدعوة من نفسه ؟ . أطرق إسحاق إلى الأرض ، فقال المأمون : لا تطرق إلى الأرض ، ولا تقل إن الرسول تكلّف الدعوة ، لأن الله ينفي التكلّف عن رسول الله **﴿وما أنا من المتكلفين﴾**[2] إذن ، إن الله

(١) سورة الواقعة ؛ الآية : ١٠ و ١١ .
(٢) سورة صٓ ؛ الآية : ٨٦ .

أمر رسوله أن يدعو علياً إلى الإسلام .

قال إسحاق : صحيح ، يا مولاي . قال : أرأيت الله يأمر أنبياءه بدعوة الصبيان الصغار الذين لم يستكملوا الحلم ؟ ؟ وكيف يدعوهم ؟ إما أن تقول إن الله لا يفهم ، وإما أن تقول إن الإمام علي له حكم آخر . .

قال : أعوذ بالله ، هذا له حكم آخر ، قال المأمون : إذن ، هو أول الناس إسلاماً ، وأقدمهم إيماناً .

هذه المحاورة جرت على لسان المأمون وأحد كبار الفقهاء . . .

يقول أحد العلماء : إذا وُجد إشكال على فضائل أي إنسان ، ففضائل علي لا إشكال فيها . . لأن من كان يذكر فضيلة من فضائل الإمام كان يلقى حتفه ، لذا ، فما من أحد يستطيع أن ينسب تلك الفضائل إلى الإمام أو يزورها ، لأنه سوف يعرّض نفسه للقتل ويلقى مصيره المحتوم . ,

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

هكذا كان الإمام علي مشعل هدى تزداد فضائله يوماً بعد يوم كلما أمعن بنو أمية في شتمه على المنابر طيلة ثمانين سنة .

قال رسول الله لأم سلمة : «يا أُم سلمة إن علي بن أبي طالب مني وأنا من علي ، لحمه لحمي ودمه دمي» .

وهو في آية المباهلة قمة ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير . .

هو كفؤ لفاطمة الزهراء التي تحدث عنها كل من الإمام الصادق والإمام الباقر فقال كل واحد منهما : «من عرف فاطمة فقد أدرك ليلة القدر» .

ونحن نقول بدورنا : من عرف علياً وفاطمة فقد أدرك معنى ليلة القدر .

فلولاهما لما نزل القرآن في هذه الليلة المباركة ، لأن الرسالة إذا

جاءت مع رسول الله ومات عنها انقطعت وتوقفت عنده ، وصارت إلى أُناس لا يعرفون القرآن ، ولا يستطيعون البتّ في معظم المسائل الدينية والشرعية التي تُعرض عليهم .

يقول الرسول الكريم : «أنا مدينة العلم وعلي بابها» ويؤكد هذا القول علي في مخاطبته لكميل بن زياد «يا كُميل ، إن هنا لعلماً جمّاً ، لو أصبت له حَملَه » وكان يشير إلى صدره .

نحن في مدرسة الإمام علي يجب أن نتفاعل مع فكره ، ونغرف من نبعه ، ونروي ظمأنا من معينه . . . فما من مسألة علمية أو فلسفية فقهية أو لغوية . . . إلاَّ ونجد لها حّلاً وتفسيراً عند سيّد البلغاء علي بن أبي طالب . فما بالنا لا نعرض مشاكلنا ابتداء من هذه الليلة المباركة على الإمام أمير المؤمنين ونسمع الإجابات السديدة والحكيمة ، فنتفاعل أكثر وتكون الفائدة أعمّ وأشمل .

أنتم في مجلسٍ تُذكر فيه فضائل علي بن أبي طالب ، ولا شك أن الجلوس في مثل هذا المجلس عبادة ، لأن الملائكة تزدحم في مكان تُذكر فيه فضائل علي ومناقبه ، وتفوح منه رائحة عطرة تشمها الملائكة ببركات أمير المؤمنين .

يقول الإمام علي لولده الحسن : «اعلم يا بني ، إن الله لم يكن ليجعل الدنيا إلاَّ ما هي عليه من الابتلاء والضراء» .

هذه حال الدنيا ، من عمل لها أغرقته ، ومن انصرف عنها كافأته . . .

كم من أُناس لا يُقدَّرون بقدر ، لا يحسنون القراءة والكتابة ، ومع هذا يملكون الأموال والعقارات . . وغيرهم من أصحاب الفطنة والذكاء لا يملكون شيئاً ، إنما يقضون حياتهم يلهثون وراء رزقهم دون جدوى ! فعلى هؤلاء أن يتسلّحوا بالإيمان والصبر ، ولا يفقدوا ثقتهم بالله فيسقطوا في هوّة ساحقة ليس لها قرار .

عندما كان فرعون يتحدث إلى قومه كان يطلُّ عليهم من خلال هذه الفلسفة قائلاً : إن العظيم في الحياة هو الذي يملك الذهب والفضة ، ويلبس الوشي والخز ، ويقيم في القصور والبلاطات . . . هذا هو الرجل العظيم . أما موسىٰ فهو راعي غنم وبيده عصا . . .

﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾(١) .

يقول الله سبحانه وتعالىٰ في محكم كتابه العزيز : **﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرّحمٰن لبيوتهم سقفاً من فضة﴾**(٢) لكننا لا نريد أن تكون الأمة والناس كلهم كفرة ، فالحياة لا قيمة لها ، ولو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة لما سقى فيها كافراً شربة ماء .

بطلة كربلاء :

أما زينب العقيلة بطلة كربلاء ، بنت علي ، هذه التي حملت في صدرها فلسفة أبيها فقد وقفت في مجلس يزيد بن معاوية وقفة الجرأة والثبات وهي تقول : أي يزيد ، لا يخطر ببالك ولا تتصوّر أنك جالس على هذا العرش ، وأن ابنة علي بن أبي طالب موثقة بالحبال بين يديك ، ورأس سيّد شباب أهل الجنة في طبق أمامك ، فلا تتصوّر أنك على حق وأننا على باطل ، ولا تعتقد أن الله معك وأنه قد تخلّى عنا ، بل سيجمع الله بيننا وبينك ، فنختصم عنده . . .

أي يزيد ، أظننت حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الإماء ؟ ! إن بنا لهواناً على الله وبك عليه كرامة . . وإن ذلك لعظم خطرك عنده . . فشمخت بأنفك ، ونظرت في

---

(١) سورة الزخرف ؛ الآيات : ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤ .
(٢) سورة الزخرف ؛ الآية : ٣٣ .

عطفك جذلان مسروراً حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة ، والأمور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا ، فمهلاً مهلاً ، لا تطش جهلاً ! أنسيت قول الله تعالىٰ : ﴿ولا يحسبنّ الذين كفروا أنّما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾(١) .

أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن ؟ ! .

هذه حال الدنيا ! فمعصية الله لا تكون إلاّ فيها ، وهذا ما يشير إلى هوانها وضئيل قيمتها . . يقول الإمام علي أمير المؤنين : «من هوان الدنيا على الله أن الله لا يُعصى إلاّ فيها» .

أمام الطاغوت :

هذه فاطمة بنت الحسين ، التي كانت تشبه الحور العين في جمالها وكمالها ، تقف إلى جوار عمتها زينب مطرقة الرأس ، واجمة القلب . . فيقوم رجل من أهل الشام ويقول : يزيد ، هب لي هذه الجارية تكون خادمة عندي ! فتخاف فاطمة وترتعد وتلوذ بأطراف ثياب عمتها زينب قائلة : عمة زينب ، أيتّمتُ واستخدم من بعد أبي الحسين ؟ ! .

قالت زينب : كذبت ولؤمت ، ما كان ذلك لك ، ولا لأميرك هذا .

فغضب يزيد وقال : إن هذا لي ، ولوشئت لفعلت .

فقالت زينب: كلا والله ما جعل الله لك ذلك ، إلاّ أن تخرج من ملّتنا وتدين بغير ديننا .

فقال لها : إياي تستقبلين بهذا ! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك .

قالت زينب : بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدّك إن كنت مسلماً . فقال يزيد : كذبت يا عدوّة الله .

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٧٧ .

فـرقّت العقيلة زينب لأنـه لم يسبق أن تجـرّأ عليهـا أحـد من قبـل ، وجرت دموعها على خديها ، وتذكرت إخوتها ، وأول من تذكـرت أبو الفضـل العباس ، قمر العشيرة ، فقالت : أنت أمير تشتم ظالماً ، وتقهر بسلطانك .

فاستحيا يزيد وسكت عنها . . .

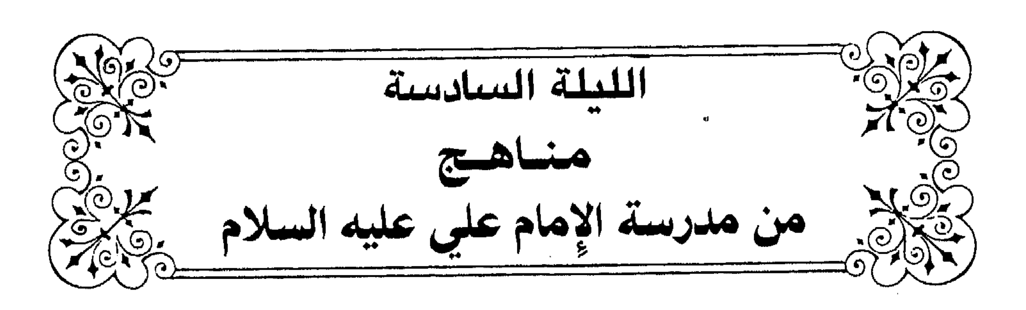
أعاد الشامي كلامه مرّة ثانيـة ، فقال لـه يزيـد : اسكت ، وهب الله لكَ حتفاً قاضياً . أعرفتهـا ؟ قال : لا . قـال يزيـد : هذه فـاطمة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله !!! . . .

قـال الشآمي : سـوّد الله وجهك يـا يزيـد ، كيف تـزعم أنهم خـوارج ، وهؤلاء هم أهل بيت النبوّة ، وهذه بنت الحسين هنا في مجلسك ؟ ! . .

إلٰهنـا تـقبّـل أعمـالنـا ، يـا الله يـا رحمن يا رحيم ، يا مقلّب القلوب والأحـوال ، حوّل حـالنا إلى أحسن حـال **﴿ربنا لا تـزغ قلوبنا بعـد إذ هديتنـا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب﴾**[1] .

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ٨ .



الليلة السادسة
مناهج
من مدرسة الإمام علي عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وسلامٌ عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾[1] .

شهر رمضان هو شهر السلام لأن فيه ليلة القدر التي نزل فيها القرآن ﴿سلام هي . . .﴾[2] .

هذه الليلة وزعت السلام على جنبات الكون ، كما أن كل الكتب السماوية اختار الله لها سبحانه وتعالىٰ ظرفاً زمنياً عظيماً وهو شهر رمضان .

وطالما نحن في مدرسة الإمام علي فباستطاعتنا أن نكون ناجحين ومنتصرين ومظفرين في حياتنا ، لأنه لا يمكن أن نكون في صحبة عظيمٍ ومفكرٍ وفيلسوفٍ ونكون بعيدين عن النجاح والنصر والظفر والآن من خلال الأسئلة التي وردتنا من الشباب ، والتي نلتمس فيها الدقة والأهمية ونستدل من خلالها على عمق التفكير وبعد النظر ، سنحاول الإجابة عليها من خلال المحاضرة دون أن نشير إلى أصحابها أو مواضيعها حتى يكون بحثنا متماسكاً ومترابطاً (يا علي لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما

---

(١) سورة مريم ؛ الآية : ١٥ .

(٢) سورة القدر ؛ الآية : ٥ .

طلعت عليه الشمس) .

الإنسان في الإسلام له منهج تربوي خاص يختلف عمّا في كل المذاهب والأنظمة والأديان . إذ أن كل المبادىء والشرائع تخص المناهج التربوية بالحياة الدنيا ، فهي تبدأ من مرحلةٍ معينةٍ : من أيام الطفولة أو الرشد أو الصبا ولكن رحلة الإنسان في الإسلام تبدأ وهو في عالم الذر ، ثم تخطو هذه الرحلة فتمشي في رحم الأم ، في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة وتستمر في الدنيا حيث تنتهي إلى أول محطات الآخرة ، وهو القبر ، والناس في غفلة عن هذا وهم عنه معرضون .

﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾(١) .

إذا تمكن الإنسان في هذه الرحلة ، أن يستوعب معنى الصوم ، والإسلام ، وولاية علي بن أبي طالب ومعنى النجاح والظفر . . . تزود لرحلته بزاد السلام في هذا الشهر العظيم ، وعبر كل المحطات بأمانٍ واطمئنان **﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾**(٢) .

﴿وسلامٌ عليّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً﴾(٣) .

تشير الآية الكريمة إلى إمكانية العيش بسلامٍ في هذه الدنيا لكنه لا سلام في الآخرة .

وسلامة العيش في الدنيا هي عبارة عن سلام مادي نلحظه عند الغربيين ، فيتبادر إلى اذهاننا أنهم متقدمون وأننا متخلفون ، بينما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول : «الله الله في القرآن فلا يسبقكم بالعمل به غيركم» .

---

(١) سورة ق ؛ الآية : ٢٢ .
(٢) سورة القدر ؛ الآية : ٥ .
(٣) سورة مريم ؛ الآية : ٣٣ .

كيف يسبقنا غيرنا إلى العمل بالقرآن ، وهل غيرنا مؤمن بالقرآن ؟ ! وإذا آمن به معناه أنه موجه إليه . . .

هذه الأسئلة يجيب عليها أمير المؤمنين عندما يشير إلى مناهج الحياة التي أخطتّها القرآن ، ورسمها الدين الحنيف قائلاً : إن الغربيين يأخذون تلك المناهج ويطبقونها ويفيدون منها .

هذه الرؤيا المستقبلية تجد صداها في قول أحد الغربيين : أنتم معشر المسلمين نزلت عليكم سورة الحديد في القرآن ، ونحن استخرجنا الحديد من الأرض . وبدأتم تقرأون هذه السورة . إنكم تجودونها وتجيدون قراءتها ونحن وضعنا أجنحةً لهذا الحديد وأطلقناه في الجو ! .

إن أمير المؤمنين عليه السلام يشير إلى هذا المعنى العملي في الجانب الحياتي الذي طبقه الغربيون فوصلوا إلى قمة التطور التكنولوجي .

﴿**لا يسبقكم بالعمل به . . .**﴾ فالعمل هنا ليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعمل هنا ليس بالصوم والصلاة والتهجد والعبادة . . . إنما هو ما أشار إليه الإمام علي .

صحيح إن الغربيين وصلوا إلى قمة التطور في الجانب الحياتي ، ولكنهم ما زالوا أسيري صرخة القلق التي تنهش قلوبهم وتدمر نفوسهم لأنهم لا يعرفون فلسفة الحياة ، فهم في حسرةٍ على الماضي المرتبط بالدنيا وخوفٍ من المستقبل الواهي الذي ليس له قرار مرض العصر هذا بعيد عن الإسلام وعن مدرسة أمير المؤمنين عليه السلام، تلك المدرسة تتضح معالمها في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يا علي ، لا تؤجل حقاً لغدٍ فإن لكل غدٍ حقه» .

هذه الإنطلاقة صدرت عن خاتم النبيين الذي لقّن وصيّه ألف بابٍ من أبواب العلم «علمني رسول الله ألف بابٍ من العلم يُفتح لي من كل بابٍ ألف ألف باب» .

وأنت ، إذا أردت أن تعيش بسلام ، وتؤدّي واجبك ، وتقوم بأعمالك

اليـوميـة على أحسن مـا يـرام ، تـأتي إلى أميـر المؤمنين فتـراه يخـاطب أحـد أصحابه بقوله : مالك مهمـوم ؟ لماذا كـل هذا الهم والغمّ ؟ . . . «لا تحمـل همّ يـومك الـذي لم يأتـك على هم يومـك الذي أنت فيـه» . لا تحمل همّين في يـوم واحـد ، فعليـك بهم يـومـك ، ومـا يـدرك أن يـأتي الغـد وأنت رهن التراب .

هذا من أروع المناهج التربوية لتقـدم الإنسان وانـطلاقه في الحيـاة لأن فيـه من الصور الـرائعة واللوحـات الغنية التي استقـاها أميـر المؤمنين من فكـر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

إن خـطاب الرسـول لأبي ذر لم يبق في نطاقـه الإقليمي إنما أخـذه ديل كـارينجي ، عالم في نيـويورك ، ووضـع كتـاب «دع القلق وابـدأ الحيـاة» ثم فتـح لـه غـرفـة صغيـرة في مـا نهـاتن وراح يعـالـج مشـاكـل النـاس النفسيـة والإجتمـاعية . . . وإذا هـذه الغرفـة تتحول إلى شـركـة كبـرى في الـولايـات المتحدة ولها فروع في كل أوروبا .

هـذا الرجـل يتحـدث عن القلق وينصـح النـاس أن يعيشـوا في حـدود يـومهم . ويأخـذكم العجب إذا علمتم أن هذا العـالم اقتبس أفكاره من كلمـة لأميـر المؤمنين ، وقد صـرّح بذلـك لبعض معارفـه ولكنه لم يـذكـر ذلـك في كتبـه . . . وهكذا استـطاع أن يسيـطر بفكـره على كـل الشعـوب الأوروبيـة ، والكل يحيطه بالاحترام والتقدير وشبابنا يقرأون له ويعملون بنصائحه .

قبـل ١٤٠٠ سنـة خـاطب الـرسـول أبـا ذر قـائـلاً : يـا أبـا ذر ، إيّـاك والتسـويف بأملك ، فـإنما أنت بيـومك ولست بمـا بعده . فـإن يكن غـداً من عمرك فكن في الغد كمـا كنت في اليوم ، وإن لم يكن غـد من عمرك فعـلام تحمل همّ ما ليس من عمرك ؟ .

وهذا الإمام علي عليه السلام يقول : كل يوم ، عندمـا تفتح عينيـك عند طلوع الشمس ، ينـاديـك بلسـان فصيـح ، ولكنـك تعجـز عن فهمـه حيث يقـول : «يـابن آدم ، أنا خلق جـديد ، وإني عليـك يوم القيـامة شهيـد ، فـاعمـل فيّ

خيراً فإني لن أعود إليك بعدها أبداً» . ثم يقول مثل هذا القول إذا جاء الليل كأنه يذكّر ويبشّر . . .

ويقول الإمام علي أيضاً «لا تقطع نهارك بكذا وكذا ، فإن عليك من يحفظ عملك» .

تتجلى الدقة والنظام في هذه الأقوال بالإضافة إلى بعث الراحة والطمأنينة في النفوس القلقة الحائرة .

فالإنسان الذي يوكل أمره لله يستمد منه القوة ، وخاصة الإنسان المؤمن ، فحرمته أعظم من حرمة الكعبة كما يقول الرسول الكريم ، وإن الدنيا لا تساوي عنده شيئاً في ميزان الآخرة .

«عَظُم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم» . فعندما تتجلى عظمة الخالق في قلب المؤمن لا بدّ أن تصبح الأُمور الأُخرى صغيرة وتافهة . وإذا فاتته الدنيا لا يأسف عليها لأنه ينتظر الآخرة وما فيها من نعيم سرمدي .

«لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم» إذاً الخطاب صريح ، فلا تأس ولا تحزن على متاع الدنيا ، بل احزن على ما فاتك من صلاة ، أو عدم القيام بواجبك اتجاه مؤمن . . احزن على نفسك إذا أخذتك الغفوة وفاتتك صلاة الليل في رمضان . . . احزن على نفسك إذا لم تستغفر الله في هذا الشهر العظيم .

من هنا تبدو هشاشة تلك المسائل التي تشغل الناس في أيامنا وتستحوذ على تفكيرهم : الأسهم والأوراق المالية والجنية والدولار . . . الإسلام لا يمنحك شيئاً من هذا ، إنما يقول لك : الدنيا ليست كل شيء في هذه الحياة ، ولو كانت كذلك لما فاتت علي بن أبي طالب .

لو كانت الدنيا تعادل شيئاً في ميزان الآخرة لما فاتت أمير المؤمنين ، وهو القائل : «يا دنيا ، غرِّي غيري» .

ألا ترى أولئك الذين تهاووا على الدنيا ماذا كانت مصائرهم ، أين معاوية بن أبي سفيان ؟ ! لم يبق منه سوى مقالة أمير المؤمنين فيه «والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر» .

صدّقوني أيها الأخوة ، إذا كان الله في القلوب فإن هذه القلوب تحمل صفاءً ونقاءً وطهراً وتنأى عن الحقد والعداوة والأنانية . . .

فالملك والفقير كلاهما سواسية على المغتسل . . الكل يجرّد من ثيابه وأمواله ، ولا يصطحب معه سوى إثنين : الإيمان والعمل الصالح . فهذا خير زاد أتزوّد به لآخرتي في رحلتي وفي قبري وفي المحشر أمام الله . وعلينا أن ندرك أنه بانتفاء الإيمان ينتفي وجود العمل الصالح .

أهل الطاعة والنجاة :

«سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلاّ ظلّه» .

الأوّل : إمام عادل ، أعطاه الله سلطة وصولجاناً ، فرحم شعبه ، وبرَّ بالعباد ومشى فيهم بالعدل والإحسان . . هذا الحاكم يتفيأ ظلّ الله لأنه لم يدخل الخوف والرعب في نفوس رعيته ، بل أحسن قيادهم وتحسّس آلامهم . . إمام عادل كمثل أمير المؤمنين يمشي في الأسواق ، يتفقّد الرعية ، يتحسّس آلام الناس ، يرعىٰ مصالحهم ، يذبّ عن ضعيفهم . . . يلبس لباس خادمه قنبر ، بل ربما كان لباس خادمه أكثر جدّة ، وأحسن حالاً . . . فقد اشترى ثوبين وقدّم أفضلهما لقنبر الحبشي ، ومشى معه في الأسواق ، فيلتفت هذا ويقول : سيدي ، أنت تصعد المنبر وتحتاج إلى لباس يضفي البهجة في النفوس ، فيقول أمير المؤمنين : «يا قنبر ، أنت شاب ولك شَرَه الشباب ، وإني لأستحي من الله أن أتفضّل عليك في لباسك» .

هذه مدرسة علي ، إنها تغسل القلوب ، وتطهر النفوس من أدرانها ، وتجعل الحاكم في منزلة الرعية لا يتفضّل عليها ، ولا تأخذه الخيلاء ولو

طرفة عين . . . .

أين هذه المدرسة بصفاء تعاليمها وطهر مبادئها من مدارس اليوم التي تأبى على الأسود أن يدخل الكنيسة لا لشيء إلاّ لأنه أسود !!! .

الثاني : شاب نشأ في طاعة الله .

وأنتم تعرفون أنه في الأخبار الواردة عن أهل البيت وعن أمير المؤمنين بالذات حيث يقول : «إذا وقف الشاب لصلاته أسودّ الشيطان واحترق» لأن الشباب مفعم بالغرائز والشهوات والميل إلى الحياة ، ولكنه مع هذا متوثب إلى عمل الخير والإحسان . . . وشبابنا ثروة وثورة ، إنهم كالدرر الثمينة يحاول الغرب أن ينتزعها من بين أيدينا عن طريق إفشاء العبث والمخدرات والخمر والاستهتار والأفلام الخلاعية . . . ونحن بدورنا يجب أن نحرص على هذه الثروة فنصونها بالتعبّد والتهجّد وحضور مجالس الحسين ، والالتقاء في المساجد . . . فإذا التفت الشاب إلى نفسه . وحضر هذه المجالس ﴿**فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب**﴾[1] .

فالدعاء ، أيها الأخوة ، مقبول في المحراب ، لأن المحراب مأخوذ من محاربة الشيطان ﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا . قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾[2] .

إذن طريق الصلاة سبيل إلى الرزق والخير والعطاء ، وحضور مجالس الحسين مورد للإيمان وتجدّد النفس ودفع البلاء . . .

الثالث : «رجل ذكر الله في نفسه ففاضت عيناه من الدموع» .

إذن ، الثالث يكثر من ذكر الله في سرّه وعلانيته فتأخذه الخشية

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ٣٩ .
(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ٣٧ .

والخشوع ، وتجري عيناه بالدموع . هذه الدموع جواز مرور إلى ظل عرش الله يوم لا ظل إلاّ ظله . والرجل الذي يذكر الله فتفيض عيناه بالدموع هو الذي يقضي حوائج الناس ، ويتفقّد اليتامى والأرامل والفقراء والمساكين . . . يتحسّس آلام الناس ، ويعيش همومهم ، ويتألم لمعاناتهم .

همّام ، أحد تلامذة الإمام علي ، يقول للإمام : صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم . تباطأ الإمام خوفاً عليه لأنه وصل إلى مرحلة من العرفان ، ثم أجاب فقال : «فالمتقون فيها هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع . غضّوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم . نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء ، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون . أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن» .

إن آية واحدة تتلوها في شهر رمضان تعادل سبعين ختمة للقرآن في غيرها من الأيام والشهور .

أكتفي بذكر هؤلاء الثلاثة ، حتى لا أخرج عن الموضوع ، وسنعود في الأيام اللاحقة إلى تفصيل ما بدأناه .

الدعوة إلى معرفة الله :

«عَظُم الخالق في أنفسهم فصَغُر ما دونه في أعينهم» .

إن بعض الناس ، أيها الأخوة ، لا يخاف الله . ولنضرب في ذلك مثلاً علّنا نقرّب المعنى إلى الأذهان ، ونصب القضايا المعقولة في قالب حسي .

ففي حديقة الحيوانات ، مكان مخصص للفهود ، وآخر للأسود و . . . ولنفرض أن هناك فأراً صغيراً . لا شك أن هذا الفأر سوف نراه يقفز هنا

وهناك غير ملتفت إلى تلك الحيوانات المفترسة ، وقد نتعجّب أنه لا يخاف الأسد ولا يخشى وجوده . . . ولكن إذا دخلت قطة صغيرة نراه ينكمش على نفسه ولا يتحرك . لماذا ؟ والجواب واضح لا يحتاج إلى تفكير أو كدٍّ للذهن . فالفأر ليس لديه القدرة على استيعاب الأسد ، لذا فهو لا يخاف منه ، والآن نستخلص الحكمة ونصل إلى الغاية . فالذي لا يخاف الله فهو لا يعرفه ، وليس له وجود في نفسه ، بينما هو نفسه نراه يخاف من المخلوقات أمثاله : كالشرطي والجندي و . . . . ويقدّر كلَّ ذي مال أو جاه أو سلطة . . .

ونحن أيها الأحبة ، في شهر رمضان ، فيجب أن نعرف الله ونكون في مستوى الخوف منه . فالدنيا دار اختبار .

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾(١) فكلُّنا خاضع للاختبار والتجربة ، والمؤمن هو الذي يتجاوز الامتحان . وعلى سبيل المثل : لنقل أنك تمشي في الشارع ، وفجأة لفتت نظرك سيارة فخمة فيها فتاة بارعة الجمال . . . هل تفقد أعصابك ؟ هل تلاحقها وتنسى نفسك ؟ ! هذا هو الامتحان وعناصره الإغراءات لكنّ الناس لا يعرفون الدنيا ، ولا يفقهون حكمة رب العالمين ، ولا يدركون سنّة الحياة ، لذلك نراهم ينسون الله في يُسرهم فيتباهون بسيارة أو مال أو متاع زائف . . . . . وإذا عدنا بالذاكرة إلى ثلاثين أو أربعين سنة نرى أجدادنا قد استغنوا عن كل مستحدثات الحضارة وعاشوا في وئام وشرف . . . فالنفط يذهب كما جاء ، والأموال تصير إلى الزوال والنفاد ، وتبقى القيم الروحية والأخلاقية راسخة ثابتة يُنظر من خلالها إلى الإنسان ، لا من خلال الأموال التي قد تحمل المرء على الطغيان والظلم . . . .

﴿إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى﴾(٢) هذه صورة الإنسان الغني

---

(١) سورة الكهف ؛ الآية : ٧ .

(٢) سورة العلق ؛ الآية : ٦ و ٧ .

الـذي تـدفعـه أمـوالـه إلى الـظلم والجـور . أمـا المؤمن فـلا تؤثـر فيـه كنـوز الكـون . ونحن أُناسـاً مؤمنين إنشـاء الله ، لا تؤثـر الأمـوال علينـا ولا تُضعف نفـوسنا . بـل نحن نستعبدهـا فنقضي بها حـوائجنا حتى نمـر بسلام في هـذه المواطن الثلاث .

﴿وسـلام عليـه يـوم وُلـد﴾[1] أراد المنـاهـج التـربـويـة التي تحتضن الجنين وهـو في رحم أُمـه . هـذه المنـاهـج تحفـظه حتى يخـرج إلى الحيـاة سليمـاً ، لا يصـاب بســوءٍ أو نقصٍ في التغـذيــة ، فيعيش الحيـاة بســلام وطمـأنينة لأنـه يتزود في حيـاته بغـذاء الإيمان والأخـلاق . فإذا تـزوّد بهـا في الدنيا عاش بسلام في الآخرة .

يقـول الإمـام علي عليه السلام : «واعلـم يــا بني أنـك إنمــا خُلقت للبقـاء لا للفناء» .

هذا هو مفهـومنا للدنيـا ، فهي دار فناء ، والبقـاء هناك في الـدار الأزلية الخـالدة . فـلا موت عنـدنا . والمـوت يعني انفصـال الـروح عن الجسـد . فالجسد يُحضره الله سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة .

إذاً ، المـوت كما نتصـوره غير مـوجود ، إنمـا الانتقال يكـون إلى عالم آخر وإلى مرحلة أُخرى أفضل وأحسن .

ففي لحظة الوفاة ترى من لـه علاقـة بأميـر المؤمنين يرأف بـه لأنه قسيم النـار والجنة . وهـذا بإجمـاع المسلمين السنة والشيعـة على السـواء . فحب علي بن أبي طالب نور وإيمان ، وهو عـلامة المؤمن ، وبغضـه علامـة المنافق الفاسق .

فـالإمام قسيم الجنـة والنار . يقـول للنار : خـذي هذا ودعي ذاك . . . وهـذا ما ورد عن الـزهراء عليها السلام أنهـا تلتقط شيعتهـا كمـا يلتقط الـطير الحبَّ الجيّد من الحبّ الرديء .

---

(1) سورة مريم ؛ الآية : ١٥ .

يقول الإمام علي عليه السلام: «كما يبعث الرجل منكم غلامه ليفرش له ويفترش له ـ فكذلك العمل الصالح يذهب فيمهد لصاحبه» .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات فلأنفسهم يمهدون) .

هذا الجانب يُلاحظ في يوم القيامة ، فإذا لم يكن لدينا تعلّق في الدنيا وزخرفها فإن حياتنا تسير بشكل طبيعي **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾**[1] .

وهذا ديل كارينجي يذكر قصة في كتابه «دع القلق وابدأ الحياة» يقول : كان استاذنا يلقننا الدروس والمواعظ عبر الاقناع والبرهان . فقد دخل علينا يوماً وبيده إناء مُلىء باللبن ، وضعه على المنضدة ، وكلنا ينتظر ماذا يريد أن يصنع ، ثم دفع الإناء بظهر يده ، فوقع على الأرض وتحطّم وتناثرت أجزاؤه ، واختلط اللبن بالتراب ، فالتفت إلينا وقال : يا أبنائي ، هل يستطيع أحدكم أن يسترجع ذرات هذا اللبن المسكوب ؟ ! قلنا : لا . قال : إذن ، لا داعي للتحسر على ما فات ، بل علينا الانطلاق من جديد . يقول كارينجي : إن هذه الطريقة العملية في التفكير غيّرت مجرى حياتي .

هذا التصوير له علاقة بالدنيا . كان بإمكاننا أن نحفظ الإناء قبل أن يقع ، أما وقد وقع فقد انتهى الأمر .

إن هذه الآية **﴿لكيلا تأسوا . . .﴾** تكشف عن قانون عظيم ، لو طبّقه الناس لما وجدنا في مستشفى الأمراض العقلية هذا الكم الهائل من المرضى . فكثير من النزلاء يجدون علاجهم في هذه الآية الكريمة كما يقول إمامنا علي بن أبي طالب ، فنراهم وقد مرّت بهم أمواج المناخ وأمواج الأسهم قد فقدوا كل شيء وانهارت أعصابهم ، والبعض منهم فارق الدنيا من الألم والحُرقة ، لأنه لا يعرف معنى الحياة فمات حسرةً وكمداً .

وبالمقابل ، هناك تجار مؤمنون لم تفسدهم الثروات ، ولم يضعف

---

(١) سورة الحديد ؛ الآية : ٢٣ .

من نفوسهم متاع الدنيا وزخرفها . . أذكر في هذا السبيل تاجراً في البحرين كان يتجر بالأراضي والعقارات . . . جاءه يوماً أحد أصدقائه وقد بدا حزيناً كئيباً لدرجة الإنهيار . التفت إليه التاجر وقال : لماذا أنت حزين وكئيب ؟ قال : لقد خسرت عشرة ملايين ديناراً ، وهي خسارة جسيمة لا يمكن احتمالها أو تعويضها . قال له : أتدري ما الخسارة الكبرى ؟ قال : لا . قال التاجر المؤمن : الخسارة الكبرىٰ هي أن تُعطى كتابك بشمالك يوم القيامة . الخسارة الحقة هي أن يشيح عنك رسول الله بوجهه ، الخسارة إذا لم يحضرك ابن أبي طالب في أول ليلة من قبرك ، في ليلة الوحشة .

صدّقوني ، لقد أُعجبت بهذا التاجر المؤمن ولم أتمالك نفسي من الثناء عليه قائلاً : أنت عالم جليل ، وكلامك هذا يريح النفس ، ويبعث الأمل ، وما قيمة هذه الخسارة إذا قُورنت بخسارة الآخرة . . .

كان لكلام التاجر وقع لدى صديقه فبعث في نفسه الراحة والطمأنينة .

«لا تنظر إلى من هم فوقك ـ بالمال ـ وانظر إلى من هم دونك» .

فالنظر إلى من هم أغنى منك يضعك في متاهة لا تجد منها منفذاً ، فإذا تجمّع لديك الملايين فستجد من هو أكثر منك مالاً وأيسر حالاً ، وهكذا تضع نفسك في طريق لا ينتهي ، وتقضي عمرك في لهفة وحسرة .

ولا تنظر إلى من هو أقل منك في العبادة والإيمان ، بل انظر إلى من هو أعلى منك ، وبهذا يكون التكامل .

سأل أحدهم أمير المؤمنين عليه السلام قال : سيدي ، كيف نخالط الناس ؟ وكيف نعيش معهم في هذا الزمن العصيب ؟ قال : «خالطوا الناس مخالطة إن مِتّم معها بكوا عليكم ، وإن عشتم معها حنّوا إليكم» .

هذه الأخلاق الفاضلة والتربية الإيمانية الحقّة ، وهذا الصفاء في التوجّه نستطيع أن نأخذه من علي أمير المؤمنين ، وأن نمارسه في كل عبادات الإسلام .

يقـول الإمـام في آخـر لحـظة من حيـاتـه : «الله الله في نـظم أمـركم وصلاح ذات بينكم» .

وتقول فاطمة الزهراء عليها السلام : «وجعل الله سبحـانه وتعـالىٰ طاعتنـا نظامـاً للملة ، وإمامتنا أماناً من الفرقة» .

فـأنت ترى وحدة المسلمين وتوحيد صفـوفهم وأعمالهم تنتـظم في كـل العبادات : في الصيام والحج وفي الصلاة والزكاة والجهاد .

لاحظوا التوحيد في الصيام . كل المسلمين يصومـون في شهر واحـد ، هـو شهر رمضـان . الكل لهم مـوعد واحـد للإفـطار ، وكذلـك للإمسـاك عن الطعام . كفو أيديكم عن الـطعام . . أطلقـوا أيديكم . . فهـذا نظام سمـاوي يتقبّله المسلم بطيبة نفس دون اللجوء إلى الإكراه .

لاحـظوا النظام في الصـلاة : في صلاة الجمـاعـة ، في النـظافـة ، في عادة التزاور بين الناس . . . .

«شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة الله وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله» .

فـإذا دعانـا الله لضيافتـه فلا بـدّ أن نكون نـظيفي الظواهـر والسرائـر : نحـافظ على قيافتنا، ونصون ألسنتنا ، ونصـدق في نياتنـا إكرامـاً للداعي جلّ وعلا .

والآن ، أيهـا الأحبة ، وبـالعودة إلى مسيرتنـا مـع علي أميـر المؤمنين ، أقـول إني أجبت من خـلال المحـاضـرة على أكثـر من خمسـة أسئلة ، لكني أرجأت سؤالاً واحداً في مجال الرياضيات عنـد أمير المؤمنين ، ولسـوف نلقي محـاضرة خـاصة تتنـاول نظريـة الإمام علي في الـرياضيـات والفيزيـاء إن شاء الله . وأعـود فأقـول : أنا لست إلاّ نـاقلاً ، أنقـل لكم جواب سيـدي ومـولاي أمير المؤمنين ، أليس هو القائل «سلوني قبـل أن تفقدوني ، سلوني عن طـرق السمٰوات أنا أعلم بها من طرق الأرض» .

لذا نرجو أن تتضاعف الأسئلة كي نتذاكر ونتفاعل في الليالي المباركة القادمة .

أمير المؤمنين ووفاة الرسول :

هناك سؤال يتبادر إلى الأذهان : أين كان علي أمير المؤمنين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ .

الكل يتصور أن الإمام علياً كان جليس بيته وحبيس داره . وربما يتصوّر البعض أن هذا الأمر خطأ كبير ، وموقف فيه تقصير ، إذن لا بدّ من جلائه ، فالذي يتخيل أن أمير المؤمنين كان جليس بيته لا يصنع شيئاً ولا يتدبّر أمراً فهو لا يعرف الإمام ، ولا يدرك سرَّ عظمته .

فعلي هو إمام سواء نال الخلافة أم لم ينلها ، وهو إمام معصوم وخليفة الله في الأرض سواء أيّده الناس أم خذلوه ، وهو الإمام المفترض الطاعة . . . فكيف يترك الإسلام وأهله ؟ ! . . .

من الطبيعي ألا يتخلى الإمام عن دوره القيادي حتى ولو كان لديه إشكال على القيادة والخلافة . . . والواقع أنه بعد وفاة النبي كان يدير ثلاث وزارات هي : وزارة الحربية ، ووزارة القضاء ، ووزارة المعارف (أي نشر العلوم الإسلامية) .

هذا دور الإمام علي في هذه الفترة ، فإذا لم يلتفت إلى هذه المهمات فمن يقوم بأودها ؟؟ .

ففي الحروب التي وصلت إلى بلاد الفرس والروم وافتتحت أواسط أفريقيا كان الإمام علي وولداه الحسن والحسين يقودون تلك الجيوش ويسيرون في مقدمتها .

وفي المشورة كان أمير المؤمنين لا يبخل برأيه ، ولا يمسك عن نصيحة وكان الموجّه والمرشد في القضايا العسكرية والدينية . . . ولولا صواب آرائه ، وصحة مواقفه ، وحاجة من تخلّفوا إليه لما فاتته المؤامرة

التي انتدب لها خالد بن الوليد . . . . ولكن إبّان الصّلاة وفي اللحظة الأخيرة جاءت الرسالة العاجلة : لا يفعلن خالد ما أمرته . السلام عليكم ورحمة الله . . .

والآن ، لا أُريد الدخول في التفاصيل ، ولكني أُريد أن أمسك بلبّ الموضوع وأتساءل : لماذا أمسكوا عن قتله ؟ لماذا أرجأوا ؟ الجواب ، في اعتقادي ، واضح . لأنهم انتبهوا في اللحظة الأخيرة أنه إذا قُتل الإمام علي فزمام الأُمور سوف يفلت من أيديهم . . . فوجود الإمام علي عليه السلام وإن كان بعيداً عن الخلافة ، يحفظهم ويصون عجلة الإسلام ومسيرة المسلمين ، بالإضافة إلى أنه يدرأ الخطر عن هذه السفينة التي تتلاطمها الأمواج . لذلك تركوه حفاظاً على أنفسهم وصوناً لمصالحهم . ألم يقولوا : «لولا علي لهلك عمر» ؟ ألم يقرأوا في الأحاديث وصحاح المسلمين هذا الحديث ؟ ! وحتى أبو بكر فإنه يقول : لولا علي لهلك أبو بكر وعثمان كذلك . وكلهم يعرفون أنه لولا علي لهلك العالم .

وفي القضاء «علي أقضاكم بعدي» هذا ما قاله النبي المصطفىٰ ، فالمشاكل والقضايا كثيرة ومعقّدة ، والكل يتلكأ عن حلّها ، الخليفة الأول والثاني ترد عليهم أُمور كثيرة يعجزان عن حلّها ، ويحتاران في صرف أصحابها . . . أحدهما يقف على المنبر ويقول : أخطأتُ وأصابت امرأة . وآخر يقول : لولا علي . . . أما علي فيقول : «سلوني قبل أن تفقدوني ، سلوني عن طُرق السماوات أنا أعلم بها من طرق الأرض» .

ويجيء قول خاتم النبيين يبارك ويؤكد «أنا مدينة العلم وعلي بابها» .

إذن ، هذه المهام هي الإجابة القاطعة والمقنعة لكل متسائل عن موقف وأعمال علي بن أبي طالب بعد وفاة رسول الله .

هذه الوزارات الثلاث التي أُنيط إليه أمر تدبيرها كانت شغله الشاغل وهمه الدائم ، فلكم شغلته عن رؤية فاطمة الزهراء وولديه الحسن والحسين . . .

علي ووفاة الزهراء :

أما في وفاة الزهراء فهناك أقاويل كثيرة : بعضهـا يقول إن علياً كان في المسجـد ، وبعضها يـذهب مذاهب شتى . . . لكن الـواقـع أن الإمـام علياً كان عند رأسها يوم وفاتها ، وهـل يُمكن أن تُحرم فـاطمة الـزهراء من حضـور علي بن أبي طالب في لحظة النـزاع والاحتضار ؟ ! وهـو الذي يقـول للحارث الهمداني «يا حار حمدان ، من يمت يرني» .

فـالإمام كـان عندهـا وفوق رأسهـا في ساعـاتها الأخيـرة وقد أوصتـه في ذلك اليوم قائلة : «يابن العم ، إقـرأ عليّ سورة يس والصـافات فـإني سمعت أبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ما قُرئت يس والصـافات على محتضـر إلاَّ وسهّل الله عليه سكرات الموت» .

ثم أوصتـه بـأبنـائهـا ، أوصتـه بـالحسن والحسين . خـرج الإمـام إلى المسجـد ، وقامت الـزهراء فغسلت الحسن والحسين وألبستهمـا ثيابهمـا ، ثم دخلت إلى حجـرتهـا وقـالت لأسمـاء بنت عميس : أنـا داخلة إلى حجـرتي لأصلّي فـإذا انقطع صـوتي ناديني ، فـإذا لم أجبك اعلمي بـأني لاحقـة بـأبي رسول الله .

دخلت الـزهراء إلى حجـرتهـا ، ورأتهـا أسمـاء تحتضـر فـأسـرعت إلى المسجد وأخبرت الإمام علياً قائلة : ادرك ابنة رسول الله وما أظنّك تدركها ، فجـاء أميـر المؤمنين وجلس عنـد رأسهـا ، والسبب أن الإمـام كـان مشغـولاً بالإسلام وبالقرآن ، والـزهراء هي الإسـلام وهي نور الله في الأرض ، فكيف يغيب عنها في هذه اللحظات ؟ ! .

قالت الزهراء : «يابن العم ، مـا عهدتني كـاذبة ولا خـائنة ولا خـالفتك منذ عاشرتني» وهذا درس عظيم للمرأة المسلمة .

قال الإمام : «معـاذ الله ، أنت أبرّ بـالله وأعلم وأتقى وأشدّ خـوفاً من أن أوبخك بمخالفتي ، وقد عزّ عليّ فقـدك ومفارقتـك ، إلاَّ أنه أمـر لا بدّ منـه . والله لقد جدّدت عليّ مصيبة رسول الله ، وعظمت عليّ وفاتـك وفقدك ، فـإنا

لله وإنا إليه راجعون ، من مصيبة ما أعظمها وآلمها» .

ثم أخذ رأسها ووضعه في حجره وبكيا جميعاً ساعة .

قالت : «أبا الحسن ، إذا أنا قضيت نحبي ، غسّلني وكفّني وحنّطني ببقية حنوط أبي رسول الله ، وصلِّ عليّ وادفني في الليل إذا هدأت الأصوات ونامت العيون» . لذلك أخفى الإمام مكان قبرها ، فهي كليلة القدر غير معروفة أية ليلة وأية ساعة . ولكنها باقية في القلوب وفي وجدان الإنسان الحر ، وفي ضمير الأحرار .

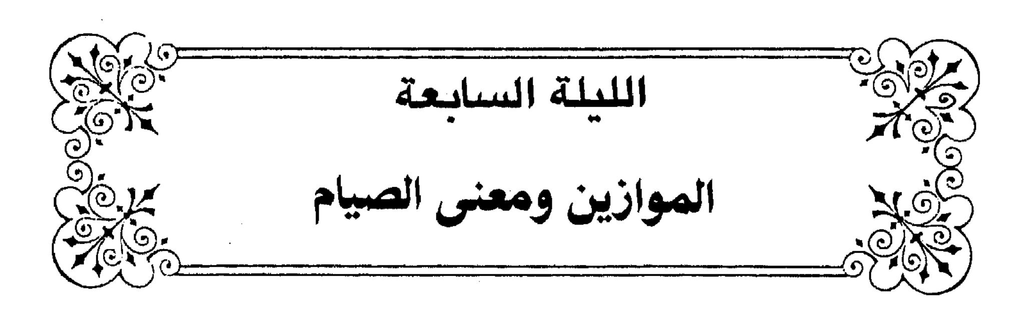
يقول الشيخ التستري ـ رحمة الله عليه ـ إن الإمام أمير المؤمنين نظر إلى الزهراء في ذلك اليوم فوجد فيها شيئين جديدين : الأول أنها مسرورة ، والثاني أنها قامت وعجنت وخبزت بنفسها ، في حين أنها لم تكن تستطيع ممارسة أي عمل . فقال لها الإمام : إنك اليوم على أحسن ما يُرام . . قالت : أما سروري فإنه قد نُعيت إليّ نفسي أني مفارقتكم وقد رأيت أبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الليلة وأخبرني أني عنده هذه الليلة . وأما ما رأيت من قيامي بعجن العجين والخبز وتهيئة الطعام فإني علمت مفارقتي لكم وأردت أن أهيء طعاماً لك ولولديك الحسن والحسين ، فلا تصحْ في وجهيهما فإنهما سيصبحان يتيمين منكسرين . بالأمس فقدا جدهما رسول الله ، واليوم يفقدان أُمهما فاطمة .

هذه الزهراء ـ روحي فداها ـ فارقت الحياة وأمير المؤمنين فوق رأسها . . وكان يروى عنها أنه كان يُغمى عليها عندما تسمع بلالاً يؤذن ، فتنادي وتقول : إيه يا رسول الله ، اسمك على المنائر ورسمك في المقابر . يا نور عيني .

وفي ذات ليلة ، بينما كان بلال نائماً ، إذ به يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له : يا بلال ، حتى أنت جفوت فاطمة ابنتي . . . فذعر بلال وقرّر الذهاب إلى المدينة وآل على نفسه ألا يكلم أحداً حتى يصل إلى بيت الزهراء . أقبل بلال والناس واقفون ، فوقف على باب دار الزهراء ، ووجد

الحسن والحسين واقفين هنـاك ، سلّم عليهما وقـال لهما : سيـدَيْ ، هل من إذن ، أريد أن أدخل على سيدتي فاطمة الزهراء لأسلم عليها .

قالا : يا بلال ، عظّم الله لك الأجر بأمنا ، لقد ماتت أُمُّنـا فاطمـة . إنَّا لله وإنَّـا إليه راجعـون ولا حول ولا قـوة إلَّا بالله العليّ العـظيم ، وآخر دعـوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تـر كيف ضرب الله مثـلاً كلمة طيبـة كشجـرة طيبـة أصلهـا ثـابت وفرعها في السماء تؤتي أُكُلها كـل حين بإذن ربهـا ويضرب الله الأمثـال للناس لعلهم يتذكرون ـ مثـل كلمة خبيثـة كشجرة خبيثـة اجتثت من فوق الأرض مـا لها من قرار ـ يثبت الله الـذين آمنـوا بـالقـول الثـابت في الحيـاة الـدنيـا وفي الآخرة﴾[1] .

في الإسـلام موازين فكـرية وعلميـة وإيمانيـة نزن بهـا الإنسـان ، إذ أن الموازين المادية لا قيمة لها في عقيدتنا السمحاء ، هـذه الموازين نجـدها في القـرآن الكـريم حيث جعلهـا الله ثـابتـة ثبـوت السمـاوات والأرض ، راسخـة رسوخ الحق .

هـذه الموازين جُعلت لـلإنسـان : فـإمـا أن يكـون صـادقـاً أو كـاذبـاً ، مجـاهـداً أو متقـاعسـاً ، عـالمـاً أو جـاهـلاً ، عـادلاً أو ظـالمـاً ، مؤمنـاً أو ملحـداً . . . . بمثـل هـذه المـوازين المعنـويـة نتعـرّف إلى جـوهـر الإنسـان فنقـومه ، ولـو حاولنـا تسخير كتّـاب العالم ليكتبـوا عن فضـائـل إنسـان ظـالم كمعاوية لما تمكّنوا أن يبـدّلوا المـوازين ولو كتبـوا المجلدات . فمهما كثـرت

---

(١) سورة إبراهيم ؛ الآيات : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .

هـذه المجلدت ، ومهما تحـدّثت عن فضـائـل معـاوية وبني أُمية فـإنهـا في الواقع كتب مزيّفة لا تقيس الفضائل والرذائل بمقاييس الإسلام وموازينه .

تلك الموازين باركها الإسلام حين فضّل المجاهـدين على القاعـدين ، والعالمين على الجاهلين ، والمؤمنين على الكافرين . . .

﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾(١) .

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾(٢) .

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾(٣) .

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(٤) .

﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله﴾(٥) .

ووفق هذه الموازين التي نصّ عليها القرآن الكـريم فإن النـاس يتفاوتون في الدرجات والمعاملات ، في السلوك والأخـلاق ، في التربيـة والعلم ، في الإحسان والإنفاق . . .

ولكي نوضح الفكرة ونزيل الغموض لا بـدّ من ضرب المثـل **﴿وضربنا لكم الأمثال﴾**(٦) .

ففي رمضـان مثـلاً تجـد كـلَّ المؤمنين صـائمين ، مـلايين المسلمين يمتنعـون عن تناول الـطعام . . . فهـل كل هؤلاء في درجـة من الصيام ، وفي منزلة واحدة عند ربّهم ؟ ! .

وفي يـوم الجمعة ، تجـد المسجد مكتـظاً بـالمصلِّين ، وكلهم واقفـون

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٩٥ .
(٢) سورة الزمر ؛ الآية : ٩ .
(٣) سورة المجادلة ؛ الآية : ١١ .
(٤) سورة الحجرات ؛ الآية : ١٣ .
(٥) سورة التوبة ؛ الآية : ١٩ .
(٦) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٤٥ .

بين يـدي الله ، والله مقبل عليهم بـوجهه ورحمتـه . فهل كـل هؤلاء في نسبة واحدة من الخشية والخشوع والتوجّه إلى أرحم الراحمين ؟ ! .

لا يمكن لأحـدٍ أن يدّعي ذلـك . فتلك أُمور بديهية واضحـة ، لا لبس فيها ولا غموض . والتوجّه إذاً إلى مـوازين الإسلام أمر ضروري ، فهو يحرص على الـدقـة في تقـويم الأُمـور ، والـحكـم على الأشـخـاص والأعمـال والنيّات . . .

قد تجد شخصاً يصلّي وهو دامع العين ، خاشـع القلب ، وآخر يصلّي وهو منشغل بأُمور الدنيا ، وثالث متثاقـل مستاء من إمـام الجماعـة الذي أطـال الصلاة . . . الثلاثة يصلّون ، ولكن نسبة التوجّه والإيمان بالله عنـدهم متفاوتـة ومتبـاينة . وبهـذا تختلف نسبة قبـول الصـلاة ، ونسبـة التقـرّب من الله تبـارك وتعالىٰ .

والسؤال الـذي يحضـرني : إذا كـان في الصـلاة مثـل هـذا التفـاوت ، فكيف هـو في الصيام ، وفي ممـارسـة كـل العبـادات ؟ وأبـادر إلى الإجـابـة فأقول : إن للصيام ثلاث مراحل نستلهمها من مدرسة الإمام علي عليه‌السلام :

المـرحلة الأُولىٰ تقتضي أن يمتنـع الإنسـان عن الـطعـام والشـراب والجماع وإيصال الغبار الغليظ والدخـان إلى جوفـه ، وأن لا يغطس رأسـه في المـاء ، وعدم البقـاء في الجنابـة حتى طلوع الفجر ، وتجنّب كثيـر من الأُمور والمفطرات التي أعهدكم تدركونها . . .

ويلحق بهذه المرحلة أُمور أُخرى يقدم عليها الصـائم غير آبـهٍ لما تسبّبـه من إشكـالات : كشتم الزوجة بدافع الانزعـاج منها ، أو الاستمـاع إلى أغانٍ فاحشة وبـذيئة يـطرب لها ، أو اغتيـاب الناس وذمّهم والحط من قـدرهم ، أو الإقدام على الموبقات وأعمال الباطل دون وازع أو رادع . . . .

إنـه في هـذه الحـالـة صـائم عن المفـطرات ، لكنّ صيــامـه يعـدُّ في المرحلة الأُولىٰ ، إذ لم تصم معه الجوارح . . . .

وتتميز المرحلة الثانية بالسمو بالنفس نحو الكمال ، ولا بدّ هنا من التزوّد بما يقوّينا ويشدّ عزائمنا نحو المثالية . لا بدّ من أن يُمنح كلٌّ منّا طاقة تدفعه نحو العلىٰ ، هذه الطاقة هي الإيمان والتقوى ، وهي زاد المؤمنين ﴿**كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتّقون**﴾(١) .

فالآية الكريمة تحثنا على التقوى ، وتبعث فينا العزيمة ، وترفعنا إلى المرحلة الثانية التي لا يكتفي الصائم فيها بالامتناع عن المفطراتٰ والإمساك عن الطعام والشراب ، إنما تشاركه الصيام الجوارح والأعضاء : فلا يغتاب أحداً ، ولا يسكت عن حقٍّ ، ولا ينظر إلى أعراض الناس وعوراتهم ، ولا يتكلّم بالباطل ، ولا يستشعر بالحسد إذا أصاب الخير والنعيم سواه ، ولا يصغي لسماع الباطل ، ولا يُقدم على ضرب طفل أو نهر يتيم أو تحبير شيء يضرّ بالناس . . . إنما يستلهم في سرّه وعلانيته قول ربّ العالمين ﴿**فقولي إني نذرت للرّحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً**﴾(٢) وقوله تعالىٰ : ﴿ **لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا**﴾(٣) .

أما المرحلة الثالثة فهي الأعلىٰ مرتبة ، والأكمل توجّهاً . وهي مستمدة من مدرسة الإمام علي عليه‌السلام ، بحيث أن الصيام فيها لا يعني الامتناع عن المفطرات فحسب ، ولا التحكم بالجوارح وضبطها . . . إنما هي أرقى سموّاً وكمالاً ، حيث يصوم فيها القلب عن ذكر كلّ شيء ما عدا ذكر الله سبحانه وتعالىٰ .

هذه القضايا عملية ومثالية ومن الممكن تطبيقها عند من أوتي الصبر والجلد والترفع عن مغريات الدنيا وزخرفها . . . .

ولو طرحنا السؤال على كل عباقرة العالم : كيف يمكن الصيام عن

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٢ .
(٢) سورة مريم ؛ الآية : ٢٦ .
(٣) سورة الحجر ؛ الآية : ٨٨ .

ذكر الدنيا ، والإنسان فيها يرى ويسمع ، يحسّ ويتأثر ؟ كيف لا يفكر فيها . ولا يتأثر بمجرياتها ؟ بل كيف يتوجّه كلياً إلى ذكر الله سبحانه وتعالىٰ ؟ .

قد لا نجد الأجوبة المقنعة عند كل هؤلاء الفلاسفة والعباقرة باستثناء فيلسوف وعبقري واحد ، هو تلميذ الرسول الأول ، وهو بمثابة ضمير الإسلام ووجدان القرآن . . . عنيتُ به الإمام علي عليه السلام فهو يبيّن كيفية صيام القلب إلاّ عن ذكر الله فيقول : عندما ننظر إلى شيء ما ، ننظر إليه نظرة عادية سطحيّة لا نتحرّى من خلالها الأُصول والفروع والأسباب . . . فنحن ننظر إلى الماء مثلاً دون أن نفكر في أصله وسببه : إنه يعود إلى البحر ، ومنه إلى السماء ، ثم يعود أدراجه الأولى فينسكب مطراً وغيثاً . . . نركب السيارة دون أن نفكر في أصلها ، وكيف وُجدت ، وكيف صنعت . . . ولا يتبادر إلى أذهاننا أنها قطع حديد جُمعت ورُكّبت بأشكال هندسية منظمة ، حتى إذا زوّدناها بالوقود المستخرج من الأرض ، بعد تحويله إلى بترول ، نبعث فيها طاقة حرارية تعمل على تحريكها ودفعها . . .

فالعقل الذي صنع السيارة والقاطرة والطائرة . . . وجعلها في خدمة الإنسان ، هلاّ فتّشنا عن صانعه ؟ ! .

من هنا ، يجب علينا التعاطي مع كل الموجودات من خلال الإسلام ، لأنه يربط كل الأُمور والممارسات بأُصولها ومنابعها الأُولىٰ ، بالله سبحانه وتعالىٰ ﴿**سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين**﴾[1] فما من شيء في هذه الحياة إلاّ ونرى من خلاله حكمة الله وعظمته .

ننظر إلى الطفل وإلى صغير الحيوان ، كل يرضع من ثدي أُمه ، فيغتذي وينمو . . . ونتساءل : من الذي هيّأ له هذا اللبن ؟ فلا نرى غير ذكر الله وحمده .

---

(١) سورة الزخرف ؛ الآية : ١٣ .

ولنسمع هذا الحوار الذي أجراه طالب مسلم مع أحد تلامذة الغرب الملحدين ، وموضوعه «عملية الخلق والإبداع» .

قال الطالب المسلم : لا بدّ من سؤالك عن اختصاصك ، فما هو ؟ .

أجاب التلميذ : إني أتخصص بدراسة الدم . قال : هذا يعني أنه علم خاص . قال : نعم ، ودراستي تعنى بالكريات الحمراء والكريات البيضاء ، مجموعة الهيموغلوبين الموجودة في الدم . إني أدرسها بدقة وتقنيّة متناهية . عندها سأله الطالب المسلم قائلاً : لا بأس ، ولكن هذه الكريات الحمراء التي تعطي الإنسان طاقة فتجعله يقوى على الحركة والتفكير . . . هذه الكريات الضعيفة والعملاقة بذات الوقت ، ألا تدري أين تُصنع ومن صنعها ؟ .

تبسّم العالم وقال : إنها تُصنع في النخاع . قال الطالب المسلم : كم عبقرياً وعملاقاً وعظيماً هناك في النخاع ، بحيث يصنع هذه الكريات ؟ .

توقف التلميذ هنيهة ، ثم أجاب : يا زميلي لا داعي للإحراج . فأنا أشعر بالعجز أمام هذا المنطق لأني لست متعنّتاً ولا متعصّباً ، بل همي البحث عن الحقيقة أينما وُجدت . وأنت بطرحك هذه الأسئلة قد ساعدتني في اكتشاف الحقيقة في كلمة واحدة ، وإلاّ كيف تصنع هذه الكريات العظام ؟ ! . . .

هكذا يربط المؤمن كلّ شيء بالله .

يقول الإمام علي عليه السلام : ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله ومعه وبعده .

سلام الله عليك يا أمير المؤمنين ، كل شيء تشاهده ، تشاهد الله معه . هذا منهج عظيم ، وهذه المرحلة الثالثة من مراحل الصيام ، فهي تمثل أسمى درجات التوجه والارتقاء .

إذن ، هناك موازين في مدرسة الإمام علي عليه السلام ترتقي بالإنسان إلى

المرتبة السامية ، ليس فقط في الصيام ، إنما في الصلاة والعبادة والجهاد والإنفاق ، وفي كل الممارسات . . .

والآن ، ينبغي أن نتعرّف إلى كيفية الارتفاع ونوعيته . ويجيبنا الإمام علي عليه السلام بقوله : لا يمكن لكم أن ترتفعوا وتصلوا إلى هذه المرحلة وهذا المستوى من التزهّد والتعبّد إلّا بمحاسبة أنفسكم وتزكيتها ، وخصوصاً ، في شهر رمضان لأن من يغفل عن نفسه يهوي إلى الدَّرك الأسفل .

إذن ، ما الذي يمنع من محاسبة النفس ؟ يجيب الإمام علي عليه السلام بقوله : الموانع كثيرة منها : الإعجاب بالنفس وهي دليل على قلّة العقل وضعفه . . ولو سُئل هذا المُعجب : لماذا هذا العجب ؟ هل أنت صنعت نفسك ؟ هل تدرك مداخل حياتك ومخارجها ؟ هل تستطيع الإفادة من كل طاقاتك ؟ هذه الأسئلة وأمثالها تجيب على ذلك الإعجاب الذي هو نتيجة الجهل ، وثمرة الغرور ، هذا إذا لم يكن مقروناً بالبخل والحرص .

فالإعجاب بالنفس إذن ، لا معنى له إن لم يكن مقروناً بالإيمان ، والتقوى ومخافة الله ، وحب العمل الصالح ، والسمو بالأخلاق نحو المثل والقيم الفاضلة .

مواقف ومآثر :

هناك أُمور لا بدّ من التوقف عندها ، وإعطائها ما تستحقه من الأهمية ، تلك الأُمور تتلخص في مواقف وعظمة أمير المؤمنين يوم برز لعمرو بن عبد ود في وقعة الخندق ، ويوم قال الرسول فيه كلمته الخالدة : «برز الإسلام والإيمان كلّه إلى الشرك كلّه» .

ألا يستوقفنا هذا الكلام ؟ ! ألا يستدعينا إلى التفكّر وإعادة ا لنظر ؟ ! لو توقّفنا عند هذه الأُمور لأدركنا عظمة الإمام علي ، ولوثقنا من انتصاره على عدوه عمرو بن عبد ودّ ، لأن فوزه يمثل صحة ومصداقية كلام الرسول

ﷺ ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلاَّ وحي يوحىٰ﴾[1] .

يقول العقاد في كتابه «عبقرية الإمام علي» : وكان علي إذا برز إلى عدوه وإلى خصمه ، برز مهرولاً حاسر الرأس ، وعدوّه مقنّع بالحديد . هذه هي الشجاعة التي ينبغي أن نستلهمها ونستوحيها من مدرسة الإمام علي .

أما في مجال علم النفس التربوي فعلي مدرسة تعلّمنا كيف نرقى بأنفسنا حتى نصل إلى الكمال ، يقول في هذا العلم : الصفات النفسية متشابهة . فالبخيل يجمع إلى جانب بخله الطمع ، لذا نراه حسوداً وحريصاً على الدنيا ، بعكس الكريم الذي نراه يتحلى بالشجاعة والعفة وحب الخير للناس والانطلاق في الحياة .

لذا علينا أن نحاسب أنفسنا ، ونلتفت إلى ذواتنا قبل أن يفاجئنا القدر على حد قول الإمام علي عليه السلام «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا» .

وحساب النفس يجب أن يكون في شهر رمضان ، لأنه الشهر المناسب كي يعيد الإنسان النظر في شؤونه ، ويتفكّر في أُموره ، ولهذا يقول الرسول ﷺ «ألا وإن الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم» .

في هذا الشهر المبارك يتوجه العباد إلى خالقهم خاشعين طائعين ، لأن أبواب الجنة تكون مفتحة ، وأبوب النار موصدة ، والشياطين مكبلة بالأغلال ، والإنسان وحده في نعمة الخالق وفي ضيافته .

أما علم علي ، فقد تطرّقنا إليه في المحاضرات السابقة ، ولكني من قبيل التلميح لا التصريح أعود إلى ذكر هذا الحدث ، فقد سأل أحدهم الرسول الأعظم عما إذا كان في الإسلام أعلم من علي بن أبي طالب . فأجابه الرسول بكلمة موجزة : «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» .

---

(١) سورة النجم ؛ الآية : ٣

هـذا القول يتكـرر على لسان أبي بكـر وعمـر وغيـرهمـا ، حيث يقـول الأخير ، «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن» .

أما هيبته فتنبئنا عنها بعض المـواقف . كان عليـه السلام إذا دخـل على النـاس في المسجد يخشـونه ويجلّونـه ، ويبقون صـامتين كـأن على رؤوسهم الـطير ، وذلـك بمن فيهم كأبي بكـر وعمـر بن الخـطاب ، وحتى عبـد الله بن عباس رغم جلاله وقدره وعلمـه ، كيف لا ، وعلي دون منزلـة الخالق وفـوق منزلة المخلوق . . .

وفي حقل القضاء ، يقـول فيه خـاتم النبيين : «عليّ أقضاكم بعـدي» . وبمناسبة هذا ا لقول لا بـدّ من سرد بعض الـوقائـع كي لا نبقى في النظريـات والعموميات .

دخل الإمام علي يوماً على شـريح القـاضي في مسجد الكـوفة ، فـرأى شاباً واقفاً في نفر من النـاس ، يتحدث بجـرأة وحماس ، فـالتفت إليه الإمـام وقـال : ما شـأنـك يـا بني ؟ قـال : يـا أميـر المؤمنين ، لقـد ظلمني شـريـح القـاضي ولم ينصفني ، قال : كيف ؟ قـال الغلام : يـا أميـر المؤمنين ، لقـد خـرج أبي في سفرٍ مـع هؤلاء النفـر ، ورجعـوا ولم يـرجـع ، فسـألتهم عنـه فقـالوا : إن أبـاك مات ولا نعـرف شيئاً عن أمـوالـه . وأنـا أتهمهم ، فهم قتلة أبي وآخذو ماله .

فالتفت الإمام إلى قنبـر وقال لـه : إجمع القـوم وادعُ الشرطـة ، شرطـة الخميس ـ وهم أول شرطةٍ في الإسلام ، كانوا يحافـظون على صلاة الليـل ، ويحـرسون النـاس ، ويصونـون أعـراضهم ودمـاءهم ، وكـان عـددهم يقـارب الخمسـة آلاف ، وقد أتى التـاريخ على ذكـرهم ـ ثم التفت إلى الفتى ، بعـد أن جلس للقضـاء وقال لـه : تعـال يـا بني ، وارو قصتـك مـع هؤلاء القـوم . فروى له القصة . وعندما سألهم الإمـام عن صحة مـا سمعوا أنكـروا جميعهم ذلك وقالوا : إنّا لا نعرف شيئاً عنه وعن أبيه . فنـظر إليهم الإمام نـظرةً عميقةً وقال : أتظنـون أن صنيعكم مع والـد هذا الغـلام يخفى عليّ ، إني إذاً لقليل

العلم . ثم دعا كاتبه عبد الله بن أبي رافع ، وأمر الشرطة أن يفرقوا القوم ، ففرقوهم ، وجعلوا كل واحدٍ منهم تحت أسطوانةٍ من أساطين المسجد ، فكانوا بشكلٍ دائريٍ لا يسمع أحدهم الآخر لكبر المسجد في الكوفة وتباعد أساطينه . ثم راح يناديهم واحداً واحداً . . .

التفت الإمام علي إلى أولهم وقال : أخبرني بصوتٍ منخفضٍ كيف خرجتم مع والد هذا الغلام ، وكيف حدث أن مات ؟ .

قال : يا أمير المؤمنين، لقد خرجنا في سفرٍ . قال : في أي يومٍ خرجتم ، وفي أي شهرٍ ، وفي أية سنة ؟ قال : خرجنا في يوم كذا ، وفي شهر كذا ، وفي سنة كذا . قال : في أي موضعٍ مات الرجل ، وبأي مرضٍ ، ومن غسّله وكفّنه ؟ قال : مات في منزل كذا ، بمرض كذا ، وقام فلانٌ بتغسيله وتكفينه . قال : بم كفنتموه ، ومن صلّى عليه ، ومن أدخله إلى قبره ؟ قال : كفناه بكذا ، وصلّى عليه فلان ، وأدخله إلى القبر فلان . وكان ابن أبي رافع يسجّل هذه الوقائع . ولما وصل الأمر إلى هذه الغاية كبّر الإمام بصوتٍ مرتفعٍ ، فإذا كل من في المسجد يتجه نحو الإمام ويسمع مقالته للشرطة : خذوه وأرجعوه إلى مكانه . ثم يتوالى طرح الأسئلة على الثاني والثالث والرابع . . . ويجيب كل واحدٍ منهم بأجوبةٍ مختلفةٍ في تفاصيلها وجزئياتها . ويُصاب الرابع بالخوف والإضطراب عندما يسمع الإمام يقول : أتظن أن أمركم يخفى عليّ ؟ قل لي كيف قتلتم هذا المسكين ، وأين ذهبتم بأمواله . فانهار الرجل تحت وطأة هذه الأسئلة وقال متلعثماً : قتلناه طمعاً بماله ، ثم دفناه في مكان كذا ، ودفنا أمواله في مكان كذا . فكبّر الإمام عليه السلام، واعترف القوم بفعلتهم ، ثم ذهبوا لتوّهم ، وبرفقة الإمام ، فحفروا المكان ، وأخرجوا الأموال ودفعوا بها إلى الغلام . ثم التفت الإمام إلى الفتى وقال : ها قد رأيت ما صنعنا ، فقد أعدنا لك مالك ، وبقي عليك أن تطالبهم بدم أبيك . قال الغلام : أُريد أن أقاضي هؤلاء وأتقاضى معهم بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ .

لقد أردت أن يظهر الحق ويُزهق الباطل . أما الإمام فقد أخذ منهم الحق العام وأدبهم . ثم بعد ذلك التفت شريح القاضي إلى أمير المؤمنين مستفسراً عن هذا المستوى الراقي في التحقيق الذي لم يرافقه ضرب ولا ضغط ولا جلد قائلاً : سيدي ، يا أمير المؤمنين كيف توصلت إلى حلِّ هذه القضية ؟ قال : يا شريح هذا حكم داوود النبي . قال شريح : كيف عرفت حكم داوود يا سيدي ؟ قال : لقد مرَّ داوود على غلمان يلعبون وينادون أحدهم بـ «مات الدين» فتعجب داوود وقال : ويلكم ! ما اسم هذا الصبي ؟ قالوا : اسمه : «مات الدين» . فالتفت داوود إلى الغلام وقال : من الذي سمّاك بهذا الاسم ؟ قال : أُمي . قال : وأين أُمك ؟ قال : في مكان كذا . فرافقه داوود ومعه حواريوه وأصحابه إلى أُمه وسألها عن اسمه ، ومن سمَّاه ، وما المناسبة في ذلك ؟ قالت : لقد خرج أبوه في سفر مع جماعة ولم يعد ، وكنت حاملاً بهذا الغلام فسألتهم عن زوجي وأمواله . فقالوا : أما الزوج فقد مات ودفناه . وأما المال فلا نعلم عنه شيئاً . فقلت لهم : هل أوصاكم زوجي بوصاةٍ قبل وفاته ؟ قالوا : بلى ، فقد زعم أنكِ حاملٌ وأوصى إذا وضعت غلاماً أو بنتاً أن تسميه «مات الدين» . وقد أسميته بذلك وفاء لزوجي وعملاً بوصيته . قال داوود : هل تعرفين مكان أولئك الرجال ؟ قالت : بلى ، قال : قومي معنا إليهم ، فأخرجهم من بيوتهم لأنهم غدروا بزوجها وقتلوه . وكان اسم ابنها إشارة اعتبرها داوود قرينة يُستدل منها على الجريمة ، فاقتصّ من الجناة وأعاد المال إلى الأرملة . . .

هذه مسائل حقيقية واجهها الأنبياء والرّسل والأئمة ، وبتّوا بأمرها بواسطة الأدلة والقرائن فأعادوا الحقّ إلى أصحابه ، وعاقبوا القتلة ليردعوهم عن ارتكاب مثل هذه الأعمال ، وليكونوا عبرة لغيرهم **﴿أفحسبتم أنَّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾**(١) .

إلى جانب هذه المهام ، كان لا بدّ للإمام من الالتفات إلى الأُمور

(١) سورة المؤمنون ؛ الآية : ١١٥ .

التنظيمية، فقد وزّع ساعات الليل والنهار إلى ثلاثة أقسام قائلاً: «للمؤمن ثلاث ساعات، ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يروم فيها معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذّتها فيما يحلّ ويجمل».

ألا ترون أن هذا التصنيف والتنظيم هو صدى لعديد من الآيات القرآنية التي تحثّ الإنسان المسلم على العمل وطلب رزق العيال دون أن ينسى نصيبه من الدنيا ؟ !.

سلام الله عليك يا أمير المؤمنين، فقد أدركتَ خفايا النفس البشرية، ووزنتَ طاقة العباد بالموازين الدقيقة، فجعلت قسطاً من النهار موزعاً بين العمل الصالح والدعاء المستجاب، وقضاء الحوائج، ومحاسبة النفس، وعيادة الأصدقاء وصلّة الأرحام ....

أما القسط الثاني فجعلته تفرّغاً للعمل وطلباً للمعاش ورزق العيال ...

والقسط الأخير وزّعته ما بين راحة ونوم ومعاشرة ... أعطيتنا نصيبنا من الدنيا، وكفلت لنا حسن الثواب في الآخرة.

هذا النظام يحافظ على حياة الإنسان، ويوفّر عليه الكثير من المتاعب والمعاناة. فعلينا أن نصغي السمع، ونتدبّر الأمر، ونطبّق ما قد ندبنا إليه وحثّنا عليه بالقول «وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلاّ في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم».

هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يعسوب المسلمين، وقائد الغرّ المحجلّين، وهو صاحب الشجرة الطيبة التي تحدثت عنها الآية المباركة **﴿ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾**(١).

---

(١) سورة إبراهيم؛ الآية: ٢٤.

يقول الإمام الباقر عليه السلام : الشجرة الطيبة هو النبي الأعظم محمد بن عبد الله ، وفرعها علي ، وغصنها فاطمة ، وثمرها أولاد فاطمة ، وورقها شيعتنا أهل البيت .

اللَّهمَّ اجعلنا من شيعتهم ، وزدنا حبّاً بهم ، ويسّر خطانا في اتباع منهجهم .

﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾[1] .

فالخبيث ليس له جذور في النفس البشرية ، والإنسان بشكل عام طيب المعدن ، نقي الجوهر ، الخبيث والشر أمران عارضان وطارئان على حياته . لذا علينا أن نرجع إلى أنفسنا في هذا الشهر المبارك فنرى أن الخير والعطاء والسلام ليس غريباً عنّا ، بل هو واسطة العقد في إسلامنا ، وفي ما ورثناه وعرفناه من أنبيائنا وأئمتنا وعلمائنا وأصحاب النفوس الطاهرة الزكية من آبائنا وأبنائنا . . .

من هنا كان خطابنا لأصحاب الرسول ، وأصحاب الإمام أمير المؤمنين ، وأصحاب شهيد كربلاء ، عند زيارتنا لهم : طبتم وطابت الأرض التي فيها دُفنتم ، وفزتم فوزاً عظيماً .

عندما أراد أمير المؤمنين أن يتزوج بعد وفاة الزهراء التفت إلى أخيه عقيل وقال له : اختر لي امرأة قد ولدتها الفحول . . إنه يبحث عن الطيبة والطهارة . فمن ينتسب إلى شجرة طيبة ينتهي إلى شجرة طوبى ، ومن ينتسب إلى شجرة خبيثة ينتهي إلى شجرة الزقّوم في جهنم . **﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾**[2] .

ضمن هذه المواصفات والشروط ، تمَّ اختيار عقيل لأُم البنين ، فوقفت بين عشيرتها وأهلها قائلة : سوف أدخل على الحسن والحسين

---

(١) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٢٦ .

(٢) سورة الدخان ؛ الآيات : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .

وزينب ـ وهم أطفالٌ صغار ـ وأسألهم علّهم يقبلونني خادمة عندهم .

ثم جاءت ووقفت بباب علي ونادت : حسن وحسين، نور عيني ، أنا ما جئت لأحل مكان أُمكم فاطمة، لعلي لا أساوي ذرة من ترابها، لكني أردت أن أقوم بخدمتكم، فهلّا قبلتموني ؟ ويجيب الحسن والحسين : نحن أبناؤك، وهذا بيتك ، وأنت عزيزة وكريمة علينا ، ولك مكانك في قلوبنا وأفئدتنا . وكانت تقول لولدها أبي الفضل العباس : ولدي ، احترم أخويك الحسن والحسين ، ولا تناديهما «بأخويّا» لأنهما إبنا فاطمة الزهراء وأنت ابن أُم البنين . إن النفوس الكبيرة تأبىٰ إلّا سموّاً ورفعةً .

وفي عاشوراء ، لمّا صرع أبو الفضل العباس صاح مخاطباً الحسين : أخي ، أبا عبد الله ، عليك مني السلام ، أدركني يا نور عيني . هذه المناداة لم يقلها إلّا يوم عاشوراء .

ويوم كان أبو الفضل العباس طفلاً حمله الإمام عليّ عليه السلام في حجره وراح يقبّل كفيه ويديه ويبكي ، وقد شمّر له عن ساعديه . . . وأُم البنين لا تدري ما ا لأمر فقالت : يا أبا الحسن ، لعلك رأيت ما ساءك في كفي ولدي أبي الفضل . قال : لا يا أُم البنين، ولكني نظرت إلى ما يجري على هاتين الكفين ، إنهما تقطعان في سبيل الله ، فيبدلهما ا لله بجناحين يطير بهما في الجنة مع الملائكة .

هؤلاء الطاهرون المطهرون سبيلنا إلى الله ، ومدخلنا إلى الجنة . عندما يأتي بشر بن خذلمة إلى المدينة وينعي الحسين قائلاً :

يا أهل يثرب لا مقام لكم فيها ... قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرَّج ... والرأس منه على القناة يدار

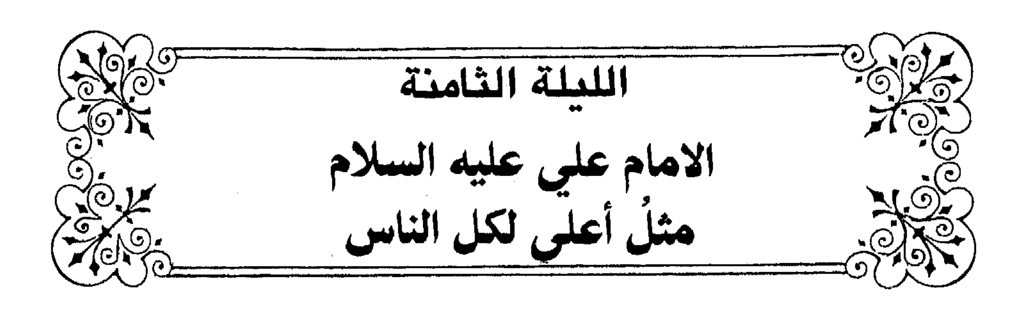
إذ بامرأة خرجت من أحد الأبواب ، تحمل طفلاً على كتفها ، والوقار والنور والإيمان تبدو على ملامحها ، ثم تصرخ وتنادي : بالله عليك أيها الناعي ، ألا أخبرتني عن ريحانة رسول الله؟ قال: إني أنعاه، يا أمة الله. ثم راح الناعي يسأل الناس عنها ، فإذا هي أم البنين ، أُم العبّاس وإخوته .

يقول بشر : عندما أخبرتها بخبر أبي الفضل ، كأني بكتفها قد انهدل ، وسقط عنه الطفل إلى الأرض ثم بكت وصاحت : ويلك يا بشر ، لقد قطعت نياط قلبي ، بالله عليك أخبرني عن الحسين أهو حيٌّ أمْ لا ؟ قلت : يا أُم البنين عظم الله لك الأجر بأبي عبد الله فرجعت ناحبة مولولة باكية .

وعندما رجعت الحوراء زينب إلى دار أخيها أبي عبد الله ، أوقفت جارية لها على الباب ، وبينما هي كذلك إذ بالباب يطرق . قالت الحوراء : انظري من بالباب . قالت : سيدتي ، بالباب أُم البنين . فخرجت زينب تستقبلها بالبكاء والنحيب . ولما وقع نظرها على زينب صاحت : واولداه ، واحسيناه . . .

إنّا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

«ما لي سوى قرعي لبابك حيلة   فإذا رُددت فأيّ بابٍ أقرع»



الليلة الثامنة

الامام علي عليه السلام مثلُ أعلى لكل الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاتِ الله والله رؤوف بالعباد﴾(١) .

في قراءة القرآن الكريم نجد أن الآيات التي تخاطب المؤمنين بقوله تعالىٰ : **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾**(٢) إنما تشير إلى أمير المؤمنين . فهو المعني بها وسيدها . أضف إلى ذلك ، أن هناك أكثر من مئتي آية ، وقيل خمسمائة آية تشير إلى الإمام علي عليه السلام وتتحدث عن فضائله .

وقبل الشروع في تناول هذه الآية الكريمة ، لا بدّ أن أقف وإياكم على صورة الإنسان **﴿صوّركم فأحسن صوركم﴾**(٣) فللإنسان صورتان :

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٠٧ .

(٢) وعددها سبع وثمانون آية موزعة بين سورة البقرة (١٢) ، وآل عمران (٥) ، والنساء (٩) ، والمائدة (١٥) ، والأنفال (٦) ، والتوبة (٦) ، والحج (١) ، والنور (٣) ، والأحزاب (٧) ، ومحمد (٢) ، والحجرات (٥) ، والحديد (١) ، والمجادلة (٣) ، والحشر (١) ، والممتحنة (٣) ، والصف (٣) ، والجمعة (١) ، والمنافقون (١) ، والتغابن (١) ، والتحريم (٢) .

(٣) سورة غافر ؛ الآية : ٦٤ ، وسورة التغابن ؛ الآية : ٣ .

صورة ظاهـرة باديـة للعيان ، وصـورة باطنيـة ترى من خـلالها تجلّيـات النفس وجوهرها .

أمـا الصـورة الـظاهـرة فهي صـورة البـدن والهندام . . . وهي تؤول إلى الزوال ، رغم جمالها وإشراقها في ريعان الشبـاب ، فهي لا يلبث أن يعتريهـا الشحـوب ، وتقوّس الـظهر ، وتجعّـد الجبين . . . فيذهب رونقهـا وبهجتها ، وإذا استمر إلى حين ، فنهايته إلى التراب .

من كـان لا يـطأ التـراب بـرجـله وطـأ الـتـراب بـنـاعـم الـخـدِّ

هـذه الصـورة لا شغـل لنـا بهـا ، إنمـا تعنينـا الصـورة البـاطنيـة التي نستقـرىء فيها نفسيـة الإنسـان من خـلال الأعمـال والتصـرّفـات . . فـالنفس تفصـح عن جوهـرها ولا تخفي حقيقتهـا ، وذلك من خـلال الأعمال التي قـد تثير فينا عاطفة النقمة والاشمئزاز أو عاطفة الدهشة والإعجـاب ، أو غير ذلـك من الموثِّرات .

﴿قل كلٌّ يعمـل على شاكلته﴾(١) فالمؤمن تتجلى في أعمـاله آيـات البر والوفاء والإيمان والورع والتقوى . . . والكافـر تفوح من أعمـاله روائـح الفسق والنفـاق والرذيلة . . . فالصـورة الحقيقيـة لـلإنسـان ، والتي تؤمّن لـه السعـادة والراحة في الدنيا والآخـرة ، ليست هذه الصـورة الظاهـرة ، إنما تلك القـابعة في خفـايـا النفس وداخلهـا «إن الله لا ينـظر إلى صـوركم ، ولكن ينـظر إلى قلوبكم» .

من هنا ، قد نرى إنساناً مؤمناً فنميل إليه ، ونرتاح لـرؤيته ومجـالسته ، بغضِّ النـظر عن بهـاء طلعتـه وجمـال محيّـاه . . . . وننفـر من إنسـان آخـر ، ونبتعـد عنـه ، ونشمئـز منـه ، لأنـه فقـد جمـال الـروح والنفس ، وأضحى كجلمـود الصخر ، لا يحـرّك ضميره منظـر رجـل عـاجـز ، أو طَفـل يتيم ، أو أرملة تشكو الفقر والعوز . . .

---

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٤ .

فالإنسان إذاً لا يستطيع أن يخفي حقيقته أبداً ، ومهما حاول فلا بدّ أن تُكشف نواياه ، ويُفتضح أمره :

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقةٍ وإن خالها تَخفى على الناس تُعلم

يقول الإمام علي عليه السلام : «ما أضمر ابن آدم شيئاً إلا وظهر على فلتات لسانه ، وعلى صفحات وجهه» . وما الآية الكريمة **﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾**(1) إلاّ دعماً وإثباتاً لقول أمير المؤمنين علي - عليه الصلاة وأزكى السلام - .

ففي أثناء الكلام يظهر الإنسان على حقيقته ، لأن الصورة الداخلية تطغى عليه وتتحكّم به ، فإما أن يرتفع إلى السماء ، وإما أن يهوي إلى الحضيض . والله سبحانه وتعالىٰ هيّأ لك السبل ، وأمدّك بالمعرفة ، ووضع بين يديك المستلزمات : الريشة واللوحة والأصباغ والألوان . . . وقال لك : ارسم صورتك كما تشاء ، ارسم فيها الكفر أو الإيمان ، القوة أو الضعف ، الشجاعة أو الجبن ، الكرم أو البخل . . . فأنت إذاً تختار ، وترسم بحسب قناعتك ، وهذه عظمتك أيها الإنسان أن خلقك الله حرّاً .

وفي مدرسة الإمام علي عليه السلام لا جبر ولا تفويض . فالإنسان مخيّر في أعماله غير مُجبر عليها . وفي نهج البلاغة تفسير رائع لمعنى القضاء والقدر . أما الذين ابتعدوا عن مدرسة الإمام فقد سقطوا في هوّة سحيقة ليس لها قرار ، ونسبوا أحاديث كثيرة إلى الرسول الكريم نتحدث عن الإنسان كما لو كان مبرمجاً ، إما أن يذهب إلى الجنة ، وإما أن يُساق إلى النار . فالرسول منهم ومنها براء .

وفي مسألة التخيير والتسيير لا بدّ من العودة إلى القرآن الكريم ، ففيه آيات تجيب على أسئلة المشككين **﴿وما ربّك بظلّام للعبيد﴾**(2) **﴿كل نفس**

---

(1) سورة محمد ؛ الآية : ٣٠ .

(2) سورة فصلت ؛ الآية : ٤٦ .

بما كسبت رهينة﴾[1] ﴿وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى﴾[2] ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون﴾[3] .

ففي مدرسة الإمام علي عليه السلام نجد الإنسان حرّاً ، تصدر أعماله بإرادته ، لا سلطة للشيطان عليه : لا تكن إمّعة وكن مستقيماً ، لا تقل إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساؤوا أسأت ، أو ظلموا ظلمت ، ولكن وطّنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تُحسنوا ، وإن أساؤوا أن تبتعدوا عن إساءتهم وتحسنوا ..

فالصورة الداخلية للإنسان تتشكّل من التربية والوراثة والبيئة الإجتماعية ، وكلها تؤثر على الإنسان . ولكن الإيمان عند علي بن أبي طالب أقوى وأكبر من هذه العوالم «إني وُلدت على الفطرة وسبقت إلى الإسلام والهجرة» .

وخلاصة القول : إن الصورة الباطنية هي التي تكشف زيف صاحبها ، وتميّز الغثّ من السمين . . . وكل إناء بالذي فيه ينضح .

الامام علي في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

وبالعودة إلى الآية الكريمة ، نرى أنها تشير إلى حدث عظيم في الإسلام ، ألا وهو ليلة الهجرة ، ليلة مبيت الإمام علي في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم . في تلك الليلة نزلت الآية المباركة ، وفي تلك الليلة تآمرت قريش على النبي ، وعزمت على قتله .

فقد انتهز الكفار والمشركون فرصة وفاة أبي طالب وخديجة للقضاء على النبي ، فما كان من الثلاثي المتآمر الذي يتمثّل بأبي لهب وأبي جهل

---

(١) سورة المدثر ؛ الآية : ٣٨ .

(٢) سورة النجم ؛ الآية : ٣٩ .

(٣) سورة النحل ؛ الآية : ٩٠ .

وأبي سفيـان ، إلاَّ أن رسمـوا خـطة لقتـل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقضي هـذه الخطة باختيار شاب من كل قبيلة يشارك في عملية الهجـوم ، وهكذا يضيـع دم النبي بين القبائل .

تمَّ اختيار أربعين شابـاً من أربعين قبيلة ، وقد زُوّدوا بـالمال والسـلاح ، وكـان الله سبحانـه وتعالىٰ لهم بـالمرصـاد ، فأمـر جبريـل أن يهبط على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويـطلعه على نـوايا القـوم وما عـزموا عليـه ، ويزوّده بـالنصـح : إن الله يأمرك أن تُضجع علياً مكانك .

إن الله سبحـانه وتعـالىٰ أبى أن يُجري الأُمـور إلاَّ بأسبـابها . قـد يكون ممكناً درء الخطر عن الـرسول ، وحفـظه من أعدائـه المتربصين بـه عن طريق معجـزة إلهية ، أو عن طـريق رفعه إلى أعلى عليين ، أليس الله بقـادر على ما يشاء ؟ ! ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾[1] .

لكن لا مجـال للمعجزة في مثـل هذا المـوقف ، بـل من الأفضـل تـرك الأُمور تجري بـأسبابهـا ، ليبلغ الإقدام على المبيت في فـراش الرسـول مبلغ التضحية والفداء في أسمى درجاتهما . وهنـا تتكشّـف النفوس على حقيقتهـا ، وتـظهر نفسيـة أبي لهب وما تـنطوي عليـه من الـزيف والإلحـاد والتـآمر . . . ونفس علي وما تنضح به من الطهر والشجاعة والإيثار . . . .

ونـزل الوحي يـأمر الـرسـول بمغـادرة مكـة . فـأرسـل في طلب علي ، وعـرض عليه المبيت في بيتـه ، وعلى فراشـه ، والإلتحاف ببـردتـه الخضـراء اليمانية ، فالمشركون عزموا على تنفيذ خـطتهم ، وبقاء علي في فـراش النبي يجعلهم يعتقدون أن الرسـول ملازم بيتـه . وهذا الأمـر سيؤخرهم عن مـطاردة محمد وهو في طريقه إلى الغار .

وفي الطريق التقى الرسـول بأبي بكـر فاصـطحبه معـه كي لا يعلم أحد بأمر خروجه . ومن هنـا كانت صحبـة أبي بكر للنبي صحبـة واجبة ، ولـو تُرك

---

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ١ .

أبو بكر في مكة لجاز أن يعلم الأعداء بمسير الرسول وهجرته فيعمدون إلى ملاحقته .

وتدور الأحداث : الرسول في الغار ، وإيمانه بالله قوي ، وقد جمّله الله بالطمأنينة ، بقوله تعالىٰ : ﴿**إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾[1] وعلي مستسلم لمشيئة الله وقضائه ، راقد في فراش الرسول ، والموتُ يُحدق به من كل جانب . وموقف آخر مغاير تماماً لهذين الموقفين ، موقف أبي بكر الحزين القلق . ولا غرابة في ذلك ، فالموقف جلل ، والخطب عظيم ، مما استدعى هبوط جبريل وميكائيل يتباهيان ويقولان : بخ ، بخ لك يا علي ! من مثلك وقد باهى بك الله ملائكة السماوات .

لقد تجاهل الكتّاب هذه الظاهرة وأغفلوها ، وأقحموا نفوسهم في متاهات فُرضت عليهم ، فخرجوا على الحقيقة ، وزيّفوا الواقع ، وسخّروا أقلامهم وضمائرهم في خدمة الغايات والسياسة ، وقصروا في فهم واستيعاب الآية التي نزلت في علي ليلة مبيته في فراش الرسول ، أو تعمّدوا ذلك .

فعلى الفراش مبيت ليلك والعدا   تهدي القراع لسمعك التغريدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى   أوَما دروا كنز الهدى مرصودا

نحن هنا لسنا في صدد التفاضل والتمايز بين الإمام علي عليه السلام وأبي بكر . هذا المنطق يأباه العقل والتاريخ ، لأن هناك فوارق وحالات نفسية مختلفة بين إنسان وآخر . فالإمام علي ابن عم النبي وربيبه وصهره والمدافع تحت رايته وأجود الناس علماً ومعرفة وحكمة . . . . وهذه الصفات ليست متوفرة في الصحابة ، مع احترامنا وإجلالنا لمقاماتهم .

والآن ، أُريد أن ألفت الانتباه إلى جوهر الآية التي نزلت في المبيت

---

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ٤٠ .

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾[1] .

هذه الآية فيها بيع مطلق لله ، فيها قناعة ورضىً بالحكم والمصير ، بعكس الآية التي نزلت في الغار وما فيها من خوفٍ وقلق واضراب . .

ويأتمر علي بأمر الرسول الكريم بعد أن سمع مقالته : يا علي ، إن الله أمرني أن أخرج هذه الليلة ، وأنت تقوم مقامي وتنام في فراشي . . . وقد يصلك سهم ، أو يقتلك هؤلاء المتآمرون . . . فيقول علي : أو تسلم أنت يا رسول الله ؟ قال : بلى ، فقال علي : نفسي لنفسك الفدا ، فأنا أطلب من الله أن يعطيني الحياة حتى أكون بخدمتك يا رسول الله .

أخذ الإمام بردة النبي والتحف بها ، ونام في فراشه . . . وفي البيت فاطمة الزهراء والهاشميات والنساء والأطفال . وأوحى الله إلى جبرائيل وميكائيل : إني قد آخيت بينكم ، فجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر ، فأيكما يؤثر صاحبه ؟ قال كل واحد منهما : أنا أريد العمر الطويل ! قال : هلّا كنتما كعلي بن أبي طالب ؟ لقد وقى أخاه النبي بنفسه وهو نائم في فراشه ، ثم أمرهما أن يهبطا إلى الأرض ويحرسا أمير المؤمنين .

أحاط الكفار والمشركون بالدار ، وعلى رأسهم أبو جهل وقد أمرهم أن يقذفوا النبي بالحجارة ، وانهمرت الحجارة على جسد الإمام الذي كان يتحمل الألم بصبر واحتمال دون أن يتفوّه بكلمة ، لأنهم إذا سمعوا صوته عرفوه ، وأدركوا خطة الرسول .

وأرادوا الهجوم ، لكن أبا لهب منعهم من دخول الدار ليلاً ، قائلاً لهم : في الدار نساء وأطفال ، وإذا دخلنا ليلاً سبّتنا العرب ، ولحق بنا العار .

وهنا نسأل : هل راعى بنو أُميّة يوم عاشوراء هذه الأعراف والمبادىء التي تعلّق بها العرب واعتبروها من شيمهم وفضائلهم أم أنهم تنكّروا لها ،

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٠٧ .

وجعلوها خلف ظهورهم ، بل سحقوها بأقدامهم ؟ . . .

أما الإسلام ، فقد راعى هذه الظاهرة الخلقية ، وكره مهاجمة الناس ليلاً ، وهم بيات آمنون . فهذا الإمام الجواد عليه السلام يجيب يحي بن أكثم حين سأله عن محرم قتل صيداً ، فقال : قتله في الليل أم في النهار ؟ .

ويستوقفنا هذا السؤال ؛ وندرك أنه من المستحسن أن يكون الصيد في النهار ، لأن الطائر يمكنه الهرب والنجاة ، أما في الليل فيكون الصيد غيلة ، لأن منافذ الهرب مغلقة ، والطائر آمن في وكره ، وفي الهجوم عليه واصطياده تكون الجريمة موجعة ، والكفّارة مضاعفة .

وقد كان مألوفاً أن الجيش الإسلامي ما كان يغير على الأعداء إلاّ في الصباح **﴿فالمغيرات صبحاً﴾**[1] . حتى العذاب عندما يأذن الله بنزوله على الكفار لا يكون ليلاً لقوله تعالىٰ : **﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾**[2] .

وامتثل القوم لرأي أبي لهب حتى أدركهم الصباح ؛ فشنّوا هجومهم ، وكان بينهم خالد بن الوليد ، قبل أن يسلم وقبل أن يكون سيف الله المسلول ، وإذا بالإمام علي ينتصب أمامه ، فيتراجع خالد ويقول : أين ابن عمك ؟ فيجيب الإمام : أجعلتموني عليه رقيباً ؟ ألم تطلبوا خروجهم عن دياركم ؟ لقد خرج محمد وانتهى الأمر . . . وتقدم ذلك المغرور ، سيف الله المسلول ، وتقدّم معه عبد لأبي جهل . فأخذ الإمام خالداً بيسراه وأهوى بالسيف على ذلك العبد فقدّه نصفين . فتراجع عندها القوم وراحوا يجدّون في البحث عن رسول الله .

إن بقاء علي في مكة كان يهدف إلى حفظ عائلة الرسول وابنته الزهراء ، يقول ابن أبي الحديد في هذه المناسبة : أية بطولة أعظم من

---

(١) سورة العاديات ؛ الآية : ٣ .
(٢) سورة هود ؛ الآية : ٨١ .

بطولة علي ! إنه يقي النبي فيبيت في فراشه ، ويبقى بعد ذلك فيردّ الأمانات إلى أهلها .

سلام الله عليك يا أمير المؤمنين ، لقد آمنت فصدقت ، وجاهدت فظفرت ، وظفرت فسجحت ، وهذه مناقب وصفات الطهرة الأبرار .

وتبدأ مسيرة اللقاء ، لقاء الحبيب محمد . فقد هيّأ الإمام قافلة عظيمة ، وخرج بها رغم أنوف الراغمين قائلاً : هذه ضعينة محمد ، وها أنا أمامكم ! لا تقولوا إن ابن أبي طالب جَبُن وخرج من حيث لا نعلم . . أنا لا أخرج ليلاً ، ولست خائفاً أو مرتبكاً ، فمن أحب منكم أن أفري لحمه ، وأريق دمه ، فليتقدم لي في هذه اللحظة أو يتبعني ويلحق بي .

إنه كفؤ كريم ، وإمام عظيم ، يتسلّح بالإيمان والتقوى ، والشجاعة ورباطة الجأش ، والحكمة وجودة الرأي . . . وهذا ما دفع الكثير من الأدباء والشعراء أن يهيموا به ، ويصدعوا بمحبته والتودّد إليه . فهذا بولس سلامة عُدّ من فرط حبّه علويّاً :

يا سماء اشهدي ويا أرض قرّي   واخشعي أنني أحبّ عليّا

وتمّ لقاء الحبيبين ، محمد وعلي ، رسول الله المبلّغ رسالته ، وسيف الله المشهور تحت رايته . ذاك خاتم النبيين ، وهذا إمام المتّقين الخاشعين الساجدين الراكعين . . .

مقتطفات من حياة الامام :

منذ يومه الأول فتح عينيه على عيني رسول الله ، وشاركه في حلو الحياة ومرّها ، وإن في ولادته معجزة . لقد وُلد في الكعبة المكرّمة ، والتاريخ يثبت ذلك ، لكنّ المغرضين أرادوا أن يتجاهلوا عظمة الإمام فراحوا يلفّقون الروايات والأحاديث حول ولادته . . . وفي رسالة بعثها لي أحدهم يقول حرفياً : لي صديق يقول أن ليس الإمام علي فقط وُلد في الكعبة ، بل هناك مئات وُلدوا فيها . . . لا أدري من هم هؤلاء المئات ! أين كانوا ولماذا

لم نسمع بهم ؟ ! لماذا لم يأتِ التاريخ على ذكرهم ؟ ! أسئلة وأسئلة ، والحقيقة واحدة ، ناصعة ومشرقة ، أنه لم يولد مولود في الكعبة غير علي ، لا من قبل ولا من بعد . . .

كان الإمام إلى يوم مصرعه على يد الأثيم ابن ملجم لا تفارق الصلاة شفتيه ، ولا يترك الرسول لحظة واحدة في جهاده ضد المشركين . . فقد انتصر الرسول على اليهود بسيف علي بن أبي طالب ، ففرّق شملهم وردّ كيدهم إلى نحرهم ، بما أبداه من ضروب البطولة والشجاعة في ساحات الوغى وفي جبهات القتال . .

وكانت حياته مع الزهراء أيام خلافته زهداً وتصوّفاً : كوخاً وجبّة صوف ، وقرص شعير في طبق ، بكفّ الطهر مطحون . . .

كان قبل خلافته يحتطب ويسقي ويكنس ، وكانت الزهراء تطحن وتعجن وتخبز ، ولما آلت إليه الخلافة لم تتبدّل حاله ، ولم يتغيّر نمط حياته ، فعن عبد الله بن أبي رافع يقول : دخلت عليه في الخورنق ، رأيته وعليه بردة بسيطة مرقعة ، فقال : «قد خرجت من أهلي بهذه ، وإن خرجت منكم بغيرها فأنا خائن» .

ولنسمعه يخاطب أهل البصرة «ما تنظرون مني يا أهل البصرة ، إنه قميص غَزَله أهلي في البيت» .

هذا الكلام لا يعني أن الإمام لم يكن لديه أموال ، بل على العكس من ذلك ، إنما أوقفها جميعها في سبيل اليتامى والفقراء والمساكين وأبناء السبيل . . . .

وعن الأصبغ بن نباتة يقول : «رأيت علياً يدعو اليتامى فيسقيهم العسل المصفّى ، ورأيت اليتامى ، ليلة ضربه ابن ملجم ، وقوفاً حول داره ووجوههم يعلوها الهمّ والانكسار ، وكلّهم جاء باللبن لإنقاذ حياة الإمام ، لأنهم سمعوا الجرّاح يقول : اسقوه اللبن لأنه مسموم ، فاللبن فيه النفع

والشفاء ، يقول الإمام الحسن : خرجت من الدار بعد ساعة ، فرأيت هؤلاء بالعشرات ، وكلّهم جاء باللبن لإنقاذ حياة أمير المؤمنين .

ويقول ابن أبي رافع : «دخلت على أمير المؤمنين ، فرأيت بين يديه جراباً مختوماً ، ففتحه وأخرج منه قرص شعير مرضوض ، ثم صبّ عليه قليلاً من الماء ، وشمّر عن ساعديه وبدأ يأكل . فقلت : يا سيدي ، لماذا تختمه ؟ فقال : أختمه من هذين الولدين ـ وأشار إلى الحسن والحسين ـ أخشى أن يلتّاه بزيت أو سمن .

وتقدم له ابنته زينب ، ليلة الضربة ، ليلة التاسع عشر من شهر رمضان ، لبناً وملحاً وخبزاً . فيقول لها : أي بنيّة ، تقدمين لي أدمين في طبق واحد ؟ ! أتريدين أن يطول وقوفي بين يدي الله ؟ ! .

للإمام شأن خاص ، وهذا الشأن يعني عليّاً ابن أبي طالب دون سواه ، لأن الله قد أخذ على أئمة الحق أن يساووا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيّع بالفقير فقره .

ويستدرك أمير المؤمنين فيقول : ولكنكم لا تقدرون على ذلك . . .

«ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ، ومن طعامه بقرصيه ، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد ، وعفة وسداد . . . وأيم الله ، لأنصفنّ المظلوم من ظالمه ، ولأقودنّ الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحقّ ، وإن كان كارهاً» .

ودخل عليه رجل قال : سيدي يا أمير المؤمنين ، جئت إليك مأخوذاً بثلاث علل : علّة النفس ، وعلّة الجهل ، وعلّة الفقر . فقال له الإمام : يا أخا العرب ، أما علّة النفس فتعرض على الطبيب ، وعلّة الجهل تُعرض على العالم ، وعلّة الفقر تُعرض على الكريم ، قال : سيدي ، أنت الطبيب والعالم والجواد . وأنا أعرض نفسي عليك قال : يا ابن أبي رافع ، أعطه ثلاثة آلاف دينار من أموالي الخاصة ، وليس من بيت مال المسلمين .

ولما جاءه أخوه عقيل يطلب العون ، قال : ليس عندي شيء من أموالي الخاصة ، فانتظر حتى تأتي وأدفع لك . قال : أنت تنهرني وعندك بيت المال ؟ ! تؤملني وترجيني بعد أيام وشهور ؟ ! فقال : يا عقيل ، إن بيت المال ليس لي ، وإنما هو للمسلمين . . .

كان عقيل كريماً يجود بكل ما يملك ، ويلحّ في الطلب من الإمام . وكان الإمام يمنعه قائلاً : والله ، لقد رأيت أخي عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعاً ، ورأيت صبية شُعثَ الشعور غبر الألوان من فقرهم .

هذا هو إمام المتقين ، وقائد الغرّ المحجّلين . جاءه رجل يطلب ألف دينار ، فالتفت إلى ابن أبي رافع وقال : أعطه ألف دينار . قال : سيدي ، ذهباً أم فضة ؟ قال : كلاهما عندي حجر ، لا أهمية له . أعطه أنفعهما ! .

ولنسمعه يخاطب ولده الحسن : «بني ، اجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك ، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها» .

ما أحوجنا إلى هذه النفس الزكيّة الطيبة ! فطريقنا طويل ، وعلينا بالزاد ، فهذا إمامنا يقول : «آه ، آه ، من قلّة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق !» .

علينا إذاً أن نهيء أنفسنا في هذه الليالي المباركة ، نعوّد أنفسنا على البذل والعطاء : العالم يبذل علمه ، والكريم ينفق من ماله . . . يقول الرسول الكريم : «من فطّر منكم مؤمناً صائماً في هذا الشهر كان له من الأجر عند الله كمن فطّر ستين صائماً» . وفي بعض الروايات : ألف صائم في غيره من الشهور . قيل : يا رسول الله، ليس كلنا يقدر على ذلك . قال : «اتقوا الله ، ولو بشقّ تمرة ، اتقوا الله ولو بشربة ماء» .

إن أصحاب الأموال عليهم أن ينقّوا نفوسهم ، ويطهّروا أموالهم ، وإلاّ كانوا في أسفل سافلين. فقد قال فيهم أمير المؤمنين : «لا تجالسوا الموتى»

قيل : وما الموتى ؟ قال : «كل غني مترف» .

لا يتبادر إلى أذهاننا أن الإسلام يمقت الأغنياء ، لا أيها الأحبة ، فالإسلام يسمي المال خيراً ﴿**إن ترك خيراً الوصية للوالدين**﴾(١) ﴿**وإنه لحب الخير لشديد**﴾(٢) و «نعم العون على تقوى الله الغنى» .

فالإمام لا يريدنا فقراء ، وهو لا يرضى أن نكون مترفين ، نعمل على عبادة المال وتقدّيسه . فالترف في مفهوم أمير المؤمنين هو أن يصبح الإنسان عبداً للدنيا والدينار ، يبيع دينه في سبيل الحياة ، ينفر من المؤمنين الصائمين العابدين . . . ويأنس للفاجرين الفاسقين اللاهين . . . وإذا أردنا أن نكون تلامذة في مدرسة الإمام ، فعلينا أن نكون من الزاهدين الشاكرين «فليس الزهد أن لا تملك شيئاً ، بل الزهد أن لا يملكك شيء» .

ها هو إمامنا يخاطب الدنيا بقوله : «يا دنيا ، غرّي غيري» . وما حربه هذه سوى عزوف عن الشهوات والملذات ، لأن الدنيا من الدنيّة . ﴿**ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا**﴾(٣) .

هذه الدنيا تمثلها قبضة الطين التي خلق الله منها أبانا آدم ، لكنه لم يتركها طيناً ، بل نفخ فيها من روحه .

إذن ، ليس في قول الإمام عليه السلام ما يُستشف منه أنه ضد الأغنياء ، بل هو بجانبهم إذا التزموا بالحقوق الشرعية ، وفكّروا بالإنفاق في سبيل الله ، ومدّوا يد العون إلى المحتاجين وأبناء السبيل والفقراء . . . .

يقول الإمام عليه السلام في صفة هؤلاء المقربين : عندي تلاميذ طلّاب خير ، لقد أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسَرَتهم فافتدوا أنفسهم منها «أين إخواني الذين ركبوا الطريق ، ومضوا على الحق ؟ أين عمار بن ياسر ، وأين

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٠ .

(٢) سورة العاديات ؛ الآية : ٨ .

(٣) سورة التوبة ؛ الآية : ٣٨ .

ابن التيهان ، وأين ذو الشهادتين ؟ أين نظراؤهم من إخوانهم الذين ركبوا المنيّة ؟ . . .» .

فهذا حجر بن عدي باع جاه الدنيا بعزّ الآخرة ، فعاش في القلوب خالداً .

وهذا قارون وما ملك ، والعمالقة والأكاسرة والأباطرة ، عاشوا الدنيا وخسروا الآخرة .

سلام الله عليك يا أمير المؤمنين ، لقد طلّقت الدنيا وزهدت بمالها وجاهها ، فعشت خالداً أبداً في قلوب عارفيك : عشّاق الإيمان ، عبدة الرّحمٰن . . .

لعلع بباب عليٍّ أيها الذهب واخطف بأبصار من سرّوا ومن غضبوا
وقل لمن كان قد أقصاك ناحية عفواً إذا جئت منك اليوم أقترب
ما قيمة الذهب الوهّاج عند يدٍ على السواء لديها التبر والترب

هيبة أمير المؤمنين :

لقد جمع الإمام علي إلى شجاعته وبأسه وعلمه وجودة رأيه الهيبة والجلال التي تفرض نفسها على الناس حتى قيل فيه : «كان فينا كأحدنا ، لكننا لا نكاد نكلمه هيبة له» .

هذا بالإضافة إلى ثقته المطلقة بالله سبحانه وتعالىٰ ، وإيمانه بالقضاء والقدر . وليس أدلّ على ذلك من هذه الحادثة التي جرت له مع خادمه قنبر . فقد خرج الإمام ليلاً يتفقد شؤون الناس ، وإذ به يسمع حركة من خلفه ، التفت وإذا بخادمه قنبر ، وكان كثير الحب له ، وشديد الالتصاق به ، فقال : ما شأنك يا قنبر ؟ قال : سيدي ، رأيتك تخرج ليلاً ، والناس كما ترى ، فخفت عليك وجئت لأحرسك . قال : يا قنبر ، أتحرسني من أهل السماء أم من أهل الأرض ؟ قال : أحرسك من أهل الأرض . قال : اعلم يا قنبر ، أن أهل الأرض لا يستطيعون أن يصنعوا شيئاً بي إلّا بإذن الله

سبحانه وتعالىٰ . فارجع من حيث أتيت .

هذه بعض صفات الإمام ، وقد أُدرجت في التاريخ في صفحة وقعت بيد عمرو بن العاص فمزّقها ، وحرّفها بشكل يبعد عن الحقيقة والواقع . . . ومما يُروى أن أمير المؤمنين كان عملاقاً وبطلاً عظيماً ، وكان يغشى المعركة مهرولاً ، حاسر الرأس . وهذه المواصفات تذكرنا بولده أبي الفضل العباس الذي كان إذا امتطى الجواد المطهّم تخطُّ رجلاه في الأرض . .

هؤلاء أهل البيت . الحق رائدهم ، والإيمان والتقوى جُنّتهم ، ونحن شيعتهم ينبغي أن نسير على خطاهم ، ونهتدي بهداهم . فما خاب من تقرّب إليهم وتمسّك بهم .

وفي هذا الشهر المبارك ، شهر التوبة والمغفرة ، دعونا نحرر أنفسنا ، ونلتفت إلى كتاب الله ، إلى الأدعية ، إلى ذلك التراث العظيم ، تراثُ أهل البيت ، الذي توارثوه كابراً عن كابر .

دعونا نتطلّع إلى عاشوراء حيث التاريخ يعيد نفسه ، ومسألة التضحية والفداء تتكرر من جديد على يد علي بن الحسين في كربلاء ، عندما قدّم نفسه فداءً لأبيه الحسين صنيع جدّه الإمام علي عليه السلام يوم افتدائه أخيه النبي .

نظر الحسين عليه السلام إلى علي الأكبر فدمعت عيناه حين استأذنه للقتال بين يديه قائلاً : أبي ، إئذن لي حتى أقاتل بين يديك ، فأذن له الحسين والتفت إلى ابن سعد وقال : يا ابن سعد ، قطعت رحمي ، قطع الله رحمك ، ثم قال : اللّهمَّ اشهد على هؤلاء القوم أنه قد برز إليهم غلام أشبه الناس برسولك خَلقاً وخُلقاً . وكنّا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيِّك نظرنا إلى هذا الغلام .

لاحظوا كيف كان وداع الحسين عليه السلام لولده علي الأكبر . إنه وداع يختلف في جوهره عن كل ما ألفناه في تاريخ البشر .

يقـول الحسين عليه السلام : بنيّ علي ، أتمنىٰ أن تكون هـذه آخـر سـاعـة من عمرك ، حتى تلاقي جـدّك رسول الله فيسقيـك بكأسـه الأوفى شربـة لا تظمـأ بعدها أبداً .

بـرز علي الأكبر يقـاتل وأبـوه الحسين واقف بباب الخيمـة ينـظر إليـه ، وإذ بـه يصفرّ وجهـه ، فسألتـه أمه : هـل أُصيب ولدي علي ؟ فقـال : ادخلي الخيمة يا ليلى ، وادعي لولدك ، فإن دعاء الأُم بحق ولدها مستجاب .

دخلت أُم علي الأكبـر إلى الخيمة ، ونشـرت شعـرهـا وقـالت : يـا رادّ يوسف على يعقوب ، يا كاشف ضـرّ أيوب ، إلٰهي بغـربة الحسن ، أردد عليّ ولدي علي .

رجـع علي الأكبر ينـادي : أبه يـا حسين ، العـطش قـد قتلني ، وثقـل الحـديد قـد أجهدني . . فـردّه الحسين إلى المعركـة . تقول سكينـة : بينمـا نحن واجمون وإذ بأبي الحسين ينادي : ولدي علي . . . ولدي علي . .

ثم أقبـل الحسين وجلس عند رأسه يمسح الـدم والتـراب عن ثنـايـاه ، وكأني به يقول :

يـا كـوكبـاً مـا كـان أقصـر عمـره   وكــذا تكـون كـواكب الأسحـار

إنّـا لله وإنّا إليـه راجعون ، ولا حـول ولا قـوّة إلّا بـالله العلي العـظيم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .




الليلة التاسعة

المعصومون أولى بحمل الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله العظيم في كتابه الكريم :

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾[1] .

هذه الآية الكريمة نحفظها ونقرأها وكثيراً ما نرددها دون أن ننفذ إلى مراميها البعيدة وإلى ما تتضمنه من فلسفة ودون أن ندري الخط السياسي والتنظيمي الذي يرسمه لنا الحق سبحانه وتعالىٰ من خلالها . وسنحاول أن نلتفت إلى الله بقلوبنا وأسماعنا ، فلعله سبحانه ينزل علينا الرّحمة والبركة والخير ، لا سيما أن مدار حديثنا الإمام علي أمير المؤمنين وأهل البيت الذين يخاطبهم الله حيث يقول : **﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾**[2] .

رأيان في الخلافة :

افترق المسلمون في شأن الخلافة إلى فريقين : فريق يرى أن الرسول

---

(١) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٣٣ .

(٢) سورة هود ؛ الآية : ٧٣ .

عندما فارق الدنيا وانتقل إلى الرفيق الأعلىٰ أسس نواة الأُمة الإسلامية وترك للمسلمين القرآن يهتدون بهديه ويعملون بموجبه دون أن يترك شيئاً سواه . ويرون أن المسلمين قد اختاروا لأنفسهم إمامهم وقائدهم وخليفتهم ، وبالتالي لم يعد هناك من موجب أو داعٍ لأي كان أن يختار ما دام هذا الاختيار قد تمّ بعد وفاة الرسول .

أما الفريق الثاني فيرى أن المسألة ليست بهذه البساطة التي يمكن أن تؤدّي إلى الفوضى . ويقول هذا الفريق إن القرآن قد أنزل من لدن حكيم عليم خبير ، وإن هذا القرآن قد أنزل ليطبق والرسول الأكرم ما استطاع أن يطبقه في حياته . وعدم الاستطاعة هنا لا تعني أنه لم تكن لديه الإمكانية في التطبيق ، وإنما يعني أن الإسلام لم يكن قد عم الكرة الأرضية بالإضافة إلى سبب آخر هو طبيعة المرحلة الجهادية التي عاشها الرسول في تلك الفترة من حياته ، فقد أمضى في مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة في صراع دائم مع مشركي قريش وأصنامهم ، بينها ثلاث سنوات كان محاصراً خلالها في شعب أبي طالب . وفي هذه الأثناء توفيت خديجة ومات أبو طالب ، ولا يخفى ما لهذين الحدثين من أثر خطير في حياة الرسول وبالتالي في مسيرة الإسلام . أما العشر الباقية فقد عانى الرسول خلالها أشد المعاناة من عنت قريش وخصومتهم .

ثم انتقل الرسول إلى المدينة المنورة وقضى فيها عشر سنوات أمضاها في حروب متواصلة لنشر الإسلام ورد أذى المشركين . فلم يهدأ له بال ولم يغمض له جفن حتى نشر الدعوة الإسلامية في محيطه .

ولنا أن نسأل : كيف يمكن لهذا الرسول العملاق الذي جاء بهذا القرآن العظيم الذي تحدى الله فيه قريشاً أن يأتوا بسورة من مثله ، بل بآية ، كيف يمكن لهذا الرسول الذي جاء بهذا النظام العظيم أن يتركه من غير أن يعين وصياً وخليفة يكون على مستوى حمل الرسالة ومتابعة نشر الدعوة ؟ .

إن ابن سينا العالم الشهير والطبيب الخطير ، قد ترك مجموعة من التلاميذ وأوكل إليهم متابعة رسالته الطبية عندما ترك بين أيديهم كتابه المعروف «القانون» وطلب إليهم أن يعملوا على شرحه وتفسيره للناس بعده ، فهل كان ابن سينا أشد حرصاً من الرسول وأبعد نظراً منه ؟ معاذ الله . وهل يمكن أن نتخيل أن الرسول العظيم يموت ـ أرواحنا فداه ـ ويترك القرآن من دون قيِّم يفسره للناس فيبين لهم أُمور دينهم ؟ .

يحدثنا التاريخ أن بعض الخلفاء الذين تولوا إمرة المسلمين تطرح عليهم بعض المسائل فلا يجدون لها جواباً ، ففي سيرة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، أنه يصعد المنبر ويتناول في حديثه الصداق أي مهر النساء ، فيتساءل لماذا هذا الغلو في «المهور» ويعلن أنه سوف يسترجع كل المهور التي حصلت عليها النساء . فقامت إليه امرأة وردت عليه حجته أمام جمع غفير من الناس . قالت : ما كان ذلك لك يا عمر لأنه خلاف القرآن ، والقرآن يقول ﴿**وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً**﴾[1] ولم يقل ألفاً أو ألفين ، والقنطار يتحدث عنه الشيخ المفيد فجعله بمعنى جلد ثور كبير مليء بالذهب ، يقول : لو أعطيت المرأة قنطاراً من ذهب لامتنع أن يسترجع هذا المال منها . فقال لها عمر الحق معك . أصابت المرأة وأخطأ عمر .

أيحق لعمر أن يعتلي المنبر وهو يجهل بعض مسائل القرآن ؟ إن كل من اعتلى المنبر وأراد أن يخوض في الحلال والحرام ينبغي له أن يكون عالماً ضليعاً في القرآن : حلاله وحرامه ، محكمه وتفصيله ، ناسخه ومنسوخه وأسباب نزوله . . . الخ لأن القرآن بعيد الأغوار والمرامي ولا يعرفه إلَّا أُولئك الذين نزل في بيوتهم ، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «أنا مدينة العلم وعلي بابها» .

---

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٢٠ .

ومن المعـروف ، بـل من المشهـور أن أمير المؤمنين كـان يقف إلى جانب الخلفاء يساعدهم في كـل إشكال يستعصي عليهم فهمه ، ويحل كـل معضلة يقفون أمامها عاجزين حائرين ، وفي مقدمتهم أبـو بكر وعمـر وعثمان الذين كانوا يرجعون إليه في الرأي والفقه والتفسير، وهذا أمـر طبيعي، أو ليس القرآن الكريم كلام الله الصامت وعلي بن أبي طالب القرآن الناطق ؟ .

القرآن الكريم يتجلى في أقوال المعصومين وأفعالهم :

مرة أُخرىٰ نتساءل : هل كـان يمكن للرسول أن يتـرك الأُمة الإسـلامية تتخبط في مسيـرتها من غيـر أن يتـرك فيهم من يـوضـح لهم دامس الـطريق ؟ لقـد تـرك لهم أهـل البيت الـذين كـان يتجلى القـرآن في أقـوالهم وفي سلوكهم ، فنحن نقـرأ القرآن في أقـوال الصدّيقـة الـطاهـرة فـاطمـة الـزهـراء عليها السلام ، ونقـرأه في أقوال أسـد الله الغالب علي أميـر المؤمنين ، نقـرأ القـرآن في أقـوال الحسن والحسين ريحـانتي رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيـدي سبـاب أهـل الجنـة . ونحن إذ نقرأ هـذا القرآن في أقـوالهم ، نتلمسه أيضـاً ونتحسسه في سيرتهم وأعمالهم فيتجلى لنا الإسلام بـأبهى صوره وأروع مـظاهره . لقـد شاء الله تعالىٰ أن يكون لحبيبـه المصطفىٰ محمـد صلى الله عليه وآله وسلم أهل بيت يتصـدون لحمل القرآن للناس جميعاً ، يحملون الأمانة بصدق وصفاء. هلمّوا معي نستمع إلى الـزهـراء وهي تخـاطب المسلمين فتقـول : «أم أنتم أعلم بخصـوص القـرآن وعمـومـه من أبي وابن عمي ؟» لـذلـك عنـدمـا نقـرأ سيـرة أهـل البيت نجـد الإسـلام وقد تجسَّـد فيهم قولاً وعمـلاً بخـلاف غيـرهم ممن تجـرأوا على أن يتبوأوا مقاعد ليست لهم . ومن أجل ذلـك قال الـرسول الكـريم صلى الله عليه وآله وسلم : «إني تـارك فيكم الثقلين : كتـاب الله وعتـرتي أهـل بيتي» ، وأنت واجـد هـذا الحديث في صحاح المسلمين وسننهم بدءاً بالبخاري وغيـره كابن مسلم وابن مـاجة ، ولا عبـرة فيمن يقـرأ هـذا الحـديث «كتـاب الله وسنتي» فـالعتـرة هي السنة .

الامام المعصوم وجوده ضرورة :

يقول الإمام علي لكميل بن زياد «يا كميل الناس ثلاثة : فعالم ربّاني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستفيئوا بنور علم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق . يا كميل إن هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فاحفظ عني ما أقول لك . . . وتعيها اذن واعية» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «الأذن الواعية هي أذنك يا علي» فقال الإمام : «ما سمعت شيئاً من رسول الله فنسيته قط» وهذا أمر طبيعي من الإمام عليه السلام وهو بدوره يريدنا أن نكون واعين هذه الدرر .

إن الإمام المعصوم ، وجوده ضرورة لأن مكانه من الكون أشبه ما يكون بمكان القلب من البدن . وبالتالي فإن وجود الأئمة المعصومين بدءاً بعلي وصولاً إلى الإمام الحجة «عجلّ الله فرجه» ، ضرورة لا بد منها . فكما أن القلب ينظم حركات الجسم الإنساني ويديرها ويوجهها ، كذلك الإمام المعصوم ينظم الحركة في الحياة والكون ويوجهها .

وبالتالي إذا حصل أي خلل في القلب فإن ذلك سوف ينعكس على حركات الجسد ، صفرة في الوجه وارتعاشاً في الفرائض وفوضىً تصيب سائر الأعضاء . والأمر نفسه يحدث لو أصيب الإمام بسوء فإن الكون بأسره سوف يهتز .

ومن هنا نفهم السر كيف هبت ريح سوداء مظلمة ، واصطكت أبواب المسجد الجامع واهتزت الأرض عندما ضُرب الإمام عليّ على رأسه الشريف بالسيف ، فنادى جبرائيل بين السماء والأرض «تهدمت والله أركان الهدى» .

وشبيه بهذا ما حدث يوم عاشوراء ساعة استشهد الإمام الحسين عليه السلام . إذ يروى أن الإمام السجاد قال لعمته زينب «إرفعي طرف الخيمة» وما إن فعلت حتى قال عليه السلام «عليكن بالفرار ،فقدقتل أبي الحسين» . وعندما

سألته «كيف عرفت ؟» قال لها : «لقد تغيَّر الكون كله» .

وفي هذا المجال يروى عن كثير من العلماء سواء في ذلك السنة والشيعة ، أن السماء أمطرت دماً عبيطاً على الحسين لمدة أربعين يوماً . والعقيلة زينب قالت في الكوفة : «أفعجبتم إن أمطرت السماء دماً ؟» .

وما ذلك إلاَّ سر من أسراره تعالىٰ ، وفلسفة بعيدة الغور لا يدركها إلاَّ ذو حظ عظيم ، ونحن يكفينا ما ظهر منها . لذلك علينا أن ندرك أن الإمام المعصوم هو حجة الله في أرضه ، والله لا يخلي الأرض من حجة وبالتالي لا بد من وجود مثل هذا الإمام المعصوم ، وعلى هذا الأساس كان أهل البيت الأنموذج الذي يتجلىٰ فيه الإسلام الحق . لقد كان أهل البيت بمشيئة إلٰهية لكي يتجسّد فيهم الإسلام ، كما تجسّد في بيت علي عليه السلام وفي أُسرته التي أمست المثال الأفضل للأُسرة المسلمة .

كيف نستفيد من الدرس ؟ :

أذا كانت أُسرة علي تعتبر الأنموذج الأصلح للأُسرة المسلمة ، وهي كذلك فعلاً ، فما هي المسؤولية التي تستوقفنا وتلقى على عواتقنا ؟ .

إن بيت عليّ يجب أن يحلَّ في بيوتنا ، ويجب أن نذوب فيه ، وأن نتعلم الدروس التي لا تنسى ، ففي ذلك منجاة لنا وخلاص .

تعالوا معي أيها الأخوة نلج هذا البيت الطاهر لنرى بأُم العين كيف كان يعامل الإمام علي زوجته الزهراء ؟ وكيف كانت الزهراء تعامله وكيف كانا كلاهما يربيان أبناءهما ؟ .

إن المسؤولية الكبرى تقع على عواتقنا أمام الله ، لا سيما أننا نواجه التيارات الراهنة التي تقوم على الكفر والانحلال فتجرف شبابنا وبناتنا وتتخطف فلذات أكبادنا من بين أيدينا وتمزقهم شر ممزق . نحن اليوم أحوج ما نكون إلى هذا البيت الطاهر نتأسىٰ بكل فرد من أفراده لكي ندفع عنا وعن أبنائنا غائلة الإنحراف والإنحلال .

قصة هـذا البيت :

كيف بدأ هذا البيت ؟ وكيف تكوَّن ؟ إليك الحكـاية من أولهـا . فاطمـة الـزهراء تعيش مـع أبيها ، والإمـام علي ربيب هـذا الـرسـول الكـريم . نحن الآن في المدينة المنورة وفاطمة بلغت مبالـغ النساء . هفت النفـوس وتطاولت الأعنـاق ، فالكـل يطلب يـدها والكـل يتقـدم لكي يخـطبهـا من رسـول الله . ولكن أنّى لها أن تكون إلاَّ لمن كان كفأً لها . خطبهـا أبو بكـر ، وكذلـك فعل عمـر وغيرهمـا حتى علم الناس أن كـل من كان يخـطب فاطمـة من الـرسـول كـانت الكـراهيـة تبـدو في وجـه أبيهـا . فـذهب أبـو بكـر وسعـد بن معـاذ إلى علـيّ الـذي كـان يـعمـل في سقـايـة الـنـخيـل لـدى أُنـاس من المـدينـة يكسب بهـذا العمـل قـوتـه ورزقه . وعنـدمـا ألقيـا عليه التحية ردّ عليهما بأحسن منها ثم سألهما : ماذا تريدان ؟ قـال أبو بكـر : لقـد ذهبت إلى الرسـول خاطبـاً ابنتـه فـاطمـة وكـذلـك فعـل عمـر ، وغيـرنـا كثيرون ، ولقد رأينا كراهة ذلك في وجهه ، وما أظنـه يردك خـائباً فـأنت كفء لها .

تـوجـه الإمـام علي إلى بيت أُم سلمـة لأن الـرسـول كـان في بيتهـا ثم طرق البـاب . وفي هذه الأثناء كـان جبرائيـل يوحي إلى الـرسول : «يـا رسول الله . . العلي الأعلى يقرئك السـلام ويقول لـك ، عليّ الآن في طريقـه إليك يخـطب منـك ابنتـك الـزهـراء . الله تعالىٰ يقـول : إني قـد زوّجت عليـاً من فـاطمة ، زوجتهمـا أمـام مـلائكـة السمـاوات والأرض ويـريـد منك أن تعلن ذلك» .

عنـدما طـرق عليّ البـاب قـال الرسـول : يا أُم سلمـة افتحي البـاب لـه وامريه بالدخول. قالت : من هذا يا رسول الله الذي آمره بالدخول ؟ قال: إنه الرجل الـذي أحب الله ورسولـه وأحبه الله ورسـوله . تقـول أُم سلمة : فتحت البـاب وإذا به علي بن أبي طـالب وقد وقف مـطرقاً بـرأسه . قـالت : والله ما دخـل الدار حتى اختفيت في خـدري . دخل الإمـام علي فجلس عند رسـول

الله . سلّم عليه فرد عليه السلام . قال : أجلس يا علي فجلس مطرقاً . قال له المصطفىٰ : ما حاجتك يا علي ؟ قال : يا رسول الله أنا ربيبك ، احتضنتني وغذيتني ، وأشعر الآن أني بحاجة إلى سكن وزوجة ، وقد جئت خاطباً منك ابنتك فاطمة . فهل أنت مزوجي يا رسول الله ؟ تبسّم الرسول وقال : يا عليّ قبل لحظات كان جبرائيل عندي وأمرني ربي بهذا الزواج .

ولكن ما عندك من المهر ؟ قال يا رسول الله أنا لا أملك من الدنيا إلاّ سيفي وناضحي[1] ودرعي . قال رسول الله ﷺ: أما سيفك فلا غنىٰ لك عنه وأما ناضحك فأنت تحتاجه وبقي درعك فبعها. فباعها الإمام علي بمبلغ يتراوح ما بين أربعمائة وخمسمائة درهم حسب الروايات . ثم قال له الرسول : يا علي لقد جاءني فلان وفلان وفلان يخطبون فاطمة فذكرتهم لها فرأيت الكراهية ترتسم على وجهها، فدعني أدخل عليها لكي أسألها رأيها . وهنا يتجلى احترام الإسلام للمرأة ، فبالرغم من أن الله شاء له أن يتزوجها ورسول الله يريد ذلك والإمام علي كفء لها ، بالرغم من كل ذلك دخل عليها الرسول يسألها رأيها . دخل عليها أبوها فقامت إجلالاً له وسألته ما عندك يا رسول الله ؟ قال : بنية فاطمة ، جاء علي يخطبك مني فماذا تقولين ؟ فأطرقت برأسها من غير أن يبدو عليها أي أثر للكراهية . فعلم أنها موافقة . خرج الرسول إلى المسجد وخطب في الناس معلناً ذلك .

انتُدِبَ أبو بكر وسلمان وبلال وأُم سلمة لشراء «الجهاز» ففعلوا . ولا بأس من أن نتعرف إلى هذا «الجهاز» مم يتألف ؟ .

إن جهاز سيدة نساء العالمين كان يتكون مما يلي : قطيفة ، وسادة من ليف ، قربة للماء (لطالما حملتها حتى أثرت على كتفها) رحى (كانت تطحن بها الجريش حتى مجلت[2] يداها) ، كوز ماء بعض الأواني من الخزف ، ثوب ، عباءة .

---

(١) الناضح : البعير الذي يحمل عليه الماء لسقاية النخيل .

(٢) ظهرت آثار العمل عليها . والعامة تقول «فقفقت» .

كما أن الإمام علياً اشترى لـه خشبتين وحبلاً . ولمـا طرح هـذا الجهاز أمام الرسول بكى وقال : «بورك أهل بيت جُلّ آنيتهم من الخزف» .

ذهب الإمـام علي إلى البيت وضـرب الخشبتين في الأرض ووصـل بينهمـا بالحبـل لنشـر «الغسيـل» . وزفت فـاطمـة الـزهـراء ، وزوجـات النبي ينشدن :

سـرن بـعـون الـلّه جـاراتـي   وآحـمـدنـه في كـل حـالات
فـاطمـة خيـر نـسـاء البـشـر   ومن لهـا وجـه كـوجـه القمـر

ورسـول الله يمشي وسلمان يقـود الناقـة التي اعتلتها الـزهراء . وعنـدما وصل الموكب إلى بيت علي أخـذ الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم بيدهـا ووضعها في يـد علي قائلاً : «يـا علي هذه وديعتي عنـدك» . ومن أجل ذلـك عندمـا ماتت الـزهراء قال الإمام علي :

«يا رسول الله لقـد استرجعت الـوديعة وأخـذت الرهينـة» ثم قال : «أمـا حزني فسرمد» وقد قال ذلك لأن الوديعة ينبغي لها أن تعود سالمة لا مكسورة الضلع ، وأثـر الضرب واضـح في عينها ، وفي وجههـا . من أجل ذلـك كـان حـزنه سـرمـداً وليله مسهَّداً فقـد رأى بأم عينـه كيف كانت زوجتـه «الوديعـة» تضرب ويعتدى عليها يوم وقفت في وجه الذين اغتصبوا الخلافة قهراً .

علـي والمـرأة :

لقد كان الإمام علي يحترم المرأة من خلال احتـرامه لفـاطمة الـزهراء ، أمـا ما ورد في نهـج البلاغـة من آراء له في المـرأة فإن أخصـامـه قـد أسـاؤوا فهمهـا وحملوها على ظـاهر لفـظهـا دون أن يفقهـوا المعنى الحقيقي الكـامن فيها والذي أراده الإمام علي .

يقول الإمام علي في نهـج البلاغـة : «المرأة شـر كلها وشـر ما فيهـا أنه لا بـد منها» ويقـول : «النساء نـواقص العقول ، نـواقص الحـظوظ ، نـواقص الإيمان» . إن الإمام علياً لا يرسـل الحديث جـزافاً أو اعتبـاطاً ، معـاذ الله .

ولكنه أدلى بهذه الأقوال على أثر حرب الجمل التي أثارتها في وجهه السيدة عائشة . ونحن نعلم أن الإمام علياً يعتبر الأنموذج التي يتمثل فيه الإسلام بأبهى صوره ، فما هو موقف الإسلام من المرأة ؟ لأن موقف علي منها هو موقف الإسلام تماماً .

يقول الله تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿**ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات**﴾[1] .

وعندما أغار جنود معاوية على الأنبار وبلغ الإمام أنهم كانوا يدخلون على النساء المسلمات واليهوديات والنصرانيات فيأخذون حجلهن والقلائد والأقراط ، صعد المنبر في الكوفة وخطب في الناس قائلاً : «لو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان عندي ملوماً ، بل كان به عندي جديراً» . واضح أن الإمام يتألم لأن جنود معاوية قد اعتدوا على المرأة المسيحية فما بالك وقد اعتدوا على المرأة المسلمة المؤمنة . فهل يعقل أن يكون موقف الإمام علي من المرأة كما فهمه أخصامه وكل الذين يبحثون عبثاً عن عيب ينسبونه إليه وأنّى لهم ذلك . وعلى رأس هؤلاء وفي مقدمتهم بعض المستشرقين الذين حاولوا أن يشوهوا صورة الإمام علي عليه‌السلام فقد زعموا أن علياً كان حاقداً على المرأة وما كان يكنُّ لها أدنى احترام والعياذ بالله . وإليك بعض أقواله في المرأة والتي تدحض كل هذه الافتراءات والأباطيل .

يقول سلام الله عليه : «استوصوا بالنساء خيراً» ، ويقول : «الله الله في النساء» ويوصي جيشه بعدم الاعتداء حتى على نساء المشركين والكفرة قائلاً : «لا تعترضوا النساء حتى لو شتمن أعراضكم» .

أما تشبيهه المرأة بالضلع المعوج فليس في هذا التشبيه أي تعريض بها ، فهو سلام الله عليه أراد أن يجعلها مصدر كل حنان ودفء وعطف

---

(١) سورة الفتح ؛ الآية : ٢٥ .

ورحمة . وأما قوله : «نواقص العقول» فلأن شهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد ، إذ أن المرأة تختزن عاطفة وأنوثة وذلك مما يجعلها متعددة المشاغل والاهتمامات على رأس أُسرتها وبيتها ، تهتم بتربية أطفالها وشؤون زوجها ، وبالتالي قد تحتاج من يذكرها إذا تعرضت للنسيان . والنساء برأيه عليه السلام «نواقص الإيمان» من الوجهة العملية بسبب قعودهن عن الصلاة والصيام أيام حيضهن ، والله تعالىٰ قد رخَّص لهن في ذلك ، وهن إذاً في طاعة الله . أما قوله عليه السلام : «نواقص الحظوظ» فهو واضح ، إنه حظهن من المواريث علماً أن الإمام يعلم أن المرأة تأخذ ضعفين أو أكثر في بعض موارد الإرث في الإسلام وهذا مورد خاص بالأخت فقط . ويقول عليه السلام : «إذا نظرت إلى فاطمة انجلت عني الهموم والأحزان» لأنها كانت تزهر له سلام الله عليهما . ومن هنا نفهم بل نوضح لماذا سميت بالزهراء . لقد لقبت بهذا اللقب لأنها تزهر لأهل السماء كما تزهر النجوم لأهل الأرض ، كما كانت تزهر في محرابها وهي تصلّي ، يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا وقفت ابنتي فاطمة للصلاة ، وقف خلفها سبعون ألف ملك يصلون عليها ويقولون لها : يا فاطمة إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين» . وهو خطابهم لمريم ، علماً أن فاطمة أقدس وأعظم منها وهذا أمر لا إشكال فيه ولا نزاع ، فقد قيل للرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «يا رسول الله ، أو ليست مريم سيدة نساء العالمين ؟» قال صلى الله عليه وآله وسلم : «مريم سيدة نساء عالمها ، أما ابنتي فسيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين» .

حجاب المرأة :

يروى أنه دخل رجل أعمى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقامت فاطمة ودخلت حجرتها . فلما رحل الرجل قال لها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «بنية ، لماذا خرجت ، إنه أعمى ؟» . قالت : «إن لم يكن يراني فإنني أراه ، ثم هو يشم الرائحة» .

ما أروع الإسلام وما أعظمه ، إذ يصون المرأة ويقدرها ويحترمها .

فالحجاب بالنسبة للمرأة قداسة وشرف . يقول الله تبارك وتعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فسئلوهن من وراء حجاب﴾[1] . ثم يحدد الهدف والغاية منه فيقول سبحانه : ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ إذ أن الحجاب طهارة للقلب من الدنس وصفاء له من كل شائبة أو شك أو حيرة ، وهو بالتالي ليس مجرد حجاب مادي يستر الصورة والجسد . لذلك يقول سبحانه : ﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض﴾[2] . إذن مسألة الحجاب لها علاقة وثيقة بالقلب القابع في صدر الإنسان ، وبأمراض هذا القلب . يأمرهن سبحانه بألا يخضعن بالقول أي لا يتبرجن ، لأن الذي في قلبه مرض يطمع في أعراض الناس ، والحجاب في هذه الحالة أطهر لقلوب الرجال والنساء على حد سواء . وبالإضافة إلى طهارة القلب وصفائه فإن الحجاب يستر العورة . يقول سبحانه : ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً﴾ وبدن المرأة كله عورة والحجاب يواري العورة .

إن الحجاب الذي نتحدث عنه هو حجاب مادي يتعلق بالجسد والبدن فهو أمر «بيولوجي» ، ولكن هناك حجاب من نوع آخر ، إنه الحجاب النفسي «السيكولوجي» وهو أرفع منزلة وأبعد خطراً ؛ يقول تعالىٰ : ﴿ولباس التقوى ، ذلك خير﴾[3] . إن الحجاب المادي لا قيمة له إذا لم يكن ثمة حجاب من التقوى ، وإذا كان الحجاب المادي يستر العورة فإن حجاب التقوى يحفظ القلب ويصون النفس ويردعها ويقف حائلاً بينها وبين هواها وميولها ، فعلاقة الرجل بالمرأة ليست علاقة جسدية فقط . فمن ينظر إلى هذه العلاقة من الناحية الجسدية فقط فهو حيواني النزعة وبالتالي ليس إنساناً . ﴿إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضَلُّ سبيلاً﴾[4] . إن العلاقة بين

(١) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٥٣ .
(٢) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٣٢ .
(٣) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٦ .
(٤) سورة الفرقان ؛ الآية : ٤٤ .

الرجل والمرأة لهي أسمى من ذلك وأرفع منزلة ، إنها علاقة شريفة بين القلوب وبين النفوس ، ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾[1] . أي أن وجودك إلى جانب زوجتك يشعرها بالسكينة والهدوء والراحة ، ووجودها إلى جانبك يشعرك نفس المشاعر ، ومن هنا كان الزواج حصانة للمرأة وللرجل في آنٍ معاً . وإذا كانت المرأة تميل إلى التبرج والزينة فقد حدد لها المشرع حدود ذلك «المتبرجة عند زوجها والحصان أمام غيره» وما يحدث اليوم خلاف ذلك إذ أن المرأة قد خرجت متبرجة تعرض زينتها لكل الرجال ، في الوقت الذي نعلم أن الحجاب يصونها ويحفظها ويكسبها هيبة ونوراً واحتراماً ويرفع من قيمتها وقدرها .

إن الزهراء ، وهي أجمل فتاة وطئت الأرض ، عندما خرجت لتلقي خطبتها في مسجد أبيها صلى الله عليه وآله وسلم كانت تطأ أذيالها أي أطراف ثيابها وذلك كناية عن التشدد والتحرج في أمر الحجاب . ونحن لا نبالغ إذا ما قلنا : إن الاستعمار واليهود وأعداء الإسلام جميعاً ما استطاعوا أن يمزقوا المجتمع الإسلامي إلّا بعد أن عملوا على نزع الحجاب ونشر الفجور في أرجاء هذا المجتمع ، ولا خلاص له إلّا بالعودة إلى قواعد الحجاب كما فرضه الإسلام وقرره المشرع الإسلامي .

عندما نزلت آية الحجاب ، كان النساء ، يدخلن مسجد الرسول وعلى رؤوسهن مثل الغربان ، فكل امرأة من نساء الأنصار وضعت قسماً من ثوبها على رأسها وتجلببت بجلبابها وهو ثوب فضفاض . يقول سبحانه ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾[2] وكلمة «ذلك» في هذه الآية الكريمة تفسيرية ، أي تبيّن لنا فلسفة الحجاب والغاية منه ، فالحجاب يدفع الأذى عن المرأة والإسلام يريد أن يحافظ على كرامتها ، ودفع الأذى ليس هو الغاية الوحيدة ، بل هناك غاية أُخرى هي طهارة القلب

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٧ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية : ٥٩ .

وصفاؤه ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾[1] ومجتمعنا مليء بأولئك الرجال الذئاب الذين في ﴿قلوبهم مرض﴾ يلاحقون المرأة في كل مكان ويتعرضون لها من غير وازع أو رادع . هؤلاء الرجال ﴿مرضى﴾ على حد تعبير القرآن الكريم ، ومرضهم هذا خطير لا شفاء له إلاَّ بطب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام ولعمري إن أشد الأمراض وأخطرها هي تلك الأمراض الكامنة في القلب ، ولا يقضي على هذه الأمراض القلبية إلاَّ الإسلام . إذ ينبغي لهؤلاء الناس المرضى أن يكفوا أذاهم عن المجتمع . يقول الإمام علي عليه السلام : «من كف يده عن المجتمع كفت عنه الأيدي» .

عود على بدء :

سبق القول إن الله تبارك وتعالىٰ قد اختار أهل البيت ليكونوا نماذج يتجلى الإسلام في أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم وسلوكهم ، وكل من أراد أن يتعرف إلى الإسلام عليه أن يتعرف إلى سيرة هؤلاء الأخيار الأطهار الذين ذابوا في الإسلام ورسموا لنا حركة الحياة الصحيحة فمن تبعهم نجا ومن تخلف عنهم تردّى في هاوية الضلالة . ولا بأس من أن نورد بعض الصور من مواقفهم الخالدة وسلوكهم الإسلامي .

فهذه فاطمة الزهراء في حياتها اليومية ندخل بيتها ونرصد حركتها ، هي في داخل البيت تدير بيدها الرحى حتى مجلت يدها ، وتوقد النار تحت القدر حتى يبدو أثر ذلك في ثيابها ، والحسين في مهده يبكي إلى جانبها والحسن طفل صغير ، وفي هذه الأثناء يدخل عليها أبوها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما رآها دمعت عيناه فقال : «بنية فاطمة ، تجرعي مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة» إنه يدعوها إلى التحلي بالصبر على مضض الحياة أملاً بحلاوة الآخرة وحسن الثواب فيها ، حتى كأن الدرس يتوجّه فيه الرسول الأكرم إلينا جميعاً لكي نعيه . وعلينا أن ندرك أن الله سبحانه كان باستطاعته وهو العلي القدير ، أن ينزل مزيداً من الملائكة والحور العين لكي يكونوا في خدمة

---

(١) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٣٢ .

الـزهراء ، ولكن الأمـر ليس كذلـك فالـزهراء أسـوة وقدوة لكـل امرأة مسلمـة وعلي أسوة وقدوة لكل امرىء مسلم ، وأهل البيت جميعاً أسـوة وقدوة للنـاس قاطبة ، وبالتالي يجب أن يمارسوا حيـاتهم اليوميـة كما يعيش سـائر النـاس ، والهـدف من كـل ذلـك أن يـرسمـوا لنـا حـركـة الحيـاة الحقـة ، القـويمـة ، الصحيحـة . ومن هنـا نفهم السـر الـذي من أجله قـال فيهم الله سبحـانـه وتعـالىٰ : ﴿**إنمـا يـريـد الله ليـذهب عنكم الـرّجس أهـل البيت ويـطهّـركم تطهيراً**﴾ .

صـورة أُخرىٰ نستـطيـع أن نشهـدهـا لـدى الحـوراء زينب عليها السلام ، يـوم عاشوراء إذ وقفت تنظر إلى أخيها الحسين مضـرجاً بـدمائـه الطاهـرة ، فرفعت وجههـا الكـريم إلى السمـاء وقـالت : «اللّهمَّ تقبـل منـا هـذا القـربـان فـداء لوجهك الكـريم» . ويوم دخـل السبايـا الكوفـة وقفت الحوراء في مجلس ابن زياد وإلى جانبها سائر السبايـا ، فأطلت امـرأة كوفيـة وسألتهـا : «أخية من أي الأسارى أنتم» فأجـابتها «نحن أسـارى آل محمد» ، فـنـزلت من على سطحهـا وجمعت لهن ملاءات وأزراً ومقانع .

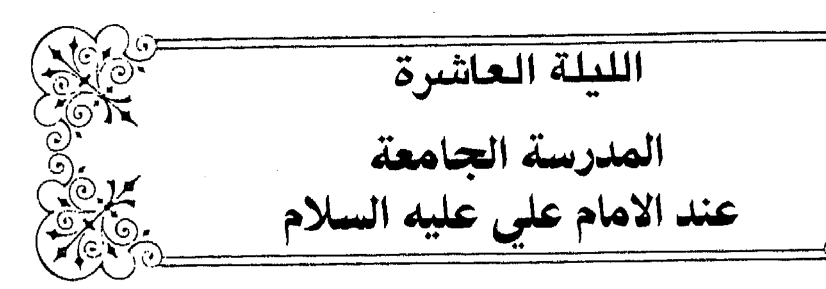
ويحاول أحد المؤرخين أن يوضح لنا لماذا كانت الحوراء تـرتدي أبسط الثيـاب وأرثهـا في مجلس ابن زيـاد ؟ يقـول عنـدمـا هجم عليهم الجيش في المخيم بعـد مصـرع الحسين عليه السلام أوقفتهم الحـوراء وجمعت لهم الـثيـاب والحلى والحلل لئلا تمتد أيديهم إلى حرائر رسول الله .

ولمـا دخلوا الشام ، يـروي سهـل بن سعـد السـاعـدي فيقـول : رأيت القافلة والأطفال والنسـاء ، وعندمـا دخلت شاهـدت جاريـة من الجواري وقـد انكشف رأسهـا ليس عليه أي خمـار ، قال : دنـوت منها وسـألتها : يـا جارية من أنت ؟ يقـول : يـا ليتني مـا سمعت ردهـا ، قـالت لـه : أنـا سكينـة بنت الحسين ، ويسترسل سهل بن سعد في وصف الأثـر الذي تـركه هـذا الموقف في نفسـه والحـزن الـذي دخـل قلبه . وفي ذلـك المـوقف بـالـذات وقفت الحـوراء في مجلس يزيـد قائلة لـه : «أمن العـدل يـا ابن الطلقـاء تخـديـرك

حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسـول الله سبايـا ، قد هتكت سـتورهن وأبديت وجـوهـهن ، تحـدو بهن الأعـداء من بلد إلى بلد ويستشـرفهن أهـل المنـاهـل والمناقل والمعاقل ، ويتصفـح وجوههن القـريب والبعيد والـدنيء والوضيـع ، ليس معهن من حمـاتهن حميّ ولا من رجـالهن وليّ» ؟ ولما سمعت زوجـة يزيد ذلك دخلت مجلسه سـافرة فنـظر إليها يـزيد قـائلاً : «أمـا تستحين وأنت تبرزين بين الرجـال ؟» وكانت زوجتـه رمت حجابهـا أسوة ببنـات رسول الله ، فقـالت : «ويحك يـا يزيـد ، أنا أستحي وهـذه صريخـة آل عبـد المـطلب ، وهؤلاء بنـات رسول الله بمجلسـك ؟» فقال لهـا : «نوحي على الحسين فـإنـه داعية بني هاشم» .

نـظرت إليها الحـوراء زينب ، فجرت دمـوعها وسـالت عبـراتهـا لتبـدل الأيـام وتغيـر الأحـوال . ولكم تمنت في تلك الأثنـاء أن يكـون إلى جـانبهـا أخوها أبو الفضل العباس .

إنـا لله وإنّا إليـه راجعون ولا حـول ولا قوة إلاّ بـالله العلي العظيم وآخـر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ ، إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾(١) .

صناعة الانسان المؤمن :

جانب مهم من جوانب مدرسة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، ألا وهو جانب الدعاء ، حيث تجد الإمام يتخذ من الدعاء وسيلة كبرى لصناعة الإنسان المؤمن ، لتكوينه وتنشئة جيل رباني يتسلح بالحق والحرية والعدل ، هذه المحاورة التي تدور عليها شخصية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام .

وقبل أن نأتي على جانب الدعاء ، ونحن في ليلة الجمعة من هذا الشهر العظيم ، أودّ أن ألفت أنظاركم إلى ملاحظة مهمة جداً قد تغرب عنا جميعاً ، هي أننا عندما نأتي إلى الإمام علي عليه السلام ، فما الذي يجلبنا إليه . . . ؟ وما الذي يشدنا إلى هذه الشخصية الفريدة من نوعها ! . هل يمكن أن يكون الاسم وحده ؟ . صحيح أن فيه نوراً مشعاً . ولكننا نريد أن

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٦ .

نفهم من هو علي بن أبي طالب . هذا الذي إذا ذكره الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يجعله في قمة القمم . فهو يقول له على سبيل المثال لا الحصر : «يا علي لولا أني أخشى أن تقول فيك طوائف ما قالت النصارى في المسيح بن مريم ، لقلت فيك مقالة لا تمر بملأً من الناس إلّا وأخذوا التراب من تحت قدميك . لكن يكفيك أن تكون منزلتك مني بمنزلة هارون من موسىٰ . .» .

ثم يقول أيضاً صلى الله عليه وآله وسلم : «ليلة أُسري بي (ليلة أعرج بي) إلى السماء ، رأيت إبلاً تحمل فضائل علي بن أبي طالب ، لا يعرف أولها ولا آخرها إلّا الله» . لاحظوا هذا الجانب .

فإذا تكلم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم عن مواصفات أمير المؤمنين علي ، فهو في القمة ، وكذلك الوحي يسجل خطوات علي بالنور ، كل كلمة وكل خطوة . . . هكذا . فهناك عناية من الله بهذا الرجل العظيم ، وإعداد من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تهيئة له لكي يتسلم الإسلام ، وحتى يكون قرين القرآن ، ومفسِّراً له ، وإمام المسلمين وقائد الغرِّ المحجّلين . . . هكذا يكون الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

فيقول فيه الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلم : «علي أقضاكم بعدي» . و«أنا مدينة العلم وعلي بابها» ، ويزوجه ابنته الصديقة فاطمة الزهراء . وهذا جانب آخر .

صفات أمير المؤمنين :

أما إذا جئت إلى أهل البيت من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فإنك تجد الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها تخصّص نصف ا لخطبة للحديث عن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وتصفه أنه كان «مُشمِّراً في جنب الله ، ناصحاً لله ولرسوله ، سيداً في أولياء الله ، مُجِدّاً كادحاً» . لاحظوا هذا التعبير .

ثم تقول : «وما الذين نعموا من أبي الحسن ، نقموا منه والله نكير سيفه وقلّة مبالاته لحتفه وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله» . وتستمر في مواصفات علي بن أبي طالب .

والحسن والحسين عليهما السلام عندما يذكران أباهما علياً أيضاً ، فهما يشيدان بشخصيته ويحركان القلوب لحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : «أشهد أنك كنت أول القوم إسلاماً ، وأقدمهم إيماناً ، يا أمين الله في أرضه وحجته على عباده» .

وإنك لترى الإمام السجاد ، والجامعة في عنقه ، يصعد المنبر ويتكلم عن أمير المؤمنين لأهل الشام ، ويُذَكرهم بعلي بن أبي طالب عليه السلام : «ليث الحجاز ، كبش العراق ، مكي مدني ، خيفي عقبي ، شجري مهاجري ، من العرب سيدها ، ومن الوغى ليثها ، وارث المشعرين ، وأبو السبطين الحسن والحسين ، ذاك جدي علي بن أبي طالب» .

ثم يقول: «أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين ، وطعن برمحين ، وهاجر الهجرتين ، وبايع البيعتين ، ولم يكفر بالله طرفة عين» التفتوا . . لأن الناس الذين أسلموا ، كانوا يسجدون للأصنام لكن الإمام علياً لم يسجد لصنم قط ، ولم يقع بصره الشريف على عورة أحدٍ قط ، حتى أعداؤه يعرفون هذه الفضيلة لديه ، ولذلك طبقها عمرو بن العاص ، فنجابها من ضربة الإمام في يوم صفين .

لقد كان الإمام علي عليه السلام منتصراً في جميع الحروب التي خاضها دفاعاً عن الإسلام ، وحتى يوم هُزِم المسلمون في معركتي أُحُدٍ وحُنين ، كان الإمام علي منتصراً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فما وقف موقفاً قط إلاّ وسجّل النصر لله سبحانه وتعالىٰ ، وما وقع سيفه على أحدٍ وأخطأه أبداً . . . ! .

جيء له يوماً بفرس سابق ، لاحق ، قيل له : يا علي هذه فرس قوية وجواد يلحق ويسبق ، هذا تحتاجه في الحرب . . . . قال : لا حاجة لي به ، لأني لا أفرّ من أحد ، ولا أتبع أحداً إذا فرَّ مني ! .

وكان ينزل إلى الحرب وهو حاسر الرأس ، فإذا سمع باسمه الأعداء ، ارتعدت فرائصهم ، وعندما سأله مرحب الخيبري : من أنت ؟ قال علي ، وكان يرتجز : «أنا الذي سمّتني أمي حيدرة . . .» فاهتزت فرائص مرحب الخيبري ، وانحلت مفاصل بدنه . . هذا هو علي ؟ الويل لي . هذا ما قاله مرحب ، فارس اليهود الذين لم يتمكن أحد من كسر شوكتهم إلّا علي بن أبي طالب عليه السلام ، «وكانوا يظنون أنهم مانعتهم حصونهم» . وسيأتي الكلام عنهم إن شاء الله .

علي واليهود :

وفي محاضرة خاصة ، بعنوان علي واليهود ، وموقف الإمام علي من اليهود ، يدلنا على مدى تأخر المسلمين الآن . مليار ونصف المليار مسلم في العالم واليهود يصولون ويجولون . مليار ونصف المليار مسلم في العالم مكتفين بالإعلام الفارغ المزيف ليس أكثر ، واليهود يزدادون عنجهية يوماً بعد يوم وتقوى شوكتهم ويطغى جبروتهم . فهلّا لاحظت كيف حطم الإمام علي غرور اليهود ودمر حصونهم بعزمه الصامد وإيمانه الثابت . فهؤلاءِ بنو النضير تحصنوا بحصونهم ، ﴿**وظنوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله**﴾ ، إلى أن يأتي ثم يقول : ﴿**فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا**﴾[1] الله أكبر . . كيف أتاهم ؟ وقذف الرعب في قلوبهم .

وإذا كان الإنسان يتحصَّن أو يحصِّن بدنه في بيت مثلاً ، ظاناً أن تحصينه هذا يحول دون وصول الله إلى بدنه ، فهو هنا يفكر من منطلقات مادية ، لأن جسد الإنسان ماديٌّ وقد غرب عن باله أن الله وحده يحول بينه وبين قلبه ﴿**إن الله يحول بين المرء وقلبه**﴾ وهكذا قذف الله الرعب في قلوب بني النضير بسيف أمير المؤمنين علي عليه السلام .

ففي وقعتي الخندق والأحزاب ، يبرز الإمام علي عليه السلام إلى عمرو بن

---

(١) سورة الحشر ؛ الآية : ٢ .

ودِّ العامري ويضربه بسيفه البتَّار ضـربة واحـدة فيرديـه قتيلاً ، وعنـدها يصيـح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «برز الإيمان كلُّه إلى الشرك كلِّه» .

ويـوم بـدر . . . وسـوف تـأتي ليلة بـدر إن شـاء الله ، في هـذا الشهـر العظيم ظل الرسول يدعو حتى سقط رداؤه : «فـإن شئت ألا تُعبد فـلا تُعبد يـا رب ، إن تملك هـذه العصابـة لا تُعبـد» . ويشيـر إلى أميـر المؤمنين علي بن أبي طـالب عليه السلام ، هذا الأسـد الهمام لأن نصف القتلى الـذين سقطوا في كـل غـزوات الإسلام وحـروبهم بسيفه ، فهـو البطل المنتصـر والشجاع العـظيم ، الـذي يدخـل على الزهـراء عليها السلام يوم أُحُـدٍ وسيفه يلهث من دمـاء المشـركين والجبابرة والظَلَمة والطغاة ويقول :

أفــاطمَ هــاكِ السيف غيـر ذميم   فـلستُ بـرعديــدٍ ولا بـمـليـم

ثم تـأتي لتعالجـه وصفيـة معهـا ، فتقـول : إيـه يـا رسـول الله ، كلمـا عالجنا منه جرحـاً انفتح جـرحٍ آخر ، فكـان بدنـه قرحـة واحدة من الجـراح . لقد هرب بقية المسلمين يوم أحد وتركـوا الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم وحده ، هـرب هؤلاء الـذين هم أبـطال الإسـلام ! . . الـذين يقـرأ طـلابنـا عنهم في الكتب والصحف ، أبـطال الإسلام هؤلاء ، الـذين شردوا وتـركوا الـرسول وحـده ، أصبحـوا الآن هم الأبـطال . أمـا الإمـام علي بن أبي طـالب عليه السلام البـطل الحقيقي الـذي استبسل في الـدفاع عن الإسـلام والذي أرسى دعـائمه ووقف صلبـاً في وجه عتـاة الكفار والمشـركين ، فأبنـاؤنا لا يعـرفون عنـه شيئاً ، بـل يكادون لا يقرأون عنه شيئاً أبداً . وهذا جانب آخر من جوانبه في الحرب .

يقول الشريف الرضي ـ رضوان الله عليه : «كلما أتيت على مـواصفات علي أميـر المؤمنين ، أشعر بهـزَّةٍ ورعدة في أعمـاقي ، لأن مواصفـات الإمام علي قـد توحي لمن يقـرأها ، وينـظر فيها أنهـا مواصفـات متضـادة ، يضـرب بعضهـا بعضاً ، ولكنهـا الواقعيـة التي تنبىء عن شخصيـة علي بن أبي طـالب عليه السلام» . هذا مضمون كلام الشريف الرضي ، لأنه ودائماً عندمـا يبرز الإنسـان في صفـة ، يكون هـذا على حساب الصفـات الأُخرىٰ . لكن عليـاً ، قمة في

كل صفاته ، قمة في الحرب وقمة في المحراب .

فهــو إذا دخـل المسجـد للصلاة ، تــراه يتحـوّل إلى دمعــة واحـدة ساخنـة ، في الليـل ، يتحسّس آلام الفقـراء والمحـرومين ، وإذا نـطق بَـدّى القـائلين ، ونقـع غليـل السـائلين . إذا صعـد المنبـر قـال : «سلوني قبـل أن نفقــدوني . . سلوني عن طـرق السمــاوات ، أنــا أعـلم بهــا مـن طــرق الأرض» . ويجيب أيضـاً على المسائـل الريـاضية والفيـزيائيـة والكيميـائيـة ، يجيب عليهـا وهو على صهـوة فرسـه وبسـرعـة البـرق ، فهي واضحـة لـديـه وضـوح الشمس ، حتى أن الناس كـانوا يتعجبـون . قال لـه قـائـل : يـا أميـر المؤمنين أهكذا ، وبهذه السهولة ؟ قال : كم أصـابع يـدك ؟ هل تحتـاج إلى طول تفكير عندما يسألونـك عن عدد أصـابع يـديك ؟ قـال : لا . قال : وأنـا كذلك .

عـدالتـه :

تراه عندمـا يقف على رؤوس أعدائـه ، فيعفو عنهم . فمن شيمـه العفو والحلم والعدالة ، يتحلى بها ويطبقها كاملة ، فهـو لم يتوان عن تـطبيقها مثلاً في حـرب الجمل عنـدما وقف على رؤوس معـارضيـه ، أقـطاب بني أُميّـة ، فقـد عفا عنهم جميعـاً وأكرمهم بـالـرغم من أنهم مجرمـو حـرب ، وقـال في ذلـك : «قد عفـوت عن أهل البصـرة ، كمـا عفـا رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أهـل مكـة» . وكانت أم المؤمنين قـد جمعتهم في غرفـة ، وأغلقت عليهم البـاب ، حتى لا يقـع سيف الإمام عليٍّ على رؤوسهم ، وكـان من بينهم مروان وأمثـال مـروان من آل أبي معيط . إذ دخـل الإمـام عليه السلام الـدار ، حيث تجمــع بعض النسوة ، فصِحْنَ في وجهه : يا قاتل الأحبـة ، قال عليه السلام : أنـا قاتـل الأحبة ؟ ، لـو كنت كـذلك لقتلت هؤلاءِ المـوجودين هنـا في هذه الغـرفة . فسكتن ولم ينبسْنَ ببنت شفة .

والإمـام علي عليه السلام يعلم بكـل شيء ، ولا تخفى عليه خـافيـة ، فهـذا الاصبـغ بن نبـاتـة ، يـروي هـذه القصـة بقـولـه : أمـرنـا أميـر المؤمنين عليه السلام

بالمسير يوم الأحد إلى المدائن ، وقرر أن يقيم صلاة الجمعة هناك ، فخرجنا معه وتخلَّف عمرو بن حريث . اقرأوا التاريخ وتأملوا فيه ، فمن هو عمرو بن حريث ، أليس هو من الخوارج ؟ هذا الذي تخلَّف مع سبعة نفر من أتباعه ، حيث ذهبوا إلى منطقة قرب الحيرة تدعى الخَوَرْنق ، وقالوا نتنزه هناك ، ويوم الأربعاء نتوجه إلى المدائن ، فنلحق بعلي هناك ، ونجتمع معه يوم الجمعة . وبينما هم جالسون يتناولون طعام الغداء ، إذ خرج عليهم ضبٌّ فقبضوا عليه ، وأخذه عمرو بن حريث وقال : الآن هم على الغداء ، والإمام علي في المدائن ، ثم بسط كفه وقال : هذا أمير المؤمنين فبايعوه ، فبدأوا وبايعوا الضبَّ . إلى هنا انتهت القصة .

ثم إنه لما كان يوم الأربعاء، تحركوا ولم يفترقوا ، ولم يُعلِموا أحداً بهذه الواقعة ، إذ بايعوا أميرهم وإمامهم . وبعد ذلك اتجهوا إلى المدائن ، حيث وصلوها يوم الجمعة ظهراً . وكان أمير المؤمنين عليه السلام فوق المنبر يخطب ويقول : «وقلت لكم إنهم لم يفترقوا وما زالوا على اجتماعهم» . وفي هذه اللحظة دخلوا باب المسجد ، فلما وقع نظر الإمام علي عليه السلام عليهم ، قطع خطبته وقال : «أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أَسَرَّ إليَّ ألف باب من العلم والحديث ، وفتح لي من كل باب ألف باب ، وأعطاني لكل باب ألف مفتاح . وإني سمعت الله سبحانه وتعالىٰ يقول في كتابه الكريم : ﴿**يوم ندعوا كل أناس بإمامهم**﴾[1] . وأقسم لكم بالله العظيم ، ليبعثن ثمانية نفر يوم القيامة وينادوَن بإمامهم ، وهو ضبٌّ ، ولو شئت أن أعرفكم بأسمائهم لفعلت» . وكانوا هم سبعة نفرٍ وعمرو بن حريث ثامنهم .

ثم يضيف الأصبغ بن نباتة قائلاً : بينما أنا واقف ، نظرت إلى عمرو بن حريث ، تهاوى كما تتهاوى السعفة اليابسة من الجبُن والخواء . واكتفى بذلك ، فلم يقل لهم الإمام عليه السلام ، إن هذا هو عمرو بن حريث ، ولم يحاسبه الإمام أو يعاقبه . بل إن الأصبغ بن نباتة عرف القضية ،

---

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٧١ .

ولذلك نقلها لنا .

هذا هو حلم علي عليه السلام وعفوه ، وبهذه الروح ، وهذه العدالة ، استطاع أن يطلق الإسلام إلى ربوع الدنيا ، بل إلى العالم أجمع .

أما قضية سويدة الهمدانية ، وكلكم تسمعون بها ، عندما دخلت على معاوية تشكو له بشر بن أرطأة. قالت : أرسلت إلينا بشراً على البصرة ، فأخذ حلالنا وأثمارنا وظلمنا ، فقال معاوية : ما تريدين يا سويدة ؟ قالت : إما أن تأخذ حقوقنا ، فإذا أخذتها ، شكرناك ، وإلاّ كفّرناك . قال : أتهددينني يا سويدة ؟ . . أنت في يوم صفين كنتِ مع علي بن أبي طالب تجيِّشين الجيوش ضدِّي ، والآن وقعت في قبضتي ، ولن تخرجي ا ليوم من هذه الدار نهائياً . ثم إنه أمر السَّياف أن يضرب عنقها أمامه وعلى مرأى من المجتمعين في مجلسه ، فأطرقت برأسها إلى الأرض ، وسمعها الحاضرون تنشد شعراً :

صلّىٰ الإله على روحٍ تضمنها قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً فصار بالحق والإيمان مقرونا

عندئذٍ سألها معاوية : من هذا ؟ . . قالت : هذا سيدي ومولاي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وهذا هو الفرق بينك وبينه . فقد جئته مرّة ، وهو في المسجد ، وشكوت له أحد الولاة ، فدمعت عيناه ، ثم كتب لتوِّه كتاباً يعزل فيه ذلك الوالي . وأنا الآن عندك ، وتقول لي : سوف أضرب عنقكِ . فهلاّ عرفت لماذا أحببنا علياً وأبغضناك ؟ نعم ، لهذه الأسباب ولهذه الصفات الطيبة الحميدة .

أمير المؤمنين علي عليه السلام، يتعامل دائماً مع الحق ، ويقف إلى جانبه : «علي مع الحق والحق مع علي» ، ويتعامل مع العدل أيضاً حتى يصل إلى درجة يقول فيها : «والله لو أُعْطِيتُ الأقاليم السبعة ، بما تحت أفلاكها ، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ، ما فعلت ، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها» .

إيهِ يا دنيا . . هل رأيت حاكماً وقائداً ، ينام في الليل طاوياً لا يتعشى ! . . . لا يأكل ! . . لماذا ؟ وهو الذي يقول : «ولعل في الحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ، ولا عهد له بالشبع» . . ثم يقول : «أأبيتُ مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى ؟» .

سياسة علي وعلمه وشجاعته :

إذا تأملنا مبادىء الإمام علي عليه السلام السياسية والاقتصادية وإدارته للبلاد ، فماذا نرى ؟ وإذا قرأنا كتابه لمالك الأشتر ، فإننا نستنتج أن هذا الكتاب يصلح دستوراً لإدارة دولة كاملة ، رغم كون هذا الكتاب مغموراً ، يختبىء في طيات نهج البلاغة ، وحريٌّ بهذا الكتاب أن يُخرج ويُدرَّس في العالم ، وهذا الأمر يحتاج إلى جهود المسلمين وإلى وعيهم له ، لأن الإمام علي عليه السلام يقول في هذا الشأن : «رحم الله آمرأً سمع حكماً ـ يعني الحكمة ـ فوعى ، ودُعيَ إلى رشاد فدنا» . نحن مدعوون إلى الرشاد والإسترشاد بمدرسة الإمام علي عليه السلام ، فالإمام هنا يطلع علينا بطريق الدعاء ، واستجابة الدعاء . .» .

فإذا أردت أن تعرف الدعاء ، فتعال إلى علي أمير المؤمنين ، ولاحظ مدرسته التي أقام عليها الإمام السجّاد مدرسة الدعاء في الصحيفة السجّادية . وأي دعاء يتحدث عنه أمير المؤمنين ؟ .

يفسّر لنا هنا مثلاً ، هذه الآية الكريمة التي قرأناها : ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾ . فهو يفسّر لنا معنى القرب في أول خطبة من نهج البلاغة . فماذا يعني ؟ هل يعني القرب . . قرب الزمان والمكان ؟؟ هل يعني القرب ، قرب الجسد ؟ فالله ليس كمثله شيء ، والله ليس بجسد ، فالقرب إذن هنا هو قرب القلب ، قرب العلم ، قرب الإحاطة بكل شيء . والله تبارك وتعالىٰ ، محيط بكل شيء ، وبكل ما يدور حولنا . فمن أين نعرف هذا ؟ .

من أين نعرف هذا ، لو لم ينقل لنا علي أمير المؤمنين الفكر الإسلامي الصحيح ، صدقوني أننا لولاه لبقينا نتعثر إلى الآن بين أفكار المعتزلة ، وأفكار الجبرية وأمثالهم ، الذين يجسّمون رب العالمين ، ويجعلون له يداً ورجلاً ، وأنه يضع رجله في جهنم ، وأنه ينزل على بغلة في ليلة الجمعة . وكل هذه الأمور ، نسوقها كأمثلة ، على كل حال ، في موضع الشاهد فقط .

لاحظوا الصورة الصادقة للتوحيد ، عند علي بن أبي طالب عليه السلام : «الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ، ولا يحصي نعماءه العادون ، الذي لا يدركه بُعد الهمم ، ولا يناله غوص الفِطَن ، الذي ليس لصفته حدٌّ محدود ، ولا نعت موجود ، ولا أمد معدود . . إلخ» . «فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ،ووتّد بالصخور مَيدان أرضه . أول الدين معرفته ، وكمال معرفته الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفيُ الصفات عنه» . الصفات التي تُجسم الخالق . . . «لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة» .

فعندما تقول : هذا المنبر أسود ، يعني أن السواد غير المنبر ، والمنبر غير السواد . وإنك لا تستطيع أن تُجسم الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أو تصفه وتعطيه مواصفات خارجة عن ذاته ، هو الله لا إله إلّا هو الحي القيوم ، كما وصف نفسه .

والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قريب منا (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) . صحيح ؟ .

وهناك قصة معروفة تقول : إن الإمام الكاظم عليه السلام كان يصلّي وهو صبي ، وقد دخل أبو حنيفة على الإمام الصادق عليه السلام ، ورأى رجلاً يمر على الإمام الكاظم . فذهب أبو حنيفة إلى الإمام الصادق وقال له : يابن رسول الله ، ولدك موسىٰ كان يصلّي ، ومرَّ أمامه رجل ، فلم يقطع صلاته ـ لأنه في فكر أبي حنيفة ، إذا مرَّ أحد أمامك في أثناء صلاتك فإن الصلاة

تبطل . فطلب الإمام الصادق ابنه الكاظم وقال له : أصحيح يا بني أنه مرَّ عليك . . . ؟ قال : بلى . قال : لِمَ لَمْ تقطع صلاتك ؟ ألم تبطل صلاتك في هذه الحالة ؟ ـ والمراد من السؤال هنا ، هو أن يجيب الإمام الكاظم ، ويسمع أبو حنيفة الجواب ـ أجاب الكاظم : لا يا أبت ، فإن صلاتي صحيحة ، وكيف تبطل ؟ قال : ولِمَ ؟ قال الدليل على ذلك ، أن الذي كنت أُصلّي له ، كان أقرب إليَّ من الذي مرَّ عَلَيَّ .

﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾(١) .

فأنا أُصلّي لله ، والله أقرب إليّ من الدم في عروقي . فكيف يُبطل صلاتي هذا الذي يمشي أمامي ؟ وعلى أيِّ أساس ؟؟ لاحظ هذا الفكر العظيم ! وهنا قبَّله الإمام الصادق وقال : ذرية بعضها من بعض .

(يا موسىٰ ، إني جليس من ذكرني ، يا موسى ، كذب مَنْ زعم أنه يحبني فإذا جنَّ الليل نام عني ، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه) . هذه صناعة الإنسان . . في هذه اللحظات الحلوة .

ثم يأتي أمير المؤمنين ويقول : «العمر ساعة ، فاجعلها طاعة» . لأن العمر يتألف من ساعات مختلفة ، وهذه الساعة ، اجعلها طاعة لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ تنجو بنفسك . والفراغ يدمِّر الإنسان ، إذا لم يملأ ساعته بطاعة الله ، وبذكر الله ، وبالدعاء لله ، وبالعمل المثمر الطيب . الفراغ يدمرنا ، وأنتم تعلمون أن الفراغ يشكل الآن مشكلة كبرى في هذا العصر الحديث . والإمام علي عليه السلام يعالج الفراغ بمدرسة الدعاء أيضاً ، وهذا كله موجود في نهج البلاغة . فالحياة منحة وعطية من الله ويجب علينا أن نعرف ونعي جيداً هذه المنحة والعطية ، وقد وهبنا الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ هذه الحياة ، ونحن كنا تراباً ،! ثم جئنا إلى هذه الدنيا ، وقد أعطانا الوسائل والأسباب الصحية وهِبة العافية ، فماذا نصنع ؟؟ . .

---

(١) سورة ق ؛ الآية : ١٦ .

محاسبة النفس والشيطان :

يجب أن نسأل أنفسنا ونحاسبها ، في هذا الشهر ، شهر الدعاء ومحاسبة النفس ، شهر التربية ، يجب أن نصفّي حسابنا مع الشيطان ، ونتخلص من كل فواتير الشيطان ، ولا ندع له حساباً علينا ، وهذا الشهر هو أعظم وقت لمحاسبة النفس والشيطان ، لأن الإرادة فيه تكون قوية ، ويكون الشيطان ضعيفاً ببركات الصوم .

وقد جاء في الأخبار ، أن مردة الشياطين تكون مكبّلة بالحديد ومصفَّدة بالأغلال في شهر رمضان ، فالشيطان ليس له وجود ، ومن الممكن أن تجعل هذا الشيطان أمامك ، ونصب عينيك ، فتتخذه عدواً ، وتصفِّي حسابك معه نهائياً .

لاحظ كيف يجعلك الإمام علي عليه السلام تستقبل نهارك وتفتتحه بدعاء الصباح : «.. وإن خذلني نصرك عند محاسبة النفس والشيطان ، فقد وكلني خذلانك إلى حيث النَّصب والحرمان» . فالإمام لا يريدك أن تكون محروماً ، ولا يريدك أن تكون تَعِباً . وإنما يريدنا أن نعيش أحراراً في حياتنا . وإذا استولى علينا الشيطان ، واستبّدت بنا النفس الأمَّارة بالسوء ، فإنها تنقلنا من وحلٍ إلى وحلٍ ، ومن جريمة إلى جريمة . وكلما تعطيها تطالبك بالمزيد . لذلك فإن وقت الصيام وقتها . لأن الصوم أيها الأحبة ، هو قوة التحكم بالنفس وردعها عن غيِّها . لاحظوا أن أغلب الجرائم تنشأ من غريزتين . ويؤكد الآن علماء الإجتماع هذا الأمر بالأرقام ، إذ يقولون إن أغلب الجرائم في العالم إنما تنشأ بسبب غريزتي الغضب والجنس . وهاتان الغريزتان ، تشكلان منشأ الجرائم في العالم . والصوم يكسر الغضب ويكسر الجنس أيضاً .

كذلك يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : «من حَسَّن خُلقه في هذا الشهر ....» . يدلنا هذا الحديث على أن بعض الصائمين تضيق أخلاقه أثناء الصيام وتكون في طرف أنفه ، فهو لا يريد أن يكلم أحداً ، ويصارع

الساعات حتى يصل إلى المائدة ، وهو يرى سعادته في اللحظة التي يرفع فيها الأذان ، حيث يبدأ بتناول الطعام ، فيضحك ويرتاح ويطمئن . . . إن ضحكه هذا ليس لشهر رمضان ، وإنما للإفطار وللإفطار فقط ! .

صحيح أن في صومك شدة ومرارة ، ولكنها عند الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ذات قيمة ثمينة وأجرٍ عظيم . ويقول رسول الله ﷺ لخلوف الصائم ـ هذه الرائحة التي تصدر في بعض الأحيان من فم الصائم ـ أطيب من ريح الجنة عند الملائكة ـ لو عرفنا حقيقتها .

دخل أعرابي المدينة في شهر محرّم ، فرأى المجالس مزدحمة بالأطعام والأكل . . قال : أي شهر هذا ؟ قالوا : هذا شهر محرّم الحرام . فجعلها في فكره . ثم راح ، وبعد أشهر رجع إلى المدينة ، فرأى الناس ، وليس لهم خُلُق ، ولا يكلم واحدهم الآخر ، ولا أكل ولا شراب ، فسأل : في أي شهر نحن ؟ . قالوا : هذا شهر رمضان المبارك . قال : عجيب ، ذاك سميتموه الحرام ، وهذا المبارك . لا بل هذا الحرام وذاك المبارك .

فالذي يعرف حقيقة شهر رمضان العظيم ، حيث يعتق الله !ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في كل لحظة وفي كل ليلة ، رقاب الناس من النار ، بمقدار ما يعتق خلال السنة كلها .

مدرسة الدعاء عند علي عليه السلام:

ثم التفتوا إلى شيئين : دعاؤكم فيه مستجاب ، وعملكم فيه مقبول . والشاهد على ذلك ، هذه الآية التي نزلت في شهر رمضان المبارك **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾** . لأن الآيات التي قبلها تتحدث عن شهر رمضان **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾**[1] إلخ الآيات . ثم بعدها مباشرة **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني**

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٥ .

قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي﴾ .

وهنا العظمة ، وهو لا يجعل الدعاء مقابل الإيمان ، بل يقول أنت تطلب مني وأنا أعطيك ، وما دمت أعطيك ، فيلزمك الإيمان . جعل الإيمان بعدها . لاحظوا الكرم ، حقاً إنه لكرم عظيم .

ثم إنه لم يجعل للدعاء واسطة . ففي آيات أُخرى تتحدث عن الأُصول والفروع في الإسلام ، يسأل الناس الرسول فيها مثلاً في الأُصول : **﴿يسألونك عن الساعة﴾**(١) **﴿يسألونك عن الروح﴾**(٢) ، **﴿يسألونك عن الجبال﴾**(٢) ، وأجوبة هذه الآيات كلها من خلال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . **﴿قل الروح من أمر ربي﴾**(٢) . **﴿يسألونك عن الجبال ، فقل ينسفها ربي نسفاً﴾**(٣) . وضع لها الفاء التفريعية أو الترتيبية التي تبيّن أنه في المستقبل وليس الآن .

لكن في الآية التالية لا توجد أية واسطة ، فبدل كلمة (قل) يتولّى الله ـ عزّ وجلّ ـ الإجابة بنفسه : **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾** يعني أن الله يجيب مباشرة على السؤال الموجّه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ويقول : يا عبدي ما دمت تريدني فإني عندك بلا واسطة ، وإذا دعوتني أجبتك . وفي الأخبار أن الله لا يردّ دعاء أحد قط . وبعض الناس يقول : أنا أدعو الله ، والله لا يجيبني . هذا صحيح . فهناك شروط للدعاء . لكن الليلة أقول لك أنه لا توجد شروط ، إن تدع الله يجبك ، لكن الشرط الوحيد هو صفاء القلب وصدق النيّة .

«فادعوا الله بقلوب طاهرة ونيات صادقة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه» ، وأن يقضي حوائجكم . هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . أنتم تدعون

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ١٨٧ .
(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٥ .
(٣) سورة طه ؛ الآية : ١٠٥ .

الله ، والله يعطيكم ، لكن وفقاً للحكمة ، فإذا اقتضت الحكمة بأن يعطيكم الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في الدنيا ، يعطيكم ، وإذا كانت الحكمة لا تقتضي ذلك لكم في الدنيا ، فإن الله يؤخر العطاء إلى الآخرة ، ولا يحرمكم منه أبداً .

ثم إنه يرفع البلاء عنكم ، وكذلك الأخبار المتواترة عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام تفيد ذلك . وعن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام يقول : «إن الله حَييٌّ كريم» يعني أنه يستحي أن يرى عبده يمد إليه يديه ويطلب منه ، فيردهما صفراً ، أو خاليتين ، أو خائبتين ـ بناء على الروايات الكثيرة ـ الله يستحي أن يرد أحداً خائباً . ولذلك عليكم أيها الأخوة أن تقرأوا هذا الدعاء ـ دعاء الافتتاح ـ الوارد عن الإمام الحجة عليه السلام من الناحية المقدسة . واطلبوا من الله أن يوفقكم للدعاء . فالدعاء في عظمة القرآن ، قراءة القرآن عظيمة، لكن الدعاء ، يجعلك تلتصق بالقرآن أكثر .

دعاء الإفتتاح : «اللَّهمَّ إني أفتتح الثناء بحمدك ، وأنت مسدد للصواب بمنِّك» . . ثم يقول : إنك تدعوني . . ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب**﴾ . والله حسرة علينا يوم القيامة ، «إنك تدعوني فأولي عنك ، وتتحبب إليَّ فأتبغّض إليك ، وتتودد إليَّ فلا أقبل منك ، كأن لي التطول عليك ، ثم لم يمنعك ذلك» . لاحظوا أهل البيت ـ سلام الله عليهم ـ لا يستطيع أي إنسان في الوجود ، أن يصور علاقة الإنسان بالله ، كتصوير أهل البيت لها . فمن خلال هذا الدعاء ، أية علاقة ، وأية شفافية ، وأية رقة ، وأي انعطاف ، وأي حنان ، أعظم من هذا . «إنك تدعوني فأولي عنك ، وتتحبب إليَّ فأتبغض إليك ، وتتودد إليَّ فلا أقبل منك ، كأن لي التطول عليك ؟ ! . . ثم لم يمنعك ذلك من الرّحمة بي والإحسان إليَّ ، والتفضّل عليّ بجودك وكرمك . فارحم عبدك الجاهل ـ فأنا جاهل يا رب ـ وجُدْ عليه بفضل إحسانك إنك جواد كريم» .

اقرأوا هذا الدعاء ، ولا يفوتكم الانتفاع به ، اللّهمّ وفقنا جميعاً

لقراءته . أو دعاء كميل ، ولاحظ ماذا يصنع الإمام علي أمير المؤمنين . وسيأتي - إن شاء الله - يوم ، يعمل فيه كل الشباب ، وهذه الوجوه الطيبة التي أراها أمامي ، على نشر فكر أهل البيت عليهم السلام وفكر علي بن أبي طالب في العالم أجمع . وفكر الإمام علي ، هو فكر الرسول الصادق الخالص ، لأنه أعظم تلميذ لرسول الله ، وأعظم أخ ، بل أعظم وزير ووصي له صلى الله عليه وآله وسلم .

فلا تتوانوا عن نشر هذا الدعاء العظيم وهذا الفكر العظيم .

«اللَّهمَّ إنك أمرتنا بدعائك» .

ولاحظ الإمام السجّاد حين يقول : «اللَّهمَّ إنك القائل ، وقولك الحق ، ووعدك صدق فاسألوا الله من فضله إنه كان بكم رحيماً ، وليس من صفاتك يا سيدي أن تأمر بالسؤال ، وتمنع العطيّة ، وأنت المنّان بالعطيّات» . ويقول : «ولو أدخلتني النار لأخبرن أهلها بحبي لك» . يعني أن حبي لك لا ينقطع أبداً ، حتى نار جهنم لا تقطع حبي لك .

وأمير المؤمنين ، ماذا يقول ؟ «ولأنادينّك أين كنت يا ولي المؤمنين ، يا غاية آمال العارفين ، يا غيّاث المستغيثين ، ويا حبيب قلوب الصادقين» . هذه كلها دروس بليغة . فالإنسان الصادق يشعر بحبه لله ، يشعر بدفء حبه هذا في صميم قلبه . أما المنافق - وبعيداً عنكم - الكذاب ، الدجّال ، المراوغ ، بعيد عن الله ، ولا يعرف طعم الإيمان ، ولا يتذوق حلاوته أبداً .

ففي مدرسة علي عليه السلام ، هذه الليلة ، نسمع الدعاء التالي : «اللَّهمَّ إنك أمرت عبادك بدعائك ، وضمنت لهم الإجابة ، فإليك يا رب نصبت وجهي» ، لاحظ التوحيد هنا ، وأي توحيد أعظم من هذا . . . «فإليك يا رب نصبت وجهي ، وإليك يا رب مددت يدي ، فبعزتك استجب لي دعائي» . فلانك عزيز لا تتركني ذليلاً .

«فبعزتك استجب لي دعائي ، وبلغني مناي ، ولا تقطع من فضلك رجائي ، واكفني شر الجن والإنس من أعدائي ، يا سريع الرضا ، اغفر لمن لا يملك إلاّ الدعاء ، فإنّك فعّال لما تشاء ، يا من اسمه دواء ، وذكره شفاء ، وطاعته غنىً ، ارحم مَنْ رأس ماله الرجاء ، وسلاحه البكاء ، يا سابغ النعم ، يا دافع النقم ، يا نور المستوحشين في الظُلَم ، يا عالماً لا يُعَلَّم ، صلِّ على محمد وآل محمد ، وافعل بي ما أنت أهله» .

لاحظوا بلاغة التعبير عند أمير المؤمنين : «يا نور المستوحشين في الظُّلَم» . الناس الأبرياء الذين هم في السجون ، وفي المعتقلات في العالم ، في المستشفيات ، في القبور ، في أمواج البحار ، في البراري والقفار . هؤلاء جميعهم مستوحشون ، ليس لهم في الظُّلَم نور إلاَّ نور الله وحده . فتذكّرهم . ثم يضيف : «يا سريع الرضا» . رضا الله غاية لا تُدْرك ، وإذا أردت أن ترضي الناس ، فلا يمكن أن يرضى عنك الجميع ! . . . الإمام علي عليه السلام يقول : «من أصلح ما بينه وبين الله ، أصلح الله ما بينه وبين الناس . ومن أصلح آخرته ، أصلح الله دنياه» .

نعم ، هذه هي مدرسة علي عليه السلام . فعندما يصلح الإنسان أموره مع الله ، فإن الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ يتولى الإصلاح بينه وبين الناس ، لكنك إذا تركت الله واتجهت إلى الناس ، فلن يرضى عنك أحد أبداً .

لذلك يقول : «يا سريع الرضا ، اغفر لمن لا يملك إلاَّ الدعاء ، فإنك فعَّال لما تشاء» . هذا الدعاء هو بحد ذاته مدرسة عظيمة .

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ . هذه الآية من دون كل آيات القرآن ، تكرر فيها ضمير المتكلم سبع مرّات ، وذلك للتأكيد . وهي الآية الأولىٰ في القرآن الكريم التي يرد فيها مثل هذا العدد من التكرار ، وكل هذا تأكيد على إقبال الله عليكم ، وإنكم إذا اتجهتم إلى الله ، فإن الله يعطيكم ولا يرد طلب أحد أبداً .

وقد يأتي بعض المتحذلقين والمتفلسفين ، وأذكر في هذه المناسبة ـ

شخصاً كان يناقشني يقول : إن هذا الذي أطلبه من الله يعلمه أم لا ؟ قلت : يعلمه . قال : إذن لا حاجة لنا بالطلب إذا كان هو يعلمه ، فيعطيني إياه دون أن أقول له . لاحظ السفسطائية إلى أين تذهب بالإنسان .

العبادة بالدعاء :

الدعاء عبادة عظيمة : إذا كان الله سبحانه وتعالىٰ ، يريد منك أن تدعوه فيجيبك ، وإلاَّ ألا يعلم الله أن تلك كانت عصاً في يد موسىٰ ؟ عندما قال له : ﴿**وما تلك بيمينك يا موسىٰ**﴾ والله يعرف أنك تؤمن به ، فلماذا يطلب منك الصلاة والركوع والسجود ؟ لماذا يريد منك أن تسأله ؟ . . لماذا جعل الله الحياة ؟ وجعلها قائمة على الأسباب ؟؟ . ألا يقدر الله أن يخلقنا هكذا ، كما خلق آدم ؟ فلماذا إذن يتركنا تسعة أشهر في بطون أُمهاتنا ؟ ومن ثم نخرج هكذا ـ هذه كلها أسباب ، وتدرُّج الحياة هكذا ، وهذه هي لذَّة الحياة ـ ويُضاف إلى ذلك أن القرآن يأمرنا بالدعاء .

﴿**وقال ربكم ادعوني استجب لكم**﴾[1] .

ثم يبيّن أن الناس صنفان ، بعض الناس إذا مسَّه الشر فيؤوس قنوط . هذا صاحب القلب المظلم ، والبعض الآخر من الناس إذا مسَّه الشر فذو دعاء عريض . هذا الذي يحتوي قلبه على قليل من التوجّه . وكلمة عريض هنا ، إشارة إلى أنه لا يذكر الله بالدعاء إلاَّ في أيام الشرّ . وهذا أيضاً مقبول منه . لكنك يجب عليك أن تذكر الله في السراء والضراء ، في الحلاوة والمرارة ، في الصحة والمرض ، في الغنى والفقر . . تذكر الله على كل حال .

فالقلوب هكذا ، قلب يخشع لذكر الله ، وقلب يشمئز لذكر الله : ﴿**إذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾[2] . فكيف

---

(١) سورة غافر ؛ الآية : ٦٠ .

(٢) سورة الزمر ؛ الآية : ٤٥ .

يكون هذا القلب ؟ والعياذ بالله . هذا الذي يشمئز لذكر الله ، تراه يستسهل أن يصعد على صدر الحسين ، ويتجرّأ على قتل الحسين . ولا يتوانى عن انتهاك أعراض الناس ولا يتوجّل من السرقة والنهب والظلم والقتل ، وصنع ما يريد .

والمسألة ليست بهذه البساطة . ولاحظ عندما تتحدث عن مدرسة الإمام علي عليه السلام ، ونأخذ هذا الجانب العظيم عند علي بن أبي طالب ، جانب الدعاء لصناعة الإنسان الرباني ، معنى ذلك أنك تكون إنساناً ناجحاً في أعمالك ومنتصراً في حياتك ، ومُظَفَّراً أينما تتجه . والله ـ تبارك وتعالىٰ ـ يسدّد خطاك ، لأنك ناجح والحياة معك والله معك .

اقرأوا القرآن ، فالإمام أمير المؤمنين ، يرشدنا إلى مناهج الدعاء ، ويدلنا على دروبه ، وهي أن نقرأ مئة آية ثم نصلّي على النبي ونطلب حاجتنا . وفي مكان آخر يقول : «إذا أردت حاجة من الله ، فإنك تصلّي على النبي وتطلب حاجتك ، لأن الله أكرم من أن يُسأل عن حاجتين ، فيعطي واحدة ويطرد الثانية ، الكلمة واضحة . . لأنك عندما تقول : اللَّهمَّ صلِّ على محمد وآل محمد . فإن الله يصلّي على محمد ، ومن ثم تطلب حاجتك . يقول الإمام علي عليه السلام : إن الله أكرم وأعظم من أن تطلب منه حاجتين ، الصلاة على النبي وحاجتك ، فيعطيك واحدة وهي الصلاة على النبي ، ويترك حاجتك» أبداً .

إذن عندما تصلّي على النبي ، فحاجتك مقضية ومضمونة الإجابة . اللَّهمَّ صلِّ على محمد وآل محمد .

فيقول : تقرأ مئة آية . وأنا دائماً أصنع هذه ، وأقرأ مئة آية ، من الصافات إلى قوله : **﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين﴾**[1] . وهذه الآية رقم مئة ، ثم تقول سبع مرّات : الله أكبر ، ثم

---

(١) سورة الصافات ؛ الآية : ١٠٠ .

يـا الله ، يـا الله ، سبــع مـرّات ، وتـطلب حـاجتـك من الله . وعلي يقسم ويقـول : «والذي نفس عليّ بيـده ـ وهذا مضمـون كلامـه ـ حـاجتـك تُقضى وأنت في مكـانـك ، قبـل أن تتحـرك من مكـانـك . وهـذه نِعَمٌ كبيـرة ، أيهـا الأخوة .

ثم إنـه يعطيـك ضمان لحفظ أمـوالـك وأولادك . واليـوم يسيـطر القلق على النفـوس . فأنت تـريد أن تكـون أموالـك محفوظـة ، وأولادك وعـائلتـك وصحتـك وتجـارتـك وعملك في أحسن حـال . يقـول الإمـام علي عليه السلام اقـرأ إحدى عشرة مرّة ، قل هـو الله أحد ، في الصبـاح وبعد صـلاة الصبح ، قبـل طلوع الشمس ، وإحـدى عشرة مـرّة ، إنـا أنـزلنـاه في ليلة القـدر . وإحـدىٰ عشرة مرّة ، آيـة الكرسي . فـإنك سـوف لن تصاب بمكـروه ، لا بمالـك ولا بأولادك أبداً .

وإذا التـزمتم بهـذه ، وهي لا تـأخـذ من وقتكم ـ بعـون الله ـ أكثـر من اثنتي عشـرة دقيقة . وإذا ذكـرت النبي بعد ذلـك مباشـرة ، وصلّيت على أهل البيت ، فإنك ـ وبدون شك ـ ستشعـر بحالـة من الصفاء والـروحانيـة والتوجّـه إلى الله الواحد الأحد . لأننا مقبلون على سفرٍ بعيد وطويل .

«واعلمـوا أن أمـامكم عقبـة كئـوداً ، المحق فيهـا أحسن حـالاً من المثقـل» . هـذه لا بـدَّ منهـا ، وهـذا سفـر طـويـل «وتـزودوا فـإن خيـر الـزاد التقوى» .

وأمير المؤمنين عليه السلام يبكي هذه الليالي ، ويذكـر تلك الأيام . يقـول أحد الصحـابة في المـدينة : «رأيت عليـاً بين نُخيلات وشجيـرات ، يـدعـو الله ـ سبحـانـه وتعـالىٰ ـ حتى وقـع على الأرض مُغمىً عليـه . يقـول : فجئت وحـركته ، فـإذا به كـالخشبة اليـابسة ـ هؤلاء هم الـذين عـرفـوا الله ـ فقلت : مات والله سيدي علي أميـر المؤمنين . فجاء يـركض إلى بيت الزهـراء عليها السلام ـ وذلـك قبل وفـاة فاطمـة ـ فطرق البـاب عليها ـ فقـالت : مَنِ الطارق ؟ قـال : فـلان . لقد رأيت من علي كـذا وكـذا . . وهـو في نخيـل بني فـلان ، تحت

شجيراتهم ، قد رأيته وجسمه كالخشبة اليابسة . قالت : هذه الحالة التي تأخذه من خشية الله . اذهب وانثر عليه شيئاً من الماء .

حالته هذه ، من خشية الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ . . هذا الذي يخشىٰ الله ويخافه بنية صادقة وقلب طاهر وإيمان لا يتزعزع .

﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً﴾[1] .

هذه الدموع هي بضاعة الإنسان التي تصنع الأبطال . . هذه هي التي تجعل الحوراء زينب عليها السلام يوم عاشوراء تُودِّع أخاها الحسين ، وتتجه إلى أُمها فاطمة تُسلِّم عليها ، وتذكّرها بالعهد الذي جرى بينهما . تقول : أماه فاطمة ، نحن على العهد ، هذا أخي الحسين أودعه الآن ، على العهد الذي سمعته منك ومن والدي علي أمير المؤمنين . نحن أهل الله ، نحن أبواب الله ، نحن باب الله المؤتى منه ، والمأخوذ عنه . ودّعها الإمام الحسين عليه السلام . . . بكلماته المعروفة .

«من يقدم لي جوادي وأنا ابن رسول الله» .

حرِّك قلبك الليلة واجعل نفسك في حرم الحسين عليه السلام ، ليلة الجمعة .

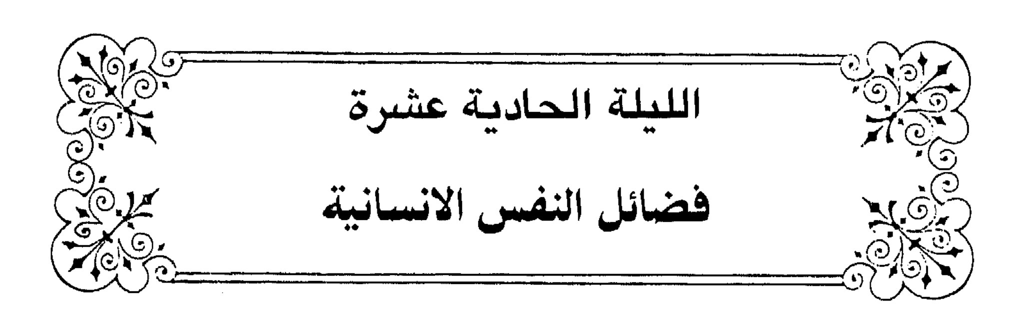
«من يقدم لي جوادي وأنا ابن أمير المؤمنين ، من يقدم لي جوادي وأنا ابن فاطمة » .

فجاءت زينب له بالجواد ، تقوده . أخي أرأيت أختاً قدّمت لأخيها فرس المنيّة ؟ . ثم قالت : أخي أبا عبد الله ، بحق أُمي عليك ، اكشف لي عن صدرك ونحرك ، ثم قبّلته في نحره الشريف .

إنّا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) سورة الإنسان ؛ الآيتان : ١٠ ، ١١ .



الليلة الحادية عشرة

فضائل النفس الانسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصّلاةُ والسلامُ على أشرفِ الأنبياءِ وأعزِّ الرُّسُلِ محمدِ بن عبد الله وعلى آلِهِ الطيبينَ الطاهرينَ .

قال أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب سلامُ الله عليه : «الفضائل أربعة أجناس : أحدُها الحكمةُ وقوامُها في الفكرة ، والثاني العِفَّة وقوامُها في الشهوة ، والثالث القوَّةُ وقوامُها في الغضب ، والرابعُ العدْلُ وقوامُهُ في اعتدال قوى النفس» .

اللّهُ سبحانه وتعالىٰ خالقُ النفس الإنسانيّةِ عالمٌ بما خَلَقَ ، يعرفُ خفاياها وخباياها كما يعرف مبدأها ومصيرها . ولا يُطْلِعُ سبحانه أحداً من خَلْقِهِ على مَكْنُوناتِ عِلْمِهِ إلّا من ارْتَضَى من رسولٍ أو صِدِّيق ؛ وعليُّ بن أبي طالب عليه السلام وَصِيُّ أشرفِ المرسلينَ هو أصدقُ الصِّدِّيقين ؛ فلا عَجَبَ أن نرى النَّفْسَ الإنسانية أمام ناظريه كتاباً مفتوحاً ، يغوصُ في أعماقِها ويطَّلِعُ على أسرارها ، ولا يغيبُ عنه منها شيءٌ لا من واضِحِ ظاهِرِها ولا مِن مَكْنُونِ باطِنِها ؛ كيف وقد اسْتَقى عِلْمَهُ من رسولِ ربِّ العالمين محمدٍ عن رسول ربِّ العالمين جبريل عن ربِّ العالمين ! .

لا شكَّ أن النفسَ إذا ما أُصيبت باختلالٍ في توازنها أو تعرّضت

لاهتـزاز في سُلَّم القِيَم التي تـرتكـز عليهـا ، فـإن هذين (الاختلال والاهتزاز) ينعكســان بشكل مباشر على المجتمـع الأصغر وهـو الأُسرة ، كمـا ينعكســان على المجتمع الأكبر الذي يعيشُ الفردُ في كَنَفِه . فإذا ما رأينا مجتمعـاً ما قـد تفشّت فيـه مظاهـر الانحلال والاختـلال ، فعلينا أن نعـرف أن هذا الانحـلال وهـذا الاختلال متـأصّلان في نفـوس أفراده . ولا شـكّ أن النفس التي ينعـدم تـوازُنُها يلتبسُ أمـامها التمييزُ بين مختلف القِيَم ، فـلا تستـطيـعُ التمييـز بين صُـوَر الفضيلة والـرذيلة وبين وَجْـهِ الحقِّ ووجـوه البـاطـل . ولن تتمكّن هـذه النفسُ من سلوكِ الصِّـراطِ المستقيم والنهـجِ على المحَجَّـةِ الـواضحـةِ إلاَّ إذا كـانت على بصيرةٍ من أمـرها . فكيف يكـون الإنسانُ على بصيـرةٍ من أمـره ؟ وماذا تعني هذه العبارة «فلانٌ على بصيرةٍ من أمره» ؟ .

يكون الإنسانُ على بصيرةٍ من أمره عنـدما يـدركُ معنى الفضائـل الأربع التي أشار إليها الإمـامُ عليه السلام فتتّضِحُ الصورة أمامـه وتَتَّزِن مختلف قـوى نفسه بميزان معتدل الكفَّتين . هـذا عمّـار بن يـاسـر يقـول يـوم صِفِّين : «والله لـو أرجعـونـا على أعقـابنـا إلى سعفـات هَـجَـرٍ لعلمنـا أننـا على حقٍّ وأنهم على باطل» . لمـاذا ؟ لأن الصورة واضحـةٌ أمامـه رضي الله عنه ، فقـد تتلمذ على أميـر المؤمنين عليه السلام ، والمتتلمـذ على الحقّ لا شـكّ أنـه على الـمحـجَّـةِ الواضحة .

الإمـامُ عليه السلام تصدّى لنفس الإنسـانية ، يغـوصُ في أعماقهـا ، يُشَرِّحُهـا ويَشْـرَحُها ، ثم يضـع أسرارهـا أمامنـا على طبقٍ من فضّة ؛ ليس علينـا إلاَّ أن نَعِيَ ما يقولُ ونتوجّه إليه بقلبٍ سليم لكي نكون على بصيرةٍ من أمرنا .

والإمامُ في نهج البـلاغة أشْبَـعَ مسألـةَ النفس توضيحـاً وشرحاً وتحليلاً ؛ ولكن الذي يهمُّنا في هـذا البحث هو الخطُّ الذي يفصـل بين الحقّ والبـاطل ، بين الطاعة والمعصية ، بين الفضيلة والرذيلة .

هـذا الخطُّ يرسمـه لنا أميـرُ المؤمنين ويضعه نُصْبَ أعيننـا واضحـاً لا لَبْسَ فيه ؛ فالفضـائل أربعـة أجناس : الحكمـة والعفّة والقـوة والعدل . ولكـلٍّ من

هذه الأجناس الأربعة جانبان ، جانبٌ حيوانيّ بهيميّ وجانب إنسانيّ . ولكلّ إنسانٍ وجهان : وجهٌ بهيميّ يتمثّل في الشهوات الساقطة والغرائز المنحطّة ، ووجه إنسانيّ يتغذّى على الفضائل السامية المتمثّلة بطاعة الله سبحانه وتعالىٰ في أوامره والانتهاء عن نواهيه . فإذا ما طَغَى الجانبُ البهيميّ في الإنسان فإنه ينحطّ إلى رتبة الحيوان ، بل أسفل من رتبة الحيوان ؛ يقول تعالىٰ في مُحْكَم كتابه : ﴿**أولئك كالأنعامِ بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون**﴾[1] . هم أضلُّ من الأنعام لأن الأنعام لا تتبع سوى غريزتها التي زوّدها الله بها ، فهي أمام طريق واحدة لا تحيد عنها لأنها لم تتزوّد بالعقل الذي أُكْرِم به ابنُ آدم : ﴿**وهديناه النجدين**﴾[2]، وضعه سبحانه وتعالىٰ على مفترق طريقين ، وأشار له إلى الصراط المستقيم وحذّره من سلوك الطريق الآخر ؛ ولكنَّ فاقدَ البصيرة اختار معصية الله على طاعته ، فكان بذلك ظالماً لنفسه جانياً عليها ولا يضرّ الله بذلك شيئاً، كما قال تعالىٰ : ﴿**إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّوا الله شيئاً**﴾[3] ، وكما قال : ﴿**ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً**﴾[4] . لقد خان فاقد البصيرة بظلمه وجهله الأمانة التي حملها على اختيار منه وليس عن اضطرار : ﴿**إنّا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾[5] ، فكان عليه أن يتحمّل مغبّة تضييع الأمانة ونكث العهد .

فضيلة الحكمة :

يقول أمير المؤمنين إذاً : «الفضائل أربعة أجناس ، أحدها الحكمة» . الحكمة هنا تجمع العلم والوعي والرشد . قد يكون بعضهم عالماً ولكنه خلوٌ من الوعي والرشد ، وقد يكون راشداً ولكنه خُلوٌ من العلم ؛ العالم

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٧٩ .
(٢) سورة البلد ؛ الآية : ١٠ .
(٣) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٧٧ .
(٤) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٤٤ .
(٥) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٧٢ .

الواعي الرشيد إذاً هو الذي يسمَّى حكيماً . وقوام هذه الحكمة في الفكرة ، ليس في العقل فقط ؛ لأن العقل أحياناً قد يتزود بكمية من المعلومات قد تفيده في أُمور دنياه ، ولكن هذه العلوم لن تؤمّن له رضا ربه سبحانه وتعالىٰ إذا لم يتوجّه بها إلى طاعته ولم تساعده في تجنُّب معصيته .

«الحكمة قوامها الفكرة» ؛ هل كل عالم حكيم ؟ وهل كل فكرة حكيمة ؟ وكيف نعرف الإنسان الحكيم ؟ نعرفه من الفكرة الصائبة التي تصدر عنه ، والفكرة تكون صائبةً وقويمةً عندما تنطلق من الجانب الإنساني الذي تكلمنا عنه لا من الجانب البهيمي ، وهذا الجانب الإنساني هو بعبارة أُخرى الجانب الإيماني ، هو الجانب الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام عندما حدّد قوام الحكمة بالفكرة .

وإذْ يحدّد الإمام الجانب الإنساني في فضيلة الحكمة القائمة على الفكرة الإيمانية الواعية ، ينتقل رأساً ليحدّد الجانب الحيوانيّ البَهيميّ المرتبط ارتباطاً لا يكاد ينفصم بالجانب الأول ، فيقول : «الثاني العفّة وقوامها الشهوة» . الشهوة غريزة طبيعية في الإنسان خلقها الله فيه ؛ ولكن هذه الشهوة لها وظيفة ولها غاية ؛ وظيفتها استمرار الحياة واستمرار النوع الإنساني ؛ وغايتها الوصول إلى رضا الله تعالىٰ باختيار الطريق المستقيم وذلك بأن يجعل شهوته وسيلة لما خلقها الله له لا أن يجعل نفسه عبداً لشهوته ؛ فالإنسان الحكيم هو الذي يقيِّد شهوته ويسيطر عليها ؛ يقول أمير المؤمنين : «عبدُ الشهوة أذلُّ من عبد الرِّقّ» ، يريد عليه السلام أن يطلق حريّة الإنسان من عقالها ، يريده أن يكون حرّاً بكلِ ما للكلمة من معنى ، يريد للشهوة أن تكون خادمة للإنسان لا أن يكون خادماً لها .

في حديث طويل للإمام علي عليه السلام ، أخرجه العلاّمة المجلسي (رحمه الله) في بحار الأنوار ، يتحدث فيه أمير المؤمنين عن سورة يوسف ؛ ومضمون كلامه عليه السلام أن هذه القصة بلغت قمةً في التعليم القصصي القرآنيّ ، لأنها بيّنت كيف تتناهى الفضائل إلى أعلى ذروة ، وكيف تنتكس

الرذائل إلى أحطّ دَرَكة . فضيلة العفّة تمثّلت في يوسف عليه السلام، ورذيلة الشهوة تمثّلت في زليخة . حكمة يوسف كانت قمةً عندما عفا عن إخوته بعد أن رموه في الجُبّ وتآمروا على قتله . وحزن يعقوب عليه السلام بلغ قمته حتى عمي بصرُهُ ﴿وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾[1] ، وفرحه كان قمةً حين عاد إليه بصره بعودة ابنه إليه . طاعة الله بلغت قمتها في هذه القصة ، ومعصيته انحدرت إلى أسفل دركاتها . يشير أمير المؤمنين إلى نتيجة ذلك ، فيلخّص القصة بنتائجها : بعد أن أصبح يوسف الصدّيق ملكاً عظيماً يمسك مقاليد الأُمور ويدير البلاد ، يمرّ بموكبه الجليل في أحد الأسواق ، فتراه زليخة التي أحْنَت الأيام ظهرها وسلبتها عزَّها الماضي عندما كانت ملكة ؛ يوسف الذي كان عبداً لها صار ملكاً ، وهي التي كانت ملكة صارت ذليلة منكسرة ؛ فتقول إذْ ترى موكبه العظيم «الحمد لله الذي جعل العَبِيدَ ملوكاً في طاعته» ـ تشير إلى يوسف عليه السلام ـ «وجعل الملوك عبيداً في معصيته» ـ تشير إلى نفسها ـ فسمعها يوسف فدمعت عيناه واستعبر .

«أحدها الحكمة وقوامها الفكرة» ، فكرة يوسف كانت حكيمة منقطعة إلى الله ، فهي في اتجاهها الصحيح .

«والثاني العفّة وقوامها الشهوة» ، شهوة زليخة ملكتها فأَرْدَتْها ، ولم تنتشل نفسها من الهاوية إلاَّ بعد أن تابت ورجعت إلى الله تعالىٰ .

هذا هو الدرس الذي يلخصه لنا أمير المؤمنين من قصّة الصدّيق يوسف .

إذا أمْعَنَّا النظر في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة ماذا نرى ؟ لا شكّ أن ما نراه اليوم ـ أكاد أقول ـ يدعو إلى اليأس والقنوط . نحن نتمسك بالقشور ونتخلّى عن اللّب ، نتبع المظاهر وننسى الحقائق . نعرف مثلاً أن صيام شهر رمضان واجبٌ شرعاً فنصومه ، ولكننا لا نعرف أن الصوم ليس

---

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٨٤ .

فقط الامتناع عن الطعام والشراب ، بل الامتناع عن الطعام والشراب ليسا سوى وسيلة لامتلاك أنفسنا والقضاء على شهواتنا الخبيثة الحيوانية ، أو توجيهها في وجهتها الصحيحة . الحكمة التي قوامُها الفكرة تتمثّل في معرفة الحقّ ومن ثَمَّ الالتزام بهذا الحقّ في جميع الأحوال وفي كل المواطن .

ولأوضح لكم الفكرة أكثر أسرد عليكم هذه الحادثة :

علي مع الحق والحق مع علي :

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، اختلف الناس في عليّ عليه السلام ؛ فيروي عطاءٌ ـ وهو تابعيّ جليل ـ يقول : «دخلنا على ابن عباس في أواخر أيامه في المرض الذي مات فيه بالطائف ؛ يقول : دخلت أنا ومعي ثلاثون من شيوخ المدينة ، فاستقبلنا بصوت ضعيف : من الرجال ؟ قلت : من شيوخ المدينة . فسلمنا عليه فردّ علينا السلام . يقول عطاء : قلت : يا ابن عباس أنت ممن صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسمع حديثه ، والناس قد اختلفوا في عليّ بعده ، فماذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عليّ أمير المؤمنين ؟ . يقول : كان متكئاً فاستوى جالساً وهو يجاهد نفسه وقال : يا عطاء ! سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «عليٌّ مع الحقّ والحقُّ مع عليٍّ يدورُ معه حيثما دار» ، وسمعته يقول : «عليٌّ هو الإمام والخليفة من بعدي ، فمن تمسّك به فاز ونجا ، ومن تخلّف عنه هلك وغوى» . يقول عطاء : ثم دمعت عيناه وأخذ يبكي ، فقلت : أنت تبكي يا ابن عباس ! أنت تبكي وهذه مكانتُك من رسول الله ! قال : يا عطاء إنما أبكي لخصلتين ، لهول المطلع وفقد الأحبَّة ؛ ثم قال : لا بأس يا عطاء ، احملني معك إلى صحن الدار لأتجه إلى الله تحت سمائه . يقول : فقمت بنفسي وأخذت ابن عباس ، وقام أحد الرجال الذين كانوا معي ، فصار ابن عباس يتوكّأ علينا أنا وهو إلى أن وصلنا إلى صحن الدار ؛ ثم سألته : ما عندك يا ابن عباس ؟ . يقول عطاء : ورجلاه ترتجفان من الضعف ، فرأيته وقد رفع يديه إلى السماء وهو يقول :

«اللَّهمَّ إنّي أقسم عليك بحقّ عليّ أمير المؤمنين وبولايته عليك إلاّ غفرت لي وحشرتني معه . يقول : فصار ابن عباس يكرّر هذه الكلمة ويكرّرها ويكرّرها حتى وقع في صحن الدار ، فجعلنا ننضح عليه شيئاً من الماء ، ثم حرّكناه فإذا به قد فارقت روحه الدنيا» .

هكذا كانت وفاة هذا الرجل العظيم ابن عباس ، عند احتضاره لم يَنْسَ أمير المؤمنين ولم يَنْسَ ولاية أمير المؤمنين ووصايته ولم يَنْسَ الحقَّ . لقد كان ابن عباس ملتزماً بالحقّ لأنه عرف الحقّ ، ولكنه لم يكْتَفِ بمجرّد معرفة الحق فقط بل سار على نهجه في أدقّ المواقف وأصعبها ، وهكذا استقامت نفسه وأمنت من الاختلال والاهتزاز وتمثلت فيها الحكمة التي قوامُها الفكرة .

حادثة أُخرىٰ أرويها لكم : الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال لعمّار بن ياسر : «يا عمّار تقتلك الفئة الباغية» . يوم صفّين التزم عمار جانب عليّ فكان مع الفئة المؤمنة ، فقتلته الفئة الباغية ، فصاح الناس : هلك أهل الشام ! عمّار قتله أهل الشام ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : عمّار تقتله الفئة الباغية ! عندما مثَّل عمرو بن العاص مسرحيته المعروفة فقال : قتله الذي خرج به . نعم هذه مسرحية يراها الناس ويسمعونها ولكنهم لن يصلوا إلى درجة خلق الخيال بالواقع ، والتاريخ يكشف الزيف ، والحقّ يدمغ الباطل . الأقلام المزيفة قد تجعل من معاوية ابن آكلة الأكباد أميراً للمؤمنين ، ومن عمرو بن العاص الذي كشف عورته ليتقي سيف عليّ عليه السلام بطلاً مغواراً ، وتجعل من بني أُميّة أنداداً لبني هاشم ؛ ولكنها لا تستطيع أن تصنع حقيقة ، لأن الحقيقة واقع والزَّيْفُ لا يخلقُ واقعاً من العدم . فالحق لا يدور مع بني أُميّة ومع معاوية وابن العاصي وابن الحكم ، بل يدور مع عليٍّ على لسان رسول ربّ العالمين . والآيات لم تنزل بفضائل الطُّلقاء وأبناء الطلقاء ، بل نزلت بفضائل الرجل الذي لم يسجد لصنمٍ قَطّ : ﴿**إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة : الآية : ٥٥ .

السائل يدخل المسجد وعليّ منهمك في صلاته راكعٌ ؛ كيف أحسّ الإمام بوجود السائل وهو غارق في مناجاة ربّه ؟ كيف أحسّ بوجوده وقد استخرجت النعال من قدميه وهو في الصلاة ولم يحسّ بها ؟ إنه إدراك أمير المؤمنين الفطريّ لحقوق الله جميعاً والتزامه بها جميعاً وطاعته لأوامره جميعاً والانتهاء عن نواهيه جميعاً . ألا يأمرنا الله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؟ الصلاة حقّ الله ، والزكاة حقّ الفقراء ، وقد جعل الله حقّه مع حقّ الفقراء فلم يميّز بينهما إلّا بأسلوب تأدية كلٍّ منهما ، والتزم أمير المؤمنين بتأدية كلا الحقّين فاستحقّ هبوط جبريل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالىٰ : ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾ .

علي ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

في إحدى الليالي ، في بداية وجودهم في المدينة ، آلُ عليّ لا يجدون طعاماً في منزلهم ، فاطمة الزهراء والحسن والحسين يتلوّون من الجوع ؛ يخرج أمير المؤمنين من المنزل فيستقرض ديناراً ليشتري طعاماً لأهله ، يلتقي بالمقداد بن الأسود الذي يشتكي هو الآخر الجوع . وحقّك يا أبا الحسن أنا وأطفالي جائعون ، فهل عندك من شيء ؟ يردّ أمير المؤمنين : نعم يا مقداد ، معي هذا الدينار خذه واشْتَرِ طعاماً لأهلك ! ينطلق المقداد بالدينار دون أن يدرك حاجة الإمام عليه السلام له . ماذا يفعل أمير المؤمنين الآن ؟ هل يعود إلى المنزل خالي الوفاض ؟ يقف عند باب المسجد متفكراً فيأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيطلب من عليٍّ أن يستقبله في منزله للإفطار ـ كان شهر رمضان وكانوا صائمين ـ يرد عليٌّ بالإيجاب : هذا بيتك يا رسول الله ! ينطلق عليٌّ إلى المنزل ، يخاطب الزهراء قائلاً : يا ابنة رسول الله أعندك شيء يباع في المنزل ؟ تناوله الزهراء ثوباً فيبيعه بستة دراهم . يستطيع الآن أن يؤمن طعام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وطعام أطفاله . ولكن لم يَطُلِ الأمر فإذ بعمّار بن ياسر ورجل آخر من الصحابة مقبِلَيْن نحوه . أمير المؤمنين ببصيرته يدرك حاجة عمّار فيسأله فيردّ

عمّار بالإيجاب ـ هؤلاء هم حَمَلَةُ الإسلام ، لم يكونوا فقراء ، كانوا يملكون البساتين والأراضي ولكن أموالهم كانت موقوفة في سبيل الله وللفقراء والمساكين ويبيتون هم على جوع بطنهم ـ يُلْقي أمير المؤمنين الدراهم الستّة في يد عمّار الذي يذهب في سبيله . مرّة أُخرى يبقى عليه السلام خالي الوفاض من ثمن الطعام ، فإذا بأعرابي يقود ناقة ويعرض على الإمام بيعها ، يردّ عليه السلام : لا والله لا أملك ثمنها ؛ ولكن الأعرابي يوافق على بيعها بالدين بمائة درهم . ينطلق عليه السلام بالناقة ، فإذ برجل يعرض عليه أن يشتري منه الناقة بمائة وستّين درهماً ، فيبيعها أميرُ المؤمنين له . أصبح يملك الآن مائة وستين درهماً ؛ يفتش عن الأعرابي الذي اشترى الناقة منه بالدين ، فيدفع إليه المائة الدرهم ويبقى ستّون درهماً . هو دفع ستة دراهم ولكنه تلقّى ستّين ، فالحسنة بعشر أمثالها . يشتري علي الطعام لإفطار الرسول وآله ، يستقبله صلى الله عليه وآله وسلم عند باب المنزل متبسّماً في وجهه ، يقول له دون أن يروي له عليّ ما حدث معه : أتدري يا عليّ من الذي باعك الناقة ومن الذي أشتراها منك ؟ يرد عليّ : الله ورسوله أعلم ! قال : يا عليّ ، الذي باعك الناقة جبريل ، والذي اشتراها منك ميكائيل ، والناقة من نُوق ابنتي فاطمة في الجنّة .

ومرّة أُخرىٰ ينزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بفضائل عليّ : **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شُكُوراً﴾**(١) .

هذا هو عليّ ، رَبِيبُ رسول الله ووصيُّه وخليفتُه في أُمّته .

عودة على بدء :

فلنرجع إلى كلمة الإمام ؛ أمير المؤمنين عليه السلام يحلّل النفس ويبيّن فضائلها : «الفضائل أربعة أجناس : أحدها الحكمة وقوامُها في الفكرة ،

---

(١) سورة الإنسان ؛ الآيتان : ٨ و ٩ .

والثاني العفة وقوامُها في الشهوة ، والثالث القوّة وقوامُها في الغضب . . . » .

هنا ملاحظة لا بأس من أن نشير إليها . لا شكّ أنكم تلاحظون أن جميع أنواع الجرائم والجنايات تقلّ في العالم الإسلامي إلى درجة ملحوظة في شهر رمضان ، لماذا ؟ لأن معظم الجرائم تسبّبها غريزتان هما غريزة الشهوة وغريزة الغضب ، وكلتا هاتين الغريزتين يكسرهما الصيام ، فلا عجب أن يقول الرسول للشباب الذين لا يستطيعون الزواج : عليكم بالصيام . فالتقوىٰ التي يتلبّس بها الصائم كفيلة بأن تجعله يمسك نفسه عن معظم الموبقات .

نرجع إلى كلمة الإمام ، يقول : «القوّة قوامُها الغضب» ، ماذا يعني ذلك ؟ يعني أن القوة عندما تتمكّن من السيطرة على حالة الغضب ، فإن الفرد منا يستطيع بكلّ سهولة أن يمسك زمام أُموره بيده ؛ يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «ليس الشديدُ بالصُّرَعة[1] لكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب» . نعم ! إمساك النفس عند الغضب هو القوة ؛ من السهل جدّاً أن يُسْتَفَزّ أيّ إنسان فيكون ردّ فعله التلقائي التصرّف بعنف وعصبية ، ولكن لا يستطيع أن يمسك نفسه في حالة الغضب إلّا من امتلأ قلبه بالإيمان فاستطاع أن يقهر الشيطان القابع في نفسه . هذا الموقف ، موقف الحِلْمِ عند الغضب ، ليس موقف جبن بل موقف يتطلّب شجاعة فائقة لا تتوفّر إلّا للقليل من أصحّاءِ العقيدة : ﴿**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**﴾[2] . نعم تلك هي الفضيلة الثالثة التي أشار إليها أمير المؤمنين ، فضيلة القوّة ، وهي كما فسَّرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إمساك النفس عند الغضب .

الفضيلة الرابعة هي العدل ؛ وقوامُ العدل في اعتدال قوى النفس . ونقول هنا من دون مبالغة إن كل كلمة من هذه الكلمات تحتاج إلى مجلدات ضخمة لتفسيرها وتبيان مغزاها العميق ومحتواها الغنيّ .

العدل إذاً قوامه اعتدال قوى النفس ؛ وهذا يعني بكلمة أُخرى أن

---

(١) الصُّرَعة (بضم الصاد وفتح الراء) : القوي الذي يصرع خصومه عند العراك .
(٢) سورة الفرقان ؛ الآية : ٦٣ .

قـوى النفس إذا ما اختلّت في نفس الفـرد فإنـه يبتعـد عن الحقّ ويُـدْرَجُ في عِـدادِ الـظالمين ، وإذا ابتعـد عن الحقّ فقـد ابتعـد عن نهـج الإمـام عليه السلام . الإمـام عليّ قمةٌ ومثـالٌ في العدل ؛ يقـول : «لو أُعـطيتُ الأقاليم السبعـة بما تحت أفـلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبهـا جلب شعيـرةٍ مـا فعلتُ» ؛ ويوصي الجُبَاةَ قائلاً : «إذا جئتم بالنياق فلا تَحُولُـوا بين الناقـة وبين فصيلها» ـ لا تحـرموا الفصيـل من أُمـه ـ «وإذا حلبتم النـاقـة فـلا تمصلوا الحليب فيضـرّ ذلك بولدها» يعني لا تَسْتَقْصُـوا قَلْبَ الناقـة حتى يبقى لولـدها مـا يحتاجـه من الغذاء .

أين دسـاتير العـالم من هذا ؟ ! لاحـظوا هنا هـذا القائـد العظيم الـذي يتحكّم بثلاثة أرباع الدنيـا لا يفوتُـه أن يشير إلى حقّ نـاقة وفصيلهـا ، بل إلى حقّ نملة . ونـرى اليوم حقـوق البشر تُهـدر وحرمـاتهم تنتهك ، بينمـا أجهـزة الدعاية المزوّرة تتشدّق بعدل الحكّام وحكمتهم .

جـورج جـرداق كـاتب لبنـاني مسيحيّ أُشـرب قلبـه بحبّ الإمـام علي والإعجـاب العظيم بـه ، فـوضـع كتـاباً سمّـاه «الإمـام علي صـوت العـدالـة الإنسانية» ، كما وضع كتاباً آخـر سمّاه «عليّ والثـورة الفرنسيـة» قارن فيـه بين مبـادىء عليّ ومبادىء زعمـاء الثورة الفـرنسية . ولكن أين هؤلاء الـرجـال من عليّ ؟ أين الثَّرى من الثُّريَّا ؟ أين الثورة الفـرنسية ومبـادئها التي لم يمـرّ عليها سـوى مـائتي عـام من المبـادىء التي أودعهـا الإمـام عليه السلام في كتـابـه لمـالـك الأشتر ، وقد مـرّ على هذا الكتـاب أكثر من ١٣٦٠ سنـة ؟ إن أي مُطّلِع غيـر متحيّـز على هذا الكتـاب سيجد فيـه وثيقةً قـد بلغت قمةً في العـدل والحريـة وحقوق الإنسان ، إضافة إلى ما احتوت عليه من تشريـع متكامـل لإدارة البلاد كمـا يجب أن تُـدار . ولـو قُيِّض لهـذه الـوثيقـة أن تُنْشَـر بين شعـوب العـالم لأصبحنا وأصبح الجميـع بخير . تسمعـون اليوم أنهم يحـطّمُون تمـاثيل لينين بعد أن عبدوها أكثر من أربعين عاماً ، لو قرأوا هذه الوثيقـة واستوعبـوا ما فيهـا لمـا كانـوا بحـاجـة أصـلاً لبنـاء تمثـال للينين . لقـد رأيتم جميعـاً كيف نقلت

أجهزة التلفزيون عبر الأقمار الاصطناعية كيف انهالت الفؤوس على تمثال لينين فحطمته إرباً إرباً فعاد تراباً كما كان . وسأستطرد هنا قليلاً وأتكلم عن هذه الأقمار الاصطناعية وهذه التلفزيونات المنتشرة في كل بيت من بيوتنا . أن ترى العالم أمامك نعمة من نعم الله علينا ، ولكن هذه الهوائيات المنتشرة على السطوح والتي تنقل إلينا الأنباء المستجدّة في العالم تنقل إلينا أيضاً أفلام الجنس والعنف . لا أريد أن أبدو متشنجاً في حكمي ، ولكن صدّقوني عندما أدخل جهاز التلفزيون هذا إلى منزلي أكون كمن يسمح لعصابة من الأوباش مسلحة بالخناجر بالدخول على أبنائه وبناته فتقطعهم قطعة قطعة . وهذه الأفلام الخلاعية تقطّع أخلاقنا وتشظّيها . لقد أصبحت هذه المناظر اليومية رفيقة حياتنا الدائمة ، والذي يدعو إلى الأسف والمرارة أنها تزداد احتفالاً بشهر رمضان المبارك ، حيث تكثر في هذا الشهر الفضيل البرامج الراقصة والحفلات الغنائية ؛ فلا حول ولا قوة إلاّ بالله .

رمضان شهر محاسبة النفس :

هذا شهر رمضان ، إنه شهر محاسبة النفس وميزانها بميزان الحسنات والسيئات ؛ علينا في هذا الشهر أن نعرف ما لنا وما علينا ؛ يقول أمير المؤمنين : «زِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزَنُوا ، وحاسِبُوها قبل أن تحاسَبُوا» . نعم ، علينا أن نسهر الليل لا في مشاهدة حفل راقص على شاشة التلفزيون بل في محاسبة أنفسنا واسترجاع ما ارتكبناه في النهار من المآثم عَلَّنا نستدرك ما فات بما يأتي . إمامنا العظيم لم يكن ينام الليل ؛ يسأله الأصبغ بن نباتة : يا أمير المؤمنين أنت ترهق نفسك ولا تنام الليل . يقول : «يا أصبغُ متى أنام ؟ إن نمتُ ليلاً ضيّعتُ نفسي ، وإن نمت نهاراً ضيّعتُ رَعِيَّتي» ، ويسأله سائل : لِمَ لا تأكل حاجتك من الطعام يا أمير المؤمنين وبيتُ مال المسلمين بين يديك ؟ فيقول سلام الله عليه : «أأبيتُ مِبْطاناً وحولي بطونٌ غَرْثَى وأكبادٌ حَرَّى ؟ أأمتنكم من نفسي أن يُقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم بمكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في خشونة العيش ؟

ما خُلقتُ ليشغلني أكْلُ الطيّبات كالبهيمة المربوطة هَمُّها عَلَفُها ، أو المُرْسَلَة شُغْلُها نفسُها . وأيم الله لأروضنَّ نفسي رياضةً تهشُّ معها إلى القُرْصِ مطعوماً وتقبل بالملح مأدوماً ، ولأَدَعَنَّ مقلتي كيسَ ماءٍ نضب مَعِينُها !» .
هذا هو إمامُ الحقِّ عليّ عليه السلام .

ولنرجع إلى ما أشرنا إليه آنفاً من سقوط الشيوعية في العالم . كلُّ ذي عقلٍ يتساءل اليوم لماذا انهارت الشيوعيّة وتهافتت بهذه السرعة بعد أن كانت مالئة الدنيا وشاغلة الناس ؟ الجواب بسيط ؛ لقد سقطت الشيوعيّة لأنها كانت فكرة ضد طبيعة الإنسان وضدّ فطرته ، وكلُّ ما هو ضدُّ الفطرة لا بدّ وأن يتهافت . ولننظر بالمقابل إلى فِكْرِ الإمام عليّ ؛ نراه حيّاً عبر العصور مُتلَقًّى بالقبول من جميع الأجيال ، لماذا ؟ لأنه فكر حيٌّ إلٓهيّ المصدر إنسانيُّ الاتجاه . والفكر الذي هذه صفتُهُ لا يموتُ أبداً . يقول : «الرابع العدل وقوامُه اعتدال قوى النفس» ؛ يتجسّد العدل عندما تعتدل قوى النفس المختلفة . هذه دعوة صريحة من الإمام لسلوك محجّة الاعتدال ، فالعدل والاعتدال صِنْوان . علينا أن نحاسب أنفسنا ، أن نَزِنَ أنفسنا في ميزان الحقّ ، وعندما نفعل ذلك يرفعنا الحقُّ إلى المستوى الذي أراده الله لنا وخلقنا من أجله . يجب أن تكون طاعة الله نُصْبَ أعيننا ، علينا أن نتذكر دائماً أننا في دار فناء وسننتقلُ يوماً ما إلى دار البقاء ، علينا أن نتذكر أننا على سِكَّة سفرٍ طويل ؛ كان أمير المؤمنين يقول : «آه آه من قلّة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق ، آه آه إن أنا قرأتُ في الصحف سيئةً أنا ناسيها وأنت مُحْصِيها فتقول خذوه ، فيا له من مأخذ لا تنجيه عشيرته !» .

انظروا سموَّ نفس الإمام ، إنه يبكي خاشعاً في موقف رهبة الصّلاة وهو المعصوم من الخطأ ، وهو نفسه الذي يقول : «ما عبدتُكَ خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتُكَ» . ويقول : «إن قوماً عبدوا الله سبحانه وتعالىٰ رغبةً فتلك عبادة التجّار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة

الأحرار» . زِنُوا هذا الكلام في ميزان العقل ! «إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار» والقرآن يقول : **﴿هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾**(١) الإمام يقول : هذه تجارة مربحة ورابحة . «وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد» والقرآن يقول : **﴿وعباد الرّحمٰن الذين يمشون على الأرض هَوْناً﴾**(٢) فأعظم مقياس للإنسان وأشرف تشريف له أن يكون عبداً لله تعالىٰ . فأمير المؤمنين لا يريد أن ينتقدهم هنا ، بل يريد أن يبيّن المستوى الرفيع في كون الإنسان تاجراً وعبداً ولكنه حرّ ؛ «وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار» فهو يبيّن لنا أننا نكون أحراراً في عبوديتنا لله تعالىٰ ، وليس فيعبوديتنا لغير الله .

الإمام عليّ إذاً يبكي من رهبة الله وهو المعصوم ؛ يروي نوفٌ البكالي يقول : بينما أنا وحبّة العرنيّ نائمان عند أمير المؤمنين ؛ يقول نوف : والله الذي لا إلٰه غيره ، ما غمضت له عين تلك الليلة ، يقرأ القرآن ويصلّي ويبكي ؛ يقول : التفت إليّ الإمام فقال : يا نوف أنت رامق أم راقد ؟ والتفت إلى حبّة قائلاً : يا حبّة أنت رامق أم راقد ؟ قلنا : يا سيدي نحن رامقان ولسنا راقدين، لا نستطيع الرقاد لأن فكرنا معك ؛ قال : اعلم يا نوف أن لي ولك موقفاً عظيماً بين يدي الله ، يا نوف إني رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً ، يخالفون بين جباههم وركبهم ، إذا ذُكر الله عندهم يميدون كما يميد الشجر ، كأنما القوم باتوا غافلين .

يقول نوف البكالي : ما رأيت أمير المؤمنين بعد هذا الحديث ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم اللعين على رأسه بالسيف .

هكذا كان عليّ بن أبي طالب . ولا عجب ، فهو الذي رُبِّيَ في كنف النبوّة وتغذّى من لبن الرسالة .

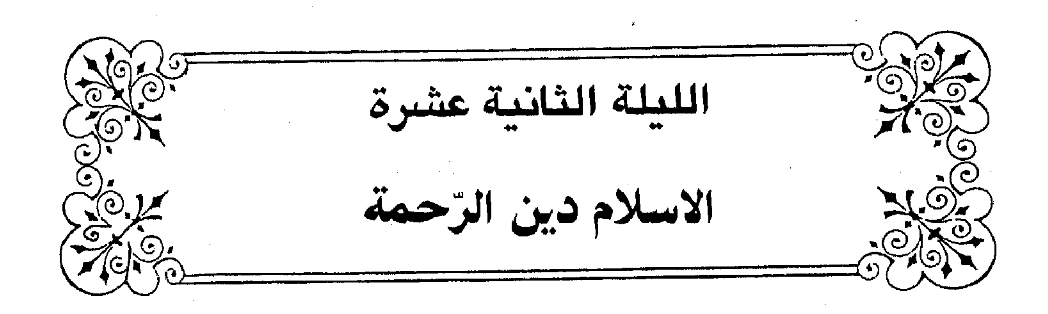
---

(١) سورة الصف ؛ الآية : ١٠ .
(٢) سورة الفرقان ؛ الآية : ٦٣ .

يقول عليّ : خرج رسول الله ﷺ ليلة ولم يعد إلينا ، فاستبطأناه، فجاءت جارية أخبرتنا أن قريشاً حصبت رسول الله بالحجارة . يقول : فخرجت أنا وخديجة للبحث عنه في شعاب مكة ، خديجة تحمل كوز ماء وأنا أحمل أرغفة من الخبز ، فاستظهرتْ خديجة الجبل واستبطنتُ أنا الوادي وأخذتُ أنادي : أين أنت يا رسول الله روحي فداك ؟ وخديجة تنادي : أين أنت يا نور عيني ؟ كان الرسول الأكرم متكئاً على أكمة من الأرض وقد أضعفه نزف الدماء ، فإذا جبريل عليه السلام يقول : يا حبيبي محمد إني أسمع صوت خديجة في شعاب مكّة فلو ناديتها حتى تأتي إليك ! فرفع الرسول صوته بالنداء ، فجاءت خديجة وجلست عنده ، ثم مسحت جروحه وقالت له: ثابر على ما نهضتَ به يا رسول الله ، إنّ الله ناصِرُك وخاذلُ أعدائك ! فما كان من رسول الله ﷺ إلاَّ أن عاد مع خديجة إلى الدار ومعهما علي أمير المؤمنين .

يقول الشيخ مهدي المازندراني (رحمه الله) : لما سمع جبرائيل صوت خديجة تنادي رسول الله قال له : ارفع صوتك يا رسول الله ! فأين كان جبرائيل يوم عاشوراء لما أقبلت الحوراء زينب تنادي أخاها الحسين : ابن أُمي يا حسين نور عيني يا حسين ، إن كنت حيّاً فأدركنا فهذه الخيل قد هجمت علينا ، وإن كنتَ ميتاً فأمرنا وأمرك إلى الله ! ثم جاءت حتى وقفت على رأس الحسين فلم تكد تعرفه لكثرة ما أصاب جسده من النصال والحراب ، قالت : أأنت حسين ؟ ! أأنت ابن أبي ؟ ! أجابها الحسين بصوتٍ ضعيف : زينب يا أُخيَّة والله لقد كسرتِ قلبي ! قالت : أخي يا أبا عبد الله ، يومٌ على صدر المصطفىٰ ويومٌ على وجه الثَّرَىٰ . كانت منحنية عليه تقبّله تارة وتقول له أُخرىٰ : كلمني يا نور عيني . وهو يقول : أخيّة زينب ، عودي إلى الخيام واحفظي لي عيالي وأطفالي .

[إنا لله وإنا إليه راجعون . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين] .



الليلة الثانية عشرة

الاسلام دين الرّحمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقول الله تبارك وتعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبي الله لا إلٰه إلاّ هو عليه توّكلت وهو ربّ العرش العظيم﴾(١) .

من وهج هذه الآية المباركة وفي ظلها نستشعر الرّحمة والأنس في ظلال الإسلام ومناهجه ، وندرك أن الله سبحانه وتعالىٰ قد اختار الحبيب المصطفىٰ ليكون رحمة للعالمين لأنه لم يخلق الناس ليظلمهم ، بل ليرحمهم ، فقد ﴿كتب على نفسه الرّحمة﴾(٢) .

تلك هي الفلسفة الأُولىٰ التي ينطلق منها الإسلام من أجل سعادة الإنسان وأمنه ، ومن هنا ندرك تمام الإدراك أن كل قانون أو نظام أو منهج جاء به الإسلام قائم على مبدأ هذه الرّحمة التي خص بها الباري الإنسان فقد وسعت رحمته كل شيء .

---

(١) سورة التوبة ؛ الآيتان : ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٢ .

وبالتالي فإن كل قانون يناقض هذا المبدأ ، وكل منهج لا يتوافق معه هو بعيد كل البعد عن عالم الإسلام ونظامه ، كما أن أي قائد أو إمام أو خليفة أو حاكم يسلط سياطه وحديده ويصوب ناره إلى الناس ، وإن كان يدعي الإسلام ، كما فعل بنو أميّة في تاريخهم الأسود ، فإن مثل هذا الحاكم لا علاقة له بالدين ولا بالإسلام من قريب أو بعيد . ذلك لأن الإسلام يقوم على الرّحمة والمحبة والعظمة .

ولنا في الرسول الكريم مثال يحتذى ، فهو من خلال سيرته أعطى أروع مصداق لهذه الفلسفة وأنصع مثال لهذا المنهج الذي يفيض نبلاً ورحمة . فسيرته صلى الله عليه وآله وسلم تنبض بالرّحمة يفيض بها حتى على أعدائه الذين كانوا يرمونه بالحجارة ويكيلون له كل أنواع الأذى . فقد هبط جبريل يقول له : «يا رسول الله ، العلي الأعلىٰ يقرئك السلام ويقول لك مرني فأمرك مطاع ، الآن أفتق هذا الجبل على قومك ، وأحوله إلى أحجار ملتهبة على رؤوسهم ، وفي هذه اللحظة كلهم ينتهون» . قال صلى الله عليه وآله وسلم : هكذا أمرك ربي ؟ قال : بلى يا رسول الله . فقال : «دعوني وقومي ، إنهم لا يعلمون» ثم قال : « اللّهمَّ أهد قومي فإنهم لا يعلمون» .

وعلى مثال الرسول وهديه كانت الزهراء عليها السلام ، تلك الصدّيقة الطاهرة ، التي كانت تتسربل بالرّحمة والرأفة إذ كانت تنزع عنها ثيابها الجديدة وتهبها أية فتاة فقيرة بدت عليها رقة الحال ومعالم الحاجة .

وكذلك كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، الذي وصلت به الرّحمة مبلغاً لا يصدق إذ قطع اللبن عن فمه وقال للحسن عليه السلام قدمه إلى أسيركم ابن ملجم . فقال له الحسن : «أبي ، هذا عدو الله ، ضربك على رأسك ؛ وفجعنا بك» فأجابه الإمام : «بحقي عليك يا ولدي إلاَّ ما أطعمته مما تأكل وسقيته مما تشرب ، بنيّ لا تقيد له رجلاً ولا تغلّ له يداً ، وإذا أنا مت من ضربتي فاضربوه ضربة واحدة ، وإذا حييت وشفيت منها فالأمر إليّ» .

والحسن نفسه عليه السلام قال لأخيه الحسين عليه السلام : «أخي أبا عبد الله لا تهرق بسببي ملء محجمة دماً» . ولعل هذا هو السر الذي يجعلنا نتعلق بأهل البيت ، فسيرتهم الشريفة تأخذ بأعناقنا قائلة : هذا هو الطريق الصحيح .

والإمام علي في وصيته يقول : «لا ألفينكم يا آل بني عبد المطلب تخوضون دماء المسلمين خوضاً . تقولون قتل ابن أبي طالب ، ألا لا يُقتل بي إلاَّ قاتلي»[1] .

والحسين عليه السلام لم يكن أقل رحمة من أخيه وأبيه عليهما السلام . إذ يُروى أنه يوم عاشوراء كان ينظر إلى القوم الفاسقين وهم يشرعون سلاحهم وحقدهم في وجهه ، فتجري دموعه وتسيل عبراته ، فتسأله الحوراء زينب : «مم بكاؤك ، فداك نفسي ، ؟» فيقول عليه السلام : «أُخيّة ، أبكي لهؤلاء القوم لأنهم سيدخلون النار بسببي» . وعندما وقع عليه السلام إلى الأرض مثخناً بجراحه ، جثم الشمر بن ذي الجوشن على صدره الشريف الذي يحمل علم رسول الله إذ كان يرتدي جبة جده النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال له : «لو تركتني حيناً من الوقت لنزفت دمائي وانتهى أمري فلا تلطخ يديك بقتلي ، أتركني وأنا أضمن لك عند الله الجنة» .

ولنا أن نتساءل ما سر هذه الجنة المضمونة للشمر من قِبَلِ الحسين ؟ فهل إذا قام الشمر عن صدر الحسين ، تُضمن له الجنة لمجرد ذلك ؟ لاَ . . إن حكمة الحسين ورأفة الحسين أبعد مراماً ، فلو أن الشمر قام عن صدره الشريفة لكان في ذلك توبة والتوبة تؤدّي إلى الهداية ، ولانقلب الشمر ساعتئذٍ إلى صف الحسين ولدافع عن بنات رسول الله ، ولعل الله يقبل توبته إذا كانت صادقة ، فيصبح مآله الجنة .

تلك هي روعة الإسلام عندما تتجسد في هؤلاء الأعلام الأطهار

---

(١) نهج البلاغة ، المجلد الرابع ، صفحة ١١١ من شرح ابن أبي الحديد .

الذين أختارهم الله تعالىٰ ليكونوا قدوة للبشرية . ولا غرو إذا فاض الحسين رحمة ورأفة في لحظات احتضاره ، فهو ابن أبيه ، ابن علي الذي حَوَّل الإسلام العظيم إلى سلوك عملي والذي قال : «سلوني قبل أن تفقدوني» وقد شهد له بذلك الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حيث كان ينقذه في كل مرّة يشكل عليه الأمر في معضلات كان يقف أمامها عاجزاً عن حلّها فقال : «لولا علي لهلك عمر» وقال أيضاً : «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن» وقال أيضاً وأيضاً : «بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن» .

إن التوحيد ، أن تطرق باباً من أبواب الله شرعه للناس لأنك بذلك تبتغي الوسيلة إلى الله ، يقول الله سبحانه : ﴿**وابتغوا إليه الوسيلة**﴾[1] هذا هو التوحيد الصادق بأبهى صوره ، لا أن تتنكر لأولياء الله أو تجهل من هم أولياء الله . لذلك فإن من يجهل من هو علي بن أبي طالب ومن يجهل حقه ومنزلته وموقعه من الإسلام فهو جاهل بالإسلام نفسه .

لنعد إلى الآية الكريمة التي بدأنا بها الحديث : ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم**﴾ ، فالعنت هنا التعب والحرمان والمشقة ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم عزيز عليه أن يرانا في عنت وحرمان وضيق .

﴿**حريص عليكم**﴾ أي حريص على سعادتنا وهو بنا رؤوف رحيم ، ﴿**فإن تولوا**﴾ عنك وأداروا وجوههم فقل ﴿**حسبي الله لا إلـه إلاّ هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**﴾ .

من أجل ذلك كان الإسلام دين الرّحمة والرأفة ، وفي هذا المجال تتجلىٰ عظمة الإسلام الذي جاء من رب العالمين . ولا بد من أن يتجلى هذا الدين بأشخاص لكي لا يبقى مجرد أفكار تبقى في حيز النظريات ، إذ ينبغي أن يتجسد حركة ومسلكاً وفعلاً . وقد تجسدت بالفعل في أهل البيت وفي مقدّمتهم علي بن أبي طالب .

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٣٥ .

لقد ترك لنا الإمام علي أثراً سوف يبقى ما تعاقب الليل والنهار ، عنيت بهذا الأثر الخالد كتابه الرائع «نهج البلاغة» . ذلك الكتاب الذي يأتي في المنزلة بعد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . لقد ضمَّنه الإمام خلاصة علمه وفكره فتناول منه الكون والحياة والإنسان وعلاقة الإنسان بالحياة وعلاقته بالحاكم ، وخلص إلى مجموعة من الآراء والنظريات ما كان لأحد بعد رسول الله أن يتوصل إليها بثاقب عقله وعميق فكره إلاَّ علي بن أبي طالب .

وسوف نختار موضوعاً لحديثنا من كتاب نهج البلاغة ، عهده عليه السلام لمالك الأشتر حين ولاه مصر ، ففيه من الحكمة البالغة والنظريات الشاملة ما يجعله دستوراً في الحكم وفي العلاقة بين الراعي والرعية . وقبل التعرض إلى بعض ما جاء فيه ، لا بأس من بيان المنزلة التي كان يحتلها مالك الأشتر من الإمام علي .

يقول الإمام علي عليه السلام «كان لي مالك كما كنت لرسول الله» فهو فارس شجاع ، كريم ، مقدام ، سريع إلى المبادرة والنجدة والشهامة ، كان يخوض الحروب فيقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة ، وصولاً إلى القلب ، دس له معاوية السم في العسل عندما كان في طريقه إلى مصر ، لذلك قال معاوية عندما استشهد «إن لله جنداً من عسل» .

ولما نعاه الناعي لأمير المؤمنين ، بكى الإمام وقال : «على مثل مالك فلتبك البواكي» .

ويروى عنه أنه مرَّ ذات يوم في السوق فرماه أحدهم ببطيخة وهو لا يعرفه ، فلما علم من أحدهم أنه مالك الأشتر تملكه الخوف والذعر ، وراح يعدو لاهثاً خلف مالك يريد أن يطلب منه الغفران والعفو . . . وحث مالك الخطى باتجاه المسجد . وانتظر الرجل عند باب المسجد يمني النفس بعفوه . وعندما فرغ مالك من صلاته خرج فارتمى الرجل عند قدميه معتذراً إليه . فقال له مالك «لا بأس عليك يا بني . . . والله ما دخلت المسجد إلاَّ

لأستغفر الله لك» . ولا غرو أن يقف مالك هذا الموقف الإسلامي الرائع فهو تلميذ علي بن أبي طالب .

وعندما قتل محمد بن أبي بكر عامل الإمام عليّ على مصر من قبل عمرو بن العاص أرسل الإمام مالكاً الأشتر والياً على مصر وعهد إليه بعهده الشهير ، موضوع هذا الحديث ، وهو من محاسن كتبه فقد ضمّنه نظريته في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والأخلاق وإدارة البلاد وسياسة العباد .

مقدمة العهد :

بسم الله الرّحمن الرّحيم[1]

«هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين ، مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر ، جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها وعمارة بلادها» .

إن هذه الأُمور الأربعة التي حددها الإمام في عهده تمثل الأهداف التي ينبغي لأي حاكم أن يضعها نصب عينيه : فجباية الخراج مصدر هام لبيت مال المسلمين وهي مسألة تتعلق بالاقتصاد . وجهاد العدو يمثل السياسة الخارجية ، واستصلاح الأهل يمثل الجانب الاجتماعي ، وعمارة البلاد تتعلق بالعمران والتنظيم . ثم تابع عليه السلام :

«وأمره بتقوى الله وطاعة أمره وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه ، التي لا يسعد أحد إلاَّ باتباعها ولا يشقىٰ إلاَّ من جحودها وإضاعتها» ثم يقول :

«وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات وينزعها عند الجمحات ، فإن النفس أمارة بالسوء إلاَّ ما رحم الله ، ثم اعلم يا ملك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرّت عليها دول قبلك من عدل وجور ، وأن الناس ينظرون من

(١) نهج البلاغة ـ المجلد الرابع ، صفحة ١١٩ من شرح ابن أبي الحديد .

أمورك مثل ما كنت تنظر من أُمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدلّ على الصالحين بما يجري الله سبحانه وتعالىٰ لهم على ألسن عباده . . . . فاملك هواك وشُحَّ بنفسك عما لا يحلّ لك ، واعلم أن الشحّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت . . . . وأشعر قلبك الرّحمة للرّعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق ، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ ، فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ووالي الأمر فوقك ، والله فوق من ولاك» .

إنها كلمات تنبض بالرّحمة والشفقة ، فالإمام يعيش هاجس الرّعية لأنه مسؤول عنهم ، إنه الحاكم الذي يستشعر الأبوة والحنان لكل فرد من أفراد رعيته ، فهو راعي هذه الأمة والراعي مسؤول عن رعيته . وهنا قد تبدو مفارقة لبعض الناس إذ يسأل سائل : ما بال الإمام علي يرسم للناس منهجاً في الحياة الدنيا وهو الذي طلق الدنيا ثلاثاً فيقول : «يا دنيا غري غيري» ، وكان يكتفي من الطعام بأبسطه إذ يكتفي بكسرة الخبز من الشعير ويلبس المرقّعة ، يقول : «لقد رقعت مدرعتي حتى استحييت من راقعها ، وقال لي قائل ألا تنبذها» وراقعها كان الإمام الحسن ، فقلت «عند الصباح يحمد القوم السرى»(١) .

إذن ما بال الإمام الزاهد بالدنيا ، المطلق لها ، المدبر عنها يرسم للناس قوانينها ومناهجها وكيفية عمرانها ؟ .

والجواب على ذلك التساؤل : إن الدنيا مرفوضة لدى الإمام إذا كانت هي الغاية وهي المطلب ، أما الدنيا التي يتحدث عنها الإمام ويرسم للرعية واضح طريقها ومعالم سبلها ، فهي الدنيا التي تشكل الطريق إلى الآخرة ، وهو بهذا المعنى يعيش هاجس الآخرة من خلال الدنيا والدنيا هي المزرعة

---

(١) مثل يُضرب لمن يدرك حقيقة الأمر بعد وقوعه .

التي تؤدّي إلى الآخرة .

وهو في آخر لحظات حياته كان يخاطب الناس قائلاً : «الله الله في نظم أمركم» ، إنها نظم في السياسة والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والتربية والأخلاق ، وكل ذلك يطرحه الإمام من خلال هذا العهد حيث يريدنا أن نربح الدنيا والآخرة معاً ، وبغير هذا النظام تعم الفوضى فتضيع الدنيا والآخرة وهو القائل : «من لا معاش له لا معاد له» .

إن الإمام علياً في نهج البلاغة قد حارب الفقر ولكنه كان يقف إلى جانب الفقراء ، وبالتالي لم يتخذ جانب الأقوياء وذوي السلطان من العتاة والمردة والطغاة ، بل وقف إلى جانب الضعفاء والمحرومين في كفاحهم ونادى بحقوق الإنسان والفقراء ، وعندما وازن بين المال والعلم فضل العلم الذي يحرس المال . ومن هنا السر في خلود هذا الكتاب الرائع «نهج البلاغة» .

إن الحاكم الذي يلي أمر المسلمين ينبغي أن يتحلى بالعفو والصفح ويتسلح بالرّحمة والمحبة ، «وأشعر قلبك الرّحمة والمحبة لهم واللطف بهم» يقول لمالك الأشتر «أشعر قلبك الرّحمة» ولم يقل طبق مبادىء الرّحمة لأن الحاكم الذي يفتقر إلى الرحمة لا يستطيع أن يصطنعها وساعتئذٍ سوف يفرض القانون فرضاً ، والإمام يريده أن يكون رحيماً في تطبيق القانون فيصدر القانون من قلبه لا من عقله ، كما ينبعث النور من الشمس وكما تصدر الحرارة من النار بشكل طبيعي لا تكلف فيه ولا تصنّع . وفي قوله :

«واعطهم من عفوك وصفحك» يرسم للحاكم الإسلامي كيفية تطبيق الحدود وتنفيذها . وللإمام علي في تطبيق الحدود صولات وجولات تنبض بالرّحمة والصفح والعفو إذا كان هناك سبيل إليها .

يروي الأصبغ بن نباتة أن رجلاً دخل على الإمام علي وهو جالس في المسجد بين أصحابه ، فبادره قائلاً : «يا أمير المؤمنين طهرني إني زنيت» .

وقبـل أن نعرف كيف تصـرف الإمام إزاء هـذه المسألـة ينبغي لنـا أن نـوضـح أمرين :

الأمـر الأوّل : هو أن الإنسـان قد تعـرض له الـذنـوب والخـطايـا فيقـع فيهـا ، عندئـذٍ قد يغـدو لقمـة سـائغـة للشيـطان الـذي يـزيـده همـاً على هم فيـداخله اليأس والقنـوط من رحمة الله ويعيش هـاجس الذنب والخـطيئـة دون أن يـدرك أن باب التـوبة مفتـوح وأن الله سبحانـه ذو مغفرة ورحمـة ، فيتخبط في يأسه وقنوطه ، وقد يدفعه ذلك إلى مـزيد من الـذنوب والخـطايا لأن نفسـه قـد أمست في ظلام دامس وليـل أسـود لا يـرى بصيصـاً من نـور أو بـادرة من أمل .

والأمر الثاني : هو قضية فقهيـة مفادهـا أنه إذا قامت البيّنة على جـريمة من الجـرائم الاجتماعيـة ولم يكن هنـاك إقـرار من المجـرم فليس لـلإمـام أن يعفـو ، أما إذا أقـر المجرم على نفسـه واعترف بجـريمته فللإمـام عنـدئـذٍ أن يعفـو ويصفح أو أن يقيم الحـد . وهذا كـان جوابـه لـلأشعث بن قيس الـذي استنكـر تصرف الإمـام علي إزاء تلك المـرأة الـزانيـة التي جـاءتـه معترفـة ، وسـوف يأتي حـديثها ، أمـا الأشعث بن قيس فيكفي أن نعرف عنـه أنه منـافق قد امتلأ خبثاً من قمة رأسه حتى أخمص قدمه .

أعـود الآن إلى ذلك الـرجل الـذي دخل المسجـد طالبـاً إلى الإمـام أن يطهره لأنه زنى ، فتشاغل الإمام عنه فأعـادها الـرجل ثـانية فـالتفت الإمام إلى أصحابه وسألهم : «أيعجز أحـدكم إذا اقترف مثل هذه الخـطيئة أن يستـر على نفسه» إنه يخـاطبهم ويخاطبنـا نحن أيضاً ، لأن الستـر في مثل هـذه المسألـة أولى فهي فاحشة إجتماعية خطيرة وإشاعة الفاحشة في المجتمـع أمر خـطير ، إذ يعتـادها المجتمـع فتصبح أمـراً سهلاً يسيـراً وقد قـال الله تعالىٰ : ﴿**الـذين يحبـون أن تشيع الفـاحشة في الـذين آمنوا لهم عـذاب أليم**﴾[1] . مرّة ثـالثـة يقول الرجل «يا أمير المؤمنين طهرني ، إني زنيت» فسـأله الإمـام : «ما الـذي

(١) سورة النور ؛ الآية : ١٩ .

دفعـك إلى ما تقـول» ولم يقل : «مـا الذي دفعـك إلى الزنى» لأنـه يعلم عليه السلام أنـه سقط في التجربـة في لحظة من لحـظات الضعف وانعدام الـرؤية وغيـاب الإيمـان ، وهو عليه السلام لا يـريد أن يـداخله القنوط واليـأس . فأجـابـه الـرجـل : «سيدي ، طلب الطهارة» فقال الإمـام عليه السلام : «وأي طهارة أفضـل من التوبـة ، أنت تبحث عن الطهارة بإقامة الحد عليك ؟» .

إن الإمـام عليه السلام عندمـا وقف من هذه المسـألة هـذا الموقف الـرائع كـان في ذهنه كل آيات التوبـة والسيئات التي تنقلب إلى حسنـات . يقول تعـالىٰ : ﴿**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**﴾[1] ، ﴿**ولا تستوي الحسنـة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن**﴾[2] لأن الحسنة أقوى من السيئة فالحسنـة مصدرهـا الله تعـالىٰ والسيئـة مصـدرهـا الشيـطان وكيـد الشيـطان ضعيف ، ولـذلـك ﴿**إن الحسنـات يذهبن السيئـات**﴾[3] والذنب الذي لا يغفر هو الشرك ، ﴿**إن الله لا يغفـر أن يُشرك بـه ويغفر مـا دون ذلك لمن يشـاء**﴾[4] أمـا مـا دون ذلـك من الـذنوب فهـو خاضـع لمبدأ الغفـران ، ﴿**قـل يـا عبـادي الـذين أسـرفـوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾[5] .

وإذا كان باب المغفرة مفتوحاً على مصراعيـه للناس ، فلمـاذا لا نتوجـه إلى الله تعالىٰ بقلوب مفتوحـة لكي يغفر لنـا ذنوبنـا ويتوب على خـطايانـا بعد أن نكـون قد تبنـا إليه تـوبة نصـوحة، ونحن إذا مـا فعلنا ذلـك نكون أشبـه ما نكون بذلك الإنسان الذي يكاد أن يقتله الظمأ وماء الفرات بين يـديه ، ويـداه مغلولتان إلى عنقه عاجزتان عن الوصول إلى الماء الزلال البارد .

ولنـا الآن عـودة إلى تلك المـرأة التي اعتـرفت أمـام أميـر المؤمنين

---

(١) سورة الفرقان ؛ الآية : ٧٠ .
(٢) سورة فصلت ؛ الآية : ٣٤ .
(٣) سورة هود ؛ الآية : ١١٤ .
(٤) سورة النساء ؛ الآية : ٤٨ .
(٥) سورة الزمر ؛ الآية : ٥٣ .

فقالت : «إني زانية فطهرني» ، فتشاغل عنها الإمام لعلها تذهب وتتوب إلى ربها . فظنت المرأة أنه لم يسمعها أو لم يرها فوقفت قبالته وقالت : «سيدي ، يا أمير المؤمنين طهرني» . قال : «ومم أطهرك» ؟ قالت : «زنيت» قال : «لعلك خاطئة» أي واهمة ، قالت : «إني زنيت» قال : «أنت متزوجة ؟» قالت : «محصنة» . قال : «يوم فعلت ما فعلت ، أكان زوجك حاضراً أم غائباً ؟» قالت : «بل كان حاضراً» . فتشاغل عنها الإمام مرّة أخرىٰ فلعلها تذهب . ومرّة أُخرىٰ تلح المرأة في إقرارها والإمام يتشاغل عنها يريد لها أن تخرج وتتوب فتستر على نفسها . وراحت المرأة تكرر قولها والإمام يقول : «اللّهمَّ إنها واحدة» أي شهادة واحدة في مجلس واحد حتى ولو أقرت تسعين مرّة .

خرجت المرأة ثم عادت أربع مرّات . فقال لها الإمام عليه السلام: أنت حامل ، فإذا كان لنا سلطان عليك فليس لنا سلطان على طفلك ، اذهبي حتى تضعي الطفل وهو يريدها أن تذهب فلا ترجع . وضعت طفلها ثم جاءت به إلى الإمام قائلة : «طهرني» قال : «ومم أطهرك أمة الله ؟» فهو يتجاهل المسألة . ثم قال لها : «طفلك هذا يحتاج إليك» .

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾[1] اذهبي وعودي بعد عامين - ثم عادت . وكان الأشعث بن قيس ممن تابعوا هذه المسألة فقال لها الإمام عليه السلام ما زال طفلك يحتاج إلى رعايتك وعنايتك فالتفت الأشعث ابن قيس وقال : «أنا له يا أمير المؤمنين إلى متى تعطل حدود الله ؟» عندها بيَّن الإمام للأشعث القاعدة الفقهية التي سبقت الإشارة إليها ، فللحاكم أن يعفو ويصفح إذا أقر المجرم من تلقاء نفسه وله أن يقيم الحد .

وعندما أقام الإمام الحد عليها حاول الأشعث أن يتنصل من التزامه بالطفل فقال له الإمام عليه السلام: «تأخذ الطفل وأنفك راغم» ، بعد ذلك التفت

---

١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٣٣ .

الإمـام إلى الناس وقال : «لا يبقين أحد منكم، لا يتـولى رجمها إلاَّ الإنسـان الـطاهـر الـذي لم يسبق لـه أن أذنب . يقـول : فلم يبق إلاَّ علي والحسن والحسين» .

وهنـا لا بد من تـوضيح : إن الـذين خـرجـوا ولم يشـاركـوا في رجم المرأة ، ليسوا خـطأة ومذنبين قـد أقفلت في وجوههم أبواب المغفرة ، ولكن الإمـام يـريـد أن يعلمهم جميعاً بـأن الإنسـان كـل إنسـان معـرض لارتكـاب الـذنوب مـا خلا المعصـومين ، ومغفـرة البـاري تعـالىٰ ورحمتـه وسعت كـل شيء ، لاسيما أن من بين هؤلاء الأصحاب من صفت قلوبهم وعـاشوا تجـربة الإيمان والإسلام .

إن مثـل هذه المـواقف الإسلاميـة الرائعـة والحكيمـة التي تفيض عقـلاً ورحمـة وحكمـة ، لن تجـدهـا إلاَّ عنـد علي بن أبي طـالب أخي رسـول الله ووصيه وخليفته من بعده ، ولذلك فإن كل آية يـرد فيها **«يـا أيها الـذين آمنوا»** إنما تشير إلى الإمام علي وإلى المعصومين من ذريته .

إن المـدة التي تـولى الإمـام علي خـلالهـا الحكم تبلغ حـوالي خمس سنـوات . وإن أي خليفة غيـره كان عـاجـزاً عن الحكم ولا سيمـا بعـد مقتـل عثمـان ، حيث كـان المجتمـع الإسـلامي ممـزقـاً تضـربـه الفتن والنـزاعـات والمحسوبيات فقد قرب عثمان أقربـاءه من بني أُمية ، أمثـال مروان بن الحكم الـطريد ابن الـطريد فقـد طرده رسـول الله ولعنه . عنـدمـا استلم الإمـام علي الحكم وجـد من طردهم رسـول الله مقربين ووجـد المقربين مـطرودِين أمثـال أبي ذر الغفـاري وعبد الله بن مسعـود وعمّار بن يـاسر ، أمـا الزبيـر بن العـوام وطلحة بن عبيد الله وغيـرهما فقـد كانت أمـوالهم لا تُعد ولا تحصىٰ . ويكفي أن نعلم أن أموال الزبير كانت سبائك من ذهب .

وعندما حكم الإمام علي صمم على أن يعيد الأُمـور إلى نصابهـا فيحق الحقوق ويبطل الباطل فوقفوا في وجهه ثلاث جبهـات : الناكثـون والقاسـطون والمارقون .

دخـل طلحـة والـزبيـر على الإمـام عليّ وهـو في بيت المــال يستضيء بشمعـة من الزيت . قـال طلحة يـا أمير المؤمنين نـريد أن نتحـدث إليـك في مسألة شخصية فنعرضها عليك . قال الإمام : شخصيـة ؟ لا علاقـة لها بـأمور المسلمين ؟ قال : لا فالتفت الإمام إلى خادمه قنبـر وقال لـه :«أطفىء الضوء يـا بني» . إنه يبـذل الأموال للمسلمين بـالملايين ولكنـه في الوقت ذاتـه يَضُنُّ بقليل من الزيت لأن المسلمين لا فائدة لهم من المسـألة التي جـاء بها طلحـة والزبير .

معـاوية نفسـه يقـول : «لـو أعـطي عليٌّ جبـلاً من ذهب وجبـلاً من تِبِن لأنفق تبره قبل تبنه» .

وبعد أن أطفأ الضوء قال لهما : ما حاجتكما . فقال طلحة : أتركنا أنا والـزبير ولا تتعـرض لنا وأمِّـرنا على أن نـدعمـك ونقف إلى جـانبـك . ولكن الإمام رفض هذا النـوع من المساومـة فهو لا يسـاوم أحداً على الحق . علمـاً أنـه حتى ولو أعـطاهمـا فإنهما لن يقفـاإلى جـانبـه . وقـد أكـد ذلـك عبـاس محمـود العقـاد في كتـابـه «عبقـريـة الإمــام علي» حيث يـرى أن الإمــام لـو أعطاهما ما يريدان لما كان موقفهما بأحسن مما كان عليه .

وكـان قد أشـار عليه المغيـرة بن شعبة : «لـو تركت معـاوية في مكـانـه ولبيت طلب الزبير وطلحة لما حـدث ما حـدث» وما كـان الإمام علي ليسـاوم على ما يراه حقـاً . فهل يتـرك القيادة في بني أُميـة ؟ أذن لماذا قبـل أن يستلم الحكم ؟ أو ليس لإحقاق الحق ؟ .

ويـروي ابن عباس فيقـول : دخلت على الإمام عليّ فـوجدتـه يخصف نعله ، فسأله الإمام : ما قيمـة هذه النعـل ؟ قال : لا قيمـة لها . فقـال عليه‌السلام : «والله إنهـا لأفضـل عنـدي من خلافتكم ، إلاَّ أن أقيم حقـاً أو أدفع بـاطلاً» ولا غرو في ذلك «فعلي مـع الحق والحق مع علي» ، أو ليس هـذا رأي الرسـول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في علي عليه‌السلام ؟ . إن هـذه الثنائيـة بينه وبين الحق هي التي نريدها في زيـارته عنـدما نقـول : «السلام عليـك يا ميـزان الأعمال» . وهـو يوم القيـامـة

قسيم الجنة والنار . ﴿**والوزن يومئذٍ الحق**﴾[1] .

ويروى عن طريق السنة والشيعة أن أبا بكر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «لا يجوز أحد على الصراط ، إلّا من كتب له عليّ بذلك صكّاً» . ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لعلي : «لا يحبك إلّا كل مؤمن ، ولا يبغضك إلّا كل منافق» ويقول له أيضاً : «لا يحبك منافق ولا يبغضك مؤمن» ؛ ويقول الله سبحانه في كتابه الكريم : ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾[2]» . وكل المسلمين يعلمون ما حدث يوم خيبر ، عندما أعطاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الراية . قال : «لأعطين الراية رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ، كراراً غير فرار ، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه» وذلك ما حدث فعلاً .

وقد جاء في المجلد الأربعين من كتاب البحار للعلامة المجلسي عن عبد الله بن مسعود أنه دخل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في بيته وكان في البيت مخدع أي مقصورة داخلية ، فقال له ابن مسعود: سيدي ، يا رسول الله ، روحي فداك، أرني الحق حتى أتبعه، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم : يا ابن مسعود ، أنظر خلف هذا المخدع تجد الحق . يقول ابن مسعود : دخلت فرأيت علياً ساجداً وسمعته يقول في سجوده : «اللّهمَّ إني أسألك بحق حبيبك محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلّا ما غفرت لشيعتي أو للخاطئين من شيعتي» . يقول : رجعت حتى أخبر النبي فوجدته ساجداً ، فأرهفت سمعي لأسمع ما يقول في سجوده ، وإذا به يقول : «اللّهمَّ أقسم عليك بحق وليّك علي بن أبي طالب إلّا ما غفرت للخاطئين من أمتي» . يقول ابن مسعود : أصابتني هزة إزاء ما رأيت وسمعت . قام الرسول من سجدته فرآني في هزتي ، فقال يا ابن مسعود ، أكفر بعد إيمان ؟ ، هذا هو الإيمان ، وما دون ذلك فهو كفر صريح .

---

١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٨ .

٢) سورة المائدة ؛ الآية : ٥٤ .

ذاك هو علي أبو المعصومين ، يدور معهم الحق كيفما داروا فمن تمسك بأذيالهم نجا ومن تخلّف عنهم كان مصيره الهلاك والضلال ، ولذلك فإن الله تبارك وتعالىٰ سوف يسألنا يوم القيامة عن ولايتهم والتمسك بهم . والولاية في الواقع ينبغي أن تظهر في السلوك والعقيدة وفي الجوارح .

بأبي وأُمي أمير المؤمنين عندما أطال البكاء بعد مصرع مالك الأشتر وبعد أن قال : «أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق ؟ أين عمار بن ياسر ، وأين ابن التيهان وأين ذو الشهادتين ، وأين نظراؤهم من إخوانهم تعاقدوا على المنية» .

إن أهل البيت هم السبيل الوحيد الذي يقودنا إلى معرفة الله والإيمان والإسلام فمن عرفهم عرف الله . ولسوف تبقى عاشوراء مدرسة يتخرج منها المؤمنون ، وسوف يتحول هذا المد إلى بحر زاخر متلاطم الأمواج ، يتسع سنة بعد سنة ويوماً بعد يوم ، ولسوف تستمر المسيرة بخطى ثابتة وواثقة لأن الله بالغ أمره ، وعد عباده بالنصر ووعده الحق ، قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه .

إن هذه المدرسة التي أسسها رسول الإسلام وتابع بناءها علي بن أبي طالب ورسَّخها الحسين عليه السلام يوم استشهد في كربلاء ، هذه المدرسة سوف تبقى أنوارها مشعة في كل الآفاق وعلى مدار كل الأزمنة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

إن من يزور الحسين ويقف عند قبره تأخذه حالة من الحزن العميق والحسرة ، لا سيما إذا نظر إلى قبر ولده علي الأكبر عند قدميه فتتوالى الذكريات والصور الكربلائية وتتراءى الحوراء زينب وهي تقوم من مصرع إلى مصرع ، كما تبدو الرباب تلك المرأة التي رفضت أن تستظل تحت سقف قط لأنها رأت جسد الحسين تصهره حرارة الشمس ، هذه المرأة الطاهرة الصابرة هي أُم عبد الله الرضيع .

ولهفي على الرضيع عندما حمله أبوه الحسين على صدره يطلب له

الماء من قوم تحجرت قلوبهم وتبلدت مشاعرهم وتخلقوا بأخلاق بني أميّة ، فقتلوه على صدر أبيه الحسين ، فأخفاه تحت ردائه بعد أن رمى بدمه نحو السماء وهو يقول : «اللّهمَّ لا يكن طفلي أهون عليك من فصيل ناقة صالح» فسمع الحسين نداءً يقول : يا حسين دعه فإن له مرضعاً في الجنة . رجع به إلى الخيمة ولكنه لم يدخل لأن الأم لا يمكنها أن تنظر إلى ولدها مذبوحاً . لقد كان موقف الحسين في هذه اللحظات صعباً ومحرجاً فهو الذي ما تعود أن يرد سائلاً بل تأخذه حالة من الحياء ولذلك أعطى ذات مرّة أعرابياً من خلف الباب وهو يقول له : «خذها فإني إليك معتذر» . موقفه الآن صعب لأن الرباب سألته أن يسقي طفلها ماءً وقد عاد به إليها مذبوحاً فكيف له أن تلتقي عيناه بعينيها وماذا يقول لها ؟ فاستقبلته سكينة . قالت : أبي هل سقيت أخي ماءً وجئتني ببقيته ؟ قال لها : بنية سكينة «عظم الله لك الأجر ، خذي أخاك مذبوحاً من الوريد إلى الوريد» .

يقول المنهال : دخلت على الإمام زين العابدين عليه السلام في المدينة فقال لي يا منهال من أين قدمت ؟ ، قلت من الكوفة . قال : بالله عليك كيف خلفت حرملة بن كاهل[1] ؟ قلت: سيدي خلفته على قيد الحياة . فرفع الإمام يده نحو السماء وقال : «اللّهمَّ اذق حرملة حرّ الحديد» ، قالها ثلاث مرّات . فقلت له : سيدي تدعو على حرملة دون القوم؟ وكلهم يستحقون؟ قال : يا منهال إن حرملة أحرَّ قلوبنا وفتت أحشاءنا ، يا منهال لو لم يكن من مصابنا إلاَّ هذا الطفل الرضيع لكان له أثر كبير في نفوسنا أهل البيت .

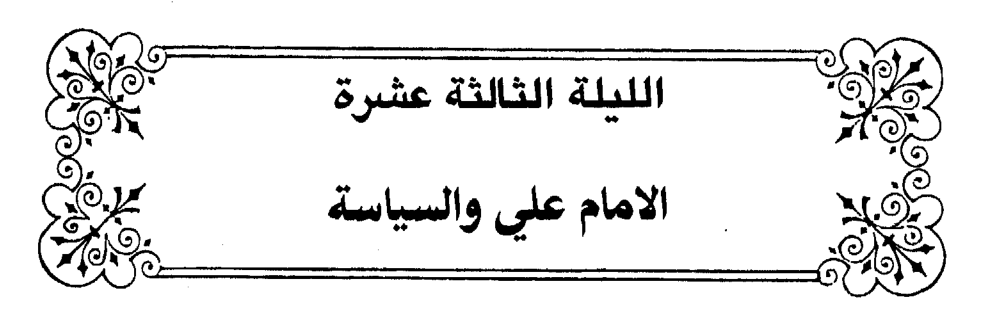
ودخل أبو هارون المكفوف ، وهو مداح يقرأ الشعر ، على الصادق عليه السلام فاستقبله الإمام عند الباب وقبله ثم أجلسه في مجلسه وقال له يا أبا هارون هل عندك شعر تقوله ؟ سمعت أنك تقول الشعر في جدي الحسين وتجيد ؟ قال : بلى يا ابن رسول الله . قال : فاسمعني . فضرب ستاراً وأحضر عائلته وبناته يسمعون مصيبة جده الحسين . كان أبو هارون ينشد

---

١) حرملة بن كاهل الأسدي هو قاتل الرضيع بسهمه .

الشعر والإمام يبكي بكاءً عالياً ، فخرجت جارية من وراء الستر تحمل طفلاً رضيعاً على يديها ، وضعت الطفل الرضيع في حجر الإمام الصادق ، فحمل الطفل الرضيع وقال : أيها الناس لقد كان طفل جدي الحسين مقمطاً بقماط ، فلما أحس بحرارة السهم نزع يديه من القماط وعانق رقبة أبيه الحسين .

إنا لله وإنا إليه راجعون . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الليلة الثالثة عشرة

الامام علي والسياسة

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تبارك وتعالىٰ في كتابه الكريم : **﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾**[1] صدق الله العلي العظيم

إن الانتصارات التي يحققها الناس ، سواء أكانت على مستوى الأفراد أو الجماعات ، هذه الانتصارات إما أن تكون قد تحققت عن طريق الحق والعدل وإما عن طريق الباطل والجور ، ولا ثالث لهذين الطريقين .

وقد قدّمت للبحث بهذه المقدمة لأنني أُريد أن أوضح أمراً وأن أُناقش رأياً وأن أدفع تهمة، إذ أن بعض الكتاب الذين يزعم الناس أنهم مفكرون يرون أن علي بن أبي طالب لم يكن يمتلك براعة في السياسة مما جعل معاوية بن أبي سفيان يتفوق عليه في هذا الميدان لدهائه السياسي وعبقريته الفذّة في هذا المجال ـ على حد تعبيرهم ـ .

وقديماً أشار الإمام إلى هذه التهمة في «خطبة الجهاد» التي وردت في كتابه الخالد «نهج البلاغة» . يقول عليه السلام :

---

(١) سورة يس ؛ الآية : ١٢ .

«حتى قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب ؛ لله أبوهم ، وهل أحد منهم أشد مراساً ، وأقدم فيها مقاماً مني ، لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وها أنا قد ذرفت على الستّين . ولكن لا رأي لمن لا يُطاع» .

فهل كان الإمام عليه السلام فعلاً لا علم له بالحرب ، ولا بصيرة له بالسياسة ؟ صحيح أن النصر في الحروب سوف يتحقق أو قد تحقق في كلتا الحالتين ، ولكن هناك بوناً شاسعاً بين الوسيلتين ، فهذا نصر تحقق عن طريق العدل ، وذاك نصر تحقق عن طريق الجور .

أما الأول فإن همّ صاحبه رضا الله سبحانه وتعالىٰ فهو يرفض أن ينتصر على حساب المبادىء والعقيدة ، لأن الغاية عنده لا تبرر الوسيلة ، فهو وإن كان يطلب الغاية فإنه دائماً يبحث عن الوسيلة التي تنسجم والمبادىء التي يلتزم بها . أما ا لنصر في الحالة الثانية فإن همّ صاحبه أن ينتصر فحسب دون أن يراعي في ذلك حرمة ، وهو في مسلكه يعتقد بأن الغاية تبرر الوسيلة مهما كانت هذه الوسيلة .

ونحن نعلم أن السياسي الإيطالي «مكيا فيلي» هو الذي أرسى هذه القاعدة في السياسة ، والتي عمل بموجبها الكثير من الحكام والقادة فقتّلوا الناس ودمروا الدول والحضارات وأبادوا الشعوب وبطشوا بالضعفاء ونكلوا بالأبرياء وصولاً إلى انتصاراتهم المزعومة الملطخة بكل أنواع الظلم والجور . وقد كرسها من خلال كتابه «الأمير» .

فهل كان الإمام علي ، وهو ربيب الرسول وخرّيج الإسلام ، هل كان مستعداً للتضحية بمبادئه وإسلامه لكي يحصل على نصر رخيص ؟ إذن تعالوا معي نراقب هذا الرجل في أقواله وأفعاله ، في مواقفه وحركته ، في حكمته وتدبيره ، في صولاته وجولاته ، وبعد ذلك نحاول معاً أن نتحقق من تلك التهم التي ألقيت جزافاً ووجهت إليه زوراً وبهتاناً .

١ ـ موقفه عندما تولى الخلافة :

عندما تولى الإمام الخلافة ، كان لا بد له من أن يعيد تنظيم الدولة التي كانت قد تحولت إلى مزرعة أيام عثمان بن عفان تحكمها المحسوبيات والقرابة وتوالت عليه النصائح عندما حاول أن يعزل الولاة كمعاوية وعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري . أشاروا عليه أن يبقي هؤلاء الولاة وغيرهم من العمال في مراكزهم ريثما تستقر الأمور فيقوى سلطانه وبعد ذلك يفعل ما يشاء . ولكن أنّى لعلي بن أبي طالب أن يرضى ، لذلك كانت صرخته المدوية : «أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور ؟» هل يترك معاوية على رقاب الناس في الشام يسوسهم بالجور والحيلة والمكر ؟ هل يترك عمرو بن العاص على مصر يتصرف بخيراتها على هواه ، وحصيلة ذلك ظلم الناس واضطهاد الضعفاء والفقراء فيزداد الأقوياء جبروتاً والضعفاء هواناً ؟ .

هل يعمل بموجب شريعة مكيا فيلي «الغاية تبرر الوسيلة» أم يعمل بموجب شريعة الإسلام وقوانينه التي أضحى وإياها جزءاً واحداً بل كلاًّ لا يتجزأ ؟ .

ليس الإمام علي من يقدم على ذلك ويخالف الإسلام الذي ذاب فيه . من أجل ذلك عمل على تصحيح الأمور ، فعزل الولاة والعمال وعين مكانهم من يرى فيهم غيرة على الإسلام والمسلمين أمثال مالك الأشتر ومحمد بن أبي بكر وعبد الله بن عباس . ثم يقولون لك إن ابن أبي طالب يجهل السياسة وفن الحكم فللّه درّهم .

٢ ـ موقفه يوم الشورى :

قبيل وفاته ، جعل عمر بن الخطاب الخلافة في واحد من ستة وأمرهم أن يجتمعوا ويتشاوروا خلال خمسة أيام ولا ينفضوا إلاّ بعد أن يتفقوا على واحد منهم . وإن لم يفعلوا ، فإن صاحب الشرطة ومعه جماعة أمروا بقتلهم . وإذا انقسموا فالثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف يفوز مرشحهم . ولنا على هذه الشورى ملاحظات . إذ كيف يحق للخليفة الثاني

أن يأمر بقتل الستة إذا اختلفوا وهم من ضمن العشرة المبشرين بالجنة على حدّ زعمهم ؟ وما هو السر بل ما هي الحكمة في أن يكون الخليفة المرتقب في الثلاثة الذين فيهم عبد الرّحمن بن عوف ؟ وإذا كان الأمر شورى كما يزعم فهل هؤلاء الستة هم كل المسلمين ؟ .

إن التفسير الوحيد لهذه الشورى أن نطلق عليها «المكيدة» أو «المؤامرة» لإبعاد الخلافة عن أهلها كما سبق أن أبعدت من ذي قبل . تعالوا نتابع الحدث معاً ، انقسم المجتمعون إلى قسمين ، فأصبح الأمر رهناً لمشيئة عبد الرّحمن بن عوف الذي وقف أمام الناس وقال لهم : أيها الناس إن أمركم بيدي . ثم توجّه بالكلام إلى علي بن أبي طالب وقال له : لك الخلافة بشرط أن تعمل بموجب الكتاب والسنة وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر . قال الإمام : الكتاب والسنة اللّهمَّ نعم . أما سيرة الشيخين فلا . إذ كيف للإمام أن يقبل ويتعهد بأن يعمل بسيرة الشيخين اللذين كثيراً ما كانا يجتهدان في مقابل النص . فهذا عمر بن الخطاب يقول ويقرر : «متعتان كانتا على عهد رسول الله ، أحرمهما وأعاقب عليهما» . أليس هذا اجتهاداً من عمر في مقابل النص ؟ .

فإذا كان حلال محمد حلالاً إلى يوم القيامة وإذا كان حرامه حراماً إلى يوم القيامة ، وإذا كان محمد «وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلاَّ وحي يوحى» فكيف يحق لأي إنسان كائناً من كان ، فاروقاً كان أم غير فاروق ، ذا نور كان أم ذا نورين ، صدّيقاً كان أم غير صديق ، كيف يحق له أن يجتهد مقابل النص ؟ محمد يقول هذا حلال وعمر يقول لا ، هذا حرام ثم يُطلب إلى عليّ بن أبي طالب أن يعمل بسيرته . ثم هل نسي عبد الرّحمٰن بن عوف كم مرّة أنقذ علي بن أبي طالب الشيخين من مواقف كانت محرجة لهما لولا حكمة علي ومشورته ؟ ألم يقل عمر بن الخطاب : «بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن» و «لولا علي لهلك عمر» و «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن» ؟ لا لم ينس ، ولكنه يعرف ماذا يفعل وكيف يخطط ، لذلك كان هذا الشرط يشترطه على أبي الحسن وهو

يعلم تمام العلم أنه سوف يرفضه وبالتالي لن يوكل إليه بـالخلافـة . وذلك مـا حدث .

ثم التفت عبد الرّحمن إلى عثمـان وقال لـه : أتعمل بمـوجب كتاب الله وسنـة رسولـه وسيـرة الشيخين ، فتلقفهـا عثمـان «مقشـرة» محضـرة ، قـال : نعم . وهكـذا كـان . لـذلـك يقـول الإمـام في خـطبتـه الشقشقيـة : «فيـا لله وللشورى ! ومتى كنت أقرن إلى هذه النظائر ؟» .

وقـد يسأل سـائل أو يعتـرض معترض أو يشيـر مشير «كـان على الإمـام عليّ أن يقبل بشرط عبد الرّحمن ، وبعد أن يتبوأ الخـلافة يتصرف كيفما يشاء ويبـدل مـا يـريـد . لا . . . لا ، ليس علي بن أبي طـالب من يسلك هــذا السبيل الملتوي ، لأن الغـاية عنـده لا تبرر الـوسيلة . فإذا كـانت الغايـة عنده شـريفة فـإن الوسيلة أيضـاً ينبغي أن تكون شـريفة ، إنـه يمتلك قلباً صـريحـاً كالإسلام ، نقياً كالإيمان ، نظيفاً كالنـور ، إنه يـرفض أن تكون «السيـاسة فن الممكن» كما يعرفها جهابذة السياسة في عصرنا الحاضر .

وفي معرض المقارنـة بينه عليه السلام وبين معـاوية يقـول الإمام عليه السلام «والله مـا معاوية بأدهى مني ، لكنه يغـدر ويفجر ، ولـولا كراهيـة الغدر لكنت من أدهى الناس» . وعندما طرحت هذه المسألـة في مجلس للإمـام جعفر الصـادق فيما بعـد في معرض المقـارنة بين عقـل عليّ وعقل معـاويـة ، قـال الصـادق عليه السلام «إنها الشيطنة» لدى معاوية وليس العقل .

٣ ـ موقفه يوم همّ بقتل عمرو بن العاص :

إن من يراجع التاريخ ويقرأ عن عمرو بن العـاص يفاجـأ بأمـرين : الأمر الأول : المكانة التي يحاول الكثيرون أن يضعوه فوقهـا والمنزلـة الرفيعـة التي يرفعونـه إليها ، والأمـر الثاني سيـرته التي تنـاقض تمامـاً المكانـة التي تبوأهـا زوراً وبهتاناً .

عنـدما بـرز لعلي بن أبي طالب وكـاد الإمام أن يقتله كشف عن عـورتـه

فـأحجم الإمـام عن قتله . ويسـودون الأوراق ويكتبـون عن هـذا «القـائـد الإسـلامي العـظيم» الـذي «تسلح» بعـورتـه لكي يتقي سيف الإمـام وينجـو بنفسه . هؤلاء هم قادة الإسلام أيها الأخـوة ، فاعجب مـا شاء لـك وتأمـل ما طاب لك .

لماذا لم يقتله الإمام عليه السلام؟ لأن الغاية عنـده لا تبرر الـوسيلة ، فهو عليه السلام ما وقعت عينه على عورة قط ولا سجد لصنم قط ، ولـذلك قـالوا : «كـرم الله وجهه» و «صلوات الله وسلامه عليه» و «رضوان الله عليه» هـل قيل في غيـره : كـرم الله وجهـه ؟ وهـل قيـل في غيـره : الإمـام ؟ هـل يُقـال مثـلاً : الإمـام معاوية ؟ أراكم تبتسمون أيها الأخوة .

٤ ـ موقفه مع معاوية يوم صفين على ماء الفرات :

عنـدما التقى جيش الإمـام بجيش معاويـة يوم صفين ، كـان معاويـة قد وصـل إلى مشرعـة الماء على الفـرات قبل وصـول الإمام فمنـع الماء عنهم . مضى ثلاثة أيـام ومعاويـة يرفض أن يتـركهم يأخـذون من الماء شيئـاً . وأخيراً عيل صبر الإمام فقال لمالك الأشتر : يا مالك عليك بميسرة القـوم وأنا أتـولّى الميمنة نبعدهم عن الماء .

يقول مالـك : كنت أحصي تكبيرات أميـر المؤمنين ، كلما ضـرب رأساً كبـرّ ، يقـول : أحصيت لـه ألف تكبيـرة في هـذه الحملة ، وأحصيت لنفسي تسعمـائـة وتسعـاً وتسعين قتلتهم بنفسي ، فسـولت لي نفسي أن قلت : إن قـوتي تقـارب قـوة سيـدي ومـولاي أميـر المؤمنين . يقـول مـا كـادت الفكـرة تراودني حتى رأيت الكون كله قـد تغير فـانقلبت الميمنة على الميسـرة وذهب الطول بالعـرض ووصل الإمـام وقد أخـذ بتلابيب واحـد من قادة جيش الشـام يحمله كـأنـه الـطيـر ، فـوقف إزائي وجلد بـه الأرض وقـال : يا مالك أنـا أم أنت ؟؟ .

أزاحهم عن الفـرات وشرب الجيش ، ثم بـادره أصحـابـه قـائلين : يـا أميـر المؤمنين ﴿**فمن اعتـدى عليكم فـاعتـدوا عليـه بمثـل مـا اعتـدى**

عليكم﴾[1] . فقال الإمام : هذه الآية ليس مكانها هنا . إن معاوية منع عنا الماء فإذا فعلت مثله فما الفرق بيني وبينه ؟ أجل .. هذه هي سياسة علي بن أبي طالب ، الغاية لا تبرر الوسيلة .

توضيح :

وفي هذا المجال قد يعترض معترض فيرد علينا بما دار بين موسى عليه السلام والعبد الصالح ، الخضر عليه السلام وما قام به من تصرفات لم تعجب النبي موسى عليه السلام. جاء في القرآن الكريم : **﴿حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمرا . . . أقتلت نفساً زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئاً نكرا . . . حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه . . . قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً . قال هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾**[2] .

قد يعترض المعترض فيقول : في هذه المسألة طبقت قاعدة : «الغاية تبرر الوسيلة» إذ أن الغاية حفظ السفينة والوسيلة خرقها .

ونجيب المعترض فنقول : إن هذه المسألة ليست من باب «الغاية تبرر الوسيلة» وإنما هي من باب «الأهم والمهم» وهي قاعدة فقهية في الفكر الإسلامي فالمهم هنا هو الإبقاء على السفينة خالية من أي عيب ولكن الأهم حفظها من النهب والضياع ، ولو أدى ذلك إلى خرقها .

وقد ورد ذكر هذه المسألة لدى الفقهاء في باب ما يسمى «التزاحم» أي إذا كان هناك تكليفان شرعيان ، وأنت مكلّف ، ولا قدرة لك إلاَّ القيام بواحد منهما ، فأيهما تؤدّي ؟ والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي ببعضها .

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٩٤ .

(٢) سورة الكهف ؛ الآيات : ٧١ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ .

* **في صلاة الجمعة** : ثمة روايتان ، واحدة تقول بوجوبها والثانية تقول بجوازها . والحاكم الشرعي في هذا المجال مخير بين القول بوجوبها والقول بجوازها أو تركها في حالة غيبة الإمام الحجة (عجّل الله فرجه) .

* **مثال آخر** : ثمة غريق أنت مكلّف بانقاذه ولكن لا يتأتى لك ذلك إلاّ إذا وصلت إليه عن طريق أرض مغصوبة يحرم عليك السير فيها . فأنت بين تكليفين : إما أن تنقذ الغريق فتقع في حرمة الأرض المغصوبة وإما أن تمتنع عن السير في الأرض المغصوبة فيموت الغريق . فماذا تفعل في مثل هذه الحال ؟ .

الفقيه يقول : من المهم أن تحافظ على حرمة الأرض المغصوبة ولكن الأهم أن تصل إلى الغريق فتنقذه ، لذلك تترك المهم وصولاً إلى الأهم وبالتالي فإن إنقاذ الغريق أولى .

* **مثال ثالث** :

قد يكون هناك تزاحم بين أن تؤدّي الصّلاة في وقتها وأن تنقذ غريقاً مشرفاً على الموت . الشمس تكاد أن تشرق وأنت مكلّف بالصلاة قبل الشروق ، وإذا فعلت ذلك فإن الغريق قد يموت . أما إذا انقذت الغريق تكون صلاة الصبح قد فاتتك . فماذا تفعل ؟ .

لا بد لك هنا من إنقاذ الغريق لأنه هو الأمر الأهم وبعد ذلك تبادر إلى الصلاة ولو قضاءً وهو المهم . هكذا أفتى الفقهاء . وهم يبررون هذا الحكم بأن إنقاذ الغريق هو حركة تعبدية أيضاً ، فأنت تصلّي وتعبد الله في إنقاذك هذا الإنسان المشرف على الموت .

ونخلص إلى القول : إن الغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام وفي منهج أهل البيت ، إنما هناك تزاحم بين مهم وأهم ، وأنت مكلّف بتقديم الأهم على المهم .

٥ ـ عودة إلى مفهوم السياسة لدى الامام :

يقول الإمام علي : «قد يرى الحُوَّلُ القُلَّبُ[١] وجه الحيلة ، ودونها حاجز من أمر الله ونهيه ، فيدعها رأي العين ، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في دين» .

يرى الإمام علي في هذا القول الرائع ، بل يوضح أن الإنسان البصير الفطن ، العارف بالأمور ، الذي لا تعييه الحيلة ، قد يرى الفرصة سانحة لكي يحقق مكسباً مادياً فيه مصلحته وتحقيق شهوته ، ولكن دون هذه الرغبة حاجز من أمر الله ونهيه فتراه يعرض عن الفرصة السانحة امتثالاً لأمر الله وطاعته ، بينما يقبل عليها من لا حريجة له في دين منتهزاً الفرصة ، ضارباً بعرض الحائط أوامر الله ونهيه .

هذه هي السياسة بمفهوم أمير المؤمنين ، الرضا الإلهي هو الأولى ، لا إرضاء الغريزة أو الشهوة والنزوة ، لا تغريه المغريات ولا تستهويه الشهوات ، همه الحلال لا الحرام والمزيد من رضا رب العالمين .

إن الإمام في اتباعه هذا النوع من السياسة إنما يثبت أنه ابن الإسلام وتلميذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاءه زعيم عشيرة عارضاً عليه صفقة يساومه عليها . فقد عرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يُسْلِم هو وعشيرته التي تزيد على مئتي ألف فارس على أن يكون خليفة من بعده . تبسَّم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقال للرجل أن لا مساومة في الإسلام ولا صفقات . إن الله سبحانه وتعالىٰ هو من يقرر الخليفة بعدي ، فقال له الرجل : أو تترك مئتي ألف فارس يفلتون من يدك وأنت أحوج ما تكون إليهم لكي تنتصر على أعدائك المتربصين بك الدوائر ؟ فوضّح له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن الإسلام لا تهمه الكمية ، بل النوعية هي التي يطلبها «فلننظر كيف تعملون» ولم يقل كم تعملون .

---

(١) الحول القلب : الرجل البصير بتحويل الأمور وتقليبها ، الشديد الحيلة .

* لماذا لم يشهر الامام سيفه عندما رأى حقه نهباً ؟ :

سبق القول إن الإمام علياً قد أطلق صرخته المدوّية «أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور ؟» . ولنا الآن أن نسأل : ألم يكن علي بن أبي طالب قادراً على أن يأخذ بقائمة سيفه ذي الفقار ويشهره في وجه أولئك الذين اغتصبوا حقه وتبوأوا مكاناً أقعده فيه رسول الله في حياته أثناء حجة الوداع وعلى مسمع من الناس جميعاً بمن فيهم الغاصبون ؟ .

لقد هزته دموع الزهراء التي أحزنها أن ترى حق بعلها يغتصب ، وأوجعه أن يرى آثار العنف على كتفيها وسائر جسدها الشريف . ولكنه إذ سمع بلالاً يؤذن للصّلاة قال لها : فاطمة ، يا ابنة العم ونور العين ، أتسمعين هذا الصوت الذي يعلن أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله ؟ قالت : بلى أسمعه . قال : إن أنا خرجت الآن فسوف لا تسمعينه بعد اليوم . فقالت : إذن نصبر يا أبا الحسن .

من أجل هذه المبادىء كلها ، وبسبب هذه التربية الإسلامية كان على الإمام عليّ أن يرسم سياسته القائمة على الحق حيث لا يقبل في الله لومة لائم . لذلك كان مصمماً بعد مقتل عثمان وبعد أن تولى الخلافة أن يعمل على تصحيح المسار الإسلامي الذي انحرف عن مبادىء الإسلام في خلافة عثمان وأن يقوِّم ما أعوج من أمور فيعيد الحقوق إلى أصحابها ويبعد أولئك الذين أساؤوا إلى الإسلام وبالتالي يريد أن يقول للناس : هذا هو الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونحن لن ننسى قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يوم الأحزاب في وقعة الخندق ، عندما برز عليّ عليه السلام لفارس الجزيرة العربية عمرو بن عبد ودّ العامري ، قال الرسول في تلك اللحظات الحرجة «برز الإسلام كله إلى الشرك كله» .

أجل إذا رأيت صورة الإسلام فما عليك إلاَّ أن تتابع الإمام علياً في حركاته وسكناته ، في أقواله وأفعاله ، في مسلكه وعيشه . فإنك سوف تجد

الإسلام كله وقد تجسد في رجل لا كالرجال يضع الله في قلبه والإسلام في ضميره في كل حركة تصدر عنه وفي كل كلمة يتفوه بها .

في تلك الوقعة لم يبدأ خصمه بقتال ، فهذه قاعدته في الحرب دائماً ينادي بها رجاله «لا تبدأوهم بقتال حتى يقاتلوكم» ، وعلى هديه كان الحسين في عاشوراء . قال : «إني أكره أن أبدأهم بقتال» فالغاية دائماً لا تبرر الوسيلة في سياسة عليّ عليه السلام ولا في سياسة المعصومين من بعده .

* النصر في مفهوم عليّ والأئمّة :

إن النصر في مفهوم عليّ ليس عسكرياً فقط كما يفهمه سائر الناس والقادة ، إن النصر الحقيقي يكمن في ترسيخ الأفكار التي جاء بها الإسلام . وهو ، يوم الأحزاب حقق نصرين الأول : قتله لعمرو بن عبد ود، أما النصر الثاني فكان مبدأً من مبادىء القتال عنيت به «أخلاق الحرب» . فعندما وقع عمرو إلى الأرض تقدم الإمام ليقتله شتمه عمرو فتراجع إلى الخلف لحظات ثم عاد بعدها وقتله . وعندما سئل عن السر في تباطئه أجاب : إنما أردت أن أقتله في سبيل الله لا في سبيل علي بن أبي طالب . هذا هو النصر الحقيقي ، في أن ترسخ في أذهان الناس فضيلة المسلك الإسلامي الصحيح الذي يقوم على كسب الرضا الإلهي فقط . وإذا وهم البعض أن معاوية قد حقق نصراً على عليّ في صفين ، فالحقيقة أن الإمام هو المنتصر الحقيقي لأنه سلك يومها مسلك القائد المسلم الذي يراعي الإسلام في كل خطوة من خطواته .

ومن أجل ذلك تبوأ علي بن أبي طالب صدارة التاريخ في صورة ناصعة زاهية ، وبقي معاوية في الجهة المقابلة من التاريخ التي يوشحها السواد والمكر والخديعة . لقد استمر بنو أُميّة ما يزيد على ثمانين سنة وهم يشتمون علياً على المنابر دون أن يتمكنوا من طمس فضيلة واحدة من فضائله لأنه هو القوي بإسلامه وورعه وتقواه وحكمته ومنزلته وهم الضعفاء

الـرعاديـد بخستهم ونذالتهم وسفههم وانحـرافهم عن جادة الإسـلام وواضـح طريقه .

الإمـام الحسين في عـاشـوراء لم يكن مهـزومـاً ، كـلّا ، إنـه المنتصـر الحقيقي على مـر التاريخ ودورة الأيام . وفي الأسـاس لم يـأت الحسين إلى كربلاء ليحقق نصراً عسكرياً ، ومن يقول إن الحسين كان يريـد حكماً فهـو لا يعـرف الحسين ولا يدرك الحكمـة التي أرادهـا الحسين . إن من يبغي نصـراً عسكرياً لا يطلب إلى أصحابه أن يتفرقوا ولا يـأذن لـهـم بتركـه ليلة عاشـوراء عندما قـال لهم : «هذا الليـل قد غشيكم فـاتخذوه جمـلاً» . إن النصر الـذي أراد أن يحققـه الحسين ، وقد حققـه بالفعـل ، هـو ذلـك النصـر القـائم على المظلومية والشهادة .

لقـد انتصر في شهـادته وانتصـر بطفله الـرضيع وبنسـائه وبنـاتـه اللواتي ظُلمن عنـدما أصبحن عـرضة لحـوافـر الخيـل وسنـابكهـا وللسبي من بلد إلى بلد . فـلا غـرو إذا قلنـا إن الـدم قـد انتصـر على السيف في ذلـك اليـوم العظيم .

الامتحان والبلاء :

إن الحـوراء زينب عندمـا وقفت ذلك المـوقف الرائـع في مجلس يزيـد إنما كانت تستقي مـوقفها من مـواقف أبيها وأخيهـا . جلس يزيـد على عرشـه والتـاج المرصـع باللؤلؤ والـدر يبرق فـوق رأسه وأمـامـه رأس الحسين ـ بـأبي وأمي ـ في طشت ، ينكثه بقضيبه .

إن هذه الصورة ليـزيد يجب ألا تجعلنـا نشك لحـظة واحدة في حكمـة الله تعالىٰ . فلا نستغرب إذا أقبلت الدنيـا على لئيم كيزيـد فالله سبحـانه يـريد أن يميّز الخبيث من الطيب . فلو كـانت الدنيـا تساوي عنـد الله جناح بعـوضة لمـا سقى الله كافـراً شربـة مـاء . ولكنـه سبحـانـه جعلهـا دار بـلاءٍ وامتحـانٍ واختبار . فإذا كـان يزيـد يتمتع بهـذه السطوة وذلـك الملك فإن ذلـك لا يعني أنه هو الـرابح وهـو المنتصر ونحن نعلم أن الـرسول صلى الله عليه وآله وسلم كـان قادراً على أن

يـأخذ التـراب بيده فيحيله ذهبـاً ودرّاً ولكن الله سبحانـه أراده وأراد الأئمّـة من بعده أن يكونوا قدوة للنـاس لا طمع في أمـوالهم وقصورهم وإنمـا الرغبـة في أخلاقهم ومبادئهم وعقيدتهم حتى يسلم من أسلم عن قناعة وحرية .

وقفت الحوراء يومها وخاطبت يزيد فقالت :

«حيث أخذت علينا أقـطار الأرض وآفاق السمـاء ، فأصبحنـا نُساق كمـا تُسـاق الإماء ، أإنّ بنـا هوانـاً على الله ، وبك عليـه كرامـة ؟ وإن ذلك لعـظم خطرك عنده ، فمهلاً مهلاً ، لا تـطش جهلاً . أنسيت قـول الله تعالىٰ : ﴿**ولا يحسبنَّ الـذين كفروا أنّمـا نملي لهم خيرٌ لأنفسهم ، إنمـا نملي لهم ليزدادوا إثمـاً ولهم عذاب مهين**﴾[1] . أمن العـدل يا ابن الطلقـاء تخديـرك حـرائـرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله ؟» .

وبالرغم من هذا المنطق الإسلامي الواضح الذي لا يـدع مجالاً للشـك في سفه يزيد وخسته ، نجد بعض الناس يقولون : «لو كان الله لا يـريد ليـزيد أن يحكم لمـا أعطاه هـذا الملك» . ويزيـد نفسه عنـدما كـان ينـظر إلى رأس الحسين في الطشت كان يقـرأ الآية الكـريمة : ﴿**تؤتي الملك من تشـاء وتنزع الملك ممن تشـاء**﴾ إنه منـطق غريب لا يستحق عنـاء الرد . فبنـو أُميّة كـانـوا يشيعـون بين الناس أنهم يحكمـون بإرادة الله ، ولـو كان الله لا يـريـد لهم أن يحكموا الناس ما حكموا. إذن برأيهم هم يحكمون بمشيئة إلٰهية .

وقـد ورد ذلك في الخـطبة البتـراء لزيـاد ابن أبيه إذ قـال : «نسـوسكم بسلطان الله الـذي أعطانـا» . والغريب في الأمـر أن بعض النـاس من طـلاب الدنيا كانوا يدينون بهذه الأكذوبة التي لا تنطلي على عاقل .

سألني أحد الشباب يوماً فقال لي : كيف نلعن معاوية ويـزيد ، وهمـا من أصحـاب بيعة الشجـرة ، بيعة الـرضوان ؟ وأي شجـرة هـذه التي يتكلم عنهـا هـذا الشاب ؟ ، إذ أن بني أُميّـة يوم فتـح مكة كـانوا مـا يزالـون على شركهم

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٧٨ .

وكفرهم وقد أطلقهم رسول الله يومئذ فقال لهم : «إذهبوا فأنتم الطلقاء» وعلى رأسهم زعيمهم أبو سفيان . وعلى ذكر أبي سفيان ، لا بأس من أن أرفه عنكم أيّها الأخوة فأروي لكم هذه النادرة عن هذا الرجل :

كان أبو سفيان في أواخر أيامه قد فقد بصره . وفي أحد المجالس كان يخاطب قومه فقال لهم : «تلاقفوها (أي الخلافة) يا بني أُميّة تلاقف الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار» . وصادف أن مرّ الإمام علي بذلك المجلس فقال له : «أعمى الله قلبك يا شيخ كما أعمى بصرك» . فقال : يا أبا الحسن أعمى الله قلوب هؤلاء القوم ، فقد غشوني وما نصحوني ، فقد سألتهم أيوجد أحد من بني هاشم ؟ قالوا : لا .

* ورع عليّ :

لا بأس الآن من أن نتحول في الحديث عن سياسة علي إلى بعض ورعه وعبادته . يقول عليه السلام : «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً» . إن ملائكة السماء لتعجب من صبره وزهده وورعه وعبادته . والإمام زين العابدين الذي لُقّب بالسجّاد يتناول أوراقاً ودفاتر وصحائف تتضمن عبادة علي ، فيقبل على قراءتها ثم يرميها من يده قائلاً «من يقوى على عبادة علي بن أبي طالب ؟» فإذا كانت هذه بعضاً من سيرته وسيرة الأئمّة من بعده ، ألا يجدر بنا أن نحيي ذكرهم باستمرار : «يقول الصادق : أتجلسون وتتحدثون ؟ قال فضيل : بلى يا سيدي فقال: يا فضيل أحيوا أمرنا ، رحم الله من أحيا أمرنا». والإمام الباقر عليه السلام يقول لأبي بصير ، «يا أبا بصير إن أمرنا ليحيي القلوب» .

جعلنا الله ممن يسير على خطى أهل البيت لأن في ذلك ربحاً لنا وخلاصاً . إن الحديث عنهم لا ينتهي فقد أودعهم الله علماً لا ينفذ وخصهم بشمائل لم تكن لغيرهم من البشر . فالإمام علي يقول :

«سلوني عن طرق السماوات فأنا أعلم بها من طرق الأرض» سلام الله عليك يا أبا الحسن إذ تُحدث الناسَ عن عالم البرزخ فجعلت كل

الحاضرين في بكاء ودموع .

يروي حبة العرني فيقول : رأيت سيدي جالساً في الجبانة . وفجأة وقف وأطال الوقوف ورأيت شفتيه تتحركان كأنما يحدث أحداً . قلت سيدي لعلك تحدث أُناساً ؟ قال : يا حبة إن هي إلاّ مزاحمة مؤمن . فقلت : أين هم سيدي ؟ قال يا حبة لو كُشف لك عن بصرك لرأيتهم حلقاً حلقاً يتحدثون حول القبور . قلت : سيدي أرواح أم أجساد ؟ قال : بل أرواح . «آه . . آه . . من قلّة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق» .

* طُرفة عن عالم البرزخ :

يروي الشيخ النراقي صاحب كتاب «الخزائن» و «دار السلام» و «جامع السعادات» هذه الحادثة فيقول :

عندما كنت في أصفهان، كنت أنا ومجموعة من الطلاب نختلف إلى أستاذ لنا ، نسلم عليه من وقت لآخر . يقول : كان بيت هذا الأستاذ على مقربة من مقبرة . قصدناه يوم عيد فضللنا الطريق وكان قد أخذنا التعب فجلسنا في المقبرة نأخذ قسطاً من الراحة بين القبور . يقول : اتكأنا على أحد القبور فقال واحد من الرفاق مازحاً : يا صاحب القبر ، اليوم عيد . ألا تجعلنا عندك ضيوفاً ؟ يقول: وإذا بنا نسمع صوتاً يقولَ : نعم الأسبوع المقبل في مثل هذا اليوم، يوم الثلاثاء أنتم ضيوفي . يقول : أخذتنا الدهشة والاضطراب . وتساءل كل منا : يوم الثلاثاء . . . ضيوف عندك ! فقلنا بين أنفسنا : هذا عمرنا لم يبق منه إلاّ أسبوع . إذن تعالوا نوص ونهيء أنفسنا وإلاّ ما معنى أن نكون ضيوفاً عنده ؟ .

يقول الشيخ النراقي متابعاً : فحضّرنا أنفسنا بانتظار الثلاثاء القادم . حلَّ يوم الثلاثاء دون أن يحدث لنا شيء فما زلنا أحياء . يقول فرأينا أن نذهب إلى نفس المكان فلعلّ في الأمر سراً . ذهبنا إلى المقبرة وسلمنا على صاحب القبر وقلنا : ها نحن حضرنا . قال : على الرحب

والسعـة . . . سأفتـح لكم باب ملكـوتـي وفجـأة رأينـا أنفسنـا في بستـان كبيـر وثمـة أنهار تجـري وقصر مشيـد وصاحب القبـر عليه مـلابس بيضاء ، ووجهـه يلمـع كفلقة قمـر والخدم والحشم بين يـديه . والفـاكهة وأنـواع الحلوى ما لا عـين رأت ولا أُذن سـمعـت ولا خـطر على قـلب بشـر . يـقـول : دخلنـا فـأجلسنا . سـألناه : مـا هذا المكـان الذي أنت فيـه ؟ قال أنـا هنـا في عـالم البـرزخ فأنـا من الصالحين . فسـألناه : من أنت بـالله عليك ؟ قـال أنـا فـلان القصّـاب . قلنـا : كيف حصلت على هـذه المنـزلـة ؟ قـال : كنت لا أنقص المكيـال أبـداً وكنت أُصلّي صـلاتي في وقتهـا . يقـول : بعـد ذلـك ودّعنـاه وسـألنـاه كيف ومن أين نخـرج ؟ قـال : الآن تـرجعـون إلى مكـانكم الأول . فودعناه وعدنا حيث كنا .

*** تعـليـق :**

إن ما تجدر الإشـارة إليه في هـذه الروايـة هو التـأكيد أولاً على صـلاح وتقـوى صاحب الـروايـة ، فـالشيـخ النـراقي من الصـالحين الأتقيـاء حيث لا يرتاب أحد في صحة ما يرويـه . والأمر الثـاني قد يسـأل سائـل : كيف يمكن لهؤلاء أن يسمعـوا مـا لا يسمـع غيـرهم . ونؤكـد مـرّة أُخـرى أنهم أُنـاس في مستوى المسؤولية وهم أوليـاء صالحـون كشف الله لآذانهم وعيونهم مـا سمعوا وما رأوا . وبالنسبة للأصوات فإنهـا تملأ الفضـاء والأثير تصـدر عن الكائنـات الحيـة ونحن لا نسمعها في الـوقت الـذي نجـد أن بعض الحيـوانـات تمتلك القدرة على سماعهـا ، والكرة الأرضيـة نحن نعلم أنها تـدور ولكننا لا نسمـع لها صوتاً ولو سمعنا صوتها لصعقنا من شدته .

ألم يسمــع سليمـان بن داوُد صــوت نملة تتكلم في الـوادي ؟ قــالت النملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، فتبسم ضاحكاً من قولها .

أما الأمر الثالث فيتعلق ببدن الإنسـان في عالم البـرزخ . إنه نفس هـذا البـدن الذي يـدفن في التراب وتعبث بـه ديدان القبـر . فهو مـوجـود إلى يـوم القيامة :

﴿فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾[1] .

إن هذا البدن يعود نفسه بكل تفاصيله ، حتى الخطوط في الأصبع تعود كما هي ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾[2] .

* طرفة ثانية عن عالم البرزخ :

يقول الشيخ عباس القمّي في كتاب مفاتيح الجنان : كان لي جار سوء . وبعد شهر من وفاته رأيته في منامي على أحسن حال في عالم البرزخ . سألته عن ذلك فأجابني : منذ شهر وأنا في أسوأ حال من العذاب حتى البارحة فقد تبدلت حالي أنا وسائر أهل هذه الجبانة . قلت : ما الذي حدث ؟ قال : البارحة دُفنتْ في هذه الجبانة زوجة مهدي الحداد فجاءها الحسين زائراً ثلاث مرّات . وفي الزيارة الثالثة أمر الحسين برفع العذاب عن أهل هذه المقبرة جميعاً ، فرُفع العذاب ببركة الحسين عليه السلام .

يقول هذا العالم : ما إن نهضت من النوم حتى ذهبت إلى الحاج مهدي الحداد . فسألته عن زوجته ، فقال : ماتت وكان دفنها في الأمس . فقلت : بالله عليك ، ماذا كانت تفعل زوجتك في حياتها ؟ فأجاب : لقد كانت امرأة صالحة . قلت : هل كانت تقوم بعمل محدد أو مميز ؟ قال : كانت تواظب على حضور مجالس عاشوراء وفي كل يوم كانت تزور الحسين عليه السلام . فعلمت ساعتئذ السر فيما حدث .

* طرفة ثالثة :

كان الشيخ محمد علي الحائري في النجف الأشرف . وهو عالم كبير شهير ، عاصر الشيخ مرتضى الأنصاري ، وكان يدرّس الفقه والأصول والتفسير والأخلاق ، يلقي دروسه على مجموعة من الطلاب .

---

(١) سورة يس ؛ الآية : ٥١ .

(٢) سورة القيامة ؛ الآية : ٤ .

وكـان في كل أسبـوع يذهب مشيـاً على الأقدام لـزيـارة الحسين عليه السلام . يذهب يوم الخميس والجمعة والسبت ، فتكون الإجازة بالنسبة للطلاب يومي الخميس والسبت . فسأله طلابه أن يجعـل زيارتـه للحسين كل أسبـوعين بدلاً من كـل أسبوع ، رغبـة في المزيـد من التحصيل . قـال : كنت متعلقاً بـزيارة الحسين قبل أن يحدث لي ما حدث . فكيف وقـد حدث لي ذلـك . قالـوا : ماذا حدث لك أيها الشيخ الجليل ؟ فـروى لهم قائـلاً : «كنت ذات مرّة ذاهبـاً من النجف الأشرف إلى كربـلاء وقد حملت قـربة مـاء علقتها بعصـا ووضعتها فوق كتفي وكان الـطقس حاراً جـداً . أخذني العـطش ، وكنت كلمـا هممت بأن أشرب من الماء قلت في نفسي فلأؤجـل ذلك حـرصاً على المـاء . بقيت على هـذه الحال أَهُمُّ بـالشرب دون أن أفعـل حتى منتصف الطريق في مكـان يُقـال له : «خـان النص» . يقول : هنـاك تنـاولت القـربـة وهممت بـالشـرب فوجدتها جافة لشدّة الحر فقد تبخر ماؤها . يقول : فقـدان الماء وحـرارة الجو وشـدة التعب أثـر عَليّ فـوقعت إلى الأرض مغشيـاً عليَّ . وفجـأة رأيت نفسي على ضفـة نهر في الـطريق ، يتـرقـرق مـاؤه فـوق الحصى صـافيـاً والأشجـار والأعشاب تحف بذلك النهر من الجـانبين ، ومواكب من النـاس انتشروا على ضفاف النهر بـوجوه مشـرقة مستبشـرة كأنهم المـلائكة . يقـول : جلست إلى حـافة النهـر وأرسلت قـدميّ في المـاء ألهـو بهمـا غيـر مصـدق مـا أرى . ثم تناولت القربـة فملأتهـا من ماء ذلـك النهر وشـربت حتى ارتويت ، ثم غسلت وجهي وابتـردت مـا طـاب لي . وبعـد ذلـك التفت إلى بعض من كـان هنـاك فسألتهم : من أنتم أيها النـاس ؟ قالـوا : نحن أرواح المؤمنين الذين يـواظبون على زيـارة الحسين . يقول : فتحت عيني وإذا أنـا وحدي في ذلـك المكـان والقربة ممتلئة ماءً وأنا مرتوٍ ورجلاي تقطران من الماء في تلك الصحراء» .

ثم تـوجه الشيـخ الحائـري بعد أن روى لـطلابه روايتـه ، تـوجّـه إليهم قائلاً : «بعد أن رأيت هذه الرؤيا ، كيف لي أن أترك زيارة الحسين ؟» .

طرفة رابعة :

كان المتوكل العباسي يمنع الناس من زيارة الحسين . وفي تلك الأيام كان ثمة عجوز واظبت على مغزلها ، تغزل الصوف وتبيع غزلها حتى اجتمع لها ألف دينار وقد دام ذلك سنوات . وقد كان المتوكل لا يسمح بزيارة الحسين إلاَّ لمن يدفع مبلغ ألف دينار كضريبة .

جمعت المبلغ وذهبت تلك العجوز إلى كربلاء وهمُّها زيارة الحسين عليه السلام. وصلت إلى المسلّحة أي الشرطة الذين كانوا يقفون هناك فلا يسمحون بالزيارة إلاَّ لمن يدفع ذلك المبلغ . حملت تلك المرأة صرّتها ودفعت بها لصاحب الشرطة وقالت له : خذ هذا المال واعلم أني أمضيت سنوات من عمري وأنا أجمع هذا المال من الغزل رغبة في زيارة قبر الحسين . وصلت هذه المرأة إلى القبر فألقت بنفسها عليه بقلب يغمره الإيمان ، وقد كان القبر عبارة عن حفنة من التراب ، ثم نادت : يا أبا عبد الله ، جئتك زائرة يا ابن الزهراء وها أنا أقسم عليك بحق أُمك فاطمة أن تزورني أول ليلة أكون فيها في قبري :

بقبرِك لُذْنا والقبورُ كثيرةٌ ولكنَّ من يحمي النزيلَ قليلُ

هذا هو الإيمان عندما يتجلى في أبهى صوره بمنزلة أهل البيت ولا سيما الحسين الذي استشهد لكي يبعث الإسلام مرّة أُخرىٰ :

فإنَّ النارَ ليس تَمَسُّ جسماً عليه غبارُ زوَّارِ الحسينِ

جابر بن عبد الله الأنصاري كان يزور الحسين وقد ارتمى على القبر منادياً : يا حسين . . يا حسين . . يا حسين . ثم قال : «حبيب لا يجيب حبيبه . وأنّى لك في الجواب وقد شحّت أوداجك على أتباجك[1] وفُرِّق بين رأسك وبدنك» . وبينما هو كذلك إذ به يرى سواداً قد طلع من ناحية

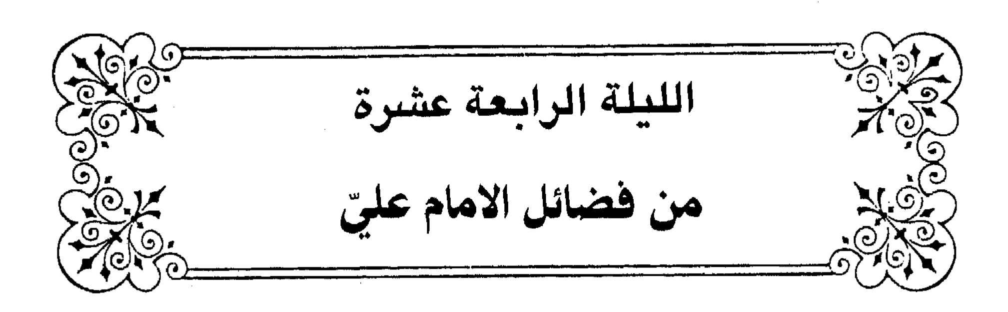
(١) الأتباج مفردها التَّبَج وهو من كل شيء معظمه . يريد : سالت الدماء من أوداجك فغطت كل جسدك .

الشام . فقال لعبده : انطلق إلى ذلك السواد وائتنا بخبره .

مضى العبد ثم عاد مسرعاً فقال : يا جابر ، قم واستقبل حرم رسول الله . فهذا زين العابدين قد جاء بعماته وأخواته . فأقبل على الإمام زين العابدين حافي القدمين ، مكشوف الرأس . فقال له : أنت جابر ؟ قال : نعم يا ابن رسول الله . فقال : يا جابر هٰهنا قتل رجالنا . . هٰهنا ذبح أطفالنا وأُحرقت خيامنا .

وفي تلك الأثناء كانت العقيلة زينب ترنو إلى بنات أخيها الحسين وهُنَّ ينحن باكيات فخافت عليهن أن يتساقطن من على ظهور الرواحل .

إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم .



الليلة الرابعة عشرة

من فضائل الامام عليّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1] .

- الايمان بالعقل والقلب :

من عجيب صنع الله - سبحانه وتعالىٰ - هذا الإنسان ، بحر يتلاطم بالغرائز والتيارات والطاقات والمشاعر والأهواء والإحساسات ، والإنسان الذي لا يهتدي إلى معالم هذا البحر العميق ، يضيع ويغرق . ولذلك تجدون دائماً الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يشير في أحاديثه ، وفي توجيهه الناس إلى : «إن مَثَل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح» . ومثلما كانت سفينة نوح ، هي الوسيلة الوحيدة للنجاة من الغرق ، فكذلك أهل بيت النبوة ومن بينهم الإمام الحسين ، هم كسفينة نوح من تعلق بها عملاً وفكراً وإيماناً ، فإنه سوف ينجو من عذاب ربه يوم الحساب .

والإنسان كائن مركب من كتلة من الغرائز المتناقضة والمتناحرة والمتلاطمة ، وفيه سلطة العقل وسلطة القلب ، وفيه أيضاً أحاسيس الهوى

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٧٤ .

ومشاعر الحب والبغض ، تتفاعل في نفسه وتفكيره ، حتى ليكاد يحار كيف سيتوجه ، وإلى أين يميل في هذه الحياة . والناس الذين هم بعيدون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن أهل بيته عليهم السلام ، وبتعبير أكثر وضوحاً ، بعيدون عن خط الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، لأن شخصية الرسول تتألف من خلال علي بن أبي طالب عليه السلام لا شك في أن هؤلاء الناس هائمون وضائعون .

لنأخذ مثالاً بسيطاً ، ونحن في مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، ونقول : إن النفس البشرية ، تتفاعل في داخلها نزعتا الحب والبغض ، وهاتان النزعتان ، تُوَجهان تارة بوحي من العقل والقلب ، وتارة بوحي الغريزة والهوى . فإذا وُجِّه الإنسان بوحي العقل والقلب ، يكون قد ملك نفسه ، وانتصر على نزعاته وأهوائه ، لماذا ؟ لأنه عندما يملك نفسه ويتصرف بوحي من عقله وقلبه ، فإنه لا شك سيقتدي بأولياء الله ويهتدي إلى جادة الصواب . ولكنه إذا تصرف بوحي من هواه وغرائزه ، فستنعكس الصورة ، وتراه يبتعد عن خط أولياء الله ، ويتبع أعداء الله ، وبدل أن يسير في طاعة الله وأوليائه ، تراه يلهث وراء المنافقين والكفار ، ويتخذ منهم قدوة له ، وبذلك يغرق نفسه ويتيه عن الحقيقة . فمن لا يحمل في قلبه حب علي عليه السلام ، لا يُقال له أنه خال من الشعور والأحاسيس ، بل هي موجودة عنده ، وإنما تتصرف به أهواؤه وغرائزه وشهواته ، فيصبح كمن يسعى لدنيا يملكها ، وأصحاب الدنيا بعيدون عن علي عليه السلام ، علي هذا الذي طلّق الدنيا ثلاثاً وقال : «يا دنيا غرِّي غيري» .

فأصحاب الدنيا يذهبون إلى معاوية وعمرو بن العاص . أما من يريد الآخرة ، ويأتي إلى علي عليه السلام ، وهذا لا يعني أن الإمام علياً لا يملك الدنيا ، بل على العكس عندما تطلب الآخرة تربح الدنيا أيضاً ، لكنك إذا طلبت الدنيا وحدها ، حتى إذا أصبتها ، فإنك تصيبها مشوهة مهلهلة ، وتخسر الآخرة نهائياً .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً الإمام علي عليه السلام : «يا علي لا يحبك

إلاَّ كـلُّ مؤمن ، ولا يبغضك إلاَّ كـل منافق وكـافر» . فـالنـاس بنـاء على هـذا يقسمـون إلى مؤمن ومنـافق وكـافـر ، والمنـافق هـو في الـوسط بين المؤمن والكافر .

«إني لا أخشى على أُمـتي من مؤمنها ولا من كـافـرهـا ، وإنمـا أخشى عليهـا من كل لـذق اللسان منـافق الجنـان» . فـالمؤمن واضـح في إيمـانـه ، والكافر صريح في كفره ، إلاَّ المنافق فهو لا يعرف من أي صنف .

صنفـان من النـاس بعيـدان عن علي بن أبي طـالب عليه السلام، والصنف الأول ، هم الأوليـاء المؤمنون الـذين يتصلون بعلي عقلاً وقلبـاً . لماذا ؟ لأن الحب إذا كـان بوحي العقـل والقلب يصبـح حب الأسـوة والقـدوة الحسنـة ، وليس حب الهوس والجنون .

لماذا أنت تحب علياً ؟ أليس لمنـاقبه ولمـواصفاتـه ولفضائله ولشجـاعته ولكرمه ولزهده ولتعبّده ولتضحيته في سبيل الله ، أليس لكل هذا ؟ .

يقـول الإمـام مثـلاً : «لو ضربت خيشـوم المؤمن بسيفي هـذا على أن يبغضني ما أبغضني ، ولو صببت الدنيا بجمـاتها على المنـافق على أن يحبني ما أحبني» . لمـاذا ؟ لأن مسألة الحب والبغض لهـا علاقـة بالقلب وبـالتوجـه إلى الله ـ سبحـانه وتعـالىٰ ـ **﴿يوم لا ينفـع مال ولا بنـون إلاَّ من أتى الله بقلب سليم﴾**[1] . القلب السليم الطاهر المخلص .

ويشيـر القرآن الكـريم في أماكن كثيـرة لأُناس بـذلـوا وانفقـوا المـلايين على شهـواتهم وملذاتهم ، حيث يقول : **﴿فـلا صـدق ولا صلّى﴾** . لمـاذا ؟ لأن بـذل المـال الطـائـل والـذهب لم يكن في سبيـل الله ، لأن القلب الـذي أعـطى به ، لم يكن سليمـاً ، والوجـه الذي قـابل بـه ، لم يكن رضيّـاً ، ولم يكن يعرف رب العالمين ، فالمسألة هنا مسألة ريـاء ونفاق ، والـرياء إذا دخـل في العمل أفسده .

---

(١) سورة الشعراء ؛ الآية : ٨٨ ، ٨٩ .

أما إذا نظرنا في قصة ذلك الإنسان الذي أعطىٰ خمسة أرغفة من خبز الشعير ، نجد أن سورة كاملة من سور القرآن الكريم نزلت فيه، وهي تلك السورة التي تحمل اسمين ، سورة الإنسان ، وسورة الدهر ، وقد حملت اسم الإنسان لأنها تتحدث عن رحلة الإنسان من عالم الذر إلى عالم آخر يرجع فيه إلى الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وحملت اسم الدهر ، لأن الدهر عجز عن أن يصنع أمثال علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام .

حقاً كانوا نبراساً لنا ومقياساً وأسوة وقدوة . خمسة أرغفة من خبز الشعير : ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا**﴾[1] . وهذه السورة الكريمة تبدأ من كون الإنسان علقة ، ﴿**خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج**﴾[2] ، أي مختلطة من الرجل والمرأة ، والنطفة هي أحطّ مرحلة من مراحل الإنسان ، ثم يتدرج هذا الإنسان حتى يصل إلى أعلى مرحلة ، وهي عندما يكون عمله لوجه الله ، الخالق المبدع . فبمن نزلت هذه السورة ؟ .

لقد نزلت ببيت علي ، وبأسرة علي عليهم السلام ، ويؤثر أيضاً حتى على فضّة التي كانت تعمل عند الزهراء ، وإذا هي تشترك معهم . وكان هناك عبد مع الإمام علي عليه السلام بقي معه فترة طويلة ، وبعد سنين مات ملك الحبشة ـ وهذا الملك كان قبل النجاشي ـ وتبيّن أن العبد هو من أصل أفريقي وهو ابن الملك المتوفى ، ولكنه لم يُظهِر أنه ابن ملك ، لأنه لا يريد أن يفارق علياً ، ولا يرغب في أن يحيد عن خط علي عليه السلام ، فاتصلوا به وأخبروه بأن أباه الملك قد توفي ، فأجاب : لا حاجة لي بالملك ، أأترك علياً لأكون ملكاً ؟ لن يحصل هذا أبداً وسأبقى في خدمة الإمام علي ، وكل لحظة معه تعادل الدنيا وما فيها .

ولذلك تأثرت الجارية فضّة بعملهم وأعطت طعامها لسائليها ، وإذا

(١) سورة الإنسان ؛ الآيتان : ٨ و ٩ .
(٢) سورة الإنسان ؛ الآية : ٢ .

المجموع خمسة أرغفة . ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . .﴾[1] وإذا كانت رحلة الإنسان تبدأ من النطفة إلى ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا﴾[2] سورة كاملة . نزلت في إنسان يعطي خمسة أرغفة ، فلاحظ الفرق بينه وبين إنسان يبذل الملايين ، فيقول ـ عزّ وعلا ـ فيه : ﴿فلا صدّق ولا صلّى﴾ ! .

إذن هناك عناية خاصة من الله بعلي وأهل بيته . فهذا جبرائيل يهبط على النبي الكريم ، في ليالي رمضان المبارك ، بينما كان الرسول جالساً في مسجده الشريف ، يتلو عليه الآية الكريمة السالفة الذكر .

﴿الذين ينفقون أموالهم في الليل والنهار سراً وعلانية﴾ . لأن صَدَقة السرّ تطفىء غضب الرب . وصدقة العلانية ، قد تصدر عن رياء ونفاق . وهي صدقة بلا شك غير مقبولة ، لأن صاحبها لا يبغي من ذلك الإنفاق سوى الوجاهة والممالأة والسيرة الحسنة . بينما المؤمن الذي ينفق علانية ، يصدر ذلك عن إيمانه وقناعته بأن للفقراء حصة في أمواله .

وبعد أن يتلقى النبي الكريم الآية الآنفة الذكر من جبرائيل ، يتوجه إلى الناس ، ثم يعيدها ثانية على مسامعهم ، ويسأل القوم : أيكم صاحب هذه الآية ؟ فينهض أمير المؤمنين علي عليه السلام ويقول : أنا يا رسول الله ، كان عندي أربعة دراهم ، فأنفقتها ، درهماً في الليل ، ودرهماً في النهار ، ودرهماً سراً ، ودرهماً علانية ، قال : فهي لك يا علي . أخبرني جبرائيل بذلك . اقرأوها جيداً ﴿الذين ينفقون أموالهم في الليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ . ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم﴾ . وعلي ، سيّد الأولياء ، وإمام المّتقين ، ففكر أيها الأخ الكريم ملياً في هذه الأربعة دراهم ، كيف أن جبرائيل يتحرك ويقطع كل هذه المسافات الشاسعة ، بلمح البصر ، ليتلوَ على مسامع محمد قرآناً

(١) سورة الإنسان ؛ الآية : ١ .
(٢) سورة الإنسان ؛ الآية : ٩ .

من أجل صدقةٍ بأربعة دراهم ! فهل كان المقصود الكم أم الكيفية ؟ .

ـ بدء انتصار المسلمين :

نعم ، الكيفية ، والكيفية فقط ، لأن النفوس إذا كانت عظاماً ، فكل شيء يصدر عنها عظيم . ولذلك تقرأون عن يوم الخندق كيف كانت «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين» . يوم كان الإمام علي عليه السلام في مطلع شبابه وفي عز عنفوانه ، حين تجمهرت الأحزاب ، وأحاط المشركون بقيادة أبي سفيان ، بالمسلمين ، يساندهم اليهود كبني قريضة وبني النضير وبني قينقاع وأمثالهم ، في حلف ضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودارت المعركة ، وحمي الوطيس ، وبلغت القلوب الحناجر ، محاولين أن يطفئوا نور الله المشع من وجوه المسلمين ، ولكن الله يأبى إلاَّ أن يتم نوره ، فقام الرسول وحفر الخندق ، حتى يكون القتال من جهة واحدة ، وإذا بفارس الكفار ، عمرو بن عبد ودّ، يجتاز الخندق، ويأتي إلى المسلمين، معتزاً بقوته، معتداً بنفسه ، صائحاً : «لقد بححت من النداء في جمعكم ، هل من مبارز ؟» . فلم يجبه أحد من المسلمين ، لأنهم كانوا يرتجفون خوفاً على الإسلام ، ولأن عمرو بن عبدود ، كان فارساً قوياً ومشهوراً ، والرسول يصيح : «من يبرز لعمرو ، أضمن له الجنة . . .» وكررها ثلاث مرّات . وفي كل مرّة ، لم يسمع غير صوت أمير المؤمنين وأسد الله الغالب ، علي بن أبي طالب ، الذي كان يقوم في كل مرّة ويقول : «أنا له يا رسول الله» . ويجيبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . اجلس يا علي ، لماذا ؟ لأن الذوق النبوي العظيم كان يفترض أن لا يسمح لعلي من المرة الأولىٰ بالمبارزة ، فهو انتظر حتى يسمع صوتاً آخر ، حتى لا يحتجَّ فيما بعد ، بأن الرسول لم يسمح بمبارزة عمرو لأحد ، سوى لعلي ، ولكن النبي العظيم ، لم يسمع في المرّات الثلاث سوى صوت علي عليه السلام وحده . ولكان احتجّ من يحتج ، بأنه لم يعطهم مهلة حتى يتقدموا ، بل فضل عليهم ابن عمه وزوج ابنته ، فأعطاهم مهلة بتكرار الصوت ثلاث مرّات ، ولم تثر النخوة الإسلامية في رأس أحد ، سوى

علي ؟ وفي المرة الثالثة ، عندما لم يسمع إلّا صوت علي يقول : أنا له يا رسول الله ، فيجيبه الرسول : إنه عمرو ، فأجابه : وأنا علي .

وهنا سمح النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بالبروز إلى عمرو بن عبد ودّ ، وكان عليّ لا يزال يافعاً ، وبذلك يكون قد برز الإسلام كله إلى الشرك كله . ولما تواجها في المعركة قال عمرو مخاطباً علياً : إني لا أحب أن أقتلك ، فأجابه علي : ولكني أحب أن أقتلك ، ولم تمض لحظات حتى انقشع الغبار عن مصرع عمرو بن عبد ودّ على يد البطل الهمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، وتعتبر تلك المعركة بداية انتصار الإسلام . ولم يغفل الكتاب المنصفون هذا الانتصار ، ويذكرون أن علياً كان يعتمر قلنسوة أو قبعة تقيه من الضرب . أما ابن أبي الحديد ، فيذكر أن علياً كان حاسر الرأس . ولم يكن أمير المؤمنين بالطويل ولا بالقصير .

ولا يهمنا ما كتبه عنه المغرضون الذين كرهوا علياً ، فنعتوه بأوصاف مختلفة ، ومنهم عمرو بن العاص ، الذي أخذ الورقة التي تتضمن مواصفات علي ، فمزقها وكتب عنه أوصافاً مختلفة يريد بها النيل منه . وغاب عن باله أنها هي الشهادة بأنه كامل .

الأنزع البطين ، والأنزع الذي ينزع إلى العلم ، والبطين : الجائع . وعلي عليه السلام هو القائل : «أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى» . فمن أين لعلي بطن ؟ الذي كان يقول : «وكأني بقائلكم يقول : إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب ، فقد قعد به الضعف عن مقارنة الأقران ومنازلة الشجعان» .

وبالعودة إلى معركته مع عمرو بن عبد ودّ ، فهي لم تستغرق أكثر من جولة واحدة ، فإذا عمرو يخر إلى الأرض صريعاً ، والإمام يجثو على صدره ويرفع رأسه ، ويأتي به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي هذا الانتصار «كفى الله المؤمنين القتال» بعلي ، في ذلك اليوم .

علي في كتب الآخرين :

يقول الزمخشري في كتابه «ربيع الأبرار» : فكرت في أن أستجمع

فضـائـل علي بن أبي طـالب عليه السلام فـاستعصت عليَّ ، بحـر عميق من أين تدخل ، فجمعت حزمة منهـا . وهذه الحـزمة أثـرت بقلب الزمخشـري ، وهو العالم الكبير من علماء السنة .

وأحمد بن حنبل إمام الفقه . لـه كتاب عن فضـائل علي بن أبي طـالب عليه السلام. ومحمـد بن إدريس الشـافعي فله أيضـاً كتـاب اسمـه (الأم) يتضمن فصولاً مطولة عن فضائل علي .

لعلك تتعجب وتقول : لا نسمع الآن بهـذه الكتب وهاتيـك الفضائـل ؟ ولا ندري أن أقلاماً عديدة ومرتزقة ، سخرت لطمس هـذه الفضائـل ، وأموال النفط بذلت من أجل تضليل الجماهيـر وعدم وصـول مثل هـذه الفضائـل إليها طمساً للحقيقة والواقع .

وفي كتـابه (الأُم) يشـرح الشافعي في فصـول مطولـة ، فضائـل ومناقب الإمام علي عليه السلام ويقول إن أحكام قتال أهل البغي والشرك ، مـا شرعهـا وسنّها إلّا علي بن أبي طـالب عليه السلام لأنه هـو الإمام العـابد التقي ، الـذي ابتلي بقتـال البغاة في الجمل وصفين والنهـروان . وأحمد بن حنبـل له كـلام مفصل ، ولا يتسع المجال لذكرها مفصلة هنا . فـالإمام علي أكبـر وأعظم من أن تـذكر لـه مصـادر ، وهو أكبـر من أن يكتب عنه هـذا وذاك ، والشمس معـروفـة بـالعين والأثر .

وإذا كـان لا بدّ من ذكـر شيء من تلك الأوصاف ، فهـاكم الزمخشـري الذي يذكر بعضاً من صفات الإمام أميـر المؤمنين ، أثارت فيّ الحب والنخـوة والأريحيـة ، يذكـر حزمـة من الخصائص . يقـول الزمخشـري : الإمـام علي أول الناس إسلاماً، لم يسبقه أحد إلى الإسلام، رباه النبي طفلاً، وكان يوجره اللبن عند شربـه ، وكان يهـز مهده بيـده ، ولما جـاءت أُمه فـاطمة بنت أسـد تحمله ، أخذه النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها وجعل مهده إلى جانبه .

تمشت بـه والشمس راد مغيبهـا ... ولـود المعالي تنقـل الخطو وانيـا
تهـدهـده في غبـطة وعيـونهـا ... تحـدق في وجـه يفيض معـاليـا

أتت فيه نحو العبقري محمد ليجعل منه في المكانة ثانيا
فقوّم منه نبعة هاشمية تزيد على مرّ السنين تعاليا
أنت العلي الذي فوق العُلىٰ رفعا ببطن كله وسط البيت إذ وضعا
وأنت أنت الذي حُطت له قدم في موضع يده الرّحمٰن قد وضعا
سمتك أُمك بنت الليث حيدرة أكرم بلبوة ليث أنجبت سبعا

يقول الإمام السجّاد : كانت فاطمة بنت أسد صائمة ، وكانت تطوف حول البيت يوم ضربها الطلق ، فدعت الله أن ييسّر لها ، فانفرجت الكعبة ، وانفتح لها الجدار ، فدخلت ، وولدت علياً . ويقول البعض أن أبا طالب مات كافراً . وأبو طالب سيد المسلمين . وأم الإمام علي ، كانت صائمة ، وهي ليست مؤمنة وحسب ، وإنما كانت صائمة ، وكان هذا قبل نزول التشريع الإسلامي بالصوم ، فالصوم كان موجوداً قبل الإسلام ﴿**كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**﴾[1] ، فإذن كتب الصيام على الذين كانوا قبل الإسلام . وكانت أم الإمام علي ملتزمة بالإيمان وبالصوم .

. فضائل علي عليه السلام:

وعلى الفراش مبيت ليلك والعدا تهدي القراع لسمعك التغريدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى أوَمَا دروا كنز الهدى مرصودا

وقد أشرت إلى آية المبيت ، يوم بات الإمام علي عليه السلام في فراش النبي وكان على يقين بأن الكفار سيقتلون من يجدونه في الفراش ، ومع ذلك بات فيه بكل عزم وثبات وإيمان فداء للرسول الأعظم ، وهذه الحكاية معروفة لدى جمهور المسلمين . وهناك أيضاً آية الغار ، التي تصف الاضطراب والقلق والخوف عند من كان بصحبة النبي ، فقال الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : ﴿**لا تحزن إن الله معنا**﴾ ، فالله معكم أينما كنتم ، والله يريد قلوباً ثابتة غير خائفة ، متوجهة إليه بثبات وإيمان . ومن كان إيمانه راسخاً

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٣ .

في قلبه فلا يزعزعه خوف ، ولا يحزنه تهديد .

أما قضية المؤاخاة ، عندما آخى النبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم بين المسلمين ، آخى بين المهاجرين والأنصار ، وبين المهاجرين والمهاجرين ، وبين الأنصار والأنصار ، فعل هذا مرتين ، وفي كل مرّة كان يجعل علياً أخاه . وهو القائل في حديثه الشريف «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلّا أنه لا نبي بعدي» فكما كان هارون أخاً لموسى ووزيراً ، فكذلك كان علي أخاً للنبي ووزيراً ، وبوابة للعلم المكنون في مدينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يدخل إلى تلك المدينة ولا يخرج منها شيء إلّا ويمرّ بالباب .

وتسمعون بأن فاطمة تُلقب بأُم أبيها ، وهذا اللقب أطلقه عليها أبوها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان كلما دخلت عليه ، يقوم إجلالاً لها ، ويجلسها مجلسه قائلاً : مرحباً بأُم أبيها ، كيف لا وهي التي كانت تهتم به ولا تتوانى عن خدمته لحظة واحدة . هذه هي ذرية النبي الطاهرة ، ومنها الكوثر الكثير العطاء ، فالأئمة منها ، الذين هم نسل النبي ، وسلالته ، وآل بيته ، الذين استمرت الرسالة فيهم .

ففاطمة أُم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، أُمه في رسالته ، وأُمه في رعايته ومداراته ، وهي التي كانت تحترمه كما تحترم الأُم ولدها ، وكان يحترمها كما يحترم الولد أُمه ، .

ولما نزلت الآية الكريمة : **﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أُمهاتهم﴾**(١) إذن زوجات النبي أُمهات المؤمنين : أُم سلمة ، عائشة ، حفصة ، زينب بنت جحش ، جميعهن أُمهات المؤمنين ، وبقيت فاطمة واقفة هناك ، وفاطمة أُم من ؟ قال : فاطمة أُم أبيها ، وعلي أخي ، وهذا هو الشرف الرفيع ! .

وأنزل الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : **﴿إنما وليكم الله ورسوله والمؤمنون**

---

(١) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٦ .

الـذين يقيمون الصـلاة ويؤتون الـزكـاة وهم راكعـون﴾[1] نـزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام. وهذا كلام الزمخشري أنقله لكم .

ويـوم خيبـر ، قـال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «إني لأعـطي الـرايـة رجـلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، كراراً غير فرّار، لا يـرجع حتى يفتح الله على يـديـه» . وقـال أيضـاً : «إني لأعـطي رايتي ليثهـا وحـامي حمـاهـا» . يقـول الأزري :

يــوم قـال النبي إني لأعــطي ... رايتي ليثهـا وحـامي حمــاهـا
فـاشـرأبت أعنـاق كـل فـريق ... ليــروا أيَّ مـاجــدٍ يُعـطاهــا
فـدعا أين وارث العلم والحلـ ... ـم مجيـر الأنـام من بـأسـاهـا
فــأتــاه الــوحي أرمــد عيـن ... فسقـاهـا من ريقــه فشفـاهــا

هـذا ما قـاله الشـاعر الأزري في الإمـام علي عليه السلام وهنا اسمحـوا لي أن أسوق مـلاحظة :

- الدعاء لقضاء حـاجـة :

يسألني أحد الشباب المؤمنين يقول : أصحيـح أنه لـو كانت عنـد المرء حـاجـة ، وتـطلب هـذه الحـاجـة من علي ، بقـولـك يـا علي ، فيقضي لـك حاجتك ؟ .

وهنـا أقول أنـه يحدث في كثيـر من الأحيان خلط في صـور العقيـدة ، والتبـاس في المفـاهيم عنـد النـاس . فعنـدمـا تـزور قبـر النبي ، ثم تحــاول تقبيله ، تُرمى بالشرك ! فقد شاهدت أثنـاء زيارتي لقبـر الحسين في القاهـرة - ونحن نعـرف علاقـة المصريين بـأهل البيت - شـاهدت رجـلاً يقف عند رأس الحسين عليه السلام ويقــول : «وإذا سـألـت فـأســأل الله ، وإذا استعنت فــاستعن بالله» . وكان ينهاهم عن أن يقولوا : مَدَدٌ يـا حسين ، قلت له صحيـح ، لكن

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٥٥ .

هـذا لا يمنع أن تقـول : مدد يـا حسين ، لأنك هنـا تسأل الله عن طـريق وليّ الله ، فـالحسين هو طـريقك إلى الله ، بـاب الله الواسـع . كمـا أن الـرسـول سـأل الله بالحسن والحسين في يـوم المباهلة ، حيث أخرج معـه علياً وفـاطمـة والحسن والحسين . **﴿فقـل تعالـوا ندع أبنـاءنـا وأبنـاءكم ونسـاءنـا ونسـاءكم وأنفسنـا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعـل لعنة الله على الكاذبيـن﴾**(١) . نـطلب من الله بهـذه الوجـوه ، أن يقضي حاجتنـا ، ولـذلـك قـال القس الكبيـر ، قـائـد النصـارى : «يا معشـر النصارى ، إني لأرى وجـوهاً لـو أقسمت على الله بهـا أن يزيل هذا الجبل من مكانه لأزاله ، فلا تباهلوهم» .

فهـذا عالـم كبيـر من علماء النصـارى، عنده علم وفهم، عـاش في أيام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وعـرف حقيقة أهـل البيت ، وآمن بأن هـذه الوجـوه لها تـأثير وقـوة إيمانيـة بحيث تتفتت الجبـال الـرواسي أمـام قـوة إيمـانهم . أليسـوا هم عـدلاً للقرآن ؟ وأليس القـرآن إذا أنزل على جبـل لرأيت ذلـك الجبل خـاشعاً متصدعاً من خشية الله ؟ .

أنا أقول لذلك الشـاب ، كما قلت لـذلك الـرجل في القـاهرة : عنـدما تـذهب إلى الطبيب ، وتستـطب منه ، هـل أنت مشرك ؟ وإذا سـألت فـاسأل الله ، وإذا استعنت فـاستعن بـالله ، لمـاذا تـذهب إذن إلى الـطبيب ، لمـاذا تـطلب منه عـلاجك ، لمـاذا تستعين به ؟ أليس هـذا هـو الـطريق إلى الله ؟ سبحانه وتعالىٰ .

ولا نستغرب ذلك ، ففي عهد الخليفة الثـاني عمر بن الخـطاب ، فقد استسقى هـذا الخليفة بـوجه العبـاس بن عبـد المـطلب ـ عم الـرسـول ـ فقـد أخـرج عمر العبـاس وطلب من الله ـ عزّ وجـلّ ـ قائـلاً : بحق هـذا الـوجـه ، اسقنا الغيث . فلا إشكال في هذه الأُمور وهي موجودة .

حتى في قضيـــة السجـود ، والسجـــود كمـا نعــرف ، لا يكـون إلاَّ لله

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ٦١ .

وحده ، ولكن هناك نوعان من السجود : سجود عبادة ، وسجود احترام . فسجود العبادة لا يكون إلاَّ لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وسجود الاحترام لغير الله وهو جائز ، فأنت ممكن أن تسجد لأبيك والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم : ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾(١) .

وإذا احتج البعض بأن هؤلاء الساجدين ملائكة ، ونحن بشر ، فإننا نجيب ، بأن أخوة يوسف وهم بشر مثلنا ، خرّوا سُجَّداً عندما دخلوا عليه وقد رفع أبويه على العرش . هؤلاء بشر سجدوا تقديراً واحتراماً لأخيهم يوسف، وكان من بينهم يعقوب أبو يوسف وهو نبي معصوم . إذن سجود التعظيم والاحترام جائز وليس فيه شرك .

وإنما نقلت هذه الملاحظات والأمثلة جميعها ، لتعرف أخي الكريم أنه في كثير من الأحيان ، تكون الصورة مختلطة على بعض الناس . فإذا ناديت علياً عندما تهمُّ بعمل من الأعمال فهذا ليس بشرك وإنما هو استنجاد بمن له كرامة عند الله ـ عزّ وجلَّ ـ والنبي الكريم كان في غزواته ينادي : يا علي ، والإمام علي نفسه يقول : كنا إذا حمي الوطيس ، نلوذ برسول الله في الحرب ، لكنه مع ذلك كان يقول : يا علي .

يوم أحد ، يصيح النبي أكثر من مئة مرة منادياً : يا علي ، ردّ هؤلاء عني ، يا علي اضرب أصحاب الألوية ، يا علي ، ردّ هذه الكتيبة عني ، يا علي ، ادفع هؤلاء عني ، وكان الإمام علي عليه السلام يحوم حول النبي باستمرار .

فعندما تقول : يا رسول الله ، فأنت تطلب مساعدته ومساعدة الله في الأمر ، والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يقول : ﴿**فالمدبرات أمرا**﴾ وهم الملائكة الذين يسجدون لله ولك أنت المؤمن ، يعطيهم الله قدرة على تدبير أُمور الكون . فكيف بأمير المؤمنين ؟ ! وليس غريباً أن تنادي : يا علي ، أو ، إلٰهي بحق علي افتح لنا ، اقضِ حوائجنا . . .

---

(١) سورة الحجر ؛ الآيتان : ٢٨ و ٢٩ .

إذا استطردنا قليلاً ، وتأملنا في عالم الماديات الذي نعيش فيه الآن . ونظرنا إلى عالم الأقمار الصناعية ، عالم الهاتف الإلكتروني والفاكس ، عالم الحاسب الآلي ، عالم السفن الفضائية ، هذه السفن التي حطت على سطح القمر ، وكان من المقرر أن تحط على المريخ لولا العطل الطارىء الذي أصابها ، والتي تسيَّر أو توجه بواسطة أزرار إلكترونية على الأرض ، هذه السفينة التي تحتوي على كبسولة موجهة من الأرض كيف تلتحم إلكترونياً بمقدمة السفينة بعد أن تنفصل عنها . وكل هذا يحصل من على بعد مئات الآلاف من الأميال ، يوجهها ويتحكم بمسارها حفنة من الخبراء يراقبونها من مكاتبهم على الأرض ومن خلال جهاز الكتروني .

فإذا كانت هذه الحفنة من الخبراء والعلماء الذين لم يؤتوا من العلم إلاَّ قليلاً يفعلون هذا ، ونستغرب أن يفعل مثل هذا الفعل أو أكثر ، ذلك الإنسان الذي ائتمن وأُطْلِع على العلوم كلها بل عاين السمٰوات السبع ، وشاهد بأم عينه ما لم يتسنَّ لأي مخلوق أن يشاهده ، وأنزل عليه من أسرار السمٰوات ومن العلوم الإلٰهية ما لم ينزل على مخلوق ، ألا إن هذا الإنسان هو النبي المصطفى محمد بن عبد الله خاتم النبيين وسيِّد المرسلين ومدينة العلم ، نعم العلم بأكمله ، أيعجز عن أن تنفتح له أبواب السماء بدعاء لإنسان أو بدعاء إنسان بواسطته . ثم هل تستغرب أن يستجيب له رب السمٰوات ورب الأرض الذي ناداه في ليلة من الليالي قائلاً وقد عزَّ من قائل : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم** ﴾[1] إذن فإن الخالق العظيم هو الذي علَّم الإنسان الذي لم يكن يعلم شيئاً . ثم إن ما تعلَّمه ذلك الإنسان الذي يوجه مركبته في الفضاء من مكانه على الكرة الأرضية ، لم يُؤت من العلم إلاَّ قليلاً ، بناء على قوله عزّ وجلّ : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً** ﴾ .

---

(١) سورة العلق ؛ الآيات : ١ ـ ٥ .

وممـا لا شكّ فيـه أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ـ مـدينـة العلم ـ قـادر على الإتيـان بأعظم من هـذا بكثير ، وعلي عليه السلام الذي هـو باب تلك المـدينة ، ولا يخفى عن بـالنا مـا للباب من أهميـة بالنسبـة للمدينـة فهو عـالم بكـل مـا في المـدينة بـالتأكيـد . وبما أن الله خصَّهمـا بهذه الكـرامة ومنحهمـا أسرار هـذا الكون ، فهما وذريتهما قادرون جميعاً على فتح أبواب السماء بأدعيتهم .

يقـول الـرسـول الأعـظم صلى الله عليه وآله وسلم : كنت اسمـع في ليلة المعـراج صـوت علي عليه السلام. والله تبـارك وتعـالىٰ كلّم الـرسـول الكـريم في تلك الليلة ـ والله ليس لـه صوت وليس لـه كلام ، وإنمـا يصنـع الصوت والكلام المحبب إلى رسول الله ـ وهل هناك أحب من صوت علي على قلب الرسول ؟ ! .

فلماذا الاستغراب أيها الأخوة ، عندما ترفع يـديك وتقـول : يا الله بحق علي . أو بحق محمـد ، فمما لا شـك فيه أن أبـواب السماء ستنفتـح لـك . وحبـك لعلي الذي يحبـه محمد ، يؤكـد حبك لمحمـد بالـذات ، وفيما عـدا ذلك فإن حب محمد يكون سطحياً . وهنا صدق القائل :

فـدعا أين وارث العلم والحلـ ـم مجير الأنـام من بـأسـاهـا
أين من لـو دعته بـالثـريـا داعـيـة مـروعـة لبّـاهـا

فأينما تكـون .

نـادِ عـليـاً مـظهـر العـجـائـب
تـجـده عـونـاً لـك في النـوائـب
كـل هـمّ وغـمّ سـيـنـجـلي
بولايتك يا علي . . يا علي . . يا علي .

. أمانـة علـي عليه السلام:

فـولاية علي هي الحصن الحصين ، وولايتـه ، يعني النبوة الصـادقة ، والتـوحيد المخلص ، يعني تـوجهـك إلى الله بصـورة صحيحـة . وممـا يـدل على صـدق علي وعدلـه في حكمه تلك الـرواية التي تـروى عن إحدى بنـاته

أثناء ولايته ، حيث أن تلك الابنة طلبت من خازن بيت مال المسلمين وهو عبد الله بن أبي رافع ، عارية مضمونة (أي ترد) وهي قلادة لتزين بها جيدها أيام العيد ، فلما شاهده علي عليه السلام وعرف قصة إعارته ، طلب عبد الله بن أبي رافع وقال له : يابن أبي رافع لو لم تكن هذه القلادة عارية على أنها تعود إلى بيت المال لقطعت يدها .

ويدخل عليه أخوه عقيل ، ويطلب منه شيئاً من بيت المال ـ بيت مال المسلمين ـ فأمسك بيد أخيه وكان بصيراً ثم وضع له فيها جمرة منذراً إياه بأن أكل مال المسلمين بالباطل سيعرض جسمه لنار أشد مما عاين .

لعمري لقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام أشد الناس إيماناً وأكثرهم عدلاً ، فقد كان فوق ذلك يكدّ ويعمل بيديه وعرق جبينه في سبيل فقراء المسلمين ، وقد غرس مئة وخمسين ألف نخلة وأوقفها للفقراء في سبيل الله .وكان يخصص كل خميس من كل أسبوع لينفق الحقوق الشرعية على الناس والمحتاجين .

هذا هو الإنسان الذي يؤتمن على أموال الناس ويعرف كيف يوزع الحقوق الشرعية بعدل وأمانة ، وقبل سنين وقفت أيها الأخوة على المنبر أمام عشرات الألوف من المستمعين وقلت أنه لا يوجد حديث ولا دليل يقول بأن تعطى الحقوق الشرعية للمرجع أو للمجتهد ، فالحقوق هذه يجب أن توزع على الفقراء والمساكين ، تبذل في سبيل الله ، كبناء المساجد والحسينيات ، وطبع الكتب وإعانة المحتاجين أينما كانوا . فقل لأولئك الذين يكدسون الأموال في البنوك ويصرفونها على شؤونهم الدنيوية ، إن الله في أموالهم نصيباً وأنهم وكلاء الله على أموال الفقراء ، فليدفعوا لهؤلاء أموالهم .

صادفت يوماً أخاً في الدين والإيمان ، يقوم بأعباء الدعوة الإسلامية في ساحل العاج ، ولكنه كان قلقاً محتاراً لأنه لا يملك تذكرة سفر إلى ساحل العاج ، فهلاّ سمعتها يا سيدي يا علي . رجل يريد أن يذهب للتبليغ

ولا يملك ثمن تذكرة سفر ! ويحاول الاتصال بالسيد فلان والشيخ فلان والعائلة الفلانية ، فلا يسمع إلاَّ عبارة : من قال لك اتصل ، ومن الذي علمك على القيام بمثل هذه المهمات ؟ .

أُنظر إلى الآخرين ، لاحظ إخواننا المسيحيين الذين يبذلون المبالغ الطائلة في سبيل التبشير ويذهبون إلى كل بقاع الأرض . وأنت لا تستطيع أن تحصل على النزر اليسير من الأموال المكدسة في البنوك ، لتحمل صوت أمير المؤمنين وتوصله إلى أماكن نائية .

لقد كنت مرّة في مدينة (كالجري) في كندا ، ولاحظت أن المسلمين يدفنون موتاهم في مقابر المسيحيين ولا يتمكنون من امتلاك ولو مقبرة لموتاهم .

أما في منطقة كوسنجاني في زائير ، حيث يوجد عشرة ملايين مسلم . فقد تمكنا بعد اتصالات مع مدير التلفزيون والإذاعة من نقل صلاة الجمعة ، هذه الصلاة التي كان لها وقع عظيم على قلوب المسلمين هناك ، إذ اعتبروا ذلك اليوم كالعيد ، وراحوا يباركون لبعضهم البعض ، ويقولون أنهم لأول مرة يشاهدون رجلاً معمّماً وصلاة على شاشة التلفزيون ، لذلك فنحن علينا مسؤولية ضخمة ، مسؤولية نقل الإسلام الصحيح إلى أولئك الناس المسلمين المتعطشين إلى من يعرفهم بدينهم تعريفاً حقيقياً ، إنهم متعطشون لسماع سيرة أهل البيت ، وليتعرفوا إلى ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام . هناك مجموعة من النصارى سمعوا بأن علياً عليه السلام أعطى اللبن من فمه لقاتله ، فبكوا لمثل هذا العمل المؤثر سماحاً وأخلاقاً . فقلت ماذا يبكيكم ؟ قالوا : والله هذا أمر عظيم ، نحن نسمع أن يوحنا بولس الثاني ، دخل على الشاب التركي الذي أراد اغتياله وسلّم عليه ، فامتلأت قلوبنا خشوعاً لمثل هذا العمل ، لكن لم نسمع بقائد عظيم مثل علي بن أبي طالب ، يقطع اللبن عن فمه ويقدمه لقاتله ! ابن ملجم الأثيم . فلماذا لا تنقلون لنا هذا الفكر العظيم ؟ لماذا ؟ .

وأولئك الجماعة الذين أنفقوا أنباراً ! مخزن من التمر ـ قالوا : يا رسول الله ، مات أبونا وترك هذا الأنبار الكبير ، أخذه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ووزعه على الناس في مكة ، وبقيت وزعة صغيرة معلقة على الحائط . . أخذها الرسول بيده وقال : «والذي بعثني بالحق نبياً ، لو أن أباكم أعطى هذه في حياته لكان خيراً له وأفضل مما أعطينا بعد وفاته» .

إذن من المهم جداً أن نلتفت إلى المشاريع الإسلامية وننفق في سبيلها ما استطعنا ، فهناك مبلغون بحاجة إلى معونتكم ليحملوا هذا الفكر إلى العالم ، خصوصاً أولئك المسلمون الذين يكادون ينقطعون عن دينهم بسبب ابتعادهم عنه يوماً بعد يوم . هناك فقراء وبؤساء وأرامل وأيتام بحاجة إلى مساعدتك ، عليك أن تلتفت لهم وتعطيهم «فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» .

وقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : «لقد جعل الله حب المساكين في قلبك وجعل حبك في قلوبهم» .

جاء يوماً رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبكي في المسجد وقال : يا رسول الله عندي حاجة ، قال : حاجتك مقضيّة ـ إن شاء الله ـ أنظر في حاجته يا علي ، قام الإمام علي عليه السلام وقال : ما حاجتك يا أخا العرب ؟ . . قال : استأجرت داراً في وسطها نخلة ، وعندما تهب الرياح يتساقط رطبها فيلتقطها أطفالي الصغار الجائعون ويأكلونها ، فيدخل صاحب الدار غاضباً ويأخذ الرطب من أفواههم ، فتنكسر قلوبهم . فهل لك يا مولاي أن تعالج هذه القضية ؟ . قال : بلى . وخرج معه حتى وصلا إلى صاحب الدار ، فقال له الإمام علي عليه السلام : أنت من الذين أنعم الله عليهم ، فاسمح لهؤلاء الأطفال الجياع أن يأكلوا ما تساقط من هذا التمر ، والله يعوضك عنه بتمر الجنة ، قال : لا أبيع عاجلاً بآجل ، ولا أريد الجنة . . . كل هذا والأطفال ينظرون إلى علي وأيديهم بأفواههم ، وتبدو عليهم رقة الحال . قال له علي عليه السلام . يا فلان أنا أعطيك الآن صنيعتي بهذه الدار ، لنعطيها إلى هذا الرجل الفقير . قال

صاحب الدار : تعطينيها الآن وتصبح ملكي . قال علي : بلى ، هي لك ، والدار لهذا الرجل . . قال : الدار له . فشهد شاهدان كانا هناك ، فسلمت الدار إلى ساكنها الفقير ورجع الإمام إلى المسجد ، فقال من كان صاحب الدار للرجل . كل الآن من التمر ما شئت أنت وأطفالك ، فهي لك وبارك الله لك فيها ، فقال الفقير . فرَّجت عني يا أمير المؤمنين ، يا أخا رسول الله ، فرجت عني يا أبا الحسنين ، فرج الله كربتك .

ثم إنه لما وصل الإمام إلى المسجد ، بدأ بالصلاة وبعد فراغه منها ، وإذا بالرسول يتلو القرآن الكريم : **﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى﴾**(1) . فقال الرسول الكريم : أيكم قام بهذا العمل العظيم ؟ قال علي عليه السلام : أنا يا رسول الله ، فقام النبي ـ كما تقول الرواية ـ ووثب إلى علي ، فاحتضنه وقبّله بين عينيه وبكى . . . لماذا ؟ لأنه حفظ هؤلاء الفقراء الصغار الجياع وفرج عنهم كربتهم .

أقول يا سيدي يا علي : أين كنت يوم سارت بناتك وأطفالك سبايا إلى الشام ، والناس يتصدقون عليهم في الطريق !! .

هل سمعتم تلك القصة ؟ . امرأة تحمل على رأسها طعاماً وأطباق حلوى ، طرحتها بين الأطفال والنساء ، وهم في طريقهم إلى الشام ، وتسألها زينب عن هذا ؟ فتجيب تلك المرأة بأنه نَذر نذره أبي للحسين بن علي عليه السلام ، وتروي لها القصة . وموجزها أنها عندما كانت هذه المرأة صغيرة أُصيبت بمرض ، فحملها أبوها إلى المدينة ، وطلب من الرسول أن يدعو الله لشفائها . فدعا الحسين عليه السلام وقال : عليَّ بولدي الحسين . فجاء وهو ما يزال طفلاً صغيراً ، في الخامسة من عمره ، قال : بني يا حسين ، أطلب من الله شفاءها ، وبمجرد أن وضع الحسين يده على تلك الطفلة ، أحست بالصحة والعافية تسري في عروقها . فقال والدي للرسول : ما جزاء الحسين ؟ قال : جزاؤه أنه سيمر عليكم سبيٌ في الطريق ، فيهم أطفال

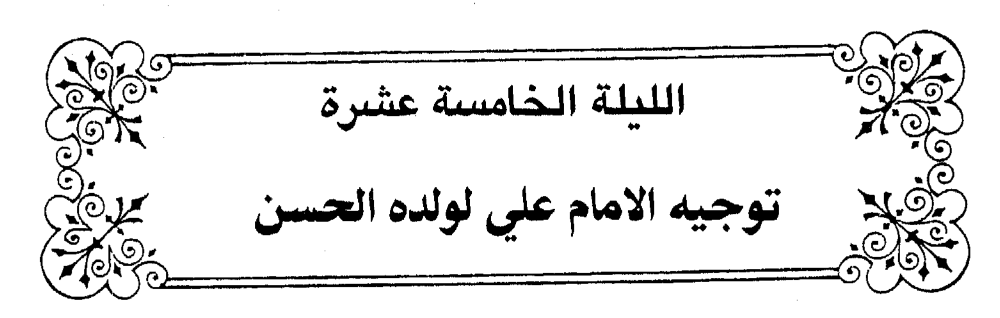
---

(1) سورة الليل ؛ الآيات : ١ ـ ٤ .

صغـار جياع ، ونسـاء بُنيات ، فـاصنعوا لهم طعـامـاً بـاسم الحسين . . هـذا جزاء الحسين .

تنقل هذه المرأة القصة لزينب ، قائلة : لقـد مرّ على الحـادثة أكثـر من خمسين سنـة ، وأبي مات وأُمي أيضـاً وجميع الأهـل وبقيت أنا وحـدي انتظر السبْيَ ، فمـا مرّ علينـا إلاّ هـذا اليـوم . . . وهـاكم الـطعـام بـاسم الحسين . فكادت العبرة تخنق زينباً ، فقالت لها المرأة : لمـاذا البكاء يـا أخيّة ، فـأجابت زينب : لـو كان الحسين حـاضراً فهـل تعرفينـه ؟ . قالت : كيف لا أعـرفه ، ونـوره بـاق في رأسي ، قـالت زينب : أخيّـة بـالله عليـك ، ارفعي رأسـك وانظري إلى هذا الرأس على الرمح . فرفعت المرأة رأسها ونظرت إلى رأس الحسين عليه السلام ثم قالت : واحسيناه ، وإماماه ، ثم وقعت مغمياً عليها .

إنّـا لله وإنّا إليـه راجعون ولا حـول ولا قوّة إلاّ بـالله العلي العظيم وآخـر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الليلة الخامسة عشرة
توجيه الامام علي لولده الحسن

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ النبيّ وولادة الحسن :

قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء ، فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما نزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾[1] .

أولاً أيها الأحبة ، يجب أن نشكر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ على هذا التوفيق العظيم ، وأننا نحضر في شهر رمضان المبارك وفي هذه الليالي الكريمة . وفي ليلة النصف بالذات من شهر رمضان ، ليلة في عداد ليالي القدر ، ليس فقط لأنها ليلة النصف ، بل لأن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ اختارها لتكون وعاءً لولادة كريم آل محمد ، الحسن بن علي عليه السلام. وهذه هي أول زهرة تفتحت في تلك الدوحة الكريمة ، بيت علي والزهراء عليهما السلام ، وهو الولد البكر . .

وكان الطلق قد أدرك الصديقة فاطمة قبيل فجر تلك الليلة ، وكانت ليلة جمعة ، في السنة الثانية للهجرة ، وإذا بالإمام الحسن عليه السلام عليه ملاءة

---

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٤١ .

من نـور ، ووقـع على الأرض سـاجـداً لله ـ سبحـانـه وتعـالىٰ ـ وأخـذه جـده رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان ملفـوفاً بخـرقـة صفـراء . وقـال : ألم أنهكم عن أن تلفوا المولود بخرقة صفراء ؟ . . .

لاحـظوا كيف أن الـرسـول صلى الله عليه وآله وسلم ، نبـه إلى أنـه يجب عـدم استعمـال اللون الأصفـر ، لـطفـل في السـاعـات الأُولىٰ من ولادتـه ، ولعـل في ذلـك التنبيه ، استباقـاً للعلم والفكر ، الـذي اكتشف حديثـاً أن اللون الأصفر يسبب لحـديثي الـولادة خـوفـاً في قلوبهم ، واللون الأبـيض يجعـل الـطفـل منشرحاً . . . هكـذا يقول علمـاء النفس في عصرنـا الحاضـر ، وهكذا استبق الـرسول الأعـظم هذا الاكتشـاف بآلاف السنين ، حتى في المستشفيـات الآن تستعمـل الألـوان تبعـاً للحـالـة المـرضيـة ، فهنـاك أمـراض نفسيـة يختـارون لمـرضاهـا اللون النيلي ، أو الأزرق الغامق ، لأنـه يسبب هـدوءاً في النفس . وهنـاك أيضاً اللون الـوردي الذي يؤثـر على الأمراض البـدنية . وتـذكر بعض الكتب العلميـة والمجلات المتخصصـة ، أن العلمـاء أجمعـوا على أن اللون الأبيـض أفضـل الألوان ، لأنـه يبعث على الفـرح ، ويشيـع السـرور في قلب الطفل .

«ألم أنهكم عن أن تلفـوا المولـود بخرقـة صفراء ؟» . . قـال هـذا ، ثم رمـاها وطلب قمـاشة بيضـاء ، لف بها السبط الأول (الحسن) ـ روحي فـداه ـ ثم أذّن بـأذنه اليمني ، وأقـام في اليسرى ، وهـذا سَمت ومرسـوم إسـلامي ، ففي اللحظة الأُولىٰ التي يطل بهـا الإنسان على هـذه الدنيـا ، ينادي الإسـلام بـأذنيـه : الله أكبـر ، الله أكبـر ، وحتى عنـدمـا يفـارق الحيـاة ، وهـو يعـاني سكـرات الموت ، تتلىٰ عليـه سورتي الصـافات ويس . وهنـاك أيضـاً التلقين للميت وهو على شفير القبر .

فالإسلام ـ رحمنـا الله جميعاً ـ لا يفـارقنا منـذ لحظة مجيئنـا إلى الحياة ، حتى اللحـظة التي نفارقهـا فيها ، الفـراق النهائي . وقـد يتبادر إلى أذهـاننا أن الميت بين أيدينا يشبه الحجر أو الخشبة لا يسمع ، كلا ، بل هو لا يزال

حياً ، يسمعنا ويرانا ويتأثر بكلامنا ، لكن بمقاييس تختلف عنا . ولكنه في عالم برزخ ونحن في عالم آخر .

لما دفن الرسول الأكرم عمّه الحمزة بن عبد المطلب ، ليلة الجمعة قال : رأيت عمي الحمزة الليلة في أحسن حال . قيل له : أين رأيته يا رسول الله ؟ قال : رأيته في عالم البرزخ وهو في جنة ، وكان أمامه طبق فيه رطب ، فتحول الرطب إلى عنب ثم تحول العنب إلى رمان ، ثم أضاف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : في عالم البرزخ تتغير الأشياء وتتبدل بحسب رغبة الإنسان .

عندما يقبل الإنسان إلى الحياة الدنيا ، يستقبله الإسلام ، فتؤذن في أذنه اليمنى ، وتقيم في أُذنه اليسرى ، وعندما يغادرها يلقن الشهادة بالقول : يا عبد الله ، إذا سألك الملكان المرسلان إليك من ربك ـ جلّ جلاله ـ فقل : الله ربي . يا عبد الله لا تخف منهما ، إنهما ملكان مقربان ـ اللَّهمَّ ارحمنا يا رب العالمين ـ .

فالناس غافلون أيها الأخوة .

وهذان ملكان من الملائكة الكرا

أنك عندما تستقبل شخصية كبي

والهيبة . وهذان الملكان ، لا تخفو

ربك ؟ فقل : الله ربي . من نبيك ؟ قل

محمد وآل محمد) ، وفي الأخبار أن الذي يصلّي على النبي ، هناك في القبر ، لا يثقل لسانه أمام هذين الملكين ، ويتحدث معهما بطلاقة .

وبالعودة إلى ولادة الحسن عليه السلام ، فقد أخذه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . . . أذن في أُذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ، ثم عقّ عنه بكبشين أملحين . وفي اليوم السابع ، حلق رأسه وتصدّق بوزنه ذهباً وفضة للفقراء .

• في رحاب الحسن عليه السلام :

لحظة أخذه لولده الحسن قال : أيها الناس ، هذا ابني الحسن ـ

لاحظ الرسول يقـول : هذا ابني ، لأنـه يعلم بالمؤامـرة التي تحاك من بعده لفصـل أهـل بيتـه عنـه ، فـإذا فصـل أهــل البيت عن النبي ، فعلى الإسـلام السلام .

لـذلك فـالمسألـة كلها هنـا «إني تـارك فيكم الثقلين كتـاب الله وعتـرتي أهل بيتي» ، ، «الحسن والحسين ابناي» .

وأثنـاء صلاتـه كـان يحمـل الحسن أو الحسين على صـدره ، وعنـدمـا يسجـد يأتي الحسن أو الحسين ويمتـطي ظهره ، يـرتحله . فيطيـل السجود . فيسألونـه : أنزل عليـك الوحي ؟ فيقـول : لا ، وإنما هـو ولدي الحسن ، أو الحسين ، ارتحلني ، فما أحببت أن أعجله بالنزول .

وجـاء بنـو أُميّـة وبنـو العبـاس ، فضـربـوا جـداراً بين أهـل البيت وبين النبي ، وقالوا : الحسن والحسين ليسـا ولدي رسـول الله ، ليسا ابني النبي ، وسخروا لذلك الأدباء والشعراء لإثارة النعرات الجاهليـة والعصبيات القبليـة ، إنهما ابنا البنت ، وابن البنت ليس ابناً :

بنونا أبناء أبنائنا .

وبناتنا أبناؤهن أبناء الرجال الأباعد .

وهـذا شاعـر آخر ، يضيـع دينـه ويسخـر ضميـره إرضـاء (للخليفـة) أو الأمير ، ومن أجل حفنة من النقود :

أنى يكــون ولـيس ذاك بكـائـن   لبني البنــات وراثــة الأعمــام .

وهـذا هارون الـرشيد يصلّي ثم يلتفت إلى الإمـام موسىٰ بن جعفـر عليه السلام قائلًا : يا موسى ، كيف جَوَّزتم لأنفسكم أمام العـامة والخـاصة من النـاس أن ينـادوكم يا بني رسـول الله ، ويا أبنـاء رسول الله ؟ . فكيف أنتم أبنـاء رسـول الله ، وعلى أي أساس ، وأنتم أبناء علي ، وفـاطمة وعـاء ؟ . فالتفت الإمـام موسى بن جعفر إليه وقال : أصلح الله الأميـر ـ وكان يقـول له : الأميـر ، كما يُقال للأعمىٰ بصيـر ، مع أنـه لا يرى ـ لـو أن رسول الله نُشـر الآن من قبره ، وخطب إليك إحدى كريمـاتك ، أكنت مُـزوجه ؟ قـال : يا سبحـان الله ، ولم

لا أزوجه ؟ فأنا أفتخر على العرب والعجم ، بل على قريش بهذا الزواج ، فأجابه الإمام موسىٰ بن جعفر : ولكنه لا يخطب مني ولا أزوجه ، قال : ولِمَ ؟ ، قال : لأنه ولدني ولم يلدك ، لأني أنا ابن رسول الله ، وابنتي بنت النبي ، وابنتك يا هارون ليست كذلك . وهذا هو الفرق بيننا وبينكم . لذلك يقول الناس للإمام : يابن رسول الله .

دخل أبو الجارود ـ من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام ـ وهو رجل علم ومعرفة ، على الإمام الباقر ، وكان متأثراً . فقال له الإمام : أراكَ متأثراً يا أبا الجارود ؟ قال : سيدي لقد جرى حوار بيني وبين قوم زعموا أن الحسن والحسين ليسا ابني رسول الله ، قال : فماذا قلت لهم ، أحججتهم بأي شيء ؟ قال : يابن رسول الله ، قلت لهم إن القرآن الكريم يقول في قضية عيسى : ومن ذريته داود وسليمان إلى أن يصل إلى عيسى ، فيقول إن عيسى من ذرية نوح وإبراهيم وآدم ، فمن أي طريق صار إبناً لإبراهيم أو ابناً لنوح ؟ . فقالوا عن طريق أمه ، فقلنا : إذاً كان عيسىٰ ابناً لإبراهيم عن طريق أمه ، ويفصلهما عدد من الآباء والأجداد ، فليس بين الحسن والحسين ورسول الله إلاّ فاطمة وحدها ، فهما إذن ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قال : فِيمَ أجابوك يا أبا الجارود ؟ قال رأيتهم يقولون أنه من الممكن أن يطلق عليه ابن ، ولكنه ليس من الصلب .

قال الإمام عليه السلام فبمَ أجبتهم ؟ . قال : سيدي ، قلت لهم إن القرآن يقول : ﴿**قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم**﴾ . قال : فِيمَ أجابوك ؟ قال : سيدي ، قالوا : صحيح قد تطلق الكلمة على الحسن والحسين ، أنهما ابنا النبي ، ولكن مع ذلك ليسا من صلب رسول الله ، قال : سيدي ، سكت وسلمت أمري لله . قال الإمام : والله لأقولنها لك يا أبا الجارود صريحة واضحة من كتاب الله ، لا يردها عليك إلاّ كافر . قال : سيدي يا أبا جعفر ، وأين هي ـ روحي فداك ـ قال : يا أبا الجارود ، هي في قوله تعالىٰ : ﴿**حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم . . . وحلائل أبنائكم**

الـذين من أصلابكم﴾ . فسلهم ، هـل يجوز لـرسـول الله نكـاح حليلتيهمـا ؟ هـل يجوز للنبي أن يتـزوج زوجـة الحسن أو زوجـة الحسين ؟ . فـإن قـالـوا نعم ، كفـروا وفجـروا . وإن قـالـوا : لا . فـالآيـة صـريحـة واضحـة ، أن الحسن والحسين من صلب رسـول الله ﷺ . وهـذه الآيـة نفسهـا تحتـوي على بُعـد آخـر أيضـاً ، لأن القـرآن يقـول : حـرمت عليكـم أُمهـاتـكم وبنـاتكم . . . إلى أن يصـل إلى بنـات الأخ وبنـات الأخت ، ولكن لم يقـل بنـات بناتكم ، وإنمـا اكتفى ببناتكم فقط . وهنـاك قـال : بنـات الأخ وبنـات الأخت . لمـاذا ؟ . . لأن البنـات لا يـدخلن تحت عنـوان الأخ والأخت ، ولهن عنـوان خـاص ، ولـذلـك ذكـرهم القـرآن ، في حين أن بنـات البنت يدخلن مع البنت، فحين يقول: حرمت عليكم بناتكم وبنات بناتكم، يعني أن بنـات بنـاتكم أيضـاً. بنـاتكم ويعني زينب بنت رسـول الله ﷺ ، والحسن والحسين ابنـا النبي وهكـذا . . . فمن شـاء فليـرضَ ومن لم يشـأ فليغضب . والأُمور واضحة كلها ، وطريق الجنة واضح أيضـاً ، ومن يريـد أن يذهب إلى جهنم ، فلا مانع ، مالك خازن النار موجود ، وسيرحب بهم حسب الأصول.

هـذه كانت جـولة في رحـاب الإمام الحسن بن علي عليه السلام، كـريم أهـل البيت الـذي ما أمّـه ذو حـاجـة ورده خـائبـاً أبـداً ، فهـو بـاب الله الـواسـع ، والدعاء في شهر رمضان مستجاب والعمل مقبول .

حجّ الإمام خمساً وعشرين مرّة ماشيـاً على قدميـه ، وإن النجائب لتقـاد بين يـديه ، ومـا كان يـركبهـا ، ولـه مضـاف كبيـر ، حتى في أيـام أبيـه أميـر المؤمنين ، ويـدعو النـاس إليه ، ويلتفت إليهم . . . . خـرج من مـالـه ثـلاث مرّات لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ .

. زهده وعبادتـه :

كـان عليه السلام إذا وقف للصلاة ، ارتعـدت فـرائصـه ، وإذا تـوضـأ ، اصفـرّ لـونـه ، قيـل لـه : يـابن رسـول الله ، أنت ابن النبي ويصفـرّ لـونـك وقت الصلاة ؟ قال : إنكم لا تـدرون بين يدي مَنْ أريـد أن أقف . ثم يقول : «يـا

محسن قد أتاك المسيء ، فتجاوز عنه قبيح ما عنده بجميل ما عندك يا كريم» . وأي قبيح عند الحسن ؟؟ إنما في هذه تربية لنا نحن ! .

أما حلمه فكان عظيماً ، يشتمه رجل من أهل الشام في المدينة ، فيقبل عليه الإمام الحسن عليه السلام ويقول : يا هذا أظنك شبَّهتَ ، أنت لا تقصدني أنا ، فإن كنت جائعاً أطعمناك ، وإن كنت محتاجاً قضينا لك حاجتك . . . إن لنا جاهاً عريضاً ، وداراً واسعة في المدينة ، فَمِلْ إلى دارنا ، كن في ضيافتنا ، على الرحب والسعة . وإذا بالرجل يقع على قدمي الإمام الحسن يريد تقبيلهما ويبكي ويقول : سيدي ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ، أنا أشتمك يابن رسول الله وأنت تقابلني بهذا الخلق الكريم ! .

لعمري ، إن هذه هي شيم الكرام المطلقة ، وهذا منهجهم في التربية وفي المعاملة الطيبة ، لأن الدين ، المعاملة مع الناس . وكان الناس يأتون للإمام الحسن عليه السلام يحملون القِرب ، وجاء أحدهم بجرة في يده وقال :

ولما رأيت الناس شدوا رحالهم   لبحرك الطامي أتيت بجرتي .

فاملأها لي . . . ويقول الإمام :

نحن قوم نوالنا خضل   يرتع فيها الرجاء والأملُ
تجود قبل السؤال أنفسنا   خوفاً على ماء وجه من يسِلُ

هكذا روحه . . . هكذا طيبه . وكلما حاول الأمويون أن يشوهوا صورته لم يتمكنوا - فهو سيد شباب أهل الجنة : (الحسن والحسين إمامان إن قاما وأن قعدا) .

أما إذا أتينا على ذكر نبوغ الإمام الحسن وفصاحته في علمه ، فإننا نجده في آخر لحظة من حياته ، عندما دخل عليه جنادة الأنصاري يقول : سيدي أوصيني . . . قال الإمام الحسن : (يا جنادة ، استعد لسفرك ، وحَصِّل زادك قبل حلول أجلك ، واعلم بأنك تطلب الدنيا والموت يطلبك ، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة ، وهيبة بلا سلطان ، فاخرج من ذل معصية الله

إلى عزّ طاعة الله) .

حقاً إن الإمام الحسن عليه السلام ابن أبيه بلاغة وفصاحة ، أو لم يكن والده الإمام علي دون النبوة وفوق مستوى البشرية عامة في هذا الميدان ؟ . وقد كانت للإمام الحسن عليه السلام حلقات في المدينة يختلف إليها الناس، ينشر فيها العلم ، وينقل إلى مجالسيه فكر جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفكر أبيه علي عليه السلام بكل دقة وأمانة . هذا فضلاً عن تقدمهم للجيوش الإسلامية التي قامت بنشر الدين بقيادة والدهم أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد كان طبع الإمام الحسن عليه السلام غاية في الرقة والرّحمة وعلى جانب عظيم من سمو الأخلاق التي رضعها طفلاً من منهل جده محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد مرّ وأخوه الحسين عليه السلام على شيخ طاعن يتوضأ ، فوجدا أنه لا يحسن الوضوء ، فقالا له : يا شيخ نتوضأ أمامك ، وانظر أينا يحسن الوضوء . فلما توضآ قال : سيديَّ أنا الذي لا أعرف الوضوء ، إنما وضوؤكما صحيح . وهذه الرواية تفيدنا أن الحسنين لم يريدا أن يجرحا مشاعر هذا الشيخ بالقول له مباشرة أن وضوءه خطأ أبداً . . . إذ لم تكن الغلظة والخشونة من طبعهما . ولهذا كافأهم الله بأن جعل ذريتهم في القمة من الاحترام والكرامة ، وجعلهم جميعاً مطهرين من الرجس ، وأوحى في القرآن الكريم أن أجر الرسالة هو مودتهم فقط ، حيث قال ـ عزّ من قائل : **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربىٰ﴾**(1) .

ـ اشتراكية الاسلام :

ونحن يجب علينا أن نعرف هذا الأمر حق المعرفة ، ولا ننسى بأن كل المسلمين المؤمنين مكرمون ، **﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾** . لكن آل البيت لهم شرف الانتماء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنهم أبناء علي وفاطمة عليهما السلام ، فكرمهم إذ جعل لهم نصيب من الثروة التي نظم الله توزيعها على الناس

(1) سورة الشورىٰ ؛ الآية : ٢٣ .

في برنامج اقتصادي متكامل ، لمحاربة الفقر والعوز ، فشرع الزكاة وشرع الخمس . وآية الخمس نزلت في شهر رمضان المبارك ، في هذه الليالي المقدسة .

فجعل الزكاة لعامة الناس ، وقسم هؤلاء الناس إلى ثمانية أصناف أو قل فئات تتوزع عليهم الزكاة في قوله عزَّ وجلَّ : **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل﴾**(١) . والخمس ستة أصناف ، يقسم على ستة **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾**(٢) . فالسهم الأول لله وللرسول ولذي القربى ، يعود للإمام ، فهؤلاء الثلاثة شيء واحد ، للإمام الحجة (وهو الآن في وقت الغيبة) . والثلاثة الباقية (لليتامى والمساكين وابن السبيل) من أبناء النبي ، فمثلاً إذا كان هناك سيد مسافر وانقطع في الطريق ، فيُعطى من هذا المال حتى يتمكن من العودة إلى وطنه ، ولكن يعطي عطاءً يناسب شخصيته ويناسب أيضاً مكانته .

وهذا العطاء يكون ـ كما أسلفنا ـ من الخمس ـ وليس لأبناء النبي نصيب من الزكاة ، التي لا تجوز عليهم ، والصدقة عليهم حرام . وإنما تجوز على المسلمين المؤمنين والموالين لهم . وبهذا الحكم الشرعي التزم أهل البيت حتى في حالة الحرج ، فهؤلاء أطفال الحسين في أمس الحاجة للطعام ، والحوراء زينب كانت تنادي : يا أهل الكوفة إن الصدقة علينا حرام . يعني أنه لا تجاوز للحكم الشرعي عندهم أبداً ، وتحت أي ظرف .

والخمس غير الزكاة ، فلا يخلطنَّ أحدكم بينهما ، كذلك هناك زكاة الفطر ، وبهذا تتكامل أمامكم معالم الاقتصاد الإسلامي . والإسلام جاء بمناهج وتشريعات ليس لها نظير في العالم أجمع من حيث العدالة في

---

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ٦٠ .

(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ٤١ .

توزيع الثروة على الناس ، وإذا كان اليوم يحكم العالم نظامان ماليان هما النظام الرأسمالي والنظام الماركسي الإشتراكي الشيوعي ـ نعوذ بالله أن نقارن بين عدالة هذين النظامين ، إن كان فيهما عدالة ، وبين عدالة أهل البيت في الحفاظ على الثروة الإسلامية ، وتوزيعها بكل تجرد . ولا يخفى عن بالنا كيف انهار النظام الاشتراكي الذي يدعي الشيوعية ، لأن الإنسان وخصوصاً الغير مؤمن ، فكيف بمن لا يعترف بخالق ومخلوق ، هذا الإنسان مهما ادعى التجرد والحياد ، فإنه لا يستطيع أن ينتزع الأنانية من نفسه ، فاستفرد الذين هم في مركز المسؤولية في تلك الأنظمة بمقدرات الدولة وخيراتها ، ولم يعدلوا في حكمهم ، فتهاوى نظامهم بطرفة عين . فلا يعدل في التوزيع ولا يتجرد عن الغايات والمصالح والأنانيات إلَّا من اتقى ربه وآمن به ، وتصرف على أساس ، (وإن لم يكن يرى الله ، فإنه مقتنع بأن الله يراه) . هكذا تصرف علي بن أبي طالب أيام خلافته ، وهكذا عدل الأئمة من بعده بين الناس ، وانطلاقا من قول الإمام علي عليه السلام : «إن الله تبارك وتعالىٰ ، قد جعل أقوات الفقراء في أموال الأغنياء . . فما جاع فقير إلَّا بما مُتِّع به غني» . وقال أيضاً : «ما رأيت نعمة موفورة إلَّا وإلى جانبها حق مُضَيَّع» وهذه قاعدة عامة . وفي نفس المجال يضيف عليه السلام : «لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته» . ثم أوصى ولده محمداً بقوله : «بني ، استعذ بالله من الفقر ، إني أخاف عليك منه ، فإن الفقر منقصة للدين ومَدْهشة للعقل» . فالفقر في نظر الإمام علي عليه السلام ينقص الدين ، ولا يدع الإنسان يفكر ، فالإنسان الذي يرى أطفاله وقد استبد بهم الفقر ويتباكون من الجوع ، يعيش في حيرة دائمة ، يحتار في إيجار البيت ويحتار بمأكل أطفاله وملابسهم ، فكيف يمكن أن تستقيم له الحياة .

ويقول أبو ذر أيضاً : «عجبت لمن لا يجد قوت يومه ، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه» .

ولذلك يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن من

الـذنـوب ذنـوبـاً لا يكفـرهـا إلاّ الهمـوم في طلب المعيشـة» . فهنـاك ذنـوب كبيـرة ، والإنسان عنـدما يهتم ويفكـر كيف يسير حيـاته وييسـر معيشته ، فـإن هذا الهم وحده هو كفارة لذنوبه . . لاحظ هذه المسألة .

لكن نـظرة الإسلام للصـدقة ، تنـطوي على أن الصدقـة فيهـا شيء من الذل والهوان. وإذا أحد الناس أعطىٰ صدقة للفقير، فإنه يعطيه من علٍ ، يجعل يده فوق يد الفقير ، أو يستقبله بوجه كَشِخٍ وهو معـرض عنه ، بينمـا المسألـة خلاف ذلك ، فالصدقة مأخوذة من الصدق . .

﴿خـذ من أمـوالهم صـدقـة تـطهـرهـم وتـزكيهم بهـا وصَـلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾(1) .

فالصدقة هي الزكاة التي تطهرهم من الأمراض النفسيـة ، وتطهـرهـم من دنس الـذنـوب ، من البخـل ، من الشـحّ ، من الـطمـع ومن الحسـد . **﴿وتـزكيهم بهـا﴾** ، التـزكيـة ليست فقط في المـال ، وإنمـا في كـل شيء ، وهي تعـود على صـاحبهـا بنمـو في رزقـه وعيـالـه وأولاده ونفسـه ومصلحتـه وحيـاتـه ، والله ـ تبـارك وتعـالىٰ ـ يبـارك لـه . ولـذلـك يقـول : **﴿وصـل عليهم﴾** ، أي ادعُ لهم ، فالصلاة دعاء . . . **﴿إن صلاتك سكن لهم﴾** .

يقول البخاري في كتـاب الزكـاة والصلاة : «كـان النـاس يـأتون لـرسول الله يحملون الزكاة ، والـرسول كـان يصلّي عليهم ، وكان يقـول : اللّٰهمَّ صلّ على فـلان وآل أبي فلان . فـدخل عليـه أبو أوفى فـأعطاه الـزكاة ، فـأخذهـا النبي وقـال : اللّٰهمَّ صـلّ على أبي أوفى وآل أبي أوفى . ثم يضيف قـائـلاً : ذهب الـرسول لـزيارة جـابر بن عبـد الله الأنصاري في بيتـه ، فاستقبلتـه امرأة جـابر ، قـالت : يا رسـول الله ، صـلّ عليَّ وعلى زوجي ، فقـال النبي صلّى الله عليك وعلى زوجك» . هذا ما نقله البخاري .

فإذا كان الـرسول صلى الله عليه وآله وسلم يصلّي على جـابر وعلى زوجتـه ، ويصلّي على

---

(1) سورة التوبة ؛ الآية : ١٠٣ .

أبي أوفى وآل أبي أوفى ، فكيف نقول في صلاتنا : صلّى الله عليه وسلّم ؟ ولماذا نترك أهل البيت ، لماذا لا نذكرهم ؟ لماذا لا نقول : صلّى الله عليه وآله وسلّم ؟ .

وهناك ، أيها الأخوة المؤمنون ، أُمور تختلط علينا فيها بعض المفاهيم ، يتصور البعض أن الإسلام يحب الفقر ولا يريد الغنى . . . لا ، وهذا غير صحيح . وقد كان أحدهم يقرأ لي هذه الآية ويقول : أنا أحب أن أكون مؤمناً ، لكن هذه الآية التي تقول : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها . . .**﴾[1] ، فقلت له هذا صحيح ، ولا ينفقونها في سبيل الله . فالإسلام ليس ضدك لأنك تملك كنزاً ، بل بالعكس ، باستطاعتك أن تملك كنوز قارون ، فالإسلام يرحب بك ، لكنه يطلب منك أن تنفق من هذه الكنوز على الفقراء والمحتاجين في المجتمع ﴿**في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**﴾[2] . والآية واضحة تمام الوضوح ، في أن الإنسان المسلم باستطاعته أن يمتلك المال ، ولكن فلينفق على الفقراء والمعوزين جزءاً من هذا المال الذي يعتبر حقاً عليه للسائل وللمحروم . وبذلك يكون عبداً صالحاً . والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يتحدث عن العبد الصالح ، وهذا موسى عليه السلام لما ذهب إلى القرية ووجد فيها جداراً يتداعى أو تداعى وانهار ، فأقامه بنفسه ، وماذا كانت النتيجة ؟ .

قال : أما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً . . إذن ، هذا الذي عنده كنز القرآن ، يقول إنه رجل صالح . لماذا ؟ لأنه كان يدفع الحقوق ، ولم يترك أطفاله يتكففون الناس . فالإسلام عظيم جداً أيها الأخوة . فاجمع هاتين الآيتين ، تلك التي تقول : ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**﴾ ، والثانية التي تقول : ﴿**وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً**﴾ .

---

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ٣٤ .

(٢) سورة المعارج ؛ الآيتان : ٢٤ و ٢٥ .

هذا الذي جمع الكنز ووضعه تحت الجدار ، يصفه القرآن الكريم بصفة الصلاح ، فبصلاح الأب حفظنا الكنز لأولاده ، وصلاح الأب يعود على أولاده وعلى ذريته . . . إذا كنت صالحاً ، فلا تخش على أبنائك ولا تخف عليهم أبداً . . فالله ـ تبارك وتعالىٰ ـ يرتب أمورهم ويصلح حياتهم بصلاحك ـ إن شاء الله ـ فالتزم بالله ، فإذا أصلحت ما بينك وبين الله ، أصلح الله بينك وبين أبنائك وبين الناس أيضاً . هذا كلام أمير المؤمنين عليه السلام . وهذا الكلام قد يؤثر في قلوب البعض ، وإنك لتجد البعض الآخر لا يتأثر به . وهذا خاضع إلى نفسية كلٍّ منا . ففي فلسفة الإنفاق في الإسلام يقول الإمام علي عليه السلام ، أن الذي لا يدفع الحقوق يكون بخيلاً ، والبخل ينبت في قلب صاحبه النفاق ـ والعياذ بالله ـ في حين أن العطاء يتحول إلى طهر وتزكية ، وقد قال الله ـ عزّ وجلّ ـ في هذا المجال : **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم﴾** .

جاء ثعلبة بن حاطب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ياثعلبة ، اتق الله ، قليل تشكر الله عليه ، خير من كثير لا طاقة لك به ، ولكن ثعلبة ألحّ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني ، وأيم الله لئن رزقني لأنفق منه وأعطي وأتصدق . قال له : تفضل هذا دينار ، اشترِ لك به نعجة واذهب . . . فذهب ، وإذا غنمه نمت كما ينمو الدود والنمل ، ولم يبق في المدينة مكان يتسع لها ، أو مراعي تشبعها ، وانشغل بها عن حضور الصلاة ، وانقطع سنة كاملة عن رسول الله . وكان هناك شخص اسمه ثوبان ، شاب من الأنصار ، كان إذا دخل الرسول إلى البيت ، ذهب ثوبان إلى بيته يرتجف من البكاء لفراق رسول الله ، ولو للحظات ، وذاك ـ أي ثعلبة ـ غاب سنة كاملة وهو مشغول بأمواله المستجدة . . فنزلت آية الزكاة . فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : أين ثعلبة ؟ وانتدب اثنين من المسلمين وقال لهما : اذهبا إلى ثعلبة وقولا له ، أن عليه حقوقاً شرعية بحسب الآية : **﴿في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾** .

جاءا إلى ثعلبة ، وإذا به يثور ويغضب ويقول لهما : قال لنا صلوا

فصلّينا ، وحجوا فحججنا وصمنا ، وبعد ذلك لحقنا على غنمنا ؟ أرأيتم ثعلبة هذا ؟ ألا تنطبق عليه الآية الكريمة **﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنىٰ﴾**(١) . . قالا : يا ثعلبة ، هذا حكم الله ، قال : لا ، هذه جزية ، هذه أخت الجزية ، نحن لسنا يهوداً . . عندها رجعا إلى النبي ودخلا المسجد ، وقبل أن يخبراه قال لهما : ويح ثعلبة ، ويح ثعلبة (مرّتين) . . . وغضب بأبي وأمي . وفي نفس اللحظة نزلت الآية : **﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدقن ، ولنكوننَّ من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾**(٢) هذا هو ثعلبة بن حاطب . لاحظ ماذا يقول في الآية الكريمة : **﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾** ، فالبخل نفسه تحول إلى نفاق .

فذهب أخو ثعلبة إليه ، وأخذ يرجوه أن يحضر ويدفع الحقوق الشرعية ، فاقتنع معه ، وجاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأراد أن يعطيه شيئاً بسيطاً ، لكن الرسول شاهده وهو يمشي متمايلاً مختالاً ، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : والله لا آخذ منك شيئاً . فقد منعني الله أن آخذ منك . نحن نأخذ الأموال عن طيب نفس . وأموالك هذه سوف تذهب ولن يبقى لك منها شيء . وبالفعل فقد فقد كل أمواله بعد فترة قصيرة ومات غنمه وضاعت كل أرزاقه ، فعاد بعد فترة إلى المسجد منكسراً وجلس في الصف الأمامي .

فعلى كل إنسان أن يكون مع الله في السراء والضراء ، حتى يكون الله معه ، فما قيمة الحياة ؟ بلا إيمان ولا دين ، فأيام الإنسان متقلبة ولا تبقى على حال ، مرارة وحلاوة ، صحة ومرض ، غنى وفقر ، وعليه أن يصبر على كل هذا التقلب ويقف إلى جانب الله ، وألا يكون إلى جانب المنافقين ، لأن قلب المنافق قاس كالخشبة اليابسة ، والقرآن الكريم يصور المنافقين بقوله : **﴿كأنهم خشب مُسندة يحسبون كل صيحة عليهم ، هم**

---

(١) سورة العلق ؛ الآية : ٦ .

(٢) سورة التوبة ؛ الآيات : ٧٥ - ٧٧ .

العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾[1] .

هـذا مـوضـوع الـزكـاة ، ولـو أنهـا وزعت بشكـل سليم ، لغـطت كـل احتيـاجـات فقـراء المسلمين في العـالم الإسـلامي ، وزكـاة الفـطرة هي : حنطة ، شعير ، تمر ، زبيب ، وأنت خذ سعر الشعير وسعر الزبيب : خذ السعر الوسط الذي قد يكون في حدود ٤ دنانير ، وهناك مليار ونصف المليار مسلم في العـالم ، لو أنهم كلهم يـدفعـون هـذه الـزكـاة لبلغت حـوالي ستـة مليـارات ، أي نحواً من ١٨ مليـار دولار ، لو دفـع هذا المبلغ في يـوم العيـد لفقراء المسلمين في العالم ، هل يبقى مسلم فقير ؟ .

وهناك بحوث مفصلة وواضـحـة حـول الـزكاة والخمس ، أهمهـا للسيد الـطبطبـائي والشيخ يـوسف البحراني ، الـذي له كتـاب (الحـدائق في كتـاب الخمس والزكاة) يعتبر مرجعاً مهماً في هذا الميدان يُرجع إليـه عند الحـاجة . يقـول فيه فضيلة الشيـخ : لـم أعثر حتى على دليـل واحد ولا آيـة أو حديث ، يحتم علينـا أن ندفـع هذه الأمـوال للحاكم الشـرعي ، أو نأخـذ منه الأذن في التصرف .

والسيد الحكيم ـ رحمة الله عليه ـ يتحدث في مستمسـك العروة الـوثقى في صفحات طويلة عن هذا الموضوع، حيث يقول : لا دليـل إطلاقـاً على أنه يتـوجب عليك أن تستـأذن الحاكم الشـرعي وأنت مسؤول عن أموالـك . فـإذا عــرفت المستحقين فـادفــع لهم . والـذي يــدفعني إلى الحـديث في هــذا المـوضوع ، أني أرى الأمـوال ـ أموال صـاحب الزمـان عليه السلام ـ أموال ا لخمس والـزكاة مكـدسة ، سـواء عند الأفـراد ، أو عند غيـرهم في البنوك . وعنـدمـا تـزور أحد المتمـولين وتـطرح عليـه قضيـة الخمس والـزكـاة ، فيجيبـك على الفـور : لنعـد إلى الحـاكم الشـرعي ، ونَـرَ إن كـان يسمـح لنـا أم لا ؟ وهـو وأمثاله لا يعرفون أن الخمس والزكاة واجبـة مثل الصـوم والصلاة ، وليس لهـا

(١) سورة المنافقون ؛ الآية : ٤ .

ربط بالحاكم الشرعي ، إنما هو أعرف بمواضع صرفها .

سألني بالأمس أحد المؤمنين أن هناك (سيداً) عنده ورقة من الحاكم الشرعي تقول أنه يستحق . . . فقلت له : مع احترامنا للورقة ، فإن السيد لا يحتاج لها ، فهو ابن رسول الله ، وهل يحتاج إلى شهود ؟ .

وهناك امرأة علوية في الهند تقطن وبناتها في بيت ، فيأتي المالك ويخرجها منه، وتقف امرأة أيضاً على باب أحد الأفران وتأخذ عشر أرغفة ثم تقول للخباز : استر علينا ، لا أملك الآن ثمنها ، وسأدفعه لاحقاً ، فأنا وبناتي نريد أن نأكل ونحن في شهر رمضان . . . هل تتصورون أن هذه الأمور ستبقى هكذا ؟ هل تتصورون أن المرأة التي أخرجها المالك من المبيت قائلاً لها : اذهبي إلى الجحيم أنت وبناتك ، فأنا أريد أن أؤجر البيت . فذهبت لتوّها مع بناتها إلى إمام المسجد تشكو له أمرها مبيّنة له أنها علوية من نسب الإمام علي عليه السلام، فقال لها إمام المسجد : هل عندك شاهدان عدلان يشهدان أنك أنت محتاجة ؟ قالت : لا . قال : أمة الله ، إذن لا أستطيع أن أعطيك لأن هذه أموال صاحب الزمان ، وليس بإمكاني أن أتصرف بها .

ثم يضيف السيد الجليل ـ ناقل هذه القصة وهو السيد نعمة الله الجزائري ـ خرجت المرأة من المسجد هائمة على وجهها ، فوقع بصرها على بيت كبير ضخم ، لمن هذا البيت ؟ فقيل لها إنه لمهراجا ، وهو من الزعماء الهندوس ، يعني من عبدة النار والبقر ، فقصدته ووقفت على بابه ـ ابنة رسول الله ـ فلما عرف الزعيم الهندوسي قصتها ، خرج معها إلى حيث بناتها ، واصطحبهن جميعاً إلى بيته ، وأوصى امرأته وبناته بهن ـ يلبين كل حاجاتهن . وبقين في بيته أسبوعاً . حقاً إنها قصة محزنة ، وهي مثال لقصص كثيرة في الهند وغير الهند من البلدان الإسلامية .

أما الشيخ ـ إمام المسجد ـ الذي طلب منها ـ شاهدين عدلين . فإنه قد رأى فيما يرى النائم ، أن القيامة قامت وجاء يوم الحساب العظيم ،

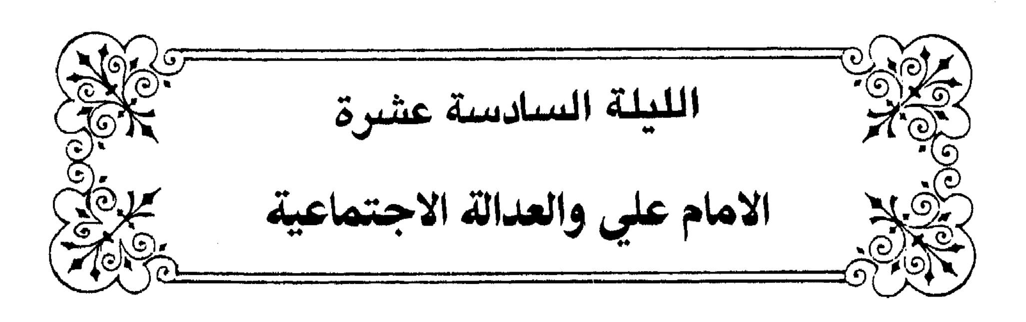
والنـاس في ازدحـام عـظيم ، فسأل : إلى أين ؟ إلى أين ؟ . . قـالـوا إلى حوض الكوثر ، حيث الإمام علي عليه السلام يسقي الظمأى والعطاش . . . وبقربه الزهراء عليها السلام ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم بيده لواء الحمد . فوقف الشيخ - إمام المسجد - قرب أمير المؤمنين عليه السلام وقال : أنـا من شيعتك ومحبيك يا مولاي ، اسقني ماءً من حوض الكوثر ، فالتفت إليه الإمام علي وقال : أعندك شاهدان عدلان ؟ فكر الشيخ قليلاً وقال : شاهدان عدلان ؟ ولماذا ؟ سيدي أنا مؤمن وأحبكم كثيراً . قال : نعم ، أعندك شاهدان عدلان ؟ تأتيك ابنتي وبناتها وهي في حاجة فائقة جائعة عطشى فتطلب شاهدين عدلين ؟ . ثم التفت الشيخ فرأى الرجل الهندوسي يقف على حوض الكوثر إلى جانب الإمام علي . فدهش الشيخ وانتبه فجأة من نومه ، ثم قام وتوضأ ، وأسرع إلى بيت الزعيم الهندوسي ، وسأله عما إذا كان عنده امرأة مع بناتها ؟ فأجابه بالإيجاب ، فطلب منه الشيخ أن يرافق المرأة وبناتها إلى بيته ، فرفض الهندوسي ذلك بحجة أنه رأى الخير والنور والهداية بوجودهن في بيته ، فقص عليه الشيخ الرؤيا التي رآها ، فأجابه الهندوسي بأنه رأى نفس الرؤيا ، ورفض أن يسمح له بمرافقة المرأة وبناتها ، وأبقاهن عنده .

فإذا ما نحن التفتنا ، وحاسبنا أنفسنا ، على مدى التزامنا بالدين وبالإيمان ، وانفقنا ما يتوجب علينا إنفاقه في سبيل الله وعلى الفقراء والمحتاجين نكون بذلك قد تزودنا بالتقوى لآخرتنا ، وإن خير الزاد التقوى . فالعطاء والإنفاق ليس له علاقة بالإذن من أحد ، ولا بكتاب من فلان أو فلان . . ارحموا الفقراء . . ارحموا المساكين ، فهناك عوائل وأسر كبيرة بحاجة إلى المساعدة اقتدوا بأهل البيت عليهم السلام ، واتجهوا إلى الله بقلوب طيبة مفعمة بالإيمان . وقولوا مع القائل :

يـا آل بيت رسـول الـلّه حبكم فـرض من اللّه في القرآن أنـزلـه
كفـاكم من عـظيم الشـأن أنكم من لم يصـلِّ عليكم لا صلاة لـه

اللَّهمَّ صلّ على محمد وآل محمد .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .



الليلة السادسة عشرة

الامام علي والعدالة الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال إمامنا ومولانا عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لئن أبيتُ على حَسَك السَّعْدان مُسهَّداً ، وأُجرّ في الأغلال مُصفّداً ، أَحَبُّ إليَّ من أن أَلقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد أو غاصباً لشيء من الحطام . وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البِلا قُفولُها ويطول في الثرى حلولُها» .

فِكرُ الإنسان العظيم يصنع القلوبَ العظيمة ، ويصنع النفوسَ العظيمة ؛ فكيف إذا كان هذا العظيم كمثل علي بن أبي طالب الذي ما رأت البشرية شخصية أعظم منه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولن ترى في المستقبل .

حديثنا اليوم عن فلسفة الإمام عليّ في المَعَاد . أو بتعبير أكثر وضوحاً : رؤية الإمام عليّ للعدالة الإلهية ، ومن ضمنها المعاد .

ما هو العدلُ عند أمير المؤمنين ؟ :

لو تصفّحنا نهج البلاغة من أوله إلى آخره لوجدنا الإمام علياً يقف بشكل دائم إلى جانب المظلوم ضد الظالم ؛ وهو يحدّد لنا شرط الانتماء إليه : الوقوف في صفّ المظلومين ضد الظالمين . تلك هي فلسفة علي بن

أبي طالب واضحة في كل كلامه وخطبه ورسائله ، وكل فكره الذي استقاه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فقال عليه السلام : «علّمني رسولُ الله ألفَ باب من العلم» . وفي آخر لحظة من حياته ، وهو يودّع الدنيا ، يوصي ولديه الحسن والحسين بقوله : «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً» . . . هكذا كان آخر كلامه كما كان أوله .

لنبحث الآن في مسألة العدل الإلهي .

لقد ذكر الله عزّ وجلّ أن نِعَمَه علينا كثيرة لا نستطيع إحصاءها : **﴿وإن تعدُّوا نعمةَ الله لا تُحصوها﴾**(1) ، كما ذكر أن نِعمه منها ما هو ظاهر ومنها ما هو باطن : **﴿ألم تروا أن الله سخَّر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض ، وأسْبَغَ عليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً . .﴾**(2) .

وفي البداية نسأل : لماذا اعتبر العدل أصلاً من أُصول الدين ؟ - وبتعبير آخر : إذا كان لله صفات كثيرة ؛ فهو خالقٌ ، ورازقٌ ، وأزليٌّ ، وأبديٌّ ، ورحمانٌ ، ورحيمٌ ، وعادلٌ ، وحكيمٌ . . الخ ، فلماذا أخذنا العدل فقط من بين هذه الصفات واعتبرناه أصلاً من أُصول الدين ؟ لماذا لا نقول مثلاً إن أُصول الدين هي : التوحيدُ والحكمة والنبوَّة . . الخ . ؟ .

ذلك لأن كل صفات الحق سبحانه وتعالىٰ تدور حول العدل . فالعدل هو المحور الأساسي لكل صفات الحق ولكل شيء في هذا الكون .

والعدلُ هو وضع الأُمور في مواضعها ، فمن يفعل ذلك يُقال له عادل .

عندما نلقي نظرة على هذا الكون نجد أنه مفصّل ومرتّب بشكل يدلُّ على أن المهندس حكيمٌ وعادل ، لا يصنع العبث ولو بمقدار ذرة واحدة .

---

(1) سورة النحل ؛ الآية : 18 .

(2) سورة لقمان ؛ الآية : 20 .

ولو نظرنا إلى ما في هذا الكون من الذرات الصغيرة إلى الكائنات والأجرام الكبيرة نجده يسير ويتحرك على نظام غاية في الدقّة والثبات . فالجينات الوراثية مثلاً ، هذه الكائنات المتناهية في الصغر ، والتي يمكن أن نجمع مليون واحدة منها على رأس إبرة ، لها نظام دقيق يحكم حركتها وحياتها وتطوّرها . وهذا النظام نفسه هو الذي يحفظ تدفّق النجوم في المسارات الكونية وفي الآفاق ، وهو نفسه الذي يحفظ تدفق الخلايا والدم والطاقة في جسم الإنسان وأعماقه .

إذاً هناك نظام موجود في كل الكون ، وهي حقيقة ثابتة لا جدال فيها . والمؤمنون يعتقدون اعتقاداً ثابتاً أن لهذا النظام وهذا الكون خالقاً .

إن الحضارة المادية العرجاء تكتشف حقائق وقوانين مادية هائلة في الكم ومتناهية في الدقة ، غير أنها تتوقف عند حقيقة الألوهية ووجود الخالق . إنها تكتشف الدماغ ، وقلب الإنسان ، والآفاق البعيدة ، وتحدد لنا المسافات بيننا وبين المجرات ، وسرعة الضوء . . الخ ، ثم تتوقف عند هذا الحدّ . وهذا العالم يقدّم لك الأرقام الدقيقة في الكون وفي جسم الإنسان وفي الشجر والنبات ، وحتى في جناح البعوضة ، ثم يتوقف عند ذلك . لماذا ؟ لأنه لا يؤمن بالله ؛ فهو لا يربط تلك الحقائق والمعلومات بربّ العالمين .

وملخص الحقيقة المادية في موضوع الإنسان أن هذا الإنسان يأتي إلى الحياة فيأكل ويشرب وينام ، ثم يموت ويدسّوه في التراب وينتهي كل شيء .

إن مسألة وجود الإنسان وحياته على هذا النحو تبدو قضية تافهة ! .

والحقيقة هي أن وراء الوجود المادي وحقائقه وقوانينه حقيقة ما ورائية أعظم وفلسفة أبعد وأعمق . . . . إنها حقيقة الوجود الإلٰهي الخالق المبدع المكوّن الناظم ، القادر قدرة مطلقة على الإبداع وحفظ الكينونة ، كما هو قادر على الإفناء وإعادة الخلق .

من أين تتأتّى لنا معرفة هذه الحقيقة وهذه الفلسفة ؟ . علينا في هذا الأمر أن نعود إلى الذين يحملون الحقَّ ، إلى الذين يؤمنون بالله سبحانه وتعالىٰ ، لأن الأمور واضحة عندهم وضوح الشمس في رائعة النهار .

وبالعودة إلى العدل كأصل من أُصول الدين نذكر هنا قول الصدِّيقة الزهراء في خطبة لها : «جعل الله العدلَ تنسيقاً للقلوب» . لماذا ؟ لأن العدل هو المحور الأساسي في كل الوجود .

وللعدل جانبان : عام شامل ، وخاص .

والجانب العام يشمل كل شيء في الوجود ، والخاص يتعلّق بالإنسان وحقوقه ؛ وهذا الجانب الأخير له علاقة بحكومة الإمام عليّ عليه السلام .

إن بناءَ الوجود هو بناء حكيم حتى لو لم نعرف أحياناً الحكمة من بعض مظاهره . وعليه يجب أن نؤمن دائماً بالله ولا نعترض على حكمته . نعم يتساءل الإنسان أحياناً ، ومن حقه أن يسأل بحثاً عن الحقيقة أو الحكمة الكامنة وراء الظواهر . غير أن الإنسان يكون في بعض الأحيان متعنتاً لجوجاً متبرماً ، فيقول مثلاً : لماذا هذا الفقر ؟ لماذا هذه الأمراض ، لماذا هذه الزلازل والكوارث الطبيعية . . ؟؟ وهو في هذه الحال يكون عرضة لتأثير الوساوس فيه ، فيأتيه مثلاً من يقول له : إن هذا يدلّ على عبثيّة وفوضى في الكون ، وما شابه ذلك .

وحقيقة الأمر هي بخلاف ذلك . فلو نظر الإنسان نظرة شاملة لوجد أن الأُمور في مواقعها .

لنتصوّر عمارة ضخمة متداعية مشرفة على الإنهيار ، ثم جاء من يهدمها ليعيد بناءَها من جديد . من الممكن ونحن نمرّ بها أثناء هدمها أن يصيبنا غبار أو شظايا من حطامها فنتبرم ويضيق صدرنا بهذا العمل . ولكن لو نظرنا إلى الأمر نظرة شاملة لعلمنا مثلاً أن مكان أنقاضها سوف يقام مستشفى أو مدرسة أو مَيْتَم أو جامعة . ومن الممكن أيضاً أنها لو تركت

على حالها لوقعت على الناس وقتلتهم . فلماذا نتبرم إذاً ؟ .

هذه إشارة بسيطة ، ولنعد الآن إلى موضوعنا الأساسي ، فنقول : إن كل شيء في هذا الكون هو نعمةٌ ورحمة وليس فيه من شرّ .

متى يحدث الشرّ ؟ يحدث الشرُّ عندما ينحرف الإنسان وتنحرف فطرته فيحوّل طاقات الخير إلى شرّ . وإلى ذلك يشير الله عزّ وجل في كتابه بقوله : ﴿**بدَّلوا نعمةَ الله كُفْراً وأحلُّوا قومهم دار البَوار . جهنّمَ يصلَوْنها وَبِئْسَ القرار**﴾[1] .

صدِّقْ أن لدغة الحيّة نفسَها هي في حقيقتها الأصلية ليست شراً ، لأنها من ناحية الحيّة هي عملية دفاع مشروع عن النفس ، وهذا سلاحها الخاص بها . ومن ناحية أخرىٰ فإن السمَّ الموجود في لدغة الحيَّة يمكن أن يُستعمل في تركيب عدد كبير من الأدوية لعلاج العديد من الأمراض كما هو ثابتٌ علمياً .

وتلك الزلازل التي تحدث ، وينتج عنها أحياناً كوارث طبيعية واجتماعية ، إنما هي نتيجة الحرارة الموجودة في باطن الأرض ومعادنها ، ونتيجة فعل الضغط والدفع والجاذبية ؛ وهي في حقيقتها ليست شراً مطلقاً بل فيها فائدة كبرى في حفظ توازن الأرض في تركيبها وحركتها . هذا بالإضافة إلى أن الله سبحانه وتعالىٰ أعطانا القدرة على تجنّب تلك الكوارث . ففي اليابان مثلاً ، بلد الزلازل الدائمة ، استطاع الإنسان أن يبني بيته على نحو يجنّبه مخاطر الزلازل ؛ فالبيت يهتزّ ولكنه لا يقع على أهله .

والواقع أن الزلازل في حدّ ذاتها لا تقتل الإنسان ، وإنما الذي يقتله هو البناء الذي يسكن فيه ويتهدّم عليه بفعل الزلزال . والأمثلة كثيرة .

ولكن لنتأمّل الآن في مسألة هامة :

---

(١) سورة إبراهيم ؛ الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .

إن الله تبارك وتعالىٰ خلق الكون . بحكمة مطلقة ، وليس في خلقه مقدار ذرّة واحدة من الظلم .

وإذا بحثنا عن مصادر الظلم نجدها تأتي :

أولاً : من الجهل . . الجاهل يمكن أن يظلم الآخرين .

أنا جاهلٌ يمكن أن أمشي وأدوس على النمل وأظلمها لأني جاهل بأماكنها . وحين أكون جاهلاً بحقوق أولادي وزوجتي وعائلتي يمكن أن أظلمهم . إذاً الظلم مصدره الجهل . . . . وهل الله سبحانه وتعالىٰ جاهلٌ حتى يظلم الناس ؟؟ . . .

ثانياً : المصدر الثاني للظلم هو الأهواء النفسية التي يحرّكها الطمع والحسد والجشع والحقد وما شابه ذلك ؛ وهذه الأهواء الفاسدة إنما تدلّ على ضعف الشخصية في الإنسان . فهل الله سبحانه وتعالىٰ عنده حسدٌ تجاه مخلوقاته ؟ وهل هو ضعيف حتى تحركه كوامن الانتقام فيظلم ويعسف ؟ .

ثالثاً : المصدر الثالث للظلم هو الرغبة في انتهاز الفرصة . فالإنسان ربما تسنح له فرصة يشعر معها أنه إن لم ينتهزها لتحقيق غاية أو مأرب فإنها تفوته . وهنا نستعيد قول الإمام عليّ حين يقول : «قد يرى القُلَّبُ الحُوَّلُ وجهَ الحيلة ودونها حاجزٌ من أمر الله ونَهْيه فيرينّها رأي العين وينتهز فرصتها من لا حَرِيجَةَ له في الدين» .

إذاً قد يكون للإنسان هوى ومطمعٌ في ما للآخرين ، ويجد أمامه فرصة للحصول على مطمعه فيسطو على نواميس الناس وأعراضهم وأموالهم ، لأنه إذا ترك هذه الفرصة ضاعت منه ، فإنه يخاف الفوت . فهل هذه النقيصة موجودة عند الله تعالىٰ وهو الكمالُ المطلق ؟؟ .

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجّادية : «وإنما يَعْجَلُ من يخافُ الفَوْت ؛ وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيفُ» . يقول الإمام زين

العابدين ذلك في معرض تنزيه الله عن العَجَلة التي يدفع إليها الخوفُ من الفوت ، وعن الظلم الذي يحرّكه الإحساسُ الذاتي بالضعف .

فرعونُ ضعيف يخاف من الشعب ومن الجماهير فيظلمهم ويسجنهم ويقتلهم . لكن الله لا يخاف من أحد حتى يظلم الناس . ولماذا يظلم ؟ «وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف» . إن هذه العبارة على وضوحها واختصارها تفتح لنا آفاقاً واسعة للفكر والتأمّل .

هذه هي مصادر الظلم ، وهي كلها بعيدة كل البعد عن صفات الله تبارك وتعالىٰ . إذاً الله لا يظلم بمقدار ذرة واحدة . **﴿إن الله لا يظلم مثقالَ ذرَّة﴾**[1] لا في السماوات ولا في الأرض .

بعد هذا نرى أيضاً أن تكوين الإنسان كمخلوق ناطق مفكر وله غرائز وشهوات إنما هو قائم على أساس العدل . ولقد وردتني رسائل متعددة من طلّابي الأحبة فيها رأيان مختلفان . فبعضها يرى أن الله جعلَ الإنسانَ حراً ، وهذا ظلمٌ للإنسان ، لأن الله لو أراد أن يرأف بالإنسان لجعله مجبراً مسيراً حسب أوامره ونواهيه كما جعلَ الملائكة ، ورسائل أُخرىٰ ترى أن الإنسان مجبرٌ ومسيَّرٌ في هذه الحياة ، فإن أخطأ وحاسبه الله على خطئه فإنه يظلمه بذلك .

والحقيقة أيها الأعزاء : أن كلا الرأيين لم يُصب الهدف .

ونحن نقول إن الله تبارك وتعالىٰ خلق الإنسان حراً حتى يتكامل ، ولا يمكن للإنسان أن يتكامل إلَّا بشرط الحرية . فكل العبادات في الإسلام هدفها تكامل الإنسان .

وإذا سألنا : لماذا نحن نصوم ؟ ولماذا نصلّي ؟ لماذا أرسل الله الأنبياء ؟ لماذا نذهب إلى الحج ؟ لماذا ندفع الخُمس والزكاة ؟ لماذا نجاهد ؟ . . . كل ذلك من أجل التكامل .

---

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٤٠ .

والتكاملُ هو السموّ والارتفاع حتى يصل الإنسان إلى مستوى فيه رضوان الله سبحانه وتعالىٰ ، فيطمئنَّ قلبه وتطيب نفسه وخاطره ، فيخرج من الدنيا مطمئناً . ﴿يا أيتها النفسُ المطمئنَّةُ ارجعي إلى ربِّك راضية مرضيَّة﴾(١) فكأنما جاءت النفس إلى هذه الدنيا لأيام معدودة ثم ترجع إلى خالقها ومصدرها .

ولو أن الله حرمنا من حرية الاختيار لكان خلقنا مثل الحيوانات تسيّرنا غرائزنا أو مثل الملائكة . . . فالملائكة لديها العقل ولكنها لا تملك غريزة أو شهوة . والحيوانات لديها الغرائز والشهوات ولكنها لا تملك العقل . أما الإنسان فإنه هذا الكائن العظيم الذي جعله الله فوق الملائكة ، وفي نفس الوقت وضع فيه الشهوة والعقل . «فمن غلبَ عقلُه على شهوته كان أرفع من الملائكة ، ومن غلبت شهوتُه على عقله كان أحطَّ من البهائم» . هذا كلام الإمام عليّ عليه السلام وهو تلميذ النبيّ وأخوه وصنو نفسه وباب مدينة علمه .

يجب أن نلاحظ أن الحيوانات ليس بمقدورها السموّ والتكامل ، أما الإنسان فهو قادر على ذلك . لماذا ؟ لأنه مخيَّر . فهو عندما يقوم بطقس ديني أو شعيرة عبادية فإنما يقدم على ذلك بإرادته واختياره . فهو يصوم ويصلّي ويتصدّق ويذهب إلى الحج ويتكلم ، كل ذلك باختياره ودون إكراه . هل يجبرك أحدٌ على الصيام ؟ أنت في بيتك وحدك ولا رقيب عليك ، ومع ذلك فإنك لا تمدُّ يدك إلى طعام أو شراب . أنت تعلم أن الله أمرك بالصيام ، وهو يراقبك ويطّلع على أحوالك ، فلذلك تمتنع وتغالب أهواءك وشهواتك ، وهذا هو سبيل التكامل الذي يرفع الإنسان .

لنضرب مثلاً آخر حتى تتضح الصورة .

نحن أمام ثلاثة كائنات حيَّة ، هي الملائكة والحيوان والإنسان .

فالملائكة لا يملكون وجود الإنسان الحرّ ، لا يملكون الحرية أو

---

(١) سورة الفجر ؛ الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

الأمانة التي منحها الله للإنسان دون سواه من المخلوقات . والحيوانات أيضاً لا تسير بحريتها واختيارها وإنما بغرائزها ، ولذلك فإن الحيوانات لا ترتقي ولا تتكامل نفْسُها ؛ إنها تبقى في نفس المستوى .

وفي هذه النقطة بالذات تكمن الثغرة الكبرى في نظرية داروين العتيقة . إذا كان القرد أصل الإنسان فلماذا لا يتقدّم القرد ؟ لماذا يتقدّم الإنسان ويبقى القرد في الغابة لا يعرف حتى حدودها ؟ كيف أن الفرع ـ وهو الإنسان ـ يسطو ويصل إلى الكواكب والمجرّات ، في حين أن القرد ـ وهو الأصل ـ لا يزال في الغابة ؟ .

إن الحيوان لا يرتقي ولا يتكامل لأنه لا يأخذ درساً من التجربة التي يمرّ فيها . فأنت عندما ترمي السنّارة في الماء وفي رأسها الطعم ، تأتي السمكة فتأكل الطعم وتقع في المصيدة . ويتكرر هذا الأمر مع جميع الأسماك التي ترى بأم عينها مصير أختها الضحية . لماذا ؟ لأن الأسماك لا تستطيع أن تجتمع حول هذا الأمر لتقرر كيفيّة التخلص من السنّارة والشبكة والصيّاد . إنها لا تملك هذه القدرة لأن ما تقوم به هو عمل غريزي لا علاقة له بالفكر والتدبّر ، ولذلك ليس فيه تكامل ، ولذلك يقول الله عزّ وجلّ : **﴿إنْ هم إلاَّ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً﴾**(١) .

أما الملائكة فإن آفاق تفكيرهم محدودة ، لديهم معلومات من ربّ العالمين محدودة وغير قابلة للتوسعة : **﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علمتنا﴾**(٢) ولذلك فإن الإنسان يكون في مقام المعلّم للملائكة : **﴿قال يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم﴾**(٣) **﴿وعلَّمَ آدمَ الأسماء كلَّها﴾**(٤) .

وآدمُ هو الإنسان ، هو أنا وأنت ، والإنسانُ يكون معلماً للملائكة لأنه

---

(١) سورة الفرقان ؛ الآية : ٤٤ .
(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٣٢ .
(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٣٣ .
(٤) سورة البقرة ؛ الآية : ٣١ .

يتكامل بعلمه وعمله وفكره ، الأمر الذي لا ترتقي إليه الحيوانات ولا الملائكة .

فأنت عندما تعطي صدقة ، فإن هذه الصدقة تترك أثراً تربوياً في نفسك : ﴿خُذْ من أموالهم صدقةً تطهِّرهم وتزكّيهم بها﴾[1] . والإنفاق يترك أثراً أكبر في النفس عندما تكون بحاجة إلى ما تنفق : ﴿أو إطعامُ في يوم ذي مَسْغَبَة﴾[2] والمسغبة هي المجاعة . ويوم المجاعة كل إنسان يحتاج إلى الطعام ، فإن أعطى مما هو بأمسّ الحاجة إليه فإن ذلك يترك أثراً تربوياً عميقاً في نفسه . ولولا الحرية لما ترك هذا العمل أثراً تربوياً . فأنت إذا أعطيت مكرهاً فإن عملك هذا لن يكون له أثر إيجابي تربويّ في نفسك . وكذلك يقول عزّ وجلّ : ﴿ويطعمون الطعامَ على حبّه﴾[3] أي بالرغم من حبّهم وتشوقهم إلى الطعام وحاجتهم إليه ، فقد مضى ثلاثة أيام لم يذوقوا فيها شيئاً . ويقول أيضاً : ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تحبّون﴾[4] . والبرُّ يعني التكامل والسموّ ، أي لن ترتفعوا ولن تصلوا إلى القمة في التربية الربّانية إلّا بعد أن تدفعوا مما تحبّون . لذلك يقول لك الإسلام : إذا جاءك فقير ، وكان عندك ثوبان ، واحد جديد وآخر قديم ، فعليك أن تعطيه الجديد الذي ترغب فيه وتميل إليه . . . هذا ما فعلته الزهراء (ع) عندما قدمت ثوبها الجديد للفتاة الفقيرة ، وهذا ما فعله الإمام عليّ عندما قدّم الثوب الجديد لخادمه قنبر واحتفظ هو بالثوب القديم .

هذه هي دروس الإسلام . والإسلام ليس فقط بالكلام ، وإنما هو أيضاً في التطبيق والممارسة ، ومن هنا فإن عظمة أهل البيت تكمن في أن الإسلام عندهم هو سلوكٌ يوميّ ومنهج حياتي .

---

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ١٠٣ .

(٢) سورة البلد ؛ الآية : ١٤ .

(٣) سورة الإنسان ؛ الآية : ٨ .

(٤) سورة آل عمران ؛ الآية : ٩٢ .

إذا قمتَ في الليل وصلّيت صلاة الليل فإنك تتكامل ، لأنك حرٌّ في عملك هذا ، إذ بإمكانك أن تخلد إلى النوم والراحة .

ذات مرّة كان الفيلسوف والطبيب الكبير ابن سينا يتحدّث لطلّابه عن عظمة الرسول وحياته وسيرته ، فسأله أحد التلاميذ : ـ لماذا لا تكون أنت في مقام الرسول ؟ ! هو أستاذ كبير وأنت أستاذ كبير ، فمقامك هو مقامه .

أجابه ابن سينا : سوف أفهمك في لحظة من اللحظات كم هو الرسول عظيم . قال : متى ؟ ـ قال : سيحين وقت ذلك ، ولا تتعجّل .

كان الطقس بارداً جداً في تلك الليلة ، وقبيل الفجر بساعة ، نادى ابن سينا على تلميذه قائلاً : يا فلان ، أرجو أن تنهض وتأتيني بالماء حتى أشرب .

قال التلميذ : إني لا أستطيع القيام الآن ، فالطقس باردٌ جداً . انهض أنت وأحضر الماء .

بعد ساعة من الزمن أذن أذان الفجر ، فنهض هذا التلميذ بسرعة وتوجّه للوضوء . عندها ناداه معلّمه قائلاً : أرأيت الآن كم هو عظيم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟ أنا أستاذك أعلمك منذ سنوات ، والإمام عليّ يقول : «من علمني حرفاً صيّرني عبداً» ، طلبتُ منك شربة ماء فلم تستمع إلى ندائي ، غير أنك بمجرد أن سمعت الأذان قمت إلى الصلاة ، أي لبَّيْتَ نداء الرسول . هذا هو الفرق بيننا وبين الرسول .

إن في الإنسان طاقةً هي من الله سبحانه ، ولكن الإنسان نفسه هو المسؤول عنها وعن توجيهها . فالإنسان غير مجبر في حياته كما تقول الجبرية ، ولكن حاله هي كما قال الإمام عليّ : «لا جَبْرَ ولا تفويض ، ولكن أمرٌ بين أمرين» .

وهذا يعني أن كل إمكاناتك هي من الله ، غير أنكَ أنت الذي يوجّه هذه الإمكانات وهذه الطاقات في سبيل الخير أو الشر ، في الحلال أو

الحرام .

تصوَّر نفسك تقود قطاراً كهربائياً ، فالقطار في هذه الحال يكون مزوّداً بالطاقة الكهربائية يمدّه بها سلك متّصل به . هذه الطاقة تأتي من محطة لتوليد الكهرباء يشرف عليها مهندسٌ مختص يتحكّم بها . إن هذا المهندس يستطيع في أية لحظة أن يقطع إمداد الكهرباء عن القطار فيتوقّف . ولكن من جهة ثانية أنت الذي يقود القطار ويوجّه حركته . تستطيع أن تسرع أو تبطىء ، أن تتوقّف أو تصدم إنساناً . إذا صدمت طفلاً وقتلته ، من يكون المسؤول عن ذلك ؟ لا شكَّ أنك أنت المسؤول وليس المهندس الذي يمدّك بالطاقة الكهربائية .

إن نفسك هي هذا القطار ، وعقلك الحرّ المختار هو الذي يقودها . والله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يمدّك بالطاقة على الفعل والحركة والتوجيه ، فإن لم يرد أمراً يستطيع أن يقطع عنك المدد : **﴿وما تشاؤون إلاَّ أن يشاء الله إنَّ الله كان عليماً حكيماً﴾**[1] ولكن الله يقول في نفس الوقت : **﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**[2] .

والأمثلة كثيرة واضحة ، وكلها تدلّ على أن الإنسان حرٌّ ومسؤول عن كل حركاته وسكناته .

ولو نظرنا في القرآن الكريم لوجدنا أن معظمه عبارة عن أوامر ونواهٍ . فإذا لم تكن تتمتّع بالحرية والاختيار ، كيف يمكن للقرآن أن يقول لك افعل أو لا تفعل ؟ ! والقرآن على امتداد آياته يمتدح الصالحين ويذم الفاسقين المفسدين . . . فإذا كان الإنسان مجبراً على فعل الفساد ، فكيف يمكن للقرآن أن يذمَّ المفسدين ؟ ! والمفسدون في هذه الحالة يستطيعون أن يحتجّوا على الله بقولهم : أنت خلقتنا هكذا ! غير أن المسألة هي بخلاف ذلك كما هو واضح . ولا ننسى أمراً آخر كبيراً يتعلّق بأصل من أُصول الدين

(١)سورة الإنسان ؛ الآية : ٣٠ .
(٢) سورة الكهف ؛ الآية : ٢٩ .

(المعاد) وهو أن القرآن يصرّح بأن هناك محكمة كبرى تُنصب يوم الحساب ، فإذا كان الإنسان مُجبراً على أعماله كيف تحاسبه تلك المحكمة على هذه الأعمال ؟ ! .

إن عدالة الله موجودة في كل جنبات هذا الكون وفي كل شيء . غير أن العدل لا يعني المساواة بين الناس . وهذه مسألة دقيقة تحتاج إلى توضيح .

إن أمير المؤمنين عليه السلام في عهده إلى مالك الأشتر تحدّث عن طبقات الناس في المجتمع الإسلامي مفصلاً ، وسوف نتحدث عن هذا الأمر مفصلاً في ليلة من الليالي ، ولكن لا بد من الإشارة إليه سريعاً الآن للإشارات والمعاني الدقيقة التي تتضمنها رسالة الإمام عليّ .

نلاحظ أن في الناس القويّ والضعيف ، الغنيّ والفقير ، العالم والجاهل . وربما قال قائل : وأين عدالة الله ؟ ! . . . العدالة هي أن يكون الناس سواسية ! . . .

والحقيقة هي بخلاف ما يبدو . فالمساواة ليست شرطاً في عدالة الله ؛ بل إذا حققت المساواة التامة في كل شيء فإنها تكون الظلم بعينه . وهذا مثال على ذلك :

إذا أراد مدرسٌ أن يكون عادلاً مع طلابه في الامتحان وقال لهم : سوف أسوّي بينكم وأعطيكم علامة ودرجة واحدة . . . كل منكم أعطيه مئة علامة ؛ فهل يكون هذا المعلم عادلاً ؟؟ . بالطبع لا . لأن من الطلاب الكسول والمجتهد والمتفوق والمتخلّف ، فإذا هو سوّى بينهم يكون في الحقيقة قد ظلمهم . بالطبع يجب أن يكون عادلاً ، ولكن العدل هو أن تعطي كل ذي حقّ حقّه ، وتعطيه درجة بمقدار همته وجهده وطاقته ، فقيمة كل امرىء بما يُحسن وبما يبذل من جهد حسب طاقته **﴿وأنْ ليس للإنسان إلّا ما سعى﴾**[1] .

---

(١) سورة النجم ؛ الآية : ٣٩ .

تصوَّر شخصاً عنده أغنام كثيرة ، منها الكبير ومنها الصغير ، وقرّر أن يعدل بينها بأن يقدّم لكل رأس كيلوغراماً واحداً من الشعير . إنه بذلك يظلمها ، لأن الرأس الكبير ربما يكون بحاجة إلى أكثر من هذه الكمية ، والرأس الصغير ربما أضرَّ به الكيلو إذا التهمه كلَّه . وكذلك الأمر إذا أراد ربُّ عمل أن يعدل فيقول : سأساوي بين أجور العمال وأعطي مائة ليرة للذي يعمل ساعة واحدة ، ومائة ليرة للذي يعمل عشر ساعات . . . إنه ظلمٌ واضح ولا شكّ .

وهنا يُثار إشكال يمكن أن يتلخص بالسؤال التالي : لماذا لم يعطِ الله سبحانه وتعالىٰ الناس طاقات متساوية ، وبذلك يقدّم جميع العمال نفس الجهد والإنتاج ، ويحصل جميع التلاميذ على نفس الدرجات والتقدير ؟ ؟؟ . . .

والجواب هو أنه لو أعطى الله طاقة واحدة لجميع الناس لتوقفت الحياة . . . وفي هذا يقول أمير المؤمنين عليه‌السلام : «لو تساوى الناس لهلكوا» . فلو تساوى الناس في درجة الذكاء وفي القدرة على العطاء لما تنوّعت الأعمال والاختصاصات ولتوقفت حركة المجتمع . فلا يمكن أن يكون الناس كلهم أطباء ، ولا يمكن أن يكونوا جميعاً علماء ومفكرين ، بل إن المجتمع بحاجة للطبيب والعالم والمفكر والوزير والخباز والنجار الخ . . . .

يقول الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : «الناس سواسية كأسنان المشط » . والمعنى أنهم سواسية في الحريات والحقوق وتكافؤ الفرص ، وليس أنهم على درجة واحدة من الوعي والتفكير والأهليَّة .

جيء إلى الإمام علي عليه‌السلام بحقوق من أصفهان وأفريقيا فوزعها إلى سبعة أقسام ، لأن الكوفة كانت مقسمة إلى سبع فرق ، وبقي عنده رغيف خبز واحد وزّعه أيضاً إلى سبعة أقسام . أذاً هو ساوى بين الجميع في العطاء ؛ ولكن هل يستطيع الإمام علي أن يساوي بين الجميع في درجة

الذكاء ؟ يعني إذا خطب الإمام في الناس ، فهل جميع الناس يفهمون كلامه كما يفهمه ابن عباس ؟ بالطبع لا ! إن بين الناس من هو في منزلة عبد الله بن عباس يقتدي بالإمام علماً ورشداً ، وفيهم من هو بمنزلة سعد بن أبي وقّاص الذي إذا سمع الإمام يقول : « سلوني عن طرق السموات» يسأله : كم من طاقة شعر في رأسي وفي لحيتي ؟ فيجيبه الإمام : «والله إني لأعلم كم من طاقة شعر في رأسك . الرسول أخبرني بذلك ، وأن في بيتك لسخلٌ ـ يشير إلى عمر بن سعد ـ يقتل ولدي الحسين» .

لاحظ هنا موضوع حديث الإمام وهو طرق السماوات وسؤال ابن أبي وقاص عن شعر لحيته ورأسه ! ثم لاحظ أن الإمام لم يقل له «أعرف عدد الشعر» بل قال له : «أعرف طاقة الشعر» ، وأنه يعرف أيضاً أمراً مغيباً أخبره به رسول الله وهو أن عمر بن سعد سيكون من قتلة الحسين عليه السلام . . . ومع كل ذلك نجد من يخلّد ذكر أمثال عمر بن سعد وسعد بن أبي وقاص ، أنا رأيتُ في إحدى البلاد الإسلامية مدرسة أطلق عليها اسم مدرسة عمر بن سعد ! والطلاب يظنّون في هذه الحالة أن ابن سعد لا بدّ أن يكون من الرجال العظام حتى يُطلق اسمه على مؤسسة تربوية ودار علم . بينما الحقيقة أنه هو الذي قتل الحسين ، وهو الذي أحرق خيام آل رسول الله !! هنا أيضاً يبرز الفرق بين الناس في فهم الأمور وفي الموقف منها .

لذلك نقول إن المسألة ليست في أن نسوّي بين الناس في كل شيء ، ولكن المساواة هي في الحقوق والعطاء . ولذلك قرّر الإمام عليّ الأمر بقوله : «لو تساوى الناس لهلكوا» .

ويقول الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز : ﴿**ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سخرياً**﴾[1] يعني أن أسخّرك وتسخّرني ، ﴿**ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون**﴾[2] .

---

(١) سورة الزخرف ؛ الآية : ٣٢ .
(٢) سورة الزخرف ؛ الآية : ٣٢ .

ونتقل الآن إلى النقطة الأخيرة من البحث وهي علاقة العدل بالمعاد ، لأن العدل جزء من المعاد ، والله العادل لا يمكن أن يخلقنا عبثاً .

والناس أمام هذا الأمر صنفان : صنف يخاف من الموت ويعتبره النهاية ، لأنه لا يؤمن بما وراء الموت ، وصنف آخر يعتبر الموت بداية حياة جديدة .

ويؤكد الإمام علي عليه السلام أن الإنسان الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر يخاف من الموت ويعتبره نهاية مريرة ،؛ أما الذي يؤمن بالله فإنه يعتبر الموت محطة جديدة لحياة جديدة . ولذلك يقول الإمام : «والله الذي لا إله غيره لابنُ أبي طالب آنَسُ بالموت من الطفل بثدي أُمه» . يقول لنا إنه يأنَسُ بالموت ويحبّه كما يحبُّ الطفلُ ثديَ أُمه ويأْنَسُ به ؛ ثم يقول : «ألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من ميتة على فراش» . إنه يبيّن لنا نوع الموت الذي يريده ويختاره : إنه الموت في سبيل الله .

لذلك فإن الإنسان المؤمن عندما يواجه الموت فإنما يواجهه مستبشراً . والإمام عليّ عندما وقع السيف على رأسه قال : «فزتُ وربِّ الكعبة !» .

وفاطمة الزهراء حين أخبرها أبوها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنها أول من يلحق به تبسّمت وضحكت . كذلك الإمام الحسين ، فإنه يوم عاشوراء كان يتألق ويتوهجّ ، حتى إن ذلك الشقيَّ الذي انتدب لقطع رأس الحسين نسي مهمته وقال : «والله لقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله» . وكذلك أصحاب الحسين .

وكل العظماء المؤمنين بالله واليوم الآخر هم كذلك يستبشرون بالموت . لماذا ؟ لأن الحياة إذا انفصلت عن فكرة الموت ، ولم تعتبر الموت بداية لمرحلة جديدة وحياة جديدة ، تكون قاسية مملّة لا قيمة لها .

لو نظرنا إلى الجنين الذي في بطن أُمه ، وافترضنا أنه سأل نفسه :

لماذا أنا هنا ؟ ولماذا أقبع تسعة أشهر في هذا المكان المظلم ؟ فإذا أتاه الجواب بأن حياتك هذه هي مقدمة لحياة جديدة أنت مقدمٌ عليها ، وأن هذه الحياة هنا إنما الهدف منها أن تنمو وتتكامل لتكون مهيئاً لحياة أُخرى هي أجمل وأحسن وأوسع . . . إذا عرف ذلك فإنه لن يكون مستاءً من نهاية حياته في رحم أُمه ، وإنما يستبشر بإقباله على الحياة الجديدة . وكذلك الإنسان في هذه الحياة . فالذي يؤمن بالآخرة يعرف أنه يعيش في الدنيا ستين أو سبعين سنة من أجل أن يتكامل بقوة إيمانه وأعماله الصالحة ، ثم يذهب إلى هناك إلى الحياة الآخرة ليقول : الآن أدركت سبب وفلسفة وجودي في الحياة الدنيا .

أما إذا لم يكن عنده إيمان بالحياة الآخرة ، فإن حياته الدنيا تكون رتيبة مملّة غير هادفة ، وتكون فكرة الموت لديه قاسية مرعبة . لذلك نرى مثلاً أن مستوى دخل الفرد في السويد هو أعلىٰ مستوى في العالم ، وتتهيأ للفرد كل أسباب الراحة والرفاهية في حياته . . . ومع ذلك نجد هناك أعلى مستوى للانتحار ! لماذا ؟ لأن الحياة دون هدف أسمى تصبح تافهة مملّة ، ولأن الحياة التي لا تتصل بالآخرة تصبح عبثية وعبئاً على حاملها يحاول التخلّص منها في حالات ضعفه النفسي وخوائه الروحيّ .

إن عدم الإيمان بالآخرة يحجب قلب وفكر الإنسان عن معرفة الدنيا : **﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾**[1] . فالذي لا يؤمن بالآخرة لا ينفعه أن تقرأ عليه القرآن ، فإنه لا يفقه منه شيئاً ، وإنما يطلب منك أن تسمعه ما يلهيه لأن ذلك يتناسب مع فلسفته المادية في الحياة .

ولكن القرآن يبيّن له أنه في سفر ، وأن هذه الحياة إنما هي محطة انتقال . والإمام عليّ عليه السلام يهيؤنا ويربينا لهذا السفر ، ويقول لنا : أمامكم سير وسفر طويل ، تهيّأوا له حتى تذهبوا إلى هناك «واعلموا أن ليس لهذا

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٤٥ .

الجسم الرقيق صبرٌ على النار» . وإذا كانت المسألة بهذا الوضوح ، فإننا نراه يقول : «لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت» . «ولئن أبيتُ على حَسَك السَّعْدان مسهداً ، وأجرُّ بالأغلال مصفَّداً ، أَحَبُّ إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد أو غاصباً لشيء من الحطام . وكيف أظلم أحداً لنفس يُسرع إلى البِلا قفولُها ويطول في الثرى حلولُها !» . وهو الذي ما كان يأكل في الليل ويقول : «لعلَّ في الحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهدَ له بالشِّبع» .

وهو الإمام عليّ عليه السلام الذي كتب إلى عثمان بن حُنيف لما بلغه أنه دُعي إلى وليمة في البصرة : «أما بعد يا ابن حُنيف ، فلقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة قد دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها . . . تُستطاب لك الألوان وتُنقل إليك الجِفان ، وما ظننتُ أنك تجيب إلى طعام قوم عائلُهم مجفوٌّ وغنيُّهم مدعوّ» . . . هذه وليمة للأغنياء وليس فيها فقراء ، فلما حضرتها ؟ ! أين الفقراء أصحاب عليٍّ ، هذا الذي كان يسقي اليتامى العسل المصفّى في الكوفة ؟ ! .

وتمرُّ امرأةٌ بالإمام عليه السلام تحمل قربةً وهي متعبة ، فيسألها الإمام عن حالها ، فتقول : لديّ ثمانية أطفال يتامى . ثم تذهب ، فيأمر الإمام خادمه قنبر أن يتعرف إلى بيتها . ثم بعد ذلك يحمل إليها الإمام الطعام واللباس ويدخل بيتها والأطفال يبكون من حولها فيقول لها : «يا أَمَةَ الله أوقدي النار» فأوقدتها . ثم قال لها : «إما أن تخبزي وأنا أتولى رعاية الأطفال ، أو أنا أخبز وتتولين رعايتهم» . فقالت المرأة : «أنا أخبز» . ثم صارت تخبز والإمام يضاحك الأطفال ويداعبهم ، يضعهم في حجره ويطعمهم الخبز والتمر والجوز .

لذلك نقول أيها الإخوة إن انبعاثنا في يوم القيامة هو حقيقة ثابتة يؤكدها الإمام عليّ عليه السلام كما أكدها أستاذه الأعظم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكما

أكدها القرآن الكريم : ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾[1] . ﴿وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّتْ وربَتْ﴾[2] . ثم يقول : ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتىٰ﴾[3] ، ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾[4] .

والعلم الحديث يؤكد لنا أنه عندما نأخذ الخشب من هذه الشجرة ونشعله فإنه يوقِد ناراً ؛ وهذه النار والحرارة المنبعثة من الخشب هي نفس الحرارة التي بعثتها الشمس وأخذتها الشجرة في سنوات حياتها واختزنتها من الشمس . فهذه الطاقة انبعثت من جديد من خلال الخشب .

فالقرآن يشير إلى أنه حتى الطاقة لها انبعاث ، وكذلك الإنسان له انبعاث ، والأرض الميتة لها انبعاث . فنحن نؤمن بالبعث ، والموت بالنسبة لنا خطوة أولى نحو حياة جديدة . أما الإنسان الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر فإنه يقع في أحضان الشيطان كما وقع عمر بن سعد الذي قال :

يقولون إن اللّه خالق جنةٍ ونار وتعذيب وغلٍّ يدينِ
فإن صدقوا فيما يقولون إنني أتوب إلى الرّحمٰن من سنتينِ .

فكُبست الأخبية بالنار ، وفيها أطفال يتامى ، اليتامى الذين كان يحفظهم الإمام علي ويطعمهم العسل المصفّىٰ ويسقيهم ويضحكهم .

يقول قنبر خادم الإمام عليّ : لما خرج الإمام أمير المؤمنين من عند الأطفال اليتامى قلت له : سيدي ، رأيتك حريصاً على إضحاكهم . . لماذا ؟ قال : يا قنبر ، أرأيت يوم جئنا إليهم سمعناهم يبكون ؟ قلت : بلى سيدي . قال : أحببت أن نخرج عنهم وهم يضحكون ، لأنهم يتامى .

---

(١) سورة فصّلت ؛ الآية : ٣٩ .
(٢) سورة الحج ؛ الآية : ٥ .
(٣) سورة فصّلت ؛ الآية : ٣٩ .
(٤) سورة يس ؛ الآية : ٨٠ .

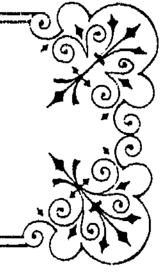
وإذا يتامى عليّ ، يتامى الرسول ، يتامى الحسين ، يتامى آل الرسول يحرق عليهم عمر بن سعد الخيام . إن النار اشتعلت في المخيم ، وبعض الأطفال التهمتهم النيران ، والبعض سحقتهم حوافر الخيل .

يقول حميد بن مسلم : نظرت إلى طفلة لأبي عبد الله الحسين خرجت والنار مشتعلة في أطراف ثيابها ، طفلة في السنة الخامسة من عمرها ، فتبعتها ورقَّ قلبي لها . ولما رأتني خافت مني وهربت . عدوت خلفها وهي فارة على وجهها . أوقفتها وقلت لها : بنيّة ، إنما أردت أن أطفيء هذه النار ، أنا لا أُريد أن آذيكِ . . . قالت : شيخ ! بالله عليك ، أنتَ لنا أم علينا ؟ (لاحظ التربية ! هذه عمرها خمس سنين !) قلت لها : سيدتي ، لا لكم ولا عليكم ! قالت : شيخ ! هل قرأت القرآن ؟ قلت : بلى ! قالت : فهل عرفت هذه الآية **﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾** ؟ قلت : بلى ، سيدتي ، قد قرأت ذلك . قالت : شيخ ! أنا يتيمة أبي عبد الله الحسين . قلت لها : سيدتي إنما هي النار أردتُ إخمادها ! ـ يقول : أطفأت النار ، ورقَّ قلبي لها . ـ قالت : شيخ ! إن الظمأ قد أضرَّ بي ـ يقول : أخذتها إلى نهر العلقم ، إلى الفرات . . . أوقفتها على الشاطىء : ـ هذا الماء . . اشربي منه . يقول : أخذت تمعن النظر إلى الماء ، ثم أطرقت برأسها إلى الأرض هنيهة ، فقلت لها : أنت عطشى ، اشربي ! قالت : شيخ ! بالله عليك ، كيف أشرب وقد قتل أبي الحسين عطشان ! ؟ .

أنا أشرب لذيذ الماء حاشا
وأهلي قضوا كلهم عطاشا

خرجت الحوراء زينب ناشرة شعرها على رأسها تنادي : أخي أبا عبد الله ! إن كنت حياً فأدركنا ، فهذه الخيل قد هجمت علينا . . . وإن كنت ميتاً فأمرنا وأمرك إلى الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

الليلة السابعة عشرة
الامام علي بطل الاسلام الخالد
ليلة بدر الكبرى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وإذ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إحدى الطائفتين أنَّها لكم وَتَوَدُّونَ أنَّ غيرَ ذاتِ الشّوكةِ تكونُ لكم ويريدُ اللَّهُ أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماتِهِ ويقطَعَ دابِرَ الكافرين﴾[1] .

هذه الليلة عظيمة ومباركة ، وهي من ليالي القدر . وهي كذلك لأن الرسول ﷺ استطاع بإيمانه المطلق بالله ، وبسياسته وحكمته وتدبيره ، أن يرتّب نصراً عظيماً بسيف الإمام علي عليه السلام، بحيث أن هذا النصر غيَّر مجرى التاريخ وغيَّر العالم أجمع ، وأصبحت هذه الليلة بالذات ـ ليلة السابع عشر من رمضان المبارك ، ليلة بدر الكبرىٰ ـ أصبحت أعظم ليلة في الإسلام ، إذ فيها فرق الله الحقَّ من الباطل .

في الآية التي افتتحنا بها الكلام وعد الله تبارك وتعالىٰ النبيَّ بالنصر : وعده إحدى الطائفتين : إما قافلة أبي سفيان بأموالها وتجارتها وطعامها ـ وهذه هي الطائفة الأُولىٰ ـ وإما النصر على الكفّار والمشركين ، وهم الطائفة الثانية .

---

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٧ .

هنا طائفة فيها أموال عائدة من الشام (رحلة الشتاء والصيف) وكلها ذهب وفضة وأقمشة ، إذاً هي غنيمة مربحة ؛ وهناك طائفة المشركين التي فيها السلاح والشوكة ، أي فيها قتال ورماح وسهام .

وطبيعة الإنسان تميل للراحة ﴿**وتودّون أنَّ غيرَ ذات الشوكة تكون لكم**﴾ فلذلك أنتم تميلون إلى النصر الأول ، وهو الغنيمة دون قتال ، وتنفرون من الشوكة والنزال والحرب ، خاصة وأنكم في شهر رمضان ، وأنتم صائمون ، والطقس بارد ، والليلة ظلماء .

الله يعلم أنكم تريدون النصر الأسهل والأجزى في نظركم ، وهو يريد النصر الأصعب والأجزى في حكمه وميزانه ، ألا وهو إحقاق الحق ودحر المشركين : ﴿**ويريد الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته**﴾ .

وكيف يريد الله أن يحقَّ الحقَّ ؟ ؟ .

للغلبة طريقان لا ثالث لهما : إما العدد والعدّة ، وإما التدخّل الإلٰهي ؛ وهذه قاعدة عامة .

والمدد الإلٰهي يأتي عندما يكون الإسلام في خطر ، ويكون أهل الإسلام على صلّة وعلاقة بالله سبحانه وتعالىٰ . أما إذا كانت هذه الصلّة مقطوعة فإن التدخّل الإلٰهي لنصرة المسلمين لا يأتي . فنحن نرى اليوم مثلاً أن اليهود يصولون ويعربدون ويغتصبون أرض الإسلام ويشردون المسلمين عن ديارهم ، هذا وهم قلّة قليلة أمام مسلمي العالم الذين يعدّون ملياراً ونصف المليار من الناس ! وفي نفس الوقت يأتي لليهود مدد الأموال والسلاح من أميركا والغرب ، ومدد المهاجرين من الاتحاد السوفييتي ! .

وهنا ربما يتساءل البعض : وأين المدد الإلٰهي ؟ أين تدخله لنصرة المسلمين ؟ والحقيقة هي أن التأييد الإلٰهي لا ينزل إلاّ على الذين صفت قلوبهم وتمسكوا بالله وبذلوا ما يملكون في سبيل نصرة الله ، حتى إذا كانت قدراتهم وإمكاناتهم ضعيفة أمام العدو وأصبح الإسلام في خطر داهم ،

عندها تتدخل العناية الإلٰهية بالمدد والنصر . . . لقد ألقى الكفّار الجبابرة إبراهيم عليه السلام في النار ، ومع ذلك فإن العناية الإلٰهية جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم : ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾[1] . ولمّا طارد فرعون وجنوده النبيَّ موسىٰ عليه السلام وأصحابه إلى البحر ، وقف موسىٰ على بوابة البحر والأمواج تتلاطم ، فقال أصحابُه : ﴿إنا لـمُدركون﴾[2] هذا فرعون بجنوده . . . ﴿قال كلّا إنَّ معيَ ربِّي سيهدين﴾[2] .

وفي هذه الليلة نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قافلة قريش بجمعها الغفير ، وقد خرجوا بهذا العدد الكبير من مكة لهدفين : حفظ أموالهم وضرب المسلمين .

لماذا تعرّض الرسول لقافلة قريش ؟ :

لقد مضى حتى الآن ثلاث عشرة سنة وعُتاةُ قريش يعذبون المسلمين بمكة وأجبروهم على النزوح والهجرة ، فهاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، ومع ذلك لم يسلموا من أذى قريش . ثم تحرك أسياد قريش المتجبّرون أمثال أبي سفيان وأبي جهل وأبي لهب وعُتبة وشيبة والوليد وأُميّة بن خلف وغيرهم من أجداد وأسلاف الأمويين ، وبدأوا ينشرون الرعب في كل مكان ويتعرضون للمسلمين ، ويحرّكون اليهود ضد النبيّ ويحرضون المنافقين . . . .

عندها رأى النبي أنه لا بد من وضع حدّ لهؤلاء جميعاً ، فقرر أن يقطع طريق تجارتهم ، لأن طريقهم يمرّ عليه ، فهو إذاً في موقع استراتيجي يتحكم بطرق القوافل والتجارة . وهو موقع شبيه بموقع المسلمين اليوم في العالم ، فإن بلاد المسلمين في قلب العالم تستطيع أن تتحكم بطرق المواصلات والتجارة بين الشرق والغرب . ولو اتفقت كلمة المسلمين في الشرق الأوسط لجعلوا أميركا والسوفييت والغرب كله يخضعون لهم لأنهم

(١) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٦٩ .
(٢) سورة الشعراء ؛ الآيتان : ٦١ ـ ٦٢ .

يتحكمـون بطرق البـر والبحر والجـو . ولكن شتّان بين مـا هم عليه من تفـرّق وضعف وبين مـا يجب أن يكـونـوا من وحـدة كلمـــة واتحـاد !! . . . إذاً علم الـرسول أن قـافلة مقبلة يقودهـا أبو سفيـان ، فخرج بـأصحابـه وكان عـددهم ٣١٣ رجـلاً كعدد أصحـاب الإمام الحجّـة (عجل الله فـرجـه) ولم يكن معهم من الخيـل سوى فـرسين ومن الإبـل سـوى سبعين ، فكـان الثـلاثـة والأربعـة منهم يتعاقبون على البعير الواحد . وكان بعير مرتد ـ أحد أصحـاب الرسـول ـ بين عليّ ومـرتد والـرسول . فقـال عليّ ومرتـد لرسـول الله : يا رسـول الله ، اركب أنت ونحن نمشي ، قـال :لا ! لستما أنتمـا بـأقـوى منّي على المشي ، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر ! .

وتـابع المسلمـون سيرهم حتى أقبلوا على مشـارف بـدر . وكـانت بـدر منزلاً من منازل العرب ، تنزل فيها القوافـل ، ويلتقي فيها الشعـراء ، وتتقابـل فيها جيوش القبائل . ونزل المسلمون ببـدر ، ونزلت قـريش بالعُـدوة القصوى من الوادي على مسافة غير بعيدة تحت موقع المسلمين في بدر .

وكـان أبـو سفيـان قـد عـرف بقـدوم المسلمين إلى بـدر . كيف عـرف بذلك ؟ .

كـان اثنان من المسلمين قـد ذهبـا إلى آبـار بـدر ليستعلمـا عن وصـول القافلة ، فأخبرهمـا من كان في ذلك المكـان أن القافلة لم تصـل بعد . وبعـد ذهابهما وصل أبو سفيان إلى ذلك الموضع فـرأى أعرابيـاً وسألـه : هل وصـل أحـدٌ قبلنا إلى هـذا المكان ؟ قـال : نعم . رأيت اثنين وصلا إلى هنـا فأخـذا ماءً وذهبا وهما على جمل . . . نـظر أبو سفيـان حولـه فوقـع بصره على روث جمـل ، ولما تفحصّـه وجـد فيـه نـوى تمـر ، فقـال في نفسـه: إنهـا عـلائف يثـرب ، وهي علامـة على أن صاحب هـذا الروث هـو جمـلٌ من المـدينـة ، وهـذا يعني أن أصحاب محمـد قادمـون . عند ذلـك حوّل أبـو سفيـان طـريق قـافلته بـاتجاه السـاحل ، ثم أرسـل رجلاً إلى قـريش اسمه ضمضم ، أعـطاه صرّة من المال وقال له : «ادخل على قريش وقل لهم أن يلحقوني الآن» .

وقبل أن يدخل ضمضم إلى مكة قطع أذني بعيرة وجدع أنفه ، ومزّق قميصه من قبل ومن دبر ، ثم أقبل على قريش ينادي : «اللطيمة . . . اللطيمة . . . الغوث . . . الغوث !!» . اجتمع عليه القوم يسألونه ما الخبر ؟ قال : هذا محمد وأصحابه قطعوا عليكم قافلتكم وأموالكم وما أظنكم تدركونها ! .

وفي الحال استنفر أبو جهل أعيان قريش وصناديدها فحضروا جميعاً باستثناء أبي لهب وأُمية بن خلف . فأما أبو جهل فقد تأخر استخفافاً بالمسلمين وأرسل إلى مجتمع القوم من ينوب عنه ، وقال : ما قيمة هؤلاء ! أنا أوجّه عليهم أحد عبيدي يأتيني برأس محمد . وأما أُمية بن خلف فقد كان رجلاً ثقيلاً سميناً لا يستطيع الحراك . وكان جالساً بظهر الكعبة حين أقبل عليه عقبة بن أبي معيط يحمل بيده مجمرة فيها بخور ، يرافقه أبو جهل وبيده مكحلة . سلّم عليه عقبة وقال له : تفضّل هذا بخور تبخّر به كما تفعل النساء ، وقال له أبو جهل : وهذه مكحلة أكحل بها عينيك كما تكتحل النساء فإنما أنت امرأة .

نلاحظ هنا استهزاء مجتمع المشركين بالمرأة ؛ في حين نرى الرسول يقول : «استوصوا بالنساء خيراً» . والقرآن الكريم يقول : ﴿**ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات**﴾[1] .

ثم إن أُمية بن خلف طلب منهما أن يحضرا إليه بعيراً ، فأحضراه وركبه وانضمّ إلى القوم .

وتداعت قريش لنجدة قافلتها وتوجّه مقاتلوها وصناديدها وتجمعوا بالعدوة القصوى مقابل المسلمين الذين كانوا ببدر .

الوضع العسكري للطرفين في تلك اللحظة ؟؟ :

كان المسلمون يقفون على أرض رملية تغوص فيها أقدامهم ،

---

(١) سورة الفتح ؛ الآية : ٢٥ .

والمشركون يقفون على أرض متربة .

وأراد النبيّ أن يعرف عدد عساكر المشركين ، فالتفت إلى علي أمير المؤمنين وقال له : يا عليّ خذ معك ثلّةً من المؤمنين واستطلع أخبار العدو . انطلق الإمام علي في مهمته ثم عاد ومعه غلامان . ولما سأله النبي عن أمر الغلامين ، قال : يا رسول الله وجدنا هذين الغلامين في موضع الماء فسألناهما عن حال القوم فما أجابا ، فأحضرناهما معنا . ـ قال الرسول : أنا أسألهما . فسألهما الرسول عن عدد قريش ، فقالا : لا نعلم . قال : كم ينحرون ؟ قالا : يوماً تسعة ويوماً عشرة . ـ عندها قال الرسول لأصحابه : إن عددهم بين تسعمائة وألف ، ثم أمر الرسول بإرجاع الغلامين إلى مكانهما .

والآن يريد الرسول أن يتحرك للقتال ، وجماعته قسمان : قسم كاره للقتال يفضّل الغنيمة السهلة ، وقسم مستعد للجهاد والتضحية يمتثل لأمر الرسول في كل لحظة . وقف الرسول بينهم يريد اختبار عزيمتهم وقال : أشيروا عليَّ . (أعادها مرّتين) . وقف أبو بكر وقال : يا رسول الله ، هذه قريش جاءت بخيلائها وكبرها ، وأنت تعرف أنها ما اهتدت بعد أن ضلّت ، وما ذلّت بعد أن عزّت ، وليس أمامهم إلاَّ الحرب . وأرى أن نرجع إلى المدينة فنحفظ أنفسنا منهم . هكذا كان موقف أبي بكر ، والتاريخ يسجّله . ولكن بعض المؤرخين عندما يصل إلى موقف أبي بكر يقول : فقام أبو بكر وقال كلاماً وجلس . . . . ولا يذكر ما هو هذا الكلام .

ثم قام عمر بن الخطاب وكرّر قول أبي بكر ، فقال له الرسول : أجلس . ثم أعاد الرسول طلبه : أشيروا عليَّ . فقام المقداد بن عمرو ، وقال : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحقّ نبيّاً ، واصطفاك بالرسالة نجيّاً ، نحن صدّقناك وشهدنا أنك رسول الله ، فلو استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك . نحن لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ : اذهب أنت وربُّك فقاتلا ، إنا هٰهنا قاعدون . . . ولكن نقول لك : اذهب أنت وربُّك فقاتلا ،

إنا معكم مقاتلون . .

ثم التفت الرسول إلى الأنصار يريد رأيهم ، لأن الأنصار كانوا قد بايعوه على أن يمنعوه في المدينة . أما هنا خارج المدينة فإنه يريد أن يعرف موقفهم . قال لهم : أشيروا عليَّ . قام سعد بن معاذ الأنصاريّ وقال : والله يا رسول الله نحن صدّقناك وعرفنا أنك على حق وعلى هدى ، ونحن على استعداد لنصرتك . مُرنا بأمرك . هذه سيوفنا وهذه أيدينا على قوائم سيوفنا . أسماعنا كلها إصغاء لك ، وهذه جمالنا حُمّلت موتاً على قريش وعلى أعداء الإسلام .

عندها استبشر الرسول وقال : سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم .

وهكذا دنت المعركة واقترب اللقاء وأزفت ساعة الحقيقة .

ويجب أن نسجّل في البداية ـ وذلك بدافع قول الحقيقة وليس بدافع الانحياز الشخصي العاطفي ـ يجب أن نسجّل أن حضور عليّ في تلك المعركة العظيمة غطّى على وجود سائر المسلمين الذين كانوا مع الرسول . وهي أول حرب يخوضها علي بن أبي طالب . والرسول سلّم القيادة لعليّ ، لأن الراية (العقاب) كانت بيد عليّ ، واللواء كان بيد مصعب بن عمير ، والراية أعظم من اللواء . وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم القائد الأعلىٰ الذي ينظم الجميع ويوجههم .

يقول محمود شيت خطاب ـ وهو خبير عسكري كبير ـ في كتابه «الرسول القائد» : إن الرسول أبدى في هذه المعركة من الحنكة العسكرية والتكتيك الحربي ما يعجز عنه عظماء القادة العسكريين في التاريخ ، وذلك بالرغم من قلّة عدد المقاتلين المسلمين الذين لم يتجاوز عددهم ٣١٣ مقاتلاً مقابل ألف من مقاتلي قريش . لقد قسّم النبيّ جنوده على حلقات حلقات وأصدر إليهم الأوامر الواضحة في كيفية القتال ؛ ولذلك فإنهم عندما طبقوا

أوامر الرسـول نجحوا ، في حين أنهم فشلوا وانهـزموا في المـرّة السابقـة (في معركة أُحد) بسبب مخالفتهم أوامر الرسول .

وفي هـذه الليلة يقـول الله تبـارك وتعـالىٰ : ﴿**سيُهـزم الجمـع ويـولّـون الـدُّبر**﴾[١] . سيهـزمون بسيف عليّ أميـر المؤمنين ، والوليـد بن عتبـة ـ عـدو الإسلام الأول ـ ذاك المتكبرّ الذي يرفع أنفه عـالياً ، سـوف يتلقى ضربـة على أنفـه من سيف عليّ بن أبي طالب ، تصـديقاً لقـوله تعـالىٰ : ﴿**سَنَسِمُـهُ على الخرطوم**﴾[٢] فالخرطوم هو الأنف ، والمراد به أنف الوليد بن عتبة .

ولمـا تقـابـل الجمعـان ،دخـل الـرعبُ في قلوب المشـركين . . . ﴿**إذ يوحي ربُّك إلى الملائكة أنِّي معكم فثبّتـوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الـذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلَّ بَنان**﴾[٣] .

لقد ألقى الله الرعبَ في قلوب الكافرين . كيف ؟ .

سئـل الإمام عليّ عليه‌السلام : المعـروف عنك يـا أبا الحسن أنـك ما قـابلتَ أحداً إلاّ وصرعته ، فكيف ذلك ؟ .

قال : ما قابلتُ أحداً إلاّ أعانني على نفسه .

المعروف عن الإمام أن ضـرباتـه لا تثنّى ، وضربـةُ عليّ تُسمىٰ «الونـز» أي واحـدة لا ثاني لهـا . ومعروف أيضـاً أنه مـا فـرَّ من أحـد قط ، ولا أجهـز على جريح قط ، وما قابلَ أحداً إلاّ وقتله .

وتفسير ذلك أن هيبة الإمام عليّ أدخلت الرعب في قلوب الكفار .

وقبل أن يبدأ القتـال هرب الشيـطان وترك أصحـابه وقـال إني أرى ما لا تـرون : ﴿**فلما تـراءت الفئتـان نكص على عقبيـه وقـال إني بـريءٌ منكم إني**

---

(١) سورة القمر ؛ الآية : ٤٥ .

(٢) سورة القلم ؛ الآية : ١٦ .

(٣) سورة الأنفال ؛ الآية : ١٢ .

أرى ما لاترون إني أخاف اللّهَ واللّهُ شديدُ العقاب﴾[1] . لقد ورّطهم الشيطان وهرب عنهم ، ولكن الملائكة بقيت مع المسلمين ومع المؤمنين .

وقبل أن يبدأ القتال قال الرسول للإمام عليّ : يا عليّ اقبض لي قبضة من الحصى والرمل لأنثرها على وجوه القوم . فأخذ عليّ قبضة من الحصى معفّرة بالرمل وقدمها إلى النبيّ . أخذها الرسول ونثرها فتحولت إلى ذرّات وما تركت أحداً من المشركين إلاّ ودخلت في عينيه وأنفه . ربما تساءل أحدنا عن ذلك وإمكانيته ، ولكن القرآن يعطينا الجواب الواضح وهو : ﴿وما رميتَ إذ رميت ولكن الله رمى﴾[2] . إن الرمية هي من يد رسول الله ، ولكنها كانت بإرادة الله وأمره فكان لها الأثر الذي رأينا . ﴿وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله﴾[3] . وما أن بدأت المعركة حتى خرج عتبة وشيبة والوليد ، وصاحوا : يا محمد ! أخرج إلينا أكفاءنا من قريش . فخرج إليهم ثلاثة ما لبثوا أن ردّوهم . عندها قال الرسول : يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، ويا حمزة بن عبد المطلب ، ويا عليّ بن أبي طالب ، قوموا إليهم . وكان الإمام عليّ حينذاك في الخامسة والعشرين من عمره .

تقدّم ثلاثة من هنا وثلاثة من هناك . وهؤلاء الثلاثة الذين تقدّموا عن المسلمين كان على يدهم انتصار الإسلام وتغيير مجرى التاريخ ، ولولاهم لما كنا نحن الآن مسلمين ؛ ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾[4] .

في تلك الليلة جبن عتبة ، وقال لأبي جهل : لا تقاتلوا محمداً واتركوا المسلمين . اعصبوها برأسي وقولوا جبن عتبة ! لكن أبا جهل أصر على القتال .

---

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٤٨ .
(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ١٧ .
(٣) سورة الإنسان ؛ الآية : ٤٠ .
(٤) سورة الأعراف ؛ الآية : ٤٣ .

واتجهت القلوب إلى المتبارزين . سأل عتبة : من أنتم ؟ قال حمزة : هذا عبيدة بن الحارث ، وهذا عليّ بن أبي طالب ، وأنا الحمزة . قال : أكفاء كرماء .

وتقدّم الجميع مرّة واحدة : الوليد لعلي بن أبي طالب ، وشيبة لحمزة ، وعتبة لعبيدة بن الحارث . الوليد هو الذي تقدّم لعليّ لأنه كان أكثرهم شباباً .

في تلك اللحظة كان الرسول واقفاً يراقب الموقف ، وقلبه مفعم بالأمل والرجاء ، وصار يدعو ويبتهل إلى الله حتى سقط رداؤه من على منكبيه . قال النبيّ : «اللّهمَّ أنجز لي ما وعدتني ، اللّهمَّ ائتني ما وعدتني ، اللّهمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض» . وما زال يهتف بربّه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فتقدّم أحد المسلمين فأخذ الرداء وألقاه على منكبيه .

تقدّم الإمام عليّ مهرولاً باتجاه الوليد بن عتبة . . والقرآن يقول : ﴿**سَنَسِمُهُ على الخرطوم**﴾ وإذ بضربة واحدة من سيف عليّ تطيح برأس الوليد ويسقط إلى الأرض .

بعد ذلك هجم عتبة على عبيدة بن الحارث ، فاختلفا في ضربتين أثبتاها على بعض : عبيدة أثبت ضربته على أرس عتبة فقدّه ، وعتبه وقعت ضربته على ساق عبيدة فقطعتها فوقع عبيدة على الأرض .

وبقي الحمزة وشيبة . تضاربا بسيفيهما حتى تحطم السيفان . فتقدّم علي أمير المؤمنين وقال لحمزة : يا عمّ ، طأطىء رأسك . فوضع الحمزة رأسه بصدر شيبة فضربه عليّ بالسيف على رأسه وقتله ، ثم أجهز على عتبة . . هؤلاء الثلاثة اشترك عليّ في قتلهم جميعاً . عندها كبَّر المسلمون ، وكان هذا أول اللقاء .

تدخّل العناية الالهيـة :

ففي الليلة التي سبقت المعركـة الكبـرى ألقى الله في قلوب المسلمين الأمـان والاطمئنـان فغشيهم النـوم ، وكـان ذلـك راحـة لنفـوسهم وأبـدانهم استعداداً للقتال . ﴿إذ يغشيكم النُّعاس أَمَنَةً منه﴾[1] .

ثم إن الله تبـارك وتعـالىٰ أنـزل من السمـاء مـاءً فثبتت أقـدام المسلمين على الأرض الـرملية التي كـانوا ينـزلون بهـا مما سـاعدهم على القتـال ، في حين أن الأرض تحت أقـدام قـريش بـاتت وحلة غيـر مـلائمـة للقتـال ، فاستدرجـوا إلى مواقـع المسلمين . وكذلـك استقى المسلمون من ذلـك الماء وطهروا أجسامهم . كل ذلك كان له أثر كبير في انتصار المسلمين .

﴿وينـزل عليكم من السمـاء مـاءً ليطهّـركم بـه ويُـذهب عنكم رجـزَ الشيـطان وليربط على قلوبكم ويثبت بـه الأقدام﴾[2] . وإلى جـانب ذلك كله أرسل الله جيشاً من الملائكة يقاتلون مع المسلمين : **﴿أنّي ممدّكم بألفٍ من الملائكة مُردِفين﴾**[3] .

قبل القتال كان الإمام عليّ قد أخذ قِربة ليمـلأها من مـاء آبار بـدر . . . يقـول الإمام الباقر: «خـرج عليّ أمير المؤمنين فصـادفته ريـحٌ شديـدة فجلس على الأرض حتى مضت الـريح ، ثم قـام فجاءتـه ريحٌ شـديدة ثـانية فجلس على الأرض حتى مضت الـريح ، ثم قـام فجاءت ريـحٌ ثالثـة شديـدة فجلس على الأرض حتى مضت الـريح . . . ولمـا وصل إلى رسـول الله قال لـه : يا عليّ ، ماحَبَسكَ ولمـاذا تأخـرت ؟ ؛ فقصّ عليه النبأ وما كـان من أمر الـريح الشـديدة ؛ فقـال الرسـول : وماذا أحسست ؟ قـال : أحسستُ بقشعريـرة في بدني . قال رسول الله : يا عليّ ، أتدري ما هذه الريـاح ؟ قال : لا ! قـال :

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ١١ .
(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ١١ .
(٣) سورة الأنفال ؛ الآية : ٩ .

«الريح الأُولىٰ كانت جبرائيل يقود ألفاً من الملائكة فسلَّم عليك وسلّموا عليك . والريحُ الثانية كانت ميكائيل يقود ألفاً من الملائكة فسلّم عليك وسلّموا عليك . والريحُ الثالثة كانت إسرافيل يقود ألفاً من الملائكة سلَّم عليك وسلّموا عليك» . يُقال إنه في ساعة واحدة من ساعات هذه الليلة كُتب لعليّ ثلاثة آلاف فضيلة وثلاث فضائل من الملائكة الذين سلّموا عليه .

والتحم الجيشان . . . وهنا لا بد لي من ذكر ملاحظة لا أُريد أن أتجاوزها : لقد كان المسلمون في عدد قليل حوالي ٣٠٠ رجل ، في سبعين بعيراً وفرسين. وكان المشركون في حوالي ألف مقاتل، في إبل كثيرة، وفيهم مائة فارس بقيادة خالد بن الوليد الذي هزم في هذه الوقعة ، غيرأن المؤرخين الجدد لا يذكرون ذلك ، بل يكتفون بذكر خالد في وقعة أُحُد ، أما في وقعة بدر هذه فإنهم يتجاهلون أمر خالد وذكر انهزامه أمام علي بن أبي طالب .

ولنعُد الآن إلى معركة بدر . . . فنقول إن المسلمين في تلك المعركة كانوا على ثلاثة أقسام : قسم يقاتلون ويجالدون ويطاردون الكفار ، وقسم يجمعون الغنائم ، وقسم يحامون عن رسول الله ويحفظونه وهو واقف بالعريش . ـ والعريش نوع من السقيفة تشبه الخيمة ـ وانهزم المشركون شر هزيمة وانتصر المسلمون نصراً مبيناً . . . وفي هذا المجال يصف أحد الكفار أصحابَ محمد فيقول : رأيت أصحاب محمد أيديهم على قوائم سيوفهم ، أسماعهم إلى محمد ، وقد ملئت نفوسهم وملئت جمالهم موتاً . . .

ولكن بعد النصر تنازع المسلمون في أمر الغنائم : فقال البعض : نحن جمعناها فحصتنا فيها هي الأكثر ؛ وقال آخرون : بل نحن طاردنا الكفار وقتلنا صناديدهم ؛ وقال فريق ثالث ، وهم من الأنصار : إن حصتنا لا تقلّ عن حصة أي منكم لأننا نحن حفظنا الرسول وهو بالعريش ودفعنا

عنه غدر المشركين . . . ولذلك قال الله عزّ وجلّ : ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾[1] ولذلك أيضاً نزلت سورة الأنفال جميعها بعد المعركة لتشير إلى أن الأنفال جميعها لله ولرسوله ، فقسّم الرسول الأنفال (الغنائم) على المجاهدين بالسويّة والعدل ، فأعطى للفارس سهمين وللراجل سهماً واحداً .

أما الأسرى فكانوا سبعين أسيراً . أوثقوهم كتافاً ، ولكن الرسول منعهم من ذلك وأمرهم ألا يوثقوهم كتافاً ؛ وهو بذلك يعطينا صورة فضلى لكيفية معاملة الأسير .

ومن دروس هذه الليلة أيضاً أن الأبناء قاتلوا آباءَهم والإخوة إخوتهم ، لأن العقيدة فوق كل شيء : أبو بكر كان مع المسلمين وابنه عبد الرّحمٰن كان مع المشركين . عتبة بن ربيعة مع المشركين وابنه حذيفة مع المسلمين . . . لذلك لما أمر الرسول بإلقاء جثث قتلى المشركين في القليب (البئر) جاؤوا بجثة عُتبة ، فلاحظ الرسول أن لون وجه ولده حذيفة تغيرّ ، فسأله الرسول : هل دخل في قلبك من أبيك شيء ؟ قال : لا يا رسول الله . ما شككتُ في كفره ، ولا شككت في إسلامي . . . ولكنني حزنت لأن أبي كان له رأي فما أحببت أن يموت وهو كافر ؛ أحببت أن تشمله الرّحمة ، فلذلك تألّمت . قال الرسول : إنك على خير . . .

عبيدة بن الحارث كان مع رسول الله ونوفل بن الحارث مع المشركين . العباس بن عبد المطلب مع المشركين والحمزة بن عبد المطلب مع المسلمين . علي بن أبي طالب قائد المسلمين وعقيل بن أبي طالب مع المشركين . على أننا يجب أن ننبّه هنا إلى أن العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب كانا مسلمين ، ولكنهما أكرها على الخروج مع المشركين . وكان الرسول يعلم بهذا الأمر ، ولذلك فإن الرسول لم ينم تلك الليلة ألماً وحزناً لأنه سمع أنين عمّه العباس وهو مكبّل بالقيود . . . وإلى

---

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٤٦ .

هذا المعنى يشير الإمام السجّاد زين العابدين بقوله ليزيد : «ما ظنُّك بجدّنا رسول الله لو رآنا على هذه الحالة ؟ !» . الرسول الذي لم ينم لأنه سمع أنين عمّه العبّاس ، فهل يهدأ قلبه حين يسمع أنين ولده زين العابدين وابنته الحوراء زينب ؟ ! .

ومن الدروس العظيمة التي نأخذها في هذه الليلة أن الله سبحانه وتعالىٰ جعل مصرع أُميّة بن خلف على يد بلال الحبشي ، ومصرع أبي جهل على يد عبد الله بن مسعود . أتعرف لماذا ؟ لقد كان أُمية يأخذ بلالاً المسلم في مكة ، ويلقيه على ظهره في لهيب الشمس ، ثم يضع صخرة كبيرة على صدره ويبدأ بجلده وتعذيبه قائلاً : أكفر بربِّ محمد ! فيقول بلال : أحدٌ أحدٌ ؛ ويرفع إصبعه بإشارة التوحيد . وأبو جهل كذلك كان يضرب عبد الله بن مسعود ويتولى أمر تعذيبه يوم كان المسلمون قلّة مستضعفين بمكة .

رمى عبد الله بن مسعود أبا جهل أرضاً وجلس على صدره . التفت أبو جهل وقال : أنتَ يا رُوَيعيَّ الغنم ؟ ! (الرويعيّ هو الراعي بالتصغير) . قال : بلى . قال : أجهزْ عليَّ لا خير في هذه الحياة ! . . فأجهز عليه عبد الله بن مسعود بضربة واحدة .

أما بلال الحبشي فإنه لما رأى أُميّة بن خلف صاح بأعلى صوته : لا نجوتُ إن نجا أُميّة ! وأقبل عليه بسيفه وقتله .

بعد ذلك أمر الرسول بإلقاء جثث القتلى في بئر مهجورة هناك ، ثم وقف على رأس القليب وناداهم واحداً واحداً : «يا شيبة ، يا ربيعة ، يا عتبة ، يا أبا جهل ، يا أُميَّة بن خلف. . . هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً» . فقال المسلمون : يا رسول الله أتنادي قوماً قد جيَّفوا ؟ قال : «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني» .

ولما رجع النبيّ إلى المدينة طلب من كل أسير أن يعلّم عشرة من

المسلمين القراءة والكتابة لقاء حريته . . . فيا له من عفو فيه كل السماحة والحكمة والموعظة ! .

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أميّة بعد مصاب أهل بدر من قريش ، وكان لعمير ابن في عداد أسارى بدر . . . قال صفوان لعمير : والله لا خير في الحياة بعدما حدث ببدر ! قال عمير : أي والله . . . ولولا صبية صغار أخشى عليهم الضياع بعدي ، ودينٌ عليَّ ليس له عندي قضاء ، لركبتُ إلى محمد حتى أقتله . فاغتنمها صفوان وقال له : عليَّ دَيْنُك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي ، وهذه أموال ، فاذهب إلى المدينة وخلّصنا من محمد . . ذهب عمير ودخل المسجد في المدينة متوشحاً سيفه ، والرسولُ في المسجد . رآه رجلٌ من المسلمين فقال : انظروا واحترسوا من هذا الخبيث ! ثم أخبر الرسول بأمره . قال الرسول : «أدخلوه عليَّ» . فلما دخل قال الرسول : «ادنُ مني يا عمير» ؛ فدنا ثم قال : أنعموا صباحاً ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ؛ فقال رسول الله : «قد أكرمنا الله بتحيَّة خير من تحيَّتك يا عمير ! أكرمنا بالسلام : تحية أهل الجنّة» . . . ثم قال له الرسول : «ما الذي جاء بك يا عمير ؟» قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم (ويعني ولده) . قال الرسول : «أصدقني ، ما الذي جئت له ؟» قال : ما جئت إلاَّ لذلك . قال : «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في حِجر الكعبة ، فذكرتما أصحابَ القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دينٌ عليَّ وعيالٌ عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً ، فتحمَّل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له ، واللّهُ حائلٌ بينك وبين ذلك» . قال عمير : أشهد أنك رسول الله . قد كنّا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمرٌ لم يحضره إلاَّ أنا وصفوان ؛ فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلاَّ الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق . . . ثم شهد شهادة الحق . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «فقّهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره» ففعلوا .

الله أكبر !!! إنها أيها الإخوة الأخلاق العظيمة ، والمدرسة الكبرى ، مدرسة القرآن ، ومدرسة الرسول الأعظم ، ومدرسة عليّ أمير المؤمنين . . . .

في هذه الليلة المباركة التي هي ليلة الفرقان ، حيث أبواب السماء مفتوحة ، إذا وُفِّقتَ لصلاة ركعتين وبعد الحمد مئة مرّة قل هو الله أحد ، أو ركعتين وبعد الحمد سبع مرّات قل هو الله أحد ، أو قراءة مائة آية من القرآن ثم سبع مرّات يا الله ، ثم تطلب حاجتك . . . يقول الإمام علي عليه السلام : فإنها تقضى بإذن الله .

إنها ليلة الفرقان ، لأنها الليلة التي فرقت الحق من الباطل ، وفيها أراد الله أن يحق الحقَّ بكلماته .

يقول الله في كتابه العزيز : ﴿**وعلَّم آدم الأسماء كلها**﴾(1) ويقول : ﴿**وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات**﴾ (2) ويقول: ﴿**ثم عرضهم على الملائكة**﴾(3) . . . . إنها كلمات وأسماء .

ما هذه الأسماء ؟ لو كان المراد بها أسماء الأشياء ، مثل منبر ، ثوب ، عباءة ، ماء ، هواء . . . الخ لكان قال : «ثم عرضها» ولكنه يقول : ﴿**ثم عرضهم**﴾ فالمراد أنه عرض المسميات . وجاء في الأثر عن أهل البيت أن هذه الأسماء هي أسماء أصحاب الكساء : محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين .

ويقول عزّ وجلّ : ﴿**إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**﴾(4) . . . وفي التفسير الوارد عن أهل البيت أنه من القول الثقيل الرسالة ، ومن القول الثقيل ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام . والمراد أن هذه الأمور ثقيلة ووازنة

---

(1) سورة البقرة ؛ الآية : 31 .
(2) سورة البقرة ؛ الآية : 124 .
(3) سورة البقرة ؛ الآية : 31 .
(4) سورة المزمل ؛ الآية : 5 .

في ميزان المؤمنين ، وهي ثقيلة على قلوب الكفّار والمنافقين . ولذلك ترى الرسول في يوم غدير خُمّ يتباطأ في التبليغ . . . فينزل جبريل بكلمات ربّه : ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزلَ إليكَ من ربِّك**﴾[1] ؛ فقال الرسول : «هذا قول ثقيل على قلوب الناس ، لا يحتملوه» ، فتابع الملاك الأمين : ﴿**وإن لم تفعل فما بلَّغْتَ رسالته والله يعصمك من الناس**﴾ . . . ولذلك نرى الرسول ﷺ في خطبة الوداع يخاطب الناس مشيراً إلى عليّ : «من كنتُ مولاه فهذا عليّ مولاه . اللّهمَّ والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، واخذل من خذله ، وانصر من نصره ، وأَدِرِ الحقَّ معه حيثما دار» .

إن ولاية عليّ بن أبي طالب هي من القول الثقيل الذي يرجح في ميزان الحقّ ويثقل على أسماع المنافقين ؛ وإلى هذا الأمر يشير الله عزّ وجلّ في كتابه بقوله : ﴿**والوزنُ يومئذٍ الحقُّ**﴾[2] .

فإذا عرفتَ أن الحقَّ مع عليّ وأن علياً معَ الحقّ تخرج بنتيجة هي أن الإمام علي هو ميزان الأعمال . . . ولذلك نجد أن الإمام الباقر يخاطبه في الزيارة بقوله : «السلام عليك يا ميزانَ الأعمال» .

ولكي نلتفت أيضاً إلى عظمة أهل البيت نقول إن الرسول الأكرم أنشأ يوم بدر حوضاً للماء يستقي منه المسلمون ، وقد رجع الإمام علي مرتين أثناء القتال عطشان ليجد الماء عند رسول الله. .ولكن يوم عاشوراء رجع أبو الفضل العباس ورجع علي الأكبر وكل منهما قلبه كالحديدة المحماة من الظمأ . . . نادى عليّ الأكبر : «أبتاه إن العطش قد قتلني ، وثقل الحديد أجهدني» أجابه أبو عبد الله الحسين : «بنيَّ سرعان ما يسقيك جدّك رسول الله بكأسه الأوفىٰ شربة لا تظمأ بعدها أبداً» . . . هذا عليّ الأكبر . . وأما أبو الفضل العباس فإن الإمام الصادق عليه السلام يربطه بأصحاب بدر في هذه الليلة ويقول : «أشهد أنك قد مضيت على ما مضى عليه البدريّون

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٦٧ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٨ .

والمجاهدون في سبيل الله» . فأبو الفضل العباس هو أيضاً من أصحاب بدر لأنه يقع في نفس الخط الجهادي الاستشهادي الممتد من الشهداء الأوائل بين يديّ رسول الله إلى الذين استشهدوا بين يديّ أبي عبد الله الحسين .

وإذ يسمع أبو الفضل العباس الأطفال يبكون من العطش ، أقبل إلى أخيه الحسين : «أخي يا أبا عبد الله ، ائذن لي يا نور عيني حتى أشفي قلبي وأطلب ثأري من هؤلاء المنافقين . . . أهيّىء الماء لسكينة ولعبد الله الرضيع» . قال الحسين : «أخي يا أبا الفضل، كيف آذن لك وأنت قائد عسكري ! وإذا ذهبت أو قتلت تشتّت عسكري» . . . نعم أيها الإخوة لقد كان أبو الفضل العباس مثل أبيه الإمام عليّ جيشاً وعسكراً بمفرده . . . ولذلك أصبح أبو الفضل باب الحوائج إلى الله أيضاً .

هؤلاء هم أولياء الله ، وهم طريقنا إلى الله . . . والله يقول : ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾[1] وهؤلاء هم الوسيلة إلى الله .

هناك قصة ينقلها عبد الرزاق المقرم في كتابه يقول : هنا في المحمرة كان يوجد يوم عاشوراء رجل مشلول يجلس دائماً في مكان معين يستمع ولا يستطيع أن يتحرك . وفي اليوم السابع بينما كان الناس يبكون ويلطمون في إحياء ذكرى أبي الفضل العباس كان ذلك الرجل يتألم لأنه لا يستطيع مشاركتهم باللطم معهم وتأدية شعائر العزاء . فهوّمت عيناه بالنوم وهو في مجلسه ذاك ، فرأى فارساً على جواده يقول له : يا فلان ! قم وأدِّ الواجب الذي عليك ، قم واشترك في العزاء . . . قال : أنا مشلول لا أتمكن من ذلك ! . . . قال له : أنا أقول لك قم ! . قال : وإذا كنت تأمرني بالقيام فأعطني يدك حتى أقوم .

يقول هذا الشاب المشلول : لما قلت له : أعطني يدك ، أطرق برأسه إلى الأرض ، فنظرت إليه وتأملته ، فإذا بي لا أرى له يميناً ولا

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٣٥ .

شمالاً . . لقد كان أبا الفضل العباس .

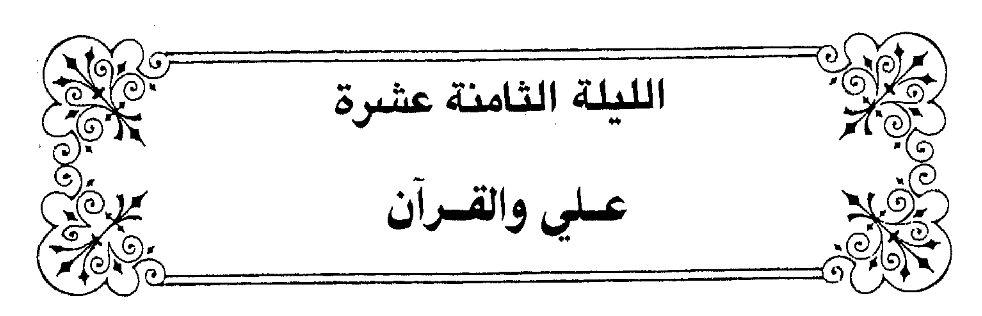
يقول الشاعــر :

قصدتُ أبا الفضل الذي هـو لم يزل　　قـديمـاً حـديثـاً للحـوائـج يُقصـدُ
يمـدُّ على العيـن السـقيمـة كفَّـه　　وإن قُـطعت يومَ الـطفـوف لـه يـدُ .

ويـروي السيّدحيـدر الحلّي أن أبا الفضـل العباس زاره في المنـام وقال لـه : إذا ذكرت مصيبتي أمـام الناس فنبِّـه أحبتي بأن الفـارس إذا سقط وهـوى إلى الأرض فإنه يتلقّىٰ الأرض بيديه ، ونبهّهم إلى أنني لما وقعتُ إلى الأرض لم يكن عندي لا يمين ولا شمال .

. . . لذلك وقع أبو الفضل منادياً : « . . أخي يا أبـا عبد الله ! عليـك مني السلام» . . خرج الإمام الحسين منتفضاً ووقع على القوم كالصقر المنقضّ . كشف القـومَ عن أخيه ، وجلس عنـد رأسه . ـ وأبـو الفضـل لم يكن يبصـر ، لأن العين اليمنى فيهـا سهم ، والثانيـة قـد جمـد عليهـا الـدم . أحسَّ أبـو الفضل العباس برجل يرفع رأسه ويضعه في حجره ، فتصوّر أنـه أحد الأعـداء يريد قتله . . . قال له : يـا هذا ! أقسم عليـك بمن تعبد إلاَّ مـا أمهلتني حتى يـأتي إليَّ ابنُ والـدي ؟ ! . . . وإذا بـالحسين يبكي ويقـول : أخي أبـا الفضل ! أنا أخوك الحسين ! أخي الآن انكسر ظهري وقلّت حيلتي . . . .

إنا لله وإنّا إليه راجعون . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الليلة الثامنة عشرة

علي والقرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون كلاّ سيعلمون ثم كلاّ سيعلمون﴾(١) .

قد تتساءلون أيها الأخوة المؤمنون عن السبب أو الحكمة من أن الله سبحانه وتعالىٰ قد اختار هذا الشهر العظيم ، شهر رمضان المبارك ، لنزول القرآن الكريم . . . فإذا كنتم تعلمون بأن ليلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر ، ليلةٌ من ليالي رمضان وهي أعظم ليلة في تاريخ الكون . . أدركْتُم عظمة هذه الحكمة الإلٰهية من نزول القرآن الكريم في شهر رمضان .

القرآن وشهر رمضان وليلة القدر :

شاءت الحكمة الإلٰهية أن تتجلى في أعظم صورة لها من خلال هذا الترابط الوثيق فيما بينها . . . **شهر رمضان** هو شهر التوبة والغفران ، شهر المحبة والصوم والصلاة ، . . هو شهر التقوى . **والقرآن الكريم** هو كتاب

(١) سورة النبأ ؛ الآيات : ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ .

شفاء ورحمة للمؤمنين ، هو كتاب هداية للمتقين .

أما ليلة القدر : **﴿إنَّا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر﴾**[1] .

إذا أدركنا أيها الأخوة الحكمة من نزول القرآن الكريم في شهر رمضان، فإنه يتوجب علينا، لكي يكون إدراكنا لهذه الحكمة راسخاً في وعينا وفي أحاسيسنا وفي وجداننا ، أن نلتفت إلى معنى رمضان ومعنى القرآن الكريم ومعنى ليلة القدر . وعلينا كذلك أنْ نفقه معنى الترابط الموجود فيما بينها . وليس ذلك على الإنسان المؤمن ببعيد .

نزل القرآن الكريم كتاب هداية للناس جميعاً ، لم يستثن أحداً . إنه يدعو كلَّ الناس إلى الإيمان بالله الواحد وبرسوله ؛ ويدعو الناس إلى التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . . يدعوهم إلى الصلاة والصوم والابتعاد عن المنكر والمحرمات . . يحث الأبناء على إطاعة الوالدين والبرّ بهما ، ويدعو إلى إطعام المساكين وإقامة نظام الحق والعدل ومحاربة الفجّار والكفار . . . إنه بلا شك كتاب هداية للناس أجمعين . . . .

ولكن هل سيهتدي كل الناس بمجرد قراءتهم للقرآن الكريم ؟ أبداً ، أيها الأخوة . . لن يستطيع الكافر أو الفاجر أو الفاسق أن يهتدي . . . . لأنه مغشى على عينيه لا يريد أن يرى الحقيقة ، ولأنه مقفل القلب ويوجد سدٌّ منيع بينه وبين الإيمان ؛ مثله كمثل التلميذ العابث الكسول ، مهما حاول المعلم إفهامه فتبَوء محاولته بالفشل .

المعلم يشرح الدرس لجميع تلاميذه وبدون تمييز ، فمنهم من يفهم وينجح ، ومنهم من لا يستوعب شيئاً فيفشل . فلا تكونوا أيها الأخوة إلاَّ مؤمنين ، قلوبكم مفتوحة وعقولكم مهيأة للهداية .

---

(١) سورة القدر ؛ الآية : ١ ـ ٥ .

والهداية نوعان : عامة وخاصة ؛ وكما أشرنا فإن القرآن كتاب هداية عامة ، أي لكل الناس ؛ وليس كل من يقرأه يهتدي ؛ رب قارىء يهتدي ، ورب آخر يلعنه القرآن . لماذا ؟ إذا كان الغرض من قراءة القرآن ، تحريف وتشويه محتواه ومضمونه ، فإن كل آية من آياته ستلعن قارئها إلى يوم القيامة . لذلك فإن القرآن الكريم هو كتاب هداية . . ولكن للمتقين ﴿**الٓمٓ. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين**﴾[1] ، أما الظالمون ، أما الفجّار فليس لهم نصيب من الهداية . القرآن أيضاً كتاب شفاء ورحمة ، ولكن لمن ؟ ﴿**وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاَّ خساراً**﴾[2] .

هنا تبرز لنا بوضوح الهداية الخاصة . . . القرآن هدىً للمتقين ، أي لمن فتح عقله وقلبه ، وكان في عقله وفي قلبه نور الإيمان والتقوى .

شهر رمضان هو شهر التقوى . ليس معنى ذلك أن بقية أشهر السنة الأحد عشر لا توجد فيها التقوى ولا يوجد فيها الإيمان أو الصلاة . فالمؤمن يخترق الزمن بإيمانه ، لا يميز بين ساعة وأُخرى ولا بين يوم وآخر ولا بين زمن وزمن ، ولا حتى بين مكان ومكان . . المؤمن لا ينفكّ ولا ينفصل لحظة عن تقواه . . في بيته وفي عمله ، في المسجد وفي الشارع في كل يوم وفي كل ساعة . . تكون تقواه ملازمة له في كل ما يفكر ، وفي كل ما يعمل . صحيح أنه يقيم الصلاة في أوقاتها ويصوم شهر رمضان لا غيره ، ويحج إلى بيت الله في الموعد المقرر . . . إن كل ذلك هو التزام بما أمره الله به ونظم له أوقاته . . . إذاً ، لماذا نسمي شهر رمضان هو شهر التقوى . . . لأن في هذا الشهر تُسْتَجمع همم المسلمين كافة وفي كل أصقاع الأرض للعمل على شحذ المزيد من التقوى والإيمان والعبادة في نفوسهم وفي أعمالهم . إنه شهر العبادة والتقوى والصلاح . . فمن كان

---

(١) سورة البقرة ؛ الآيتان : ١ ، ٢ .

(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٢ .

ضعيف الإيمان أو قليل التقوى أو مقصراً في الموجبات ، فإنه في هذا الشهر سيحسّ بالخزي والعار ، وسيشعر بالرهبة عندما يرى مظاهر التقوى متغلغلةً ومنتشرة في كل زاوية من زوايا مجتمعنا الإسلامي : في الشارع وفي السوق . . في المكتب وفي الجامعة ، في البيت وفي المعمل والحقل . . هذا الطقس العبادي وهذه الشعيرة العبادية هما من شعائر الله ، إنه الصوم في شهر رمضان ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾[1] . لذلك فإننا عندما نصوم في شهر رمضان والإيمان يغمر قلوبنا نكون في قمة التقوى . . هذه هي الحال الوحيدة التي تؤهلنا لقراءة القرآن قراءة واعية ، نستوعب بصدق وبعمق آياته الشريفة . . بمعنى آخر ، أننا لن نكون مهيئين لاستيعاب وفهم القرآن الكريم إلاّ إذا استحوذت التقوى على عقولنا وقلوبنا ولامست لبَّ العقل وصميمَ القلب .

أيها الأخوة المؤمنون ثَمَّة من يسأل ـ وفي سؤاله أهمية ـ هل بإمكان إنسان فاجر فاسق أن يفهم القرآن ، خصوصاً إذا كان ممن درسوا في المدارس والمعاهد والجامعات ؟ جواباً على ذلك أقول : في بادىء الأمر أرى ضرورة توضيح ماذا نقصد بعبارة فَهْم موضوع ما أو معرفته أو ، إذا شئنا أن نحدد أكثر ، وعيه . كُلّنا يسمع هذه الكلمات تتردَّد بين حين وآخر وفي مناسبات عديدة على ألسنة الناس ، كأن يقول أحدهم : «والله فلان واع» أو «فلان فهمان» أو «هذا مثقف» و «ذاك عنده معرفة بكذا وكذا» . . . لا أريد هنا أن أنفي أو أؤكد هذا الكلام أو غيره . . أُريد أن أوضح مسألة هي في غاية الأهمية ، وهي ستلقي الضوء على سؤالنا الآنف الذكر . نسمع يومياً خطباء عديدين بعضهم يتحدث في السياسة وغيرهم في التربية والأخلاق وآخرين في الدين والتقوى والصلاح . . . وإلخ . . . . تساؤلنا هنا لا يدور حول مضمون الكلام . . فجلّه لا غبار عليه ، وقد لا نستطيع

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٣ .

مجاراتهم في انتقاء المفردات وسبك الجمل واختيار أنبل وأشرف المهام لخدمة المجتمع ، وكذلك لسنا بصدد الاعتراض على الخطيب أو المتحدث نفسه ، إنما سؤالنا هو : كم من هؤلاء الخطباء يلتزمون بمضمون ما يقولون ؟ على الرغم من أهمية أقوالهم وحاجتنا إلى تطبيقها. يدعون إلى إقامة وبناء الوطن لجميع أبنائه ، بينما التعصب الطائفي معشش في كل حنايا عقولهم ومؤسساتهم . . يدعون إلى القضاء على المحسوبيات ، ومزارعهم لا تقل خطورة عن مزارع الاستيطان الصهيوني في بلادنا . . يدعون إلى مكافحة الرشوة والخوات وقلما تجد مسؤولاً كبيراً كان أم صغيراً لم ينهش في جسد الناس وسرقة عرق جبينهم . . يدعون إلى الأخلاق الفاضلة ومكافحة الرذيلة وكثير منهم غارق حتى أذنيه في الفحشاء . . أَبَعْدَ ذلك ، هل يمكننا أن نعتبر فلاناً من الناس واعياً لمجرد خطبة مدبّجة جيداً وبغضّ النظر عن سلوكه ودوره ومدى التزامه بما يطرحه على الناس ؟ أعتقد أنه من المنطقي أيها الأخوة أن نعتبر ذلك الإنسان واعياً إذا ما كان في سلوكه اليومي في بيته وفي وظيفته وفي أي مكان منسجماً مع أقواله صادقاً في علاقاته ، أميناً للمبادىء وللقيم التي يطرحها على الناس . . لا بل عليه أن يكون مجاهداً في سبيل أن يسود الحق والعدل في مجتمعنا . . هذا هو الواعي ، وهذا هو الإنسان المؤمن . . أي الذي يقرن القول بالفعل . فليس الوعي أو المعرفة أن تنظر وتحلّل وتستعين بكل ما قرأت وتعلمت في مدارس العلم لترى الجانب المادي في الأشياء أو الجانب التكنولوجي أو العضوي . . الوعي هو أن ترى الأشياء بشكلها وبمضمونها ، بجسدها وبروحها، بظاهرها وجوهرها . الوعي هو أن تترجم إلى حيز العمل كل قول وكل حقيقة نظرية ، أن تعمل للصالح العام وتضحي في سبيل ذلك .

مرّة أُخرىٰ أعود أيها الأخوة المؤمنون لسؤالنا الأساسي : هل بإمكان إنسان فاجر فاسق أن يفهم القرآن ؟ جواباً على ذلك أقول : إن بمقدوره أن يفهم القرآن فهماً مادياً . . فهماً من الناحية التكنولوجية . . يستطيع أن يفهم كيف تجزّأ الذرة وكيف تفصل الخلية وكيف هو التركيب أو البناء البيولوجي

في جسم الإنسان . أيضاً يمكنه أن يفهم القرآن من الناحية التكتيكية والتكتيك الحربي . مثلاً سورة الحديد وسورة النور . . . وسورة العنكبوت والبقرة والفيل والنمل والنحل . . سورة النجم ، سورة الشمس ، سورة القمر . . . أجل يمكنه أيها الأخوة أن يفهم القرآن من الجانب الطبيعي . فالإمام علي عليه السلام يشير إلى هذا الجانب فيقول : «الله . الله بالقرآن فلا يسبقكم بالعمل به غيركم» ويعني الجانب المادي . أمَّا أنه يستطيع فهم القرآن فهماً ربانياً وفهماً إلهياً ويستوعب بالتالي رسالة القرآن ، فإن ذلك عليه عسير . . لا بل أنه من المستحيل أن يفهم القرآن بوعي إيماني خالص لوجه الله ، لأن من يضع بينه وبين الإيمان سداً لا يمكن أن يرى ويعرف واقع وحقيقة ما وراء السد . . . فهو إمّا أن يطلق لتفكيره عنانه ليصنع الأوهام أو ليُسْقِط واقِعَهُ على أي واقع آخر . بمعنى آخر : قلب خال من التقوى لا يمكنه فهم القرآن فهماً ربانياً .

القرآن والتقوى :

تحتل مسألة التقوى - هذه المسألة الايمانية العظيمة - في مدرسة الإمام علي عليه السلام، وفي منهاجه التربوي تحديداً ، حيزاً كبيراً أفرد لها خطباً كاملة تضمنها كتابه نهج البلاغة يصف فيها المتقين فيقول : «فالمتقون - فيها - في الدنيا هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب» ، ومتى غادرت التقوى قلب الإنسان ، أُقفل هذا القلب . . . القفل إذاً موجود ، ومتى خرجت التقوى من القلب يقفل القلب تلقائياً ولا يمكن عندها لإنسان أن يفهم القرآن . . . لماذا ؟ لأن القرآن كما سبق وأوضحنا هدى للمتقين . جاء في القرآن الكريم ليوضح هذا الأمر بدقة مُتناهية **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾**(١) ؟ . يمكننا توضيح الأمر بمثال على التكنولوجيا الحديثة ؛ في بعض الفنادق هناك أقفال الكترونية . وأعتقد بأنكم سمعتم بذلك . يحصل كل نزيل جديد في الفندق على بطاقة صغيرة مكتوب عليها

(١) سورة محمد ؛ الآية : ٢٤ .

رقم الغرفة والاسم . يلقّنون الكومبيوتر المعلومات الجديدة فيحضر على البطاقة رقم الغرفة واسم النزيل الجديد . ولكي يدخل إلى غرفته عليه أن يضع هذه البطاقة في فتحة مخصصة لها في القفل . عندها يفتح القفل ويفتح الباب . أيضاً تطورت العلوم أكثر من ذلك وأصبح في إمكان الزائر أن يفتح باب غرفته بمجرد ذكر الرقم السري ، الذي يفترض أن يكون قد زوّد به في بادىء الأمر . يغلق الباب بصورة اعتيادية ويفتح بلفظ الرقم السري . لا تستغربوا الأمر أيها الأخوة فالأمور تتشابه بين المادية والروحانية ، بل إن المسائل الروحانية هي أعقد بكثير وأدق مما تتصورون . . أجل أيها الأخوة ، القلوب سَتُقْفِلُ حتماً إذا ما غادرتها التقوى . . . بل أننا نستطيع إيجاد وسائل عديدة لفتح باب الغرفة إذا أضعنا البطاقة أو إذا نسينا الرقم السري ، بينما يصبح شبه مستحيل إعادة فتح القلب إذا غادرته التقوى **﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾**[1] .

معنى ذلك أن التقوى هي مفتاح القلب ، وعندما ينفتح قلب الإنسان يستوعب كل شيء بإذن الله في هذا الكون . . ويستوعب كل شيء في القرآن الكريم . وشهر رمضان بما أنه شهر التقوى فهو شهر مفتاح القلب . . . ولذلك فرمضان ربيع القلوب . . والقرآن ربيع القلوب . . . وهكذا يكون شهر رمضان ربيع القرآن . . لماذا أيها الأخوة . . ؟ . لأن هناك تجانساً وترابطاً بين القلب المليء بالتقوى وبين معرفة القرآن الكريم .

كيف نمتلك التقوى :

إذاً ، التقوى هي ضالتنا المنشودة . . فكيف نملكها ؟ إذا عدنا إلى مدرسة الإمام علي عليه السلام نجد الجواب الصريح الدقيق . . . الجواب الكافي والشافي . يقول علي عليه السلام: «أملكوا أنفسكم تملكون التقوى» . ويتساءل الاصبغ بن نباتة وتلميذ علي : بأي شيء أملكها ؟ قال : «بمخالفة

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٤٥ .

الهوى» . لاحظوا الترابط ولاحظوا الدقة في تحديد المسألة . إذاً عندما تخالف الهوى فإنك تملك التقوى ، وإذا ملكت التقوى فقد ملكت مفتاح قلبك . وهذا هو بالطبع القلب السليم .

أما إذا شاء صاحب هذا القلب اتباع الهوى . فإن هذا القلب بلا شك مريض عليل . يقول عليّ عليه السلام في هذا الصدد : «أن أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى وطول الأمل . . أما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فيُنْسي الآخرة» إذ كيف لقلب مقفل أن يسير على طريق الحق ، فطريقه الباطل . نؤكد مرّة أُخرى قول الإمام علي عليه السلام : «فالمتقون فيها (أي في الدنيا) هم أهل الفضائل منطقهم الصواب» ؛ فإذا كان المنطق صواباً معنى ذلك أن يضيء قناديل التقوى . وإذا كان منطقهم قد حاد عن جادة الصواب يعني أنه لا يوجد أي منطق سوى الغيبة والنميمة والكذب والدجل والبهتان والنفاق . . . وهذه كلها أمراض القلب . وقبل الانتقال إلى الخطوة الكبرىٰ في مدرسة الإمام علي عليه السلام وهي ذروة في التفكير الفلسفي الإيماني ، أودُّ الإشارة قبل ذلك إلى منطق الاستدلال على شيء بشيء آخر ، من خلال المثال التالي : نستدل تارة على الشجرة بالثمر . وتارة أُخرى نستدل على الثمر بالشجر . هذا الاستدلال هو بلا شك منطقي وعقلاني . الإمام علي عليه السلام يستدل استدلالاً رائعاً في هذا الجانب حيث يقول : «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» .

تصوروا هذا الربط المنطقي السليم حتى أنه يمكننا القول : إن اللسان يدل على القلب الطاهر ، والقلب الطاهر يدل على الإيمان .

هكذا إذاً الإمام أمير المؤمنين دائماً يبحث عن الجذور ، وعلاجه إصلاحي ، علاج كامل . ففي الوقت الذي أطلق فيه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب نداءه المسموع والمعروف : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً» ، كان الإمام علي عليه السلام يفجر ثورة التحرر الإنساني ويشعل

فتيلها في ضلوعِ الناس ، ويخاطب الشعوب بقوله : «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً» . لاحظوا كيف أنه يخاطب الإنسان نفسه ويحثه على أن يكون مؤمناً وأن لا يرضى باستعباده وأن يناضل في سبيل حريته وكرامته . إنه يقول لك لا تكن عبداً لغيرك ، يجب أن تكون إنساناً لا ترضى بالدنية لنفسك . . يجب أن تكون عزيزاً ، كريماً وفي مستوى الإنسانية الحقة . . لا تنحنِ إلّا لله ولا تركع إلّا لله ، فالدنيا لا قيمة لها ، ولا تخشى سلطاناً غير سلطان الله . بهذا أيها الأخوة المؤمنون تتعزز التقوى في قلوبكم وتقتربون أكثر فأكثر من الله ، لأن تقواكم تساعدكم على فهم واستيعاب القرآن الكريم واستيعابكم للقرآن الكريم يزيدكم قرباً من الله عزَّ وجلَّ . ابتعادنا عن القرآن وعن هدف القرآن وعن رسالة رمضان تجعلنا نتعثر في دياجير الظلم والنفاق والشيطان . أما اقترابنا من القرآن فإنه يعمر قلوبنا بالإيمان والتقوى .

الغيبة والنميمة :

لا تنسوا أيها الأخوة المؤمنون قوله عليه السلام : «لا يستقيم إيمان عبد حتىٰ يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» . . فاستقامة اللسان تؤدي إلى استقامة القلب . ماذا تعني عبارة استقامة اللسان ؟ إنها تعني ترك الغيبة والنميمة والكذب ، معنى ذلك أني أعبىء قلبي نوراً . يقول الإمام عليه السلام : «اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشى والهادي الذي لا يُضل ، والمحدّث الذي لا يكذب ، وما جالسه أحد إلّا قام منه بزيادة أو نقصان ، زيادة في هدى أو نقصان من عمر» .

سألوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : يا رسول الله ما هي الغيبة ؟ قال : ذكرك أخاك بما يكره . قال : فإن كان الذي يكره فيه ؟ قال : هذه هي الغيبة ، فإن لم يكن فيه شيء فهو بهتان . ويقول الإمام علي عليه السلام : «كذب من زعم أنه وُلِدَ من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة» ؛ فهل يحبّ أحدكم أيها الأخوة أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ ويركز الإمام علي عليه السلام على من لا يغتاب

الناس فيقول «طوبى لمن شغله عيب نفسه عن عيوب الناس» . ما أغنى وما أعمق هذا الكلام !! ليست أهميته فقط عدم استغابة الآخرين . . ولا مجرد الابتعاد عن الغيبة بل أيضاً إلى جانب كل ذلك ، الاهتمام والانشغال بعيوب ذاته بنفسه لتطويرها عبر نقد جريء وصادق وهادف . . . لأن على المؤمن أن يعود دائماً إلى نفسه فيحاسبها لينقيها من الرواسب ويلجمها حتى لا تسير في منحى لا يرضى عنه الله . . فالنفس أمّارة بالسوء . والغيبة هي من الذنوب الكبيرة للأسباب التالية :

ـ الغيبة تخالف ناموس المجتمع وتخالف الهدف الذي من أجله خلق الله الناس . فالله يريد من الناس أن يتحابوا وأن يتعاونوا . **﴿يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾**[1] .

ـ الغيبة تقطع هذا التعارف وتقطع الصلّة بين الناس ، لأنها تُحمِّل القلوب حقداً ونفاقاً وكذباً .

كان علي أمير المؤمنين جالساً في مسجد الكوفة وإلى جانبه عمّار بن ياسر ومالك . وإذ برجل قد جاءه قائلاً : سيدي يا أمير المؤمنين ، فلان تكلّم ضدك وقال كذا . . وكذا . التفت إليه الإمام عليه السلام وقال له : إن شئت أن نأخذ بكلامك ، فإن صدقناك مقتناك ، لأنك مغتاب ونمّام ، ولأن الآية الكريمة تنطبق عليك **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾**[2] فتكون أنت فاسق ونحن نمقت الفُسّاق ، وإن كذبناك عاقبناك لأنك نمّام ، والآية الكريمة تنطبق عليك **﴿ولا تطع كل حلّافٍ مهين همّاز مشاء بنميم﴾**[3] ، وإن شئت أقلناك . قال أُعفُ عني يا أمير المؤمنين . . قال : فلا تعد لمثلها . . . **﴿يا**

---

(١) سورة الحجرات ؛ الآية : ١٣ .
(٢) سورة الحجرات ؛ الآية : ٦ .
(٣) سورة القلم ؛ الآيتان : ١٠ و ١١ .

أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم﴾[1] .

مثال آخر عن الغيبة والنميمة . . دخل رجل على الخليفة المنصور العباسي . قال له الخليفة إن فلاناً حدثني عنك أنك شتمتني . قال يا أمير ما صدر هذا الشيء مني . قال المنصور : إن الثقة أخبرني . قال : كلا أيها الأمير ، إن الثقة لا ينمّ . . الثقة غير نمام ، فعندما يأتي ويتكلّم عندك فليس بثقة ، «من نقل إليك نقل عنك» .

بعض الناس يجعل من نفسه جسراً لنقل الكلام يفضح سر هذا ويوشي بذاك ، ويغتاب آخر . . . ويجعل القلوب مشتعلة بالضغينة والحقد والكراهية . . .

أيها المؤمنون . . لا عليكم بالناس ، الإمام علي يقول : «بين الحق والباطل أربعة أصابع» . كيف ذلك يا أبا الحسن ؟ . . . قال : «كل ما سمعته عن أخيك فهو باطل ، وكل ما رأيته بعينك فهو حق» . ويقول كذلك : «كذب في أخيك سمعك وبصرك» . يعني إذا سمعته ورأيته يشتمك فكذب سمعك وكذب بصرك . . . والمقصود هو أن يسمو الإنسان على الصغائر ويتعالىٰ عن الأمور التافهة ويصبر على أخيه وعلى الناس إن هم أخطأوا أو أساؤوا . . بمعنى آخر إن المؤمن عليه أن يملأ قلبه بالمحبة والتسامح وعليه أن لا يحاسب الناس على كل كلمة وكل تصرف ، لذلك يقول الإمام عليه السلام : «من صفات الكريم غفلته عما يعلم . بعض الناس يُلْبس غيبته ونميمته رداءً دينياً ، فإذا سألته عن شخص ما ، يبدأ جوابه بقوله مثلاً : هدانا الله وإياه إن شاء الله . . الحمد لله الذي لم يجعلنا من طلاب الدنيا . . هذا الكلام فيه رياء وفيه غيبة . . جريمتان بآنٍ معاً .

الإمام زين العابدين عليه السلام يقول : «اللَّهمَّ إني أعتذر إليك من مظلوم

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ١٠١ .

ظلم بحضرتي فلم أنصره» . فالدفاع عن المظلوم واجب لأنه دفاع حق . . كيف يمكننا مكافحة الغيبة والنميمة ؟ كيف يمكننا تعزيز التعاون بين الشعوب . . إن ذلك ممكن إذا امتلأت القلوب بالتقوى ﴿ . . . **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[1] . هذه الآية الكريمة بينت لنا مفتاح القلب . . حددته لنا . . . إنه : التقوى .

ـ الغيبة أيضاً أيها الأخوة المؤمنون محرمة كذلك ، لأنها تجعل الإنسان في غفلة عن نفسه ويبدأ بالاشتغال بالآخرين ؛ بينما الإمام علي عليه السلام يقول : «طوبى لمن شغله عيب نفسه عن عيوب الناس ، طوبى لمن ستر عيوب الناس» . وهناك من الناس من لا يرى في أخيه أو صديقه أو جاره أو زميله غير نقطة ضعف يضخمها ويُحيك حولها القصص ، ويترك لفكره العنان لتفسيرات وتأويلات شتّىٰ . . لا يرحم ولا يخشىٰ ربه . يتناسى كل المحاسن ويتغاضىٰ عنها . ويتجاهل القُربىٰ والصداقة والجيرة .

يقول الإمام علي عليه السلام : «من ذكر لأخيه صفة يشينه فيها ويريد هدم مروءته، ليسقطه من أعين الناس ، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان» . تصوروا أيها الأخوة حتى الشيطان لا يقبل مثل هذا الإنسان . . فهو مرذول مرذول مرذول .

شجاعة الامام عليّ وزهده وعبادته :

سليمان كتاني يخاطب الإمام علي عليه السلام ويقول له : أصحيح يا سيدي أنهم بدل أن يختلفوا إليك اختلفوا فيك ؟ ! أمر مستهجن ومستغرب ويثير العجب . أيصدق أن يختلف أُناس في الإمام علي عليه السلام وهو أشجع خلق الله وأغزرهم علماً وأزهدهم في الحياة وأكثرهم تعبداً وعبادة . وإذا وضعنا الأمور في نصابها وعلى المحك لنبين الغث من السمين والحق من الباطل لبانت الحقيقة في أكمل صورة وأجلها :

(١) سورة الحجرات ؛ من الآية : ١٣ .

شجاعة الإمام عليه السلام : من أقواله :

- «والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها» .

- «أنا من أحمد كالضوء من الضوء أو الذراع من العضد» .

- «سلوني قبل أن تفقدوني» .

أية شجاعة هذه وأي بأس وأية عزيمة لا تلين وأية ثقة بالنفس وعزة بها تلك التي يمتلكها إمامنا علي عليه السلام؟ ! تصوروا سيف ابن ملجم مسلطاً على رأس أمير المؤمنين وهو يقول : «سلوني قبل أن تفقدوني . . . وخففوا سؤالكم لمصيبة إمامكم» .

علمه وقضاؤه : في جو إيماني رباني يتحدث الإمام علي عليه السلام إلى كميل عن العلم ، فيقول وهو يشير إلى صدره : «يا كميل إن هٰهنا لعلماً جمّاً لو أحسبت له حَمَله» . ثم يضرب الفرات بسوطه ويقول : «يا كميل لو شئت لاتخذت لكم من هذا الماء نوراً يستضيء العالم به» . ويتحدث عن المجرّات والكواكب وعن المسافات الكونية فيقول : «إن في هذه النجوم مدناً مثل المدن التي في الأرض ، بين مدينة ومدينة عمود من نور طوله خمسمائة عام» يعني خمسمائة سنة ضوئية . . . ثم يشير عليه السلام إلى الراديو وإلى شبكة الاتصالات الموجودة ، شبكة التطور التكنولوجي فيقول : «سيأتي زمان يسمع مَنْ في المشرق مَنْ في المغرب ، يسمع ويرى» . وقال أيضاً : «لو ثنيت لي الوسادة لأفتيت أهل الزبور بزبورهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم وأهل الفرقان بفرقانهم وأهل القرآن بقرآنهم ولقال كل منهم لقد أفتاكم علي ابن أبي طالب» .

ومن الوقائع التي تدل على رجاحة عقله وعلمه وحلمه الواقعة التالية :

جاءه رجلان كلٌّ منهما ممسك بالآخر . هذا يقول : يا أمير المؤمنين هذا عبدي . وذاك يقول الكلام نفسه . . وليس للشهود من وجود ؛ وفي المسجد حيث جرت الواقعة ، كانت هناك نافذتان ، فأمر عليه السلام إدخال

رأسيهما فيهما ، كلٌّ في نافذة ، وقال لهما اصبرا حتى أقضي فيما بينكما ؛ ثم صاح : يا قنبر علَيَّ بالسيف . فجاءه قنبر بالسيف وانتظر أمر الإمام . فقال له بصوت عالٍ : ياقنبر اضرب رأس العبد . فما كان من أحدهما عندما سمع هذا الكلام إلاَّ أن أخرج رأسه من النافذة وبأسرع من لمح البصر . عندها قال الإمام عليه السلام للرجل الآخر : خذ عبدك واذهب ، وإن شئت حرّرناه . . وفي الأخبار أنه اشترى العبد وقال له : إذهب ، أنت حرٌّ لوجه الله . وقيل إن ألف مملوك قد حررهم الإمام علي عليه السلام من كدّ يمينه وعرق جبينه . . ويذكر الطبري في تاريخه أن علياً قد أطلق أعداداً ضخمة منهم .

زهده في الحياة : يقول عليه السلام : «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً ، بل الزهد أن لا يملكك شيء»، متمثلاً قول الله عزّ وجلّ في الآية الكريمة : **﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**[1] أي عليك أن تملك الدنيا بدل أن تكون لها عبداً . الزهد لا يعني أن ترفض الدنيا وتتخلى عنها للمفسدين في الأرض وللظالمين وللكفرة . . فالمؤمن له الدنيا وله الآخرة . . له ملذات الدنيا وطيبات الجنة أمّا الفاسقون فلهم في الآخرة عذاب أليم .

عبادته : يقف في الصلاة ليلاً ، ويطرق أبواب السماء ، ويتجه إلى خالقه ، هذا الذي كانت الأبطال والأقران تهتز لهيبته وسطوته . . يتحول إلى دمعة ساخنة تجري على صفحة الليل . . يقول :

«ما لي سوى قرعي لبابك حيلة   فإذا رددت فأيَّ بابٍ أقرعُ»

وهذا ضرار يصف أمير المؤمنين فيقول : (. . . وقد رأيته في أحد مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول : «يا دنيا غُرّي غيري ، أبيَ

(١) سورة الأعراف ؛ من الآية : ٣٢ .

تعرضتِ أم إليّ تشوقت ، لا حان حينك . . قد طلقتك ثلاثاً») .

أودّ هنا أيها الأخوة أن أشير إلى ما يقصده الإمام عليه السلام بـ : طلقتك ثلاثاً . . هل يعقل مثلاً أن الإمام عليه السلام الذي ، في كتابه لمالك الأشتر والمبعوث إلى مصر ، يضع منهجاً في الاقتصاد والسياسة والإدارة وإصلاح البلاد وإدارة البلاد والعباد ، هو نفسه يطلق الدنيا ويهجرها ؟ إن الدنيا في نظره عليه السلام هي مزرعة الآخرة ، لذلك طلقها لله وللآخرة. المتصوفون بوجه عام هم مطلقون للدنيا ولكن كيف ؟ أحدهم ، كما ذكر ذلك الغزالي في كتابه إحياء العلوم رمى بكل أمواله في البحر ، راغباً في ذلك التقرب إلى الله ، ويعتبر الغزالي هذا السلوك وهذا الموقف تصوفياً ، لا بل في قمة التصوف ، بالله عليكم أي تصوف هذا ؟ ترمى الأموال في البحر وهناك العديد من المساكين والفقراء والأيتام والمحتاجين ؟ ! أما كان من الأجدى مساعدة هؤلاء عوض رمي الأموال في البحر ؟ ! هذا العمل يتقاطع بالنتيجة مع ما تفعله أمريكا والغربيون الذين يرمون كثيراً من مواد إنتاجهم الغذائية في البحر حتى لا يضطروا إلى تخفيض سعر السوق . . . موقف وسلوك الأميركيين والغربيين يتم وسمع العالم وبصره شاهدان على هذه الحقارة الدنيئة . . بينما ملايين الفقراء يموتون جوعاً وعطشاً في أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا . . كل ذلك وهم لا يفتأون يرددون شعارات السلام العادل والديمقراطية والعدالة وحقوق الإنسان . . . الخ إنهم كَذَبة وقَتَلة وسفاكو دماء إنهم مجرمو العصر الحديث في القرن العشرين . . هذه مدنيتهم وهذه حضارتهم . أمّا مدنيتنا وحضارتنا فتستقيها من أئمّتنا المعصومين . . . من أهل البيت . . من أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي كان لا يترك درهماً أو ديناراً إلّا ويوزّعه على الفقراء والمساكين : «كان يعظم أهل الدين ويقرّب المساكين» . . . كان يحتضن اليتامى وكان يسقيهم العسل المصفّىٰ .

يقول الإصبغ بن نباتة : رأيت علياً يسقي اليتامى العسل المصفّى ، ويقول : «ما تأوّهت كما تأوّهت للأيتام في الصغر» . وجاء في وصيته

عليه السلام: «الله ، الله في الأيتام فلا تغبوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم» . أحب عليّ الأيتام فأحبوه وإليكم هذه الواقعة :

في ليلة عشرين كان الإمام عليه السلام بحاجة إلى لبن . عُبيد الجراح قال إنك بحاجة إلى لبن . أعلن النبأ الإمام الحسن عليه السلام حتى يأتوا باللبن للأمير علي أمير المؤمنين . يقول الإمام الحسن : خرجت بعد ساعة فرأيت حول الدار أكثر من مئتي طفل يتيم كل منهم يحمل إناءً فيه لبن ودموعه تجري . .

هذه مدنيتنا . . وهذه حضارتنا صاغها الله لنا في القرآن الكريم وبشّرنا بها رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وطبقها أهل البيت وأمير المؤمنين علي عليه السلام، في حياتهم ، في بيوتهم وفي أعمالهم وفي علاقاتهم مع الكبار والصغار على حدٍّ سواء .

علي هذا أحبّه الرسول وأكرمه وقال فيه قولاً كريماً ومنه : «يا علي أنت قسيم النار والجنة ، يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى» .

قال الإمام علي عليه السلام: «سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن ، يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد فاقتلوه ولن تقتلوه . إلّا أنه سيأمركم بسَبِّي والبراءة منّي . أما السبّ فسبّوني فإنه لكم نجاة ولي زكاة ؛ وأما البراءة فلا تتبرّأوا مني . . فإنني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة» . طبعاً الإمام لا يأذن لأحد أن (يسبه) أو يتبرأ منه . لذلك عرض معاوية على حجر بن عدي أن يشتم علياً . رفض حجر وأصحابه . لكنه تبيّن أن السبّ استمرّ ثمانين سنة على المنابر ، يشتمون علي بن أبي طالب ، إلى إيام عمر بن عبد العزيز الذي رفع الشتم عن الإمام عليه السلام.

أين معاوية من هذا كله ؟ نحن نربأ بمقارنة علي بمعاوية، ولكن على سبيل المثال يذكر بعض المؤرخين بأن الوجبة التي كان يتلذذ بها معاوية في منتصف الليل، كانت تكلف بيت المال خمسين ألف دينار .

أيها الأخوة المؤمنون ، يسهل القول بأن ما من أحد يستطيع أن يضارع الإمام علي في شجاعته أو في زهده وورعه أو في عبادته أو في علمه وبيانه . وعلى ذكر بيان أمير المؤمنين تحضرني واقعة مهمة حدثت في بيروت خلاصتها : أن الأمير شكيب أرسلان كان قد دعي إلى إلقاء كلمة في حفلٍ بمناسبة إسلامية أُقيم في جامعة في بيروت . وكان الأمير أرسلان أديباً بارعاً حتى أنه لُقب بأمير البيان في ذلك الوقت . عريف الحفل في تقديمه للأمير أرسلان قال : الآن نقدم لكم أمير البيان شكيب أرسلان الذي بيانه يضاهي بيان علي بن أبي طالب . الأمير أرسلان فاجأ الحضور بكلمته الموجزة والتي لم تستغرق منه سوى دقيقتين حيث قال : أيها الناس ، والله الذي لا إله غيره ما شعرت بالحرج منذ وُجدت وحتى هذه الساعة ، وما اعتراني خجل كما اعتراني خجل الآن . . حينما عرَّفني هذا المعرف . عرَّفني بأن بياني كبيان علي أمير المؤمنين . . وأين نحن من علي ؟؟ . . علي الذي كلامه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق ، ثم قال لهم : لا أطيل عليكم . . أيها الناس ، أُقسم بالله أن كل شيء في السماوات والأرض ما عدا الله والرسول لا يضاهي ولا يساوي الغبار الذي على حافر فرس علي بن أبي طالب .

أخيراً ، أيها الأخوة المؤمنون ، يمكننا القول وبلغة العصر بأن إمامنا ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هو الرقم القياسي في الشجاعة والعبادة والزهد والتقوى والعلم والبيان ، لم يستطع أحد أن يتخطاه . . . .

علي عليه السلام هو نبراسنا حتى اليوم وسيبقى حتى قيام الساعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وآخر دعونا أن الحمد لله ربّ العالمين .



الليلة التاسعة عشرة
استشهاد الامام علي عليه السلام
وليــلة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يـا برقُ إن جئتَ الغَـريَّ فقل لـه — أتُـراك تعلم مَنْ بـأرضـك مُـودَعُ
فيـك ابن عـمـرانَ الكليمُ وبعـده — عيسى يُقَـفِّيـه وأحـمـدُ يتبـعُ
بـل فيـك نـور اللّه جـلَّ جـلالـه — لـذوي البصـائـر يُسْتَشَفُّ فيلمـعُ
فيكَ الإمامُ المرتضى فيك الـوصـيُّ المجتبى فيـك البطينُ الأنـزعُ

يقول الله في كتابـه العزيـز : **﴿وإذِ ابتَلَىٰ إبراهيمَ ربُّـهُ بكلماتٍ فـأتمَّهنَّ قـال إنّي جـاعِلُكَ للنـاسِ إمـامـاً . قـال ومن ذرّيتي قـال لا ينـال عهـدي الظالمين﴾**[1] .

من نـافلة القول أن هـذه الليلة لها من الإجـلال والإكبار والإعـظام عنـد الله سبحـانه وتعـالىٰ ما يعجـز اللسـان عن بيـانـه ، لأنهـا ليلة القـدر ، وفيهـا ضُـرب أميـر المؤمنين عـلي بن أبـي طـالب عـلى رأسـه وهـو يصلّي في المسجد .

ونحن في هـذه المحاضـرة سوف نـروي ذلـك الحـدث الجلل ، ونبيّن الأسباب التي دفعت إليه ، والملابسات التي أحاطت به .

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٢٤ .

الامامة في القرآن :

معنىٰ ولادة الإمام في الكعبة :

وفي بداية حديثنا لا بد أن نوضح مسألة تتعلق بالإمامة أشار إليها القرآن في الآية التي افتتحنا بها الحديث . فالبعض يسأل : وهل الإمامة مذكورة في القرآن ؟ .

بعد أن امتحن الله تبارك وتعالىٰ نبيّه إبراهيم بعشرة امتحانات وابتلاءات ، ابتداءً من إلقائه في النار وانتهاءً بامتحان ذبح ولده إسماعيل ، وبعد أن خرج من جميع هذه الامتحانات ناجحاً منتصراً مظفراً ، كانت يد الله معه ، وكافأه ربُّ العالمين بأن جعله للناس إماماً . . . إذن الإمامة جاءت بعد كل الامتحانات وبعد مدارج النبوّة ؛ فهو كان نبياً ثم صار إماماً .

ثم إن إبراهيم عليه السلام طلب من ربّه أن يجعل أبناءه أئمة مثله . . . فقال عزّ وجلّ : ﴿**لا يَنَالُ عَهْدي الظالمين**﴾ أي أن الظالم لا يمكن أن يكون إماماً ، ولا بدَّ للإمامة من إنسان معصوم .

الملاحظة الثانية التي يجب أن ننتبه إليها هنا هي أن إبراهيم الخليل قد دعا ربّه أن تكون الإمامة في ذرّيته ومن صلبه بعد أن بنى الكعبة . ولقد ربط الله سبحانه وتعالىٰ بين الاستجابة لدعاء إبراهيم وبين بناء الكعبة بأن جعل ولادة عليّ بن أبي طالب في الكعبة .

والملاحظة الثالثة أن أُم أمير المؤمنين فاطمة بنت أسد لما كانت حاملاً بالإمام عليّ كانت تأتي وتقف أمام الكعبة ، ثم تطوف حول البيت وتقول : «اللّهمّ إني مؤمنةٌ بك ،ومصدّقة بنبوّة نبيّك إبراهيم الخليل» .

لماذا تذكر فاطمة إبراهيم هنا بالذات ؟ لماذا لم تذكر موسىٰ أو عيسىٰ أو آدم أو نوح أو يحيى أو زكريا ؟ . . لأن القضية مرتبطة بدعاء إبراهيم ، ولها علاقة بالإمامة . فالإمامة في أحشائها ، وهي تريد أن تضع الإمام هنا في البيت ، فتذكّر الله بعد إبراهيم . . . ذلك أن الأُمور مقدّرة على هذا النحو ، ولا يمكن أن تكون فوضى أو محض مصادفة . .

قالت فاطمة بنت أسد : «اللَّهمَّ بحقِّ هـذا البيت ومن بناه إلَّا مـا يسَّرتَ عليَّ ولادتي» . . . هنـا ينشقُّ لها جـدار الكعبة ، ويخـاطبهـا الله : «أنـا على العهـد يا فـاطمة بنت أسـد ، يا أُمَّ عليّ ، أنـا على العهد . .» . . . وهـا هـو جدار الكعبة ينفرج لها فتدخل إلى الكعبة وتضع وليدها الإمام !! .

يقول الإمام علي عليه السلام : «إني ولدتُ على الفطرة» . والإمـام هنا يصفـع أولئك الذين لا يخجلون من أنفسهم ويقـولـون إن أبـا طـالب مـاتَ كـافـراً ! فـالذي يـولد على الفـطرة لا يكون أبـوه كافـراً . . . والحقيقـة أن هـذا البيت الذي وُلد منه علي بن أبي طالب ومحمد بن عبد الله وسلسلة آبـائهم إنمـا هو بيت مؤمن ، كـان حنيفاً أي على دين إبـراهيم الخليل . وبـالتالي نقـول إنهـم ولـدوا على الإسـلام لأن إبـراهيم أول المسلمين . ولـذلـك يقـول الـرسـول الأعـظم : «يا عليّ ! أنـا وأنت دعوة إبـراهيم الخليل» ويقـول : «يـا عـليّ ! إن الله خـلقني وخلقك من شجرة واحدة ، وسائـر الناس من شجـر شتّى . . . فأنا أصلهـا وأنت فرعهـا ، والأئمة من ولـدك أغصانهـا ، وشيعتنا ورقهـا . . . فمن تعلّق بورقـة من الشجرة أدخله الله الجنة» .

إذن فقـد وضعت فاطمـة بنت أسد ولـدها في الكعبـة ، بتـدبيـر من الله وحكمة إلٰهية :

وضعتـه في حـرم الإلٰـه وأمنـهِ   والبيت حيث فنـاؤه والمسجـدُ
بيضـاء طـاهـرة الثيـاب نقيّـةٌ   طـابت وطاب وليـدهـا والمـولـدُ
في ليلة غـابت نُحـوسُ نجـومهـا   وبـدامـع القمـر المنيـر الأسعـدُ
مـا لُفَّ في طـرق التـوابـلِ مثلُه   إلَّا ابنُ آمنـة الـنبيُّ محـمَّـدُ .

أخرجته أمـه في اليوم الثـالث تحمله بين يديهـا . قال لهـا الرسـول : «إليَّ يـا أمـاه يـا فـاطمـة ـ كـان ينـاديهـا أمـاه ـ إليَّ بـأخي ووصـيّي ووزيـري وخليفتي من بعـدي» . . . أخذه الـرسول وصـار ينـظر في وجهـه ، ثم دمعت عيناه ؛ فقد تذكر المـظلومية التي ستقع عليه . . . والـرسول الأعـظم بكى في موضعين : في ولادة عليّ وفي ولادة الحسين .

وكان الرسول يضعه إلى جانبه ويسقيه اللبن ويهزّ مهده بيده . . . وقد أشار الإمام إلى هذه المعاني في نهج البلاغة ، فهو يقول : «ولقد علمتم موضعي من رسول الله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة . . كنت أتبعه اتّباعَ الفصيل أثر أُمه» .

لما كان الإمام عليّ في يومه الأول قمطته أُمه بقماط . تقول فاطمة بنت أسد : «جئت فوجدته تمطى بيديه وقطع القماط» !! . تقول : «ثم ضاعفت القماط فقطعه» . . . وهذا الأمر ليس بغريب إلاَّ على غير أمير المؤمنين . فعيسىٰ بن مريم تكلّم في المهد : **﴿قال إني عبدُ الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾**(١) وعليٌّ أفضلُ من عيسى بن مريم . وهذا بشهادة علماء المسلمين .

فالفخر الرازي عالم كبير عند السنّة ومفسِّر كبير يقول في آية المباهلة : «إن عبارة : وأنفسنا وأنفسكم تدل على أن الإمام عليّ أفضل من كل الأنبياء باستثناء محمد ، لأنه نَفْسُ النبي» .

وعبد الفتّاح عبد المقصود كاتب كبير رمن الأزهر الشريف ، يقول : «والله سبحانه وتعالىٰ جعل الإمام والقائد وجعل ولادته في الكعبة ، ثم أمر الناس أن يتجهوا إلى الكعبة ويصلّوا حتى لا ينسى الواحد منهم إمامه وقائده في الصلاة . فعندما يقول المصلّي : الله أكبر ، ويتوجه إلى الكعبة ، يتذكر الإمام ويعلم أن الصلاة بلا إمام لا تساوي شيئاً . ولذلك فإن «من مات ولم يعرف إمام زمانه ماتَ ميتةً جاهلية» . . . هذا كلام عبد الفتاح عبد المقصود .

ومن هنا علينا أن نلتفت إلى قوله عليه السلام لما وقع السيف على رأسه : «فزتُ وربِّ الكعبة !» . لماذا قال : «وربّ الكعبة» ولم يقل مثلاً : واللّهِ ، أو وربّ العالمين ؟؟ لأنه أراد أن يشير إلى ولادته في الكعبة ، وإلى ارتباط

---

(١) سورة مريم ؛ الآية : ٣٠ .

إمامته بالكعبة ، وإلى علاقة كل ذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام .

عليّ كتاب الله الناطق :

الآن نتأمل في موقع عليّ من الإسلام ، وما يمثله عليّ في علم الله والرسول .

ولكي أدخل في هذا الموضوع أريد أن أبيّن لكم ناحية فلسفية .

إن كل شيء في الكون لا يخرج في وجوده عن أربع حالات : وجود في الذهن ، ووجود في اللفظ ، ووجودٌ في الكتابة ، ووجود متحقّق في الواقع الملموس . والوجود الأخير الرابع يؤكد الحالات الثلاث السابقة ، ومن دونه لا فائدة منها .

مثال : يفحصك الطبيب ويشخّص مرضك فيتصوّر في ذهنه الدواء الملائم . هنا يكون الدواء في مرحلة الوجود الذهني . ثم يقول لك الطبيب إن دواءك هو كذا وكذا ، فيصبح الدواء في مرحلة الوجود اللفظي . . ثم يكتب الطبيب الوصفة الطبية ، فيصبح الدواء في حالة الوجود الثالثة ، وهي حالة الوجود في الكتابة والحرف . . . . . ولكن إذا لم تُحضر الدواء وتستعمله هل تُشفى ؟ بالطبع لا ! إذن فالدواء بحاجة إلى الوجود المتحقّق حتى تستعمله وتبرأ من مرضك ، وبذلك يوجد في الحالة الرابعة .

مثال آخر : إذا كنت تجلس في الظلام وأنت بحاجة إلى النور ، فإنك في المرحلة الأولىٰ تتصوّر النور في ذهنك ، فإذا قلت : أنا بحاجة إلى شمعة ، هل تضاء الغرفة عليك ؟ بالطبع لا . . وحتى لو كتبت كلمة شمعة أو نور ألف مرّة على الورق فإن الظلام يبقى مسيطراً . . . يحصل النور إذا أحضرت الشمعة وأضأتها ، أي نقلت النور من حالاته الثلاث الأولىٰ إلى الرابعة . . . . والأمثلة المشابهة كثيرة .

وعلى هذه القاعدة نأتي إلى الإسلام . أنت تريد الإسلام فتجعل له صورة في ذهنك وفي قلبك ، ثم تتكلم بالإسلام ، وتقول إن الدين عند الله

الإسلام ، وتتلفظ بالشهادتين ، فينتقل الإسلام من صورة الذهن إلى صورة اللفظ . ثم إن الإسلام يتمثل بصورته الثالثة في القرآن الكريم ، فالإسلام موجود فيه بسوره وآياته . . . ولكن هل تحقق الإسلام على هذا النحو ؟؟؟ لا لم يتحقق بعد!! فلا بد من الإنسان الذي يطبقّ الإسلام ويمثّله على المستوى العملي المعاش الملموس .

إذن لا بد لهذا الإسلام أن يتجسّد في شخص معين ؛ فمن هو هذا الشخص بعد رسول الله ؟؟ .

أحد الخلفاء كان إذا سأله أحد عن تفسير آية من القرآن ضربه بالدرّة على رأسه . . . والإمام عليّ يقول للناس : «سلوني قبل أن تفقدوني» . ويقول : «سلوني عن طرق السماء فأنا أعلم بها من طرق الأرض» . ويقول رسول الله : «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» . . . . فمن يمثل الإسلام في هذه الحالة ، أهو ذاك الخليفة الذي أشرنا إليه أم الإمام علي ؟؟ . . . المسألة واضحة . . .

إذن لا بد من رجل يمثل حقيقة الإسلام ، رجل إذا مشى رأيت الإسلام يمشي ويتحرّك بحركته . . . .

القرآن الكريم يشير إلى هذا الرجل : ﴿**وكل شيء أحصيناه في إمامٍ مبين**﴾(١) . والرسول الأعظم أشار إليه يوم الخندق بقوله: «برز الإسلام كله إلى الشرك كله» ؛ والنبيّ هنا يشير إلى الإمام عليّ .

وفي يوم الغدير ، بعد أن عيّن الرسول الإمامة بعده في عليّ بن أبي طالب ، نزلت الآية : ﴿**اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً**﴾(٢) .

إذاً فقد اكتمل الإسلام بإمامة عليّ ، وهكذا مثل عليّ الوجود الفعليّ

---

(١) سورة يس ؛ الآية : ١٢ .

(٢) سورة المائدة ؛ الآية : ٣ .

المتحقّق للإسلام .

ولذلك قال الرسول : «عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ» . . . وقال : «إني تاركٌ فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي» . . . .

لقد كان الخوارج أصحاب جباه سود من كثرة السجود ، وكانوا لا ينفكون يقرأون القرآن . . . ولكنهم في صفين قاتلوا الإمام علياً ورفعوا المصاحف . الإمام علي قال لهم : «ويلكم ! أنا كتاب الله الناطق !» . . ولكن علاقتهم بالقرآن كانت علاقة مزيّفة ، وتدينهم كان سطحياً ، فهم لا يفقهون من أمرهم شيئاً ، ومثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

ذات مرّة مرّ الإمام على رجل يصلّي ، وكان يرافقه الكميل بن زياد . وكان ذاك الرجل يقرأ : ﴿أَمَّنْ هو قانِتٌ آناءَ الليل﴾(١) . قال كميل : «الله ! ما أكبر خشوعه !» . . . قال له الإمام علي : «مَهْ يا كميل ! إنه من أهل النار» . تعجّب كميل من ذلك . . وفي يوم النهروان نادى عليّ على كميل ، فجاء كميل ، فقال له الإمام : «انظر يا كميل !» وأشار إلى رجلٍ بين قتلى النهروان طريح على الأرض ، كان هو ذاك الرجل بعينه . . .

عندما كان رأس الحسين بين يدي يزيد بن معاوية ، كان يزيد يقرأ : ﴿قل اللّهمَّ مالِكَ الملكِ تؤتي المُلكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزَعُ المُلْكَ ممَّن تَشاءُ﴾(٢) .

يوم العاشر من المحرّم صلّى عمر بن سعد صلاة الصبح جماعة في الناس ، وختم صلاته بالسلام على النبيّ . ثم قام من صلاته وأخذ سهماً ورمى به عائلة الحسين ، وقال : «اشهدوا لي عند الأمير ابن زياد أني أول من رمى» . ثم بعد ذلك صاح : «يا خيلَ الله اركبي وأبشري بالجنّة ورضّي صدر الحسين !» . . .

هكذا كان أولئك الناس : يقرأون القرآن ويرمون بسهامهم في صدر

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٩ .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ٢٦ .

الإسلام !! فهل الخوارج ويزيد وابن سعد يمثلون الإسلام ؟ ! .

إن هذا النوع من النفاق يتكرر في كل عصر . . . أنا سمعت ذات يوم إذاعة إسرائيل تبثُّ مقاطع من دعاء للإمام زين العابدين !!! وبعد ذلك تعلن الإذاعة أن السَّحَر في الوقت الفلاني والإمساك في الوقت الفلاني !! هكذا وبكل بساطة أصبح إسحاق شامير موالياً لأهل البيت وحريصاً على شعائر الإسلام !!! . . . . إنهم يبثّون إذاعتهم إلى جنوب لبنان ، وهم يعلمون أن أهل الجنوب هم من الشيعة ومن أنصار أهل البيت .

هذا النوع من النفاق والكذب يجب ألا ينطلي على الناس . فليس كل من قرأ القرآن وأقام شعائر الإسلام يعتبر مسلماً حقيقياً أو يمكن أن يمثّل الإسلام . . . وإلاَّ فإن ابن ملجم المرادي كان يصلّي . . . هذا اليهودي الخبيث الذي ضرب الإمام بسيفه المسموم . . . في تلك اللحظة قال الإمام : «قتلني ابن اليهودية» . واشترك مع ابن ملجم ثلاثة من الخوارج هم : الأشعث بن قيس ، ووردان بن مجالد ، وشبيب بن بجرة ، والثلاثة من الخوارج الأنذال . ولكن الأمر الغريب بعد كل هذا أن نرى البخاريّ يأخذ عن الأشعث بن قيس ويعدّه من رجاله الموثوق بهم !! . . . يعني تصوّر لو أن الأشعث بن قيس كان من المشاركين في قتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، فهل كان البخاري يعتبره مصدراً موثوقاً من مصادره ؟؟ .

والآن نأتي إلى سؤال : لماذا ضُرب علي بن أبي طالب ؟ هل قتلوه لأنه كان عادلاً ؟ . . . . لقد قتلوه لأنه كان ينادي بالعدالة الإجتماعية ، ويجهر بها ، ويقاتل من أجلها . قتلوه لأنه كان يشكل خطراً على بني أُميّة ، وعلى المنافقين والكفّار في كل زمان ومكان . . . . اقرأوا سورة «الدهر» ولاحظوا معناها . سورة الدهر نزلت لتبين أن الإمام علياً ليس لفترة معينة ، إنه موجود وخطه موجود من آدم إلى محمد إلى يوم القيامة . . . وأي شخص مؤمن أو منافق لا بد أن يرى علياً في لحظات سكرات الموت . «يا جار همدان ! من يمت يرني ، من مؤمن أو منافق» .

في وقعة الخندق طرح الإمام عليّ عمرو بن عبدودٍ العامري أرضاً وأراد أن يجهز عليه بسيفه . في تلك اللحظة بصق عمرو في وجه الإمام وشتمه . . . ارتدَّ عنه الإمام وابتعد ، ثم جال جولة وعاد وأجهز عليه . . . سئل الإمام بعد ذلك : لماذا لم تجهز عليه فوراً ؟ ! قال : لقد أهانني وأغضبني ، فما أردت أن أقتله غضباً لنفسي ، ولكن غضباً لدين الله ، فتركته حتى هدأ غضبي ، ثم عدت إليه وقتلته . . . .

قتله الإمام ولم يسلبه . وكان على عمرو بن عبد ودّ درع من الذهب ثمينة ، والإمام يومئذ فقير الحال يسقي النخيل في المدينة بالأجرة ليوفر لعائلته رغيفاً من الخبز . . . قال له رسول الله : «يا عليّ ! لم تركتَ سلْبَه ؟ من قتل رجلاً فله سَلْبُه» - أي ما عليه من آلة قتال . . . . والنبيُّ هنا يسأل سؤال العارف . . . قال الإمام : «يا رسول الله ! إنه كان كبير قوم ، وما أحببتُ أن أهتك حرمته !» - لعن الله بني أُمية إلى يوم القيامة ، فإنهم ما تركوا حتى ثوباً على أبي عبد الله الحسين !! - .

بعد أن قتل الإمام عمر بن عبدودّ ، عاد إلى الرسول حاملاً رأسه ، وكان يمشي متبختراً . . . قال أحدهم : إن علياً يتكبّر ! . . . قال الرسول : لا ، إنه سيّد العبّاد وإمام المتّقين ! والتبختر هنا عبادة . . .

رجع الإمام علي ودماؤُه تنزف من رأسه وتسيل على وجهه الشريف ، فقد كانت قد أصابته ضربة من سيف عمرو . وتلك الضربة وقعت في نفس المكان الذي ستقع فيه ضربة ابن ملجم اللعين ! . . . . . قام الرسول يمسح الدم عن وجه الإمام ، وأخرج لعاباً من فمه الشريف ووضعه على الجرح فبرىء . . . . ثم بكىٰ الرسول وقال : «أين أكون يوم ينبعث أشقى الأولين والآخرين فيضربك على رأسك بالسيف ؟ !» . . . .

من دروس هذه الليلة المباركة :

في هذه الليلة المباركة ، ليلة التاسع عشر من شهر رمضان ، نتوجه

بقلوبنا وعقولنا إلى أمير المؤمنين لنأخذ من سيرته ومن مدرسته أعظم الأمثال والدروس والعبر . . . فإمام المتقّين يدعونا للتزوّد بالتقوى فإن خير الزاد التقوى . والإمام العادل يعلمنا أن نكون عدولاً في حياتنا ومعاملاتنا . كما يعلمنا أن نكون أعزاء بعزّة الإسلام . فلننظر في أحوالنا ولنبحث عن التقوى والعدل والعزة والكرامة في حياتنا . . . ولنحاسب أنفسنا وغيرنا بميزان العدل . يقول أمير المؤمنين : «اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحبَّ لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها» .

ونحن إذا تأملنا في أحوال مجتمعاتنا نجد الكثير الكثير من مظاهر الوهن والتفسّخ والانحراف ، وكل ذلك ناتج عن الابتعاد عن خط الإمام وأهل البيت . . . .

ومن الظواهر السيئة المؤذية في مجتمعاتنا الإسلامية ما نراه من ازدياد موجة الطلاق !!! صحيحٌ أن الطلاق وضع كحل عندما تستعصي الأمور ويتحول البيت والحياة المشتركة إلى جحيم : **﴿وإن يتفرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلاً من سَعَتِه﴾**(١) ولكن هل ذلك يعني أن تتزوج امرأة ثم تطلّقها بعد ثلاثة أو أربعة شهور ؟ وهل إذا ركبت سيارة فخمة وجمعت مالاً كبيراً أصبح من المناسب أن تطلّق زوجتك وتستبدلها بأُخرى كما تستبدل ثوباً بالياً أو سيارة قديمة ؟ هل هذا هو الإسلام ، وهل هذه هي مدرسة الإمام علي بن أبي طالب ؟!! .

في هذه الليلة المباركة يجب أن نعاهد أنفسنا على حل مشاكلنا في الأسرة وفي البيت ، أن نسعى في زواج أبنائنا وبناتنا . . . فالإمام علي يقول : «شرار موتاكم العزّاب» والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «شرار أُمتي العزّاب» . . . . . ولكن هؤلاء العزّاب في مجتمعنا مساكين مظلومون ، لأنهم ضحيّة التشدّد والتعنّت اللذين نجدهما في الأُسرة ولدى الأهل . ولذلك على الأهل أن يسهّلوا وييسّروا أُمور أبنائهم . فالإمام يقول : «إذا خطبكم من ترضون دينه وخُلُقه فزوّجوه» . والإمام يقول : «عليك أن تختار لولدك

(١) سورة النساء ؛ الآية : ١٣٠ .

أماً نجيبة طيبة ، لأن العرق دسّاس» .

والإمام عليه السلام يعلمنا أن نبني أُسرة وننجب أولاداً على العفّة والطهر والحلال ، فلا ندخل في بيوتنا ولا في بطوننا مالاً حراماً . . . . يقول الإمام : لأن النطفة إذا انعقدت من مال حرام ـ من الربا مثلاً ـ فإن الولد الذي يأتي ويحنّ إلى سفك الدماء ! . . . وإذا انعقدت هذه النطفة من أكل مال اليتيم فإن المولود يأتي ونار الشيطان مشتعلة في داخله ، فتراه يسعى دائماً إلى محضر السوء !! . . . . لذلك فإن الإمام الحسين عليه السلام يقول في بني أميّة والذين خرجوا معهم في يوم عاشوراء : «لقد ملئت بطونُهم من الحرام» .

ليلة الضربة :

يقول الإمام علي عليه السلام : «في آخر جمعة من شهر شعبان خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أيها الناس ! إنه قد أقبل عليكم شهر الله بالخير والبركة والرّحمة والمغفرة ، شهرٌ هو عند الله أفضل الشهور ، وأيامه أفضل الأيام ، ولياليه أفضل الليالي ، وساعاته أفضل الساعات . . . . هو شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة الله وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله . أنفاسكم فيه تسبيح ، ونومكم فيه عبادة ، وعملكم فيه مقبول ، ودعاؤكم فيه مُستجاب . فادعوا الله سبحانه وتعالىٰ بقلوب طيبة ونيّات طاهرة صادقة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه . . . ألا وإن الشقيَّ من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم . . . . أيها الناس ! اذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه . . . أيها الناس ! من فطّر منكم صائماً مؤمناً كان له من الأجر والثواب عند الله كمن أعتق ستين رقبة» . . . قيل له : يا رسول الله ! ليس كلنا يقدر على ذلك ! قال : «اتقوا الله ولو بشقّة تمر ، اتقوا الله ولو بشربة ماء !» .

يقول أمير المؤمنين : رفعت يدي أسأل رسول الله وقلت : يا رسول الله ! ما هي أفضل الأعمال في هذا الشهر ؟ . . . قال : «أفضل الأعمال

في هـذا الشهـر الـورع عن محـارم الله» . . . ثم بكى رسـول الله وأجهش في البكـاء . . . تقدّم منـه أمير المؤمنين وقـال : روحي فداك يـا رسـول الله ! ممَّ بكـاؤك ؟؟ قال : «يـا علي ! أبكي لما يُستحـلُّ منك في هـذا الشهـر ! كـأني بـك وأنت تصلّي في المحـراب ، وقـد انبعـث أشقـى الأولين والآخـرين فضـربك بـالسيف على رأسك وأنت ساجد تصلّي لله ، فيخضب لحيتـك من دم رأسك» . . . .

كـان الإمام علي عليه السلام في شهـر رمضان يفـطر ليلةً عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند زينب الكبرى . وكان يقدَّم له الطعـام فلا يـزيد على ثـلاث لُقَم ! والإمـام في هـذا المعنى يقـول : «ألا وإن إمـامكم قـد اكتفى من دنيـاه بـطُمـريـة ومن طعـامـه بقُـرصيّـة ! ألا وإنكم لا تقـدرون على ذلـك ، ولكن أعينوني بوَرَعٍ واجتهاد ، وعِفّةٍ وسَدَاد » .

تقـول ابنته أُم كلثـوم : لما فـرغ أبي من صلاتـه في هذه الليلة ، جلس فـوضعت طبقاً بين يـديه فيـه قرصـان من خبز الشعيـر وقصعـة فيهـا لبن وملح جـريش . تقـول : رفـع رأسه ونـظر إليّ وقال : بنيّـة ! أتقـدّمين لي أدامين في طبق واحـد ؟ ! (أي لونين من الـطعـام) . . . أتـريـدين أن يـطول وقـوفي بين يـدي الله ؟ ! . . . تقـول : بقيتُ في حيـرة من أمـري ! هـل أرفـع الخبـز أم اللبن ؟؟ . . . تقـول : رفعت اللبن ، فـأفـطر الإمـام على خبـز شعيـر وملح جريش ثم شفعها بشربة ماء ، وقام يصلّي .

الآن نصل إلى مقتله عليه السلام . . . .

تقـول زينب : في تلك الليلة قـام يتـطلع إلى الكـواكـب والنـجـوم ويقول : «هي الليلة التي وعدني بها حبيبي رسول الله» ويكـرر القول . قـالت لـه زينب : «أراك تنعي نفسكَ يـا نور عيني ! لعـل شيئاً يحـدث ؟ !» قـال : «بلى بنيّـة ! ما كـذبتُ ولا كُذِّبت ، إنهـا الليلة التي وعدني بهـا رسول الله» . ثم ذهب ونام . . . .

تقـول : نـام ، ثم قـام إلى صـلاتـه قبيـل الفجـر . . . خـرج إلى

المسجد . تقول زينب : قمت وتبعته إلى صحن الدار وقلت له : أبتاه ! أراك تخرج على غير عادتك ! هلّا أخذت الحسن أو الحسين معك ؟ . . قال : لا بنيّة ! أنا أخرج وحدي . . . . وكان في صحن الدار طيور من الإوز والبطّ . لما رأين الإمام صِحْنَ في وجهه ، فقال الإمام : «صوائح تتبعها نوائح !» . . ثم قال : «بنيَّة ! أطلقيهم ولا تحبسيهم» . ـ ثم بدأ يفتح الباب . . عالج الباب قليلاً فانحلَّ مئزره . بدأ يشدُّ مئزره وهو يقول :

أُشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكَ
ولا تجزع من الموت إذا حلَّ بناديكَ
كما أضحكك الدهرُ كذاك الدهرُ يُبكيكَ .

تقول زينب : لم أتمكن من إمساك نفسي ، فجئتُ مهرولة إلى أخي الحسن . قلت : أخي أبا محمد ، أبونا عليّ خرج إلى المسجد وسمعته يقول كذا وكذا . . . فجاء الإمام الحسن يعدو خلفه . أحسَّ الإمام بوجوده ، فالتفت إليه وقال : بنيَّ ما الذي أخرجك ؟ قال : أبتاه ، رأيتك تخرج في هذه الساعة على غير عادتك ! قال : ولدي ، أخرجتني رؤية رأيتها : رأيت حبيبي رسول الله يعانقني ويقول لي : لقد طالت غيبتكَ عليَّ يا أبا الحسن واشتقتُ إليك ! ثم رأيتُ جبرائيل يهبط على جبل أبي قبيس فيأخذ منه حجرين ويضرب أحدهما بالآخر فيصيران كالرماد . ذرّهما في الهواء فلم يبقَ بيت في مكة أو المدينة أو الكوفة إلاَّ ودخله شيءٌ من ذلك الرماد ! .

قال الحسن : أبتاه ، وما تأويلُ ذلك ؟ .

قال : بنيَّ حسن ! إن صدقت رؤياي فإن أباكَ مقتولٌ هذه الليلة .

قال الحسن مذعوراً : ومن يقتلك ؟ !! .

قال أمير المؤمنين : أخبرني حبيبي رسول الله أن أشقى الأشقياء ، شقيق عاقر ناقة صالح ، ابن ملجم المرادي ، يقتلني .

قال الحسن : أنت تعلم أنه يقتلك ، فلم لا تقتله ؟ ! .

قال : بنيَّ ! لا يجوز القصاص قبل الجناية ! .

قال الحسن : أبتاه ! دعني أصحبك إلى المسجد .

قال : لا يا ولدي . . عد أنت إلى فراشك .

وصل الإمام إلى المسجد ، وكان ابن ملجم مختبئاً هناك ، يحمل سيفاً اشتراه بألف وسمَّمه بألف . . . صعد الإمام المئذنة ورفع صوته بالآذان : الله أكبر . . الله أكبر . . . .

يقول الشيخ المفيد والعلامة المجلسي : كان اليتامى إذا سمعوا صوت عليّ في الآذان ، خصوصاً في شهر رمضان ، يستبشرون ويقول الواحد للآخر : اسمع صوت أبينا ! أبونا عليّ يؤذّن !! .

كانت زينب تسمع صوت أبيها يؤذن . وبينما هي كذلك إذ انقطع الصوت ، وسمعت جبريل بين السماء والأرض ينادي : «تهدّمت والله أركان الهدى ! انطمست أعلام التقى ! قُتل عليٌّ المرتضى ! قتله أشقى الأشقياء !» .

كيف كان ذلك ؟ .

لما فرغ الإمام من أذانه ، دخل إلى المحراب يصلّي . . . دخل في الصلاة . . . . وبينما هو يهمُّ في السجدة الأُولىٰ برز ابن ملجم اللعين ووقف وراءه مجرّداً سيفه . . رفع الإمام رأسه من السجدة الأُولىٰ فهوى اللعينُ بسيفه على رأس الإمام وهو يقول : الحكمُ لله لا لكَ يا عليّ !!! .

انطلق صوت جبريل : «وا إماماه ! وا عليّاه ! وامظلوماه !» . . . قامت العقيلة زينب تنادي أخاها الحسن : هذا صوت الناعي !!!! .

هرع الحسن والحسين إلى المسجد . . . دخل الحسن المسجد ، فرأى أباه علياً في المحراب والدماء تجري من رأسه . أخذ رأسه الشريف

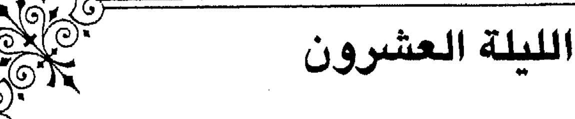
ووضعه في حجره ، وكان قد أغمي عليه . . . . فتح أمير المؤمنين عينيه فرأى ابنه الحسن . . . صاح الحسن مفجوعاً : أبتاه ! روحي فداك ! من الذي أفجعنا بك ؟؟ قال : بنيّ ! قتلني ابن اليهودية ! ابن ملجم المرادي ! . . . بُنيَّ ، لا تطلبوه ، سيخرج إليكم من هذا الباب . . . ثم التفت أمير المؤمنين إلى الحسن وقال : بنيّ حسن ، صلِّ بالناس صلاة الصبح .

أمضى الحسن صلاة الصبح ثم عاد إلى أمير المؤمنين . . . فجاؤوا بابن ملجم المرادي وأوقفوه موثوقاً بين يدي الإمام . . . التفت إليه أمير المؤمنين وقال : يا ابن ملجم ، ألم أكن لكَ نِعمَ الإمام ؟ ألم أكن أعطيك ؟ . . . . قال : بلى ! ولكن يا عليّ ، أفأنت تنقذ من في النار ؟ ! . . . .

التفت الإمام إلى ولده الحسن وقال : خذوه واجعلوه عندكم . . . فإن شفيتُ من هذه الضربة فإن أمره لي ، وإن أنا متّ فضربةٌ بضربة ، ولا يُمثَّلُ بالرجل ؛ فإني سمعت رسول الله يقول : إياكم والمُثْلَة ، ولو بالكلب العقور ! . . . بنيَّ حسن ! اللَّهَ اللَّهَ في أسيركم ! أطعموه مما تأكلون ، واسقوه مما تشربون ولا تقيدّوا له رجلاً أو تُغلّوا له يداً ! . . .

ثم قال لهم الإمام : احملوني إلى داري . . . الحسن والحسين والعباس ومحمد ابن الحنفية والأصبغ بن نباتة حملوا الإمام وأتوا به إلى داره والدماء تجري من رأسه الشريف . . . وقبيل أن يصلوا إلى الدار التفت إليهم الإمام وقال : أنزلوني لأمشي معكم ! قال الحسن : أبتاه ، كيف تمشي وأنت في هذه الحال ! نحن نحملك على قلوبنا وعيوننا !! قال : بنيّ ! أختكم الحوراء واقفة بباب الدار ، ولا أُريد أن أتعجَّل فجيعتها وأصدع قلبها . . .

إلٰهنا تقبَّل أعمالنا . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الليلة العشرون





عدل الامام عليّ عليه السلام وزهده

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد ، صلّىٰ الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين .

لبس الإسلام أبراد الحداد　　يوم أردى المرتضىٰ سيف المرادي
ليلة ما أصبحت إلاّ وقد　　غلب الغي بها أمر الرشاد

ـ صناعة الانسان :

قال سيدنا ومولانا الإمام علي عليه السلام : «وكأني بقائلكم يقول : إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن منازلة الشجعان ومقابلة الأقران ، ألا وإن الشجرة البرية هي أقوى عوداً ، والروائح الخضرة هي أرقّ جلوداً ، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً ، وأنا من أحمد كالضوء من الضوء أو الذراع من العضد ، والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها» .

وحديثنا الليلة يأخذ بنا إلى بيت أمير المؤمنين علي عليه السلام ، لنجلس حول فراشه في خشوع ، ونستمع إلى هذا الحكيم العظيم ونتفكر في حِكَمِهِ . بماذا يتحدث ، وبماذا ينطق ، وأيّة رسالة يضعها بين أيدينا هذه الليلة ، ونحن نودعه ، وهو في قلوبنا وفي نفوسنا .

ولكي يتسنىٰ الدخول إلى مجلس أمير المؤمنين ، المفكر العظيم والبليغ الحكيم ، لا بد أن تحمل بطاقة دخول ، وهذه البطاقة تكمن فينا

من جانبين : ظاهري ومستور فالجانب الظاهري أو الحسي يتمثل بحواسنا الخمس ، بالعين ، بالأذن ، بالأنف ، بالفم . . وهذا يعني البدن وما ظهر منه .

أما الجانب المستور أو الروحي ، فيتمثل بالروح التي تعتبر عالماً مجهولاً لم يتمكن علماء الفيزياء ولا علماء النفس أو حتى الفلاسفة من إدراك كنهه ، لأنهم لم يرجعوا إلى المنابع الأصلية للعلم، والمتمثلة في علي عليه السلام. هذا العلم الذي أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي . فالجانب المستور يمثل الروح ، وجنود الروح : العقل ، وجنود العقل : الفطرة ، وجنود الفطرة : القلب ، وجنود القلب . . .

فالاعتماد على الجانب الظاهري ، بأدواته الآنفة الذكر ، سوف لا يجدي صاحبه نفعاً ، ولا يمكن له أن يلحق بركب الحضارة المتقدم . أما إذا سبر أغوار النفس البشرية ، واستعمل قلبه وفكره ، فسيجد دربه نيّرة ، ويسير قدماً . لأن الإنسان إذا أعمل عينه فإنه يرى الأشياء ، واستعمل عضلاته ، فماذا يقدر أن يفعل مع فيلٍ ضخم الجثة الذي يستطيع ولد صغير أن يجره ويتصرف به كيفما يشاء لأنه يستعمل عقله في تسيير هذا الفيل وليس عضلاته .

أما النملة هذا الكائن الصغير ، فإنها أقوى من الإنسان بعشرات المرّات ، لأنها تقوى على حمل أضعاف حجمها من الطعام الذي تختزنه لأيام الضيق . والكلب الذي يتميز بحاسة الشم التي وهبه الله إياها ، بحيث يقدر على تمييز الأشخاص من الروائح المنبعثة من أجسادهم ، لذلك فهو يستعمل بوليسياً لاكتشاف المجرمين .

والعصفور الذي وهبه الله ملكة الاهتداء إلى بناء عشه بمهارة يعجز عنها أي إنسان ، ويهتدي إلى صغاره في هذا العش بشم رائحتهم عن بعد أميال عديدة ، وكذلك كل عضو في جسمنا وما فيه من دقيق الصنع، ومن تعقيدات العمل ، أليست هذه كلها من صنع الباري ـ عزّ وجلّ ـ أليس اللسان الذي لولاه لما استطعنا أن ننطق بكلمة واحدة ، أو الدورة الدموية

في أجساد جميع المخلوقات من كبيرة الجسم إلى الحشرة الصغيرة كيف تعمل بانتظام وإتقان . كل هذه من دقيق صنع الخالق العظيم .

فبماذا يسيطر الإنسان على كل هذه المخلوقات ، كبيرها وصغيرها ، أليس بقوة العقل وإعمال التفكير ؟ هذه القوة التي تحفزه على صنع الأسلحة والصواريخ ، حيث بواسطتها راح يتنقل من نجم إلى نجم ومن كوكب إلى كوكب .

والإمام علي عليه السلام أيها الأخوة ، يرى أن العالم بعظائمه وصغائره موجود في هذا الإنسان الصغير ، في روح هذا الإنسان ، في عقله وفي فكره .

(أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر) . أي في الجانب المستور منه .

فعندما ندخل على علي أمير المؤمنين ، يجب أن نعرف أننا نبحث عن الإنسان في جانبه المستور ، وليس في جانبه الظاهري ، ولو أن الإنسان موجود في هذا الجانب . وهو القائل : «يا كميل ، الناس ثلاثة ، عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح» . يجب أن نفهم ونستوعب أين هو الإنسان في فلسفة علي بن أبي طالب عليه السلام: وأين هو في رأيه ، بل وفي نظريته للكون وللحياة . حتى نعرف من هو الإنسان الذي أراده علي بقوله : «نحن صنائع الله ، والناس بعد صنائع لنا» .

وهكذا نجد الإمام علي عليه السلام يركز على الجانب المستور في الإنسان ، رغم أنه ، لا ينكر أهمية الجانب الظاهري فيه ، فالإمام لا يمنعك من السكن في دار واسعة قائلاً : «من سعادة المرء سعة الدار» . ولا يمنعك من الزواج قائلاً : «من تزوج فقد حفظ ثلثي دينه» .

- عدل الامام :

ينقل الثقفي في كتابه (الغارات) كلمة عن الإمام علي عليه السلام يقول : «في حكومتي ليس هناك إنسان في العالم الإسلامي ، إلاّ وله دار واسعة ،

ولـه لباس ، ولـه مطعم ومشـرب ومركب» . لاحـظوا هذا التنـظيم الاقتصادي والسيـاسي والإداري عنـد الإمـام علي بن أبي طـالب ﵇. في حين أنـك تـلاحظ ما كـان يحدث عنـد غيـره ، فهـذا مـروان بن الحكم يتصـرّف وحـده بخـراج أفريقيـا كلها . بينمـا قدم طلحـة والزبيـر على الإمـام علي ، في بيت المـال ، وكان الإمـام قد أشعـل الضوء ، ولمـا أخبره طلحـة أن لهمـا حـاجـة خاصة دون المسلمين ، قـال : يا قنبـر ، أطفىء الضوء ، قـال : لِمَ سيدي ؟ قـال : لأننـا في بيت مـال المسلمين ونسمـح لأنفسنـا أن نستضيء بهـذا الزيت ؟ والزيت بسيط فكم يسـاوي ؟ لكنه لـه علاقـة بحقوق المسلمين . يـا طلحة ويا زبير ، إذا أردتما كرم علي فاذهبا إلى داره .

فلو ملك علي ﵇ جبـلاً من الذهب وجبـلاً من التبن ، لأنفق تبره قبـل تبنه ، فهو أكرم الكرماء ، والروايات المتواتـرة عن كرمـه تكاد لا تحصى ، إلاَّ أنـه غير مستعـد أن ينفق فلسـاً واحـداً من أمـوال المسلمين عبثـاً واعتبـاطـاً ، لذلك كـان يوزع الأمـوال على الناس في كـل يوم جمعـة ، تمشياً على سيـرة رسول الله ﷺ .

دخـل البصـرة على رجـل فرأى داره واسعـة ، قال لـه : بـارك الله لـك في دارك ، ولكن لا تنس قول الله تعالىٰ : ﴿**وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحـروم**﴾ . قال سيـدي : إذن يسمح لي الإسـلام أن أتمتـع بـدار واسعـة ومـلابس جيـدة ؟ قـال : ولِمَ لا . . . فـالبس المـلابس الجيـدة : ﴿**قـل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا**﴾ ، ﴿**قـل من حرم زينـة الله**﴾ ، ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد**﴾ .

- زهـده :

إن علي بن أبي طـالب ﵇ لا يـريـد منـا أن نلبس المـلابس الممـزقـة ونسكن في أكواخ أبداً . بل يريد منا التقى والـورع والاجتهاد في طـاعة الله . والابتعـاد عن معصيته . يـريد منـا أن نربي أنفسنـا تربيـة صحيحـة ـ هـذا هـو المهم . أن لا نعيش فقـراء ونعيش على حسـاب بيت المـال . وأين هـو بيت

المال ؟ .

ومن هو الفقير ؟ . وأين الاقتصاد الإسلامي ، بل وأين اقتصاد علي أيها الأحبة ؟ . الإمام علي عليه السلام يقول : «ما رأيت نعمة موفورة إلاَّ وإلى جانبها حق مضيَّع» و «ما جاع فقير إلاَّ بما مُتِّع به غني» . ويضيف كذلك : إن الله قد فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلاَّ بما مُتّع به غني وإن الله سائلهم عن ذلك يوم القيامة .

وأما هذا الذي ينام بلا عشاء ، يبحث في الليل والنهار عن رغيف الخبز ، وهو ممتحن بإيجار البيت الذي يسكنه ، هذا ليس فقراً ، وإنما يسميه الإمام كفراً . . نعم ، إن الفقر كفر . .

«يا بني استعذ بالله من الفقر فإنه سواد الوجه في الدارين» . والأغرب من هذا أن العالم الإسلامي يعوم على بحر من النفط الذي يدر عليه أموالاً لا تحصى ولا تُعد ، فهل كان النفط في أيام الإمام علي عليه السلام؟؟ . . . هذا النفط الذي يتدفق بغزارة في أراضي المسلمين ، حتى ليقدر أن ثلاثة أرباع نفط العالم عند المسلمين ! وأن نفط الاتحاد السوفياتي أكثره يتدفق في الجمهوريات الإسلامية . لكنك ترى المسلمين أسوأ حالاً في العالم جميعاً . . رغم أنهم يملكون هذه الخيرات الضخمة من نفط وغاز طبيعي ومعادن وذهب . . . إلخ .

الآن عرفت لماذا نحيي ذكرى علي بن أبي طالب . . وعرفت لماذا يعاديه بعض الناس ، لأنه مع ا لحق ولأنه صريح دائماً ، ولأنه يركز على الجانب المستور ـ كما قدّمت لكم ـ في الإنسان أكثر من الجانب الظاهر ، فهو نفسه كان خشن الملبس ، ويقول : «والله لقد رقعت مدرعتي حتى استحييت من راقعها» ، فللّه دره من زاهد في هذه الدنيا ومفاتنها . فكانت له مدرعة كان يلبسها ، وكان قد جلبها معه من المدينة وقال مخاطباً أهل البصرة : «يا أهل البصرة إني خرجت من المدينة بقطيفتي هذه ، وإن خرجت منكم بغيرها فأنا خائن» . فهو يقسم بالله أن لا يتركها أبداً

ويضيف : «وقال لي قائل ألا تنبذها عنك ؟ فقلت له : اعزب فعند الصباح يحمد القوم الشرى» .

أما مأكله فخبز شعير وملح جريش وماء ، واللبن بعض الأحيان . يقول سويد بن غفلة : «دخلت على علي في ذي قار فوجدته قد أخرج جراباً ثم فتحه وكان قد ختمه . يقول : أخرج منه كسرات من خبز الشعير ورضّنها على ركبتيه ، وبعضها كان مرضوضاً ، ثم جعلها في إناء ونثر عليه الماء، ثم شمّر عن ساعديه قائلاً: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، وبدأ يأكل، قلت : سيدي أنا تصورت أن هناك أكلة عظيمة وحكيمة وغنية بالفواكه ، تلك التي جعلتها في هذا الجراب وختمته ، والآن هذا ليس إلّا خبز شعير يابس . . فلماذا تختم عليه الجراب ؟ قال : يابن غفلة ، خشيت من هذين الولدين ـ الحسن والحسين ـ أن يلتّاه بسمن أو زيت . وأنا أُريد أن آكل خبز شعير يابس فقط» .

لاحظ كيف كان الإمام عليه السلام يركز على هذا الجانب . لكن الله أعطاه قُدرة غريبة على هذا الجانب في الجسم ، وباستطاعة أي إنسان أن يأكل مثل هذا الطعام ، لكن يصيبه منه الضعف والوهن .

ـ كم الأفواه :

الأصبغ بن نباتة يقول : «دخلت فرأيت الإمام علي عليه السلام يأكل خبز شعير غير منخول ، ـ يعني بنخالته ، فقال لجاريته ـ وقيل أنها كانت فضة ـ : أما يتقون الله في هذا الشيخ ؟ . ألا تنخلون له الطعام ؟ قالت : هو أمرنا أن لا ننخل له طعامه .

والآن اكتشف علمياً أن هذه النخالة تحتوي على عناصر ومواد مفيدة صحياً للإنسان . وهو بحاجة إلى هذه المواد ، لذلك يقول الإمام : «وكأني بقائلكم يقول : إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب ، فقد قعد به الضعف عن منازلة الأقران ومقابلة الشجعان . ألا وإن الشجرة البرية هي أقوى عوداً ، والروائح الخضرة أرق جلوداً ، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً ،

وأنا من أحمد كالضوء من الضوء ، أو الذراع من العضد ، والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنهم» . هكذا كان الإمام علي عليه السلام، وهكذا شاءت حكمة الله أن يمثل هذا الجانب المستور في الإنسان ، ليصحح الانحراف الذي حدث في العالم الإسلامي . وما هذا الحديث إلّا حزمات من الضوء والنور أطرحها أمامكم ، فاعملوا فيها فكركم واستخلصوا العبر .

أما بعض الصحابة ، أمثال : أبي ذر الغفاري ـ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ يموت جوعاً في الربذة بالعراء ، وعبد الله بن مسعود يُكسر ضلعه ، وعمّار بن ياسر ، يُضرب حتى يغمى عليه ، وعبد الله بن عباس ـ حبر الأُمة ـ يُسجن في بيته ولا يُسمح له بالحديث عن رسول الله ! . . وهذه الروايات موجودة في صحاح المسلمين ، التي تذكر بصريح العبارة ، أنه مُنع من تدوين الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . لعمري إنها أقوى لطمة على جبين الفكر الإسلامي والمسلمين .

نعم ، منع هؤلاء جميعاً من الحديث ، لأنهم لو سمح لهم أن يتكلموا ، لقالوا كل شيء بصراحة . ولرووا كل الأحاديث التي عُتِّم عليها ، وشطبت من كتب البعض . ومنها حادثة الغدير ، بل وفضائل علي بن أبي طالب عليه السلام ومن ثم فضائل أهل البيت أجمع .

«فاطمة بضعة مني يؤذيها ما يؤذيني» .

«يا علي ، أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلّا أنه لا نبي بعدي» .

«يا علي ، من سبّك فقد سبّني ، ومن سبّني فقد سبَّ الله» .

هذه كلها عناوين ، تنطوي على مكانة أهل البيت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بل ومن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ منع المحدّثون من الإتيان على ذكرها ، والتكلم بها ، ومن تدوينها في صحاحهم . وقد ذكر هذا المنع في بعض الأبواب من هذه التصانيف . ففي صحيح البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وأبي داود ومسند أحمد بن حنبل والطبراني وغيرهم كثر . أبواب

مسجل فيها منع تدوين الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويعلّلون هذا ، بأن الخليفة الثاني أو فلان ، لم يحب أن يسمع الحديث ، ويقول حسبنا كتاب الله فقط .

ولو كان هذا صحيحاً ، فلماذا تكلم النبي بأحاديثه المتعددة . فالقرآن وحده يكفي ، ولكان الله أمره باعتماد القرآن وحده ، وعدم التحدث إلى أحد بأي حديث . وقد جاء في القرآن الكريم : **﴿وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلّا وحي يوحى﴾**(1) . ولماذا نتمسك بعلي أمير المؤمنين مع القرآن ؟ ولماذا قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «علي مع القرآن والقرآن مع علي» ؟ طيلة عشرين سنة مرّت ، وغير مسموح لأحد أن يقول : قال رسول الله . طيلة عشرين سنة ، وكل المحدّثين في صمت مطبق ، حتى عبد الله بن عباس ، على جلال قدره وعظمته ، لم يكن يتحدث ، لأنه كان يريد أن يحفظ مكانته .

فعندما تولى الإمام الخلافة . وما قيمة الخلافة عند علي ؟ وهو الذي قال : «واللّه إن هذه النعل عندي أفضل من خلافتكم إلّا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً» . هكذا كان ينظر إلى الخلافة، تصحيحاً للانحراف الكبير الذي حدث آنذاك . هذا هو الجانب الروحي والمستور عند علي عليه السلام .

. استباق الامام علي عليه السلام للعلوم الحديثة :

في نهج البلاغة ، لا تترك ريشة علي وقلمه ولسانه شيئاً في الوجود إلّا وتصوره بدقة وإتقان . فلاحظوا تصويره للنملة ، وكيف يتحدث عنها في صفحات مطولة . واليوم هناك أحد علماء الغرب الذي سلخ من عمره أربعين سنة لدراسة النمل ، كذلك التقيت في جامعة ألبانية بأحد الأساتذة المتخصّصين ، وراح يروي الحكايات المختلفة عن خفايا هذا العالم ، ثم سألني : هل عندكم شيء من هذه العلوم أيها المسلمون ؟ فتبسمت وقلت

---

(1) سورة النجم ؛ الآية : ٣٠ .

له : لأنك لا تعرف ، شيئاً عن الإسلام ، وتجهل ما جاء به القرآن الكريم ، وما ورد في نهج البلاغة عن تلك الدويبة التي قضى أحد العلماء أربعين سنة في دراستها ، فالقرآن الكريم يخصص سورة كاملة من سُوَرِهِ ، وسمّاها (سورة النمل) ، والإمام علي عليه السلام له خطبة مفصلة يتحدث فيها عن النمل وبيولوجيته ، والإمام الصادق عليه السلام ، يتحدث مع المفضل بن عمر ، عن الدورة الدموية عند النمل . فدهش وخاطبني على الفور ، أحقيقة ما تقول ؟ ! أنا لا أدري هذا . فقلت له : اسمع ما يقول الإمام علي عليه السلام عن النملة : «انظروا إلى النملة على دقة هيأتها وصغر حجمها ، كيف دبَّت لرزقها تجمع في حرِّها لبردها» . ففي أيام الحر ، تجمع النملة الطعام ، فتأخذ حبة القمح وتقسمها إلى قسمين ، أو حبة الكزبرة إلى أربعة أقسام ، لماذا تقسم حبة الكزبرة إلى أربعة أقسام ؟ لأنها لو قسمتها إلى قسمين ودفنتها في التراب ، فستنبت هذه حين تمطر السماء ، فلا بد لها من أن تقسمها إلى أربعة أقسام حتى لا يعود عندها القدرة على الإنبات والحياة من جديد ، وكذلك القمح .

ففي أية كلية درست هذه النملة ، وكيف تلقت دروس الإحياء ، وأين تلقت علوم النبات ، مثل هذه النملة الصغيرة ؟ ! .

واسمع الإمام علي عليه السلام كيف يتحدث عن الطاووس مثلاً ، فهو يقول : «ومن عجيب صنع الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ الطاووس، خلقاً ، خلقه في أكمل خلق وفي أحسن تنظيم ، انظروا إلى ريشه وإلى أجنحته . . .» ويصفه وصفاً دقيقاً حيّر كل الفلاسفة والأدباء والعلماء .

- توجيهه وإرشاده :

ثم إذا تحدث عن الإيمان والدعاء ، فهو يربط دعاءك بكل ما يدور في هذا الكون : « فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتَّد بالصخور مَيَدان أرضه» . يشير إلى حركة الأرض والصخور والجبال ، وقد ثبت علمياً ، من الناحية الجيولوجية والجغرافية أن الجبال إنما أرسيت في

الأرض لتعديل حركاتها .

وإذا كتب إلى عمّاله وولاته في السياسة والاقتصاد والإدارة تتوقف الأقلام ، وإن أعظم شيء كتبه إلى مالك الأشتر حين ولاه مصر : «واعلم يا مالك أني قد وجّهتك إلى بلاد قد جرّت عليها دول من قبلك من عدل وجور ، وإن الناس ينظرون إليك في مثل ما كنت تنظر فيه من أُمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم ، فأشعر قلبك الرّحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، لا تكوننَّ عليهم سَبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان ، فإما أخ لك في الدين ، أو نظير لك في الخلق» .

أما في ميدان التربية ، فاقرأوا وصية الإمام علي عليه السلام لولده الحسن في التربية ، تربية الطفل ، وكيف سينشيء أبناءه وبناته ، وسنخصص لهذه الوصية حديثاً كاملاً إن شاء الله في ليلة أُخرىٰ .

ولم يترك الإمام شيئاً إلاّ وذكره . وخصوصاً في التركيز على ما يتعلق بالجانب المستور في الإنسان ، العقل والروح والفطرة والقلب ، ثم وجَّهنا إلى هذا الجانب ، لأن له علاقة وطيدة بالآخرة ، وكلما ذكر الآخرة تعمق هذا الجانب عندك ، فهو يذكر وحشة القبر في أول ليلة ينزل إليه فيها الإنسان ، فعندما يُنزل الإنسان أول ليلة إلى القبر ، يقبل عليه الملكان العظيمان ، منكر ونكير ، وأمامهما هذا السجل العظيم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها . ويخاطب الله المتقين ومذكراً إياهم بهذه الليلة بقوله : ﴿**فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**﴾(٢) . وقد ضربنا مثالاً على ذلك عند الحيوانات ، تلك التي تتمتع ببصر أقوى من بصر الإنسان ، وهنا يمدّك الله بأقوى منه ، وحتى لو كنت أُمياً لا تجيد القراءة والكتابة فهو يقول لك : ﴿**اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾(٢) . ومن

---

(١) سورة ق ، : الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ١٤ .

الناس في هذه اللحظات من قد يتجرأ ويقول : لا ، أنا ما صنعت هذا ، وإذا اليد تشهد ، والأصابع تشهد وكل عضوٍ من أعضائه يشهد عليه .

ويقول قائل : كيف حُفظت هذه الأقوال أو الأعمال حتى ذلك الحين ، والجواب على ذلك أنه لو تأملنا اليوم جهاز الفيديو الذي يسجل للإنسان كل أعماله وحركاته وأقواله ويخلدها له حتى بعد مماته إلى ما شاء الله . أليس هذا جزء من علم رب العالمين الذي آتاه للإنسان في حياته حسب قوله ـ عزّ من قائل : ﴿**وما أُوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً**﴾[1]. والله يخاطب الإنسان بقوله : ﴿**وإنا عليكم لحافظين كراماً كاتبين**﴾[2]، كراماً لا يزيدون ولا ينقّصون شيئاً : ﴿**يعلمون ما تفعلون**﴾ . . إذن ، كل شيء يفعله الإنسان أو يتفوّه به ، فهناك كتبة يكتبون ، وحفظة يحفظون . وأكثر من هذا مذكور في فلسفة علي عليه السلام، حتى النيّة تُكتب ، لأن النيَّة توجّه فكر الإنسان ليؤثر على نفسه . ولذلك يقول الإمام عليه السلام: «خير شيء لابن آدم أن تكون نيته لأخيه الإنسان خيراً» . ونيّة المرء خير من عمله . لأن النيّة السيئة تسبب الخلاف والسوء ، والنيّة الطيبة تحبب القلوب إلى بعضها وتنقّيها .

يقول الإمام علي عليه السلام: «إن القلوب لها إقبال وإدبار» . مثل االبحر له مدٌّ وجزرٌ ، ثم يضيف : «فإذا أقبلت فحملوها النوافل ، وإذا أدبرت فاقتصروا عليها بالواجبات» .

ومن الناس من كان عنده وسواس في أعماله وتصرفاته، كالحسن البصري ، الذي كان يعاني من وسواس في الوضوء والصلاة . وفي إحدى الروايات أنه دخل رجل من أهل البصرة على الإمام علي وقال له : سيدي ، أريد منك أن تطمئنني ، فإن قلبي مضطرب من أهل النفاق ، فقال له الإمام علي عليه السلام: «لو أن الذين وراءك بعثوك تبتغي لهم مساقط الغيث ، ورجعت إليهم فأخبرتهم بالكلأ والماء ، فخالفوا إلى المعاطش والمجادب» . لو

---

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٥ .

(٢) سورة الانفطار ؛ الآيتان : ١٠ و ١١ .

أخبرتهم بمكان العشب والماء ، ثم خالفوك وذهبوا إلى حيث لا ماء ولا عشب ، فماذا أنت صانع ؟ . قال : والله يا سيدي ، كنت تاركهم ومخالفهم إلى الماء والعشب ، قال الإمام عندئذٍ : «فامدد يدك ، الماء والعشب هنا عند علي بن أبي طالب ، فلا تذهب إلى غيره» . فقال الرجل : والله ما تمكنت أن امتنع لقيام الحجة عليّ ، فمددت يدي وبايعت الإمام علي عليه السلام .

والليلة كذلك ، فنحن كلنا نمد أيدينا لنبايع علياً أمير المؤمنين .

وإذا كان الإمام يركز على الجانب المستور من الإنسان ، فلا يفوته أن يركز أيضاً على الجانب الظاهر ، فيقول : «أأقنع من نفسي أن يُقال هذا أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم بمكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في خشونة العيش ؟ وما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة ، همّها علفها أو المرسلة شغلها تقممها . وأيم الله ، لأروّضنَّ نفسي رياضة تمشي معها إلى القرص مطعوماً أو تقبل بالملح مأدوماً ، ولأدعن مقلتي كعين ماء نَضُب معينها واستُفرغت دموعها . .» .

وهو حينما ينظر إلى ذنوب أُمته يبكي ، ويستغفر لهم ويقول : «آه . . إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها ، فتقول خذوه ، فياله من مأخوذ لا تنجيه عشيرته» . وهو يخاطب ربه قائلاً :

ما لي سوى قرعي لبابك حيلة   فإذا رُددت فأي باب أقرع .

وإذا قرأتم دعاء كميل ، فانتبهوا لما يقول فيه الإمام علي عليه السلام ، ولاحظوا كيف يقوي الجانب الغيبي في الإنسان . لأن القرآن الكريم يقول واصفاً المؤمنين : ﴿**يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾[1] . فأهم شيء هو الإيمان بالغيب ، فإذا كان الإيمان بالآخرة موجوداً عندنا ، فإننا حينئذٍ نتمتع بعقل عظيم وقلب كبير وإنسانية فضلى ،

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٣ .

وكل مواصفات الخير والكرم والشجاعة والشهامة والعزة .

هذه هي مدرسة الإمام علي عليه السلام مدرسة السلامة، مدرسة في الإيمان، ومدرسة في الشجاعة ، ومدرسة في العلم والفلسفة والحكمة ، مما جعله دون مستوى النبوة وفوق مستوى البشرية ، أثرت في الناس كل الناس وعلى جميع مستوياتهم ، كباراً وصغاراً ، صحباً وأعداءً حتى أن أعداءه عندما بلغهم خبر وفاته بكوا عليه ، ولم يفت البكاء معاوية ، عندما دخل عليه ضرار بن ضمة يصف له علياً قائلاً : «كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يتفجر العلم من جانبيه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهوتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، يعظم أهل الدين ويقرب المساكين ، وكافينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويدنينا إذا استنبأناه . . » .

▪ حب الناس لعلي :

كان الإمام عليه السلام يمر في السوق ويقول : أوفوا المكاييل ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، يقضي حاجة هذا ، ويسترد حق ذاك . مرّ بفتاة تبكي . . فقال لها : مالك تبكين ؟ قالت : اشتريت تمراً من هذا التمّار ثم أردت إرجاعه له فلم يرض ، فرجعت إليه ثانية : فلم يرض أن يرجع التمر ، فيأتي الإمام ويتحدث مع هذا التمّار بكل تواضع وهو لا يعرفه ، فوضع التمّار يده في صدر الإمام ودفعه ، قائلاً : وما شأنك في الدخول بيننا ؟ أنا بعت التمر ولن أسترجعه ، فوقف الإمام لحظة ، وإذا بمالك الأشتر مقبل برفقة عمّار بن ياسر وإبراهيم بن مالك ، أبطال الإسلام ، الذين صنعهم الإمام علي عليه السلام ورباهم على العقيدة والإيمان ، فوقفوا معه لا يعلمون عن القضية شيئاً ، والفتاة تبكي ، فخاطبهم التمار قائلاً : ما هذا التجمع الغفير ؟ فقالوا له : هذا أمير المؤمنين علي عليه السلام وأشاروا إليه ، فارتجف الرجل وجاء إلى الإمام ، يقبّل يديه ويعتذر ويقول : لقد أرجعت التمر وأعطيت ثمنه للبنت ، هل رضيت عني يا مولاي ؟ والله لا أعود إلى مثلها، فقال له الإمام : ما أرضاني عنك إن أنت أرضيت الناس عن نفسك ،

فكن طيباً وطاهراً مع الناس ، عيشوا مع الناس ، وخالطوهم مخالطة إن عشتم معها حنّوا إليكم ، وإن متم بكوا عليكم .

وبينما كان الأطباء يعالجونه ، قالوا للإمام الحسن : يابن رسول الله أحضر اللبن ليشربه أبوك ، ولما طلب الإمام الحسن اللبن ، فإذا به يرى أعداداً بالعشرات من الأطفال اليتامى ، كل واحد منهم يحمل في يده إناءً مملوءاً باللبن ، جاؤوا به إلى الإمام علي عليه السلام. فدخل الحسن على أبيه وأخبره بخبر اليتامى ، فاستعبر أمير المؤمنين ، وبكى لما سمع هذا الخبر . وفي هذه الليلة بكى الناس كلهم على أمير المؤمنين عليه السلام بكاه الأحرار والشرفاء والمنصفون ، لأن موته ترك في قلوب الجميع جرحاً لا يندمل أبداً .

وكلكم تعلمون أنه عندما ألقي القبض على عدو الله عبد الرّحمٰن بن ملجم ، على يد شخص من قبيلة همدان يدعى حذيفة ، ولما سأله الإمام الحسن عن كيفية ظفره بعدو الله ؟ قال : أوقظتني زوجتي قائلة : اسمع المنادي ينادي معلناً قتل الإمام علي عليه السلام، قلت : ويلك ، فضّ الله فاك ، ومن يجرؤ على مولاي علي بن أبي طالب ؟ قالت : بلى ، سمعت منادياً ينادي بين السّماء والأرض : قُتل أمير المؤمنين ، قُتل علي بن أبي طالب . وفي هذه اللحظة سمعت جلبة وصيحة ومنادياً بين السماء والأرض : «تهدمت والله أركان الهدى ، وانطمست أعلام التقى ، قُتل علي المرتضىٰ». ويضيف حذيفة: أحسّ قلبي بالشر، فجرّدت سيفي وخرجت إلى الجادة، فوجدت عدو الله يدور وكأنما سُدَّت الطرق في وجهه، فقلت له: يا هذا من أنت ؟ فكنى نفسه بكنية أُخرىٰ ، قلت : لعلك صلّيت الفجر ، قال : لا ، قلت : ألا تريد أن تصلّي مع أمير المؤمنين في المسجد ؟ قال : أنا منهمك بشغل أهم من الصلاة ، قلت : ويحك وأي شيء أهم من الصلاة ؟ أما سمعت بخبر علي ؟ قال : لا ، قلت : ألا تريد أن تتحقق من الخبر ؟ قال : شغلي أهم من علي بن أبي طالب . قلت : يا عدو الله ، لعلك قاتل علي بن أبي طالب ، وهنا ارتبك وحاول أن يرفض ، ثم عاد

وقـال : نعم ، وفي نفس اللحـظة هبت ريـح كشفت ثـوبـه عن السيف ، وإذا بـه يلمع ويقـطر منه دم جـديد . فهجمت عليـه وصحت صيحة اجتمـع حولي ـ من جرائها ـ أهل الحي ، فـأوثقـوه ، كتافـاً ، وجئت به إليـك سيدي . وهـا هو عدو الله واقف بين يديك .

التفت إليـه الإمام الحسن عليه السلام وقـال : ويلك ألم يحسن إليـك الإمـام علي أميـر المؤمنين ؟ فكيف تجرأت على مثـل هذا ؟ قـال : أفـأنت تنقـذ من في النـار ؟ وفي هذه اللحـظات وضع الإمـام الحسن رأس والده في حجـره ، فـوجده قـد أغمي عليه ، فـأخـذ يقبله ودمـوعـه تجـري على خـديـه ، وبعـد قليـل ، فتـح الإمـام علي عليه السلام عينيـه وقـال : لا أبكى الله عينيـك ولـدي يـا حسن ، هـذا آخر وداع بيني وبينكم ، ثم وقـع بصره على المجـرم ابن ملجم فقال : ولدي يـا حسن ، الله ، الله في أسيركم ، أطعمـوه مما تـأكلون واسقوه ممـا تشربـون . ثم قال : احملوني إلى داري ، وهنـاك اجتمـع عليـه الأطبـاء الـذين طلبوا منـه أن يكتب وصيته قـائلين له : هـذه الضربـة ما وراءهـا حيـاة بعـد ، لأن الضربـة وصلت إلى موضـع سجوده . ولمـا سمعت الحـوراء زينب صـاحت واأبتـاه ، واعليـاه ، من لليتيم ، من للصغيـر حتى يكبـر ، ومـن للأرامل بعدك ؟ فضج الناس بالبكاء والنحيب .

فقام في هذه الليلة حجر بن عدي وقرأ التعزية وقال :

فيـا أسفي على المـولى التقـي أبـي الأحـرار حيـدرة الـزكـي

فضج الناس بالبكاء والنحيب لصوت حجر وبكائه ، فالتفت الإمام أمير المؤمنين إلى حجـر وقال : يـا حجر بـارك الله فيك ، يـا حجـر كيف بـك إذا دُعيت إلى البراءة مني ؟ فأجابه : والله سيدي لو قُـطعت بالسيـوف إرباً إربـاً ، وأُلقيت في النار ، لما تبرّأت منك ، فقـال الإمام : بـارك الله فيك يـا حجر ، جزاك الله خير الجزاء .

ثم التفت أميـر المؤمنين عليه السلام إلى ولـده الحسن وقـال : بني مـرّ النـاس فليتفـرقـوا . فـذهب النـاس جميعهم إلاّ الأصبـغ بن نبـاتـة ، بحـر العلم

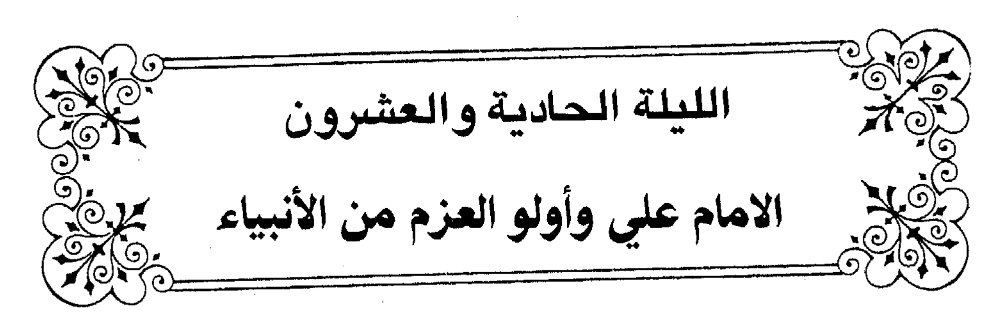
والتقوى ، فقال له الحسن عليه السلام : «يا أصبغ ألم تسمع قول أمير المؤمنين ؟ قال : بلى سيدي ، ولكن رجلي لا تحملاني الآن ، وليس لي طاقة على أن أترك سيدي أمير المؤمنين ، فلو تستأذن لي لألقي عليه نظرة وأذهب .

وهنا دخل الحسن عليه السلام ثم خرج وقال : ادخل يا أصبغ ، يقول الأصبغ : دخلت فرأيت سيدي معصباً بعصبة صفراء . والله ما عرفت أيهما أشد اصفراراً العصبة أم وجهه . وكان يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة السم ، وهو يقول : «سلوني قبل أن تفقدوني . . وخففوا سؤالكم ،المصيبة أمامكم» . ثم يضيف الأصبغ : لما رأيته ارتفع صوتي بالبكاء ، فقال لي : يا أصبغ لا تبكِ . . إنها الجنة . فقلت : والله سيدي أنا أعلم أنك تصير إلى الجنة ، ولكني أبكي لفراقك يا مولاي .

يُحدث محمد بن الحنفية ويقول : بتنا ليلة عشرين عند أبينا علي عليه السلام وقد سرى السم في بدنه الشريف ، لأن اللعين ابن ملجم قال : سيفي بألف والسم بألف . وقد عرق جبينه ، يغمى عليه ساعة بعد ساعة ، تحيط به بناته وخصوصاً الحوراء زينب ، تريد أن تعرف عن حال أبيها . . وكأني بها تقول :

قل لابن ملجم والأقدار غالبة — هدمت ويلك للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدمٍ — وأول الناس إسلاماً وإيمانـاً

إنّا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الليلة الحادية والعشرون
الامام علي وأولو العزم من الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

جاء في وصية إمامنا ومولانا علي أمير المؤمنين عليه السلام لولديه الحسن والحسين ، قال : «أوصيكما بتقوى الله ، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها زوي[1] عنكما ، وقولا بالحق واعملا للأجر ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»[2] .

وقال الله سبحانه وتعالىٰ في سورة الدهر : **﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً * ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً﴾**[3] .

إن من يراقب حياة الإمام علي ويتابعها يجد أنها شبيهة بحياة أولي العزم من الأنبياء ، بعيدة كل البعد عن أن تكون شبيهةً بحياة الملوك والحكام . وهذه المسألة هي موضوع بحثنا وحديثنا .

---

(١) زُوي بمعنى قُبض .

(٢) نهج البلاغة ، المجلد الرابع من شرح ابن أبي الحديد ص ١١ لما ضربه على رأسه ابن ملجم لعنه الله .

(٣) سورة الإنسان ؛ الآيات : ٧ ـ ١١ .

فمن الواضح أن ثمة قاسماً مشتركاً بينه وبين أولي العزم ، لا بل نجده في كثير من المواقف أعظم منهم لأن حياته تكاد تكون مطابقة لحياة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم تمام المطابقة ، ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من أُولي العزم .

ولكي تتضح لنا هذه المسألة سنحاول أن نسبر حياة هؤلاء الأنبياء عليهم السلام فنلاحظ أن الله سبحانه وتعالىٰ عندما كلفهم بتبليغ الرسالة لم يزودهم من الوسائل لا بقوة المال ولا برهبة السلطان وسطوته ، بحيث يكون هناك إرغام للناس على الدخول في عالم العقيدة ، فلم يكن اعتناق الناس للدين عن رغبة في المال أو رهبة من السلاح .

إذ لو أن الله سبحانه وتعالىٰ زود النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالقوة والقدرة على القهر لما كان هناك من حاجة في أن يحاول الذهاب إلى الطائف بحثاً عن عون أو ملجأ يجده لدى زعمائها وقادتها ولا سيما بعد موت أبي طالب . فلو كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمتلك مثل هذه القوة لأرغم أهل الطائف على الانصياع لدعوته ، فضلاً عن أهل مكة . إذن سلاح الأنبياء لا يكمن في القوة المادية وإنما سلاحهم من نوع آخر ، سوف نحاول أن نتعرف إليه .

إن بعض الناس يتساءلون : طالما أن علي بن أبي طالب كان يعلم أن ابن ملجم لعنه الله هو قاتله ، فلماذا لم يبادر إلى قتله قبل أن يتمكن منه عليه السلام؟ وحجة من يطرح مثل هذا السؤال هي أن أيّ حاكم من الحكام قديماً وحديثاً إذا ما أحس بخيانة أو توقّع خيانة من أحد أعوانه فإنه يبادر فوراً إلى البطش به والتخلص منه . فلماذا لم يسلك الإمام علي هذا المسلك إزاء قاتله المتوقّع ؟ .

ولكي نجد جواباً نقدمه لمن يطرح مثل هذا الاستفهام لا بد من العودة إلى حيث بدأنا وقررنا أن حياة الإمام عليه السلام تشاكل وتشابه حياة أُولي العزم من الرسل حيث لم يزودهم الله تعالىٰ بالسلاح المادي بالرغم من أنه يقول سبحانه : ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان**

ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾[1] . لأن الحديد المشار إليه في هذه الآية الكريمة هو السيف في حدود الحق ، وليس السلاح المادي المنتشر بين أيدي الناس على مستوى العالم أجمع .

ولو كان الله تبارك وتعالىٰ زود الأنبياء بأموال ضخمة لكي يغروا الناس باتباع الدين لما كان هناك فرق بينهم وبين الأغنياء والمتمولين ونحن نعلم أن المال يغري الكثيرين من الناس الذين يحترمون الإنسان بقدر ما يمتلك من الأموال . فقد تعود الناس أن تكون الزعامة والقيادة لمن ابتنى القصور وملك الأموال والضياع . وقد ورد في التفسير أنه لما تكررت حجج الله على قريش قالوا : «فإذا بعث الله بشراً رسولاً ، فهلا بعث غير محمد ، كالوليد بن المغيرة المخزومي من أهل مكة وعروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف فكانا أحق بالرسالة منه . يقول سبحانه على ألسنتهم **﴿لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين﴾**[2] والقريتان هما مكة والطائف . إن مفهوم قريش للزعامة والرياسة تقوم على القوة والمال والسيادة ، والنبوة هي من هذا القبيل برأيهم ، فكيف إذن يمكن أن يرسل الله نبياً فقيراً ليس له نصيب من القوة المادية والمالية ؟ وبهذا المنطق خاطب فرعون شعبه عندما دعاه موسى إلى عبادة الله الواحد القهار ، فقال لهم كيف يمكن أن يكون راعي الغنم نبياً وهو لا يملك المال ولا السلاح ولا الجاه ؟ : **﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يُبين﴾**[3] **﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾**[4] .

لقد حاول فرعون أن يستغل بساطة الناس وقلّة وعيهم فخاطبهم بهذا المنطق الذي تعودوه . فإذا كان لا بد من إلـه أو نبي فلماذا لا يكون هذا

---

(١) سورة الحديد ؛ الآية : ٢٥ .
(٢) سورة الزخرف ؛ الآية : ٣١ .
(٣) سورة الزخرف ؛ الآية : ٥٢ .
(٤) سورة الزخرف ؛ الآية : ٥٣ .

الإلـه أو ذاك النبي فرعـون نفسه بـدلاً من موسى الـذي يرعى الأغنـام ويعيش حيـاة فقر وبسـاطة ؟ . في الـوقت الذي يمتلك فـرعون كـل الأسباب المـادية التي تؤهله لكي يكـون إلٰهاً أو نبياً ، إذ لـديــه السـلاح والجيــوش الجـرارة والسجون وأجهزة التعـذيب والقمع ، والسلطان والملك والسـطوة . . . الخ . يقول سبحانه : ﴿**فاستخف قومه فـأطاعـوه**﴾[1] ثم يقول : ﴿**إنهم كـانوا قـوماً فـاسقين**﴾[1] وقـد استـولى عليهم فـرعـون بمختلف الأسـاليب فنشـر الفسق والفجور في المجتمع وصـولاً إلى السيطرة عليهم ، وهـذه تمامـاً خطة اليهـود في العـالم أجمع حيث يعملون بكـل الوسـائل على إشـاعة الفسـاد في العالم الإسـلامي خصـوصـاً لكي يتمكنـوا من تحقيق أهـدافهم في السيـطرة لا على المسلمين والعالم الإسلامي فقط ، بل على العالم أجمع .

ونخلص إلى القـول تأكيـداً لما قـررناه ، إن الله تبـارك وتعـالىٰ قـد زود الأنبيـاء بقوى معنـوية لا مـادية . حتى المعجـزات وإن كانت سـلاحاً خـطيـراً يمتلكه الأنبياء فـإن الحق سبحانـه لم يسمح لهم بـاستعمالهـا إلاَّ في الحالات القصــوى وعنـد الضــرورة لأن طلب المعجـزة من قبــل النـاس مسلســل لا ينتهي . فهو سبحانه لا يريد أن يكون إيمان الناس مرتبطاً بـالمعجزة ، فـطالما هنــاك معجـزة يؤمن النــاس وإذا زالت المعجــزة ضعف إيمــانهم . يقــول سبحــانـه : ﴿**إن نشـأ ننـزل عليهم من السمــاء آية فـظلت أعنــاقهم لهــا خـاضعين**﴾[2] إن الله تبارك وتعـالىٰ لا يريـد إيمانـاً مشدوداً بـالمعجزة فقط . ولا يريد سبحانه إيماناً مشروطاً بالمال والقـوة والرهبـة ، وإنما يـريد إيمـاناً في قلوب مشدودة إلى الله سبحانه وتعالىٰ الـذي يستحق العبادة وفي هـذه العبادة خير الإنسان وسعادته الحقيقية .

إن هذه المسألة التي تعتبر حقيقة من حقائق الله سبحـانه قـد تجلّت في حياة الأنبياء والـرسل وفي حيـاة أمير المؤمنين عليه السلام . ومن هنـا قولنـا في بدايـة

---

(١) سورة الزخرف ؛ الآية : ٥٤ .

(٢) سورة الشعراء ؛ الآية : ٤ .

البحث : إن حياة أمير المؤمنين تكاد تكون مطابقة لحياة الأنبياء تماماً . فهذا ابن الكوّاء رأس الخوارج في الكوفة يشتم عليّاً عليه السلام في أثناء صلاته والإمام يعلم ذلك وكان قادراً على قتله أو على سجنه على الأقل ، ولكنه لم يفعل . علماً أن السجن الذي كان يستخدمه الإمام هو كناية عن بناء من القصب والبَرديّ حيث كان السجناء يفلتون منه بسهولة ويسر ، في الوقت الذي كان على الإمام أن يعلن ما يسمى في وقتنا الحاضر «حالة الطوارىء» لأنه واجه ثلاث حروب كبرى : حرب الناكثين وعلى رأسهم أُم المؤمنين وطلحة والزبير ، وحرب القاسطين وعلى رأسهم معاوية وابن العاص ، وحرب المارقين وهم الخوارج .

وبالرغم من خطورة هذه الفتن جميعاً كانت الحريات مؤمنة . فبعد انتصاره في حرب الجمل وبالرغم من تزعم عائشة لهذه الحرب فقد كان يقول عليه السلام : والله لا أهدأ حتى أؤمن لها الحراسة . . أيكم يتولى حراسة زوجة رسول الله ؟ ثم يبعث معها عشرين امرأة كان قد عمّمهُنّ حتى قالت في أثناء الطريق : لقد فضحني علي بن أبي طالب . وإذا بها عند وصولها إلى المدينة تكتشف أن حراسها كانوا نساءً .

أما أهل البصرة فقد عفا عنهم قائلاً : «عفوت عن أهل البصرة كما عفا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أهل مكة» .

وقس على ذلك مواقفه يوم صفين ويوم النهروان .

وهذا شبث بن ربعي يصعد المنبر في الكوفة ويشتم عليّاً وهو موجود . ولكن الإمام عليه السلام لا يرد عليه وهو قادر على سحقه والبطش به لأنه يمتلك القدرة على ذلك فهو الحاكم الذي يبسط سلطانه على بقعة كبيرة من الأرض تشكل العالم الإسلامي في ذلك الوقت وله من الهيبة ما تجعل الكثيرين يتهيبون تكليمه ، فضرار يقول : «ما كنا نكلمه هيبة منه» ومع ذلك فهو يعظم أهل الدين ويقرب المساكين . إنه لم يرد على ابن الربعي وهو الإنسان العظيم ، العملاق ، يحيط به أبطال الإسلام كمالك الأشتر

وعمّار بن ياسر وغيرهما ، وما كل ذلك إلاّ لأنه يريد أن يقهر خصومه إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً ، لا بالقوة المادية التي تقوم على البطش والقهر ، بل بأخلاق الإسلام وتسامح الإسلام والموقف الإسلامي .

أجل ، إن حياة الإمام هي تماماً حياة الأنبياء ، حيث أراد الله لهم ألاّ يرغموا أحداً لا بالأموال ولا بالسلاح ، بل يتركون الناس أحراراً حتى يأتوا الله بحريتهم وقناعتهم وملء إرادتهم . وإذا كان الإمام قد استخدم القوة في وجه أخصامه ، فذلك لأنه كان في موقف الدفاع عن النفس فهو لم يبدأهم بقتال ، وإنما كان يدفع عن نفسه كيدهم وبغيهم .

قد يعترض معترض فيقول إن الله سبحانه قد بعث بعض الأنبياء وزودهم بالقوة ، كسليمان مثلاً ، فقد سخّر له ملكاً فريداً من نوعه . إذ سخّر له الجن والطير .

صحيح . . إن الله تبارك وتعالىٰ قد سخّر لسليمان كل ذلك ولكن لماذا ؟ حتى لا يقول قائل : لو كان الله يستطيع أن يعطي الأنبياء لأعطى واحداً منهم على الأقل . علماً أن سليمان عليه السلام لم يكن من أُولي العزم ورسالته لم تكن رسالة عالمية ، يُضاف إلى ذلك أن سليمان لم يستخدم ملكه لأغراض شخصية ، فقد كان يغزل وينسج ويأكل من تعب يمينه . وداود أيضاً كان كذلك ، فقد أوحي إليه : «أن يا داود ، نعم العبد أنت ، لولا أنك تأكل من بيت مال المسلمين» . فبكى أربعين يوماً ، فألان الله له الحديد ، فصار يصنع الدروع من الحديد ويأكل من كدّ يمينه . وسليمان نفسه لما مات لم يعرف من كان حوله بموته وما دلّهم على موته إلاّ دابة الأرض ، فقد مات وهو يتكىء على عصاه ، وبقي واقفاً إلى أن بعث الله القرضة وهي دويبة تقرض الخشب فأكلت العصا فانكسرت فوقع سليمان ، وعندها فقط علم الجن والإنس أن سليمان قد مات .

أما إذا تأملنا ملياً وراقبنا حياة أُولي العزم من الرسل لوجدنا أنها حياة تتسم بالطبيعية التي توافق طبيعة الإنسان والمسلك البشري العادي . وحتى

معجزاتهم فهم لا يستخدمونها إلاّ عند الضرورة .

وهكذا نجد أن الإمام علياً كان يعيش حياته كما عاش الأنبياء من أولي العزم حياتهم . وإذا كان هناك ما يميزه عن البشر العاديين فهو صلاحه وورعه وتقواه وتسامحه وحلمه وحكمته لا سلطانه أو بطشه أو قهره .

وفي هذا الطريق سلك سائر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام يميزهم عن الناس ما كان يميز عليّ بن أبي طالب عليه السلام. لذلك كانت الصفات التي تطلق عليه أو على الزهراء مميزة وغير معهودة عند سائر الناس ، فقد قرنت الزهراء بليلة القدر كما قرن بها الإمام علي أيضاً ، يقول صلى الله عليه وآله وسلم :«من عرف فاطمة الزهراء وعرف حقها فقد أدرك ليلة القدر وعلي كفء فاطمة» بمعنى آخر إن نفس الحكم ينطبق على عليّ . وما معنى هذه العبارة «أدرك ليلة القدر» ؟ .

إن الله تبارك وتعالىٰ قد أطلق على ليلة القدر هذه التسمية لأنها تُقَدَّرُ فيها كل مصالح الناس . ويُروى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «يا رب إن أعمار أمتي قصيرة» ستون أو سبعون ، فأعطاه الله ليلة القدر التي ترد مرّة واحدة في السنة في العشر الأواخر من شهر رمضان ، وهذه الليلة جعلها الله خيراً من ألف شهر . فلو قمنا بعملية حسابية لوجدنا أنها تزيد على ثلاث وثمانين سنة . وبالتالي إذا عاش إنسان ما ثلاثاً وستين سنة فإن عمره على هذا الأساس يكون حاصل ضرب ٦٣ × ٨٣ أي ٥٢٢٩ سنة إذن من عاش ثلاثاً وستين سنة وأدرك في كل سنة ليلة القدر لكان عمره هذا العدد الضخم من السنين أي حوالي خمسة آلاف ومائتين وتسع وعشرين . فأي عمر هذا ؟ إنه عمر أعمال الإنسان الصالحة وهو العمر الحقيقي للإنسان . بمعنى آخر إن عمر الإنسان الحقيقي لا يُقاس بالسنوات التي يعيشها فعلاً وإنما بالأعمال الصالحة التي يمارسها قربة إلى الله تعالىٰ . فتقول مثلاً : فلان عمره يوم واحد أو عشرة أيام أو عشرة أعوام . . . من الأعمال الصالحة .

وخلاصة القول في هذه المسألة : إن ليلة القدر هي ليلة بركة وخير

بحيث أن عمر الإنسان يمتد من خلالها ومن خلال أعماله فيها . وإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد قرن الزهراء بليلة القدر وقرن علياً بها ، فإن من يدخل عالم هؤلاء الناس فإن عمره سوف يكون طويلاً بمقدار ما يعيش متمسكاً بأذيالهم معترفاً بفضلهم ، وبالتالي فإن عمله الصالح سوف يمتد ويمتد حتى يبلغ أجره جنة عرضها السماوات والأرض . لأنه يكون قد أدرك حقيقة أهل البيت وأدرك لماذا أنزل الله سبحانه القرآن الكريم ولماذا ارتضى لنا الإسلام ديناً . وبالتالي يدرك الغاية الحقيقية في حياته فيصبح لديه هدف يعيشه ويسعى إليه . فما أتعس حياة لا غاية لها ولا هدف لأنها تتحول إلى أمر لا يُطاق وتؤدّي بصاحبها إلى أسوأ العواقب أقلها الانتحار أو اللجوء إلى الخمرة والمخدرات .

ولا يتحقق الهدف الحقيقي الكامن وراء هذا الانتحار أو اللجوء إلى الخمرة والمخدرات .

ولا يتحقق الهدف الحقيقي الكامن وراء هذه الحياة إلاَّ بدخول عالم عليّ وفاطمة فهناك في هذا البيت أُنزل القرآن ، وعلم القرآن أودعه الله تعالىٰ صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . يقول تعالىٰ : **﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾**(1) . وإذا كان علم القرآن قد أُودِع صدر رسول الله فهل ينتهي هذا العلم بموت الرسول فيدفن معه ؟ لا . . لا بد ممن يحمله وينقله . . ومن أجدر من صدر علي يحمل هذا العلم . . فينتقل هذا العلم الشريف بين صدور الأئمة عليهم السلام حتى يصل إلى صدر الإمام الحجة (عج) .

إن الإمام علياً عليه السلام قبيل رحيله أودِع المواثيق والعهود والأمانات ومقاليد الإمامة ، أودعها الإمام الحسن ثم الحسين ثم . . . ثم الإمام الحجة (عج) ومهما حزن الإنسان فإنه مما يخفف من حزنه علمه أن ثمة إماماً عظيماً حيّاً في الأرض . . سوف يظهر ويرفع راية الإسلام لترفرف عالياً فوق

(1) سورة الشعراء ؛ الآيتان : ١٩٣ و ١٩٤ .

كل بقاع الأرض فيعيد للإسلام بريقه وشروقه ، وساعتئذٍ يشعر هذا الانسان وكأن محمداً وعلياً والحسن والحسين وبقية الأئمة قد بعثوا أحياء من جديد ومن خلال المهدي المنتظر ﴿ليظهره على الدين كلّه﴾[1] ومن أجدر من أهل البيت بهذا العلم وباظهاره ؟ إنهم هم دون غيرهم من سائر الناس حملة القرآن وعلومه . ألم يقل الإمام علي عليه السلام «علمني رسول الله ألف باب من العلم» ؟ ومن هنا نفهم معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا من بعدي . . . ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» . إن أهل البيت ، عترة رسول الله وأهل بيته هم عِدْلُ القرآن وحملته . . فمن تمسك بالقرآن اهتدى ومن تمسك بهم اهتدى . . هكذا يقول ويقرر سيدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فبأبي وأمي ، أمير المؤمنين ، وهو يوصي ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان وشتان ما بين وصيته ووصية معاوية الذي جاء بولده الفاسق يزيد فنصبه خليفة على المسلمين وقد أجبر خطيباً يحمل السيف على صعود المنبر . قال الخطيب : كل من يرفض خلافة يزيد نضرب عنقه بالسيف . فقال له معاوية : أنت أخطب الخطباء .

أما الإمام علي فقد أوصى في هذه الليلة ولديه الحسن والحسين وعبرهما بث الوصية إلى العالم أجمع في كل زمان ومكان : «أوصيكم بتقوى الله» فهي أساس الدين وهي الوقود الذي يحركنا ويدفعنا نحو الأمثل والأفضل وشهر رمضان هو شهر هذه التقوى حيث يخاف الإنسان ربه في سريرته وفي أعماقه ، يتذكر الآخرة فيذكر عالم البرزخ والموت والقبر والحساب ، إذ مهما طال بنا العمر فإننا صائرون إلى الموت :

أنظر لمن ملك الدنيا بأجمعها   هل راح منها بغير القطن والكفن .

---

(١) سورة التوبة ؛ الآية : ٣٣ ، وسورة الفتح ؛ الآية : ٢٨ ، وسورة الصف ؛ الآية : ٩ .

والتقـوى التي يوصي بهـا أمير المؤمنين ليست مجـرد كلمات تتمتم بهـا شفاهنا بـل هي حالـة من الإيمان تعمـر القلب وتنعكس على الجوارح مسلكـاً قويماً يعمل بأوامر الله ونواهيه .

في هـذه الليلة ، ليلة الحـادي والعشـرين ، تنـزل الأرواح والمـلائكـة فتصـافح كـل مؤمن ومؤمنة وإن كنـا لا نراهم فهم يـروننا . هـذه القـوافـل من الملائكة تدخل بيوت المؤمنين وعلى رأسهم جبرائيـل عليه السلام . . كل البيـوت إلاّ التي فيها خمرة وغناء . فقـد سئل الإمـام عليّ : تجـوز الصـلاة بثـوب شـرب صاحبه الخمرة وهو يـرتديـه ؟ فقال : لا تجـوز الصلاة في مثـل هذا الثـوب . إنها مكروهة . لأن هذا الثوب يترك أثـراً سيئاً على روحيـة الإنسان ، أي على الجانب الروحي فيه .

وإذا كـان الإسلام يؤكـد ويركـز على الجانب الـروحي في الإنسان فـإنه في نفس الـوقت يلتفت إلى الجـانب المـادي ، فيهتم بصحة الإنسـان . ففي صفين طلب الإمـام ماءً فجـاءه ابن عباس بـإناء من المـاء ولكن الإناء لم يكن نظيفاً كما ينبغي ، فرفضه الإمام علي وطلب إناء غيره يكون نظيفاً .

وفي تلك اللحـظة ، يقـول ابن عبـاس نـظرت إلى عليّ فـرأيتـه يقلّب طـرفـه في السمـاء . قلت : سيـدي أتبحث عن شيء ؟ قـال يـا ابن عبـاس أبحث عن الـزوال (أي عن وقت الـظهـر فقـد حـان وقت الصـلاة) . قلت : سيـدي . . تصلّي الآن بين الصفـوف والحـرب قـائمـة ؟ قـال : إذن عـلام نقـاتلهم ؟ يقول ابن عبـاس : لقد أكـد الإمـام في مـوقف واحـد على ثـلاثـة مبادىء : الصحة والجهاد والصلاة .

أجـل . . إن الإسلام من خـلال الإمـام علي يـراعي الجـانبين المـادي والروحي في حياة الإنسـان . ولكن الإنسان اليـوم ابتعد كـل البعد عن جـانب الـروح واسترسـل في حيـاة مـاديـة رخيصـة مستهتـرة في كـل مكـان . . في جـامعاتنـا ومعاهـدنا . . في مجتمعـاتنا . . فـلا أخـلاق تـراعى ولا إيمـان ولا تربية . . المادة تكاد تلتهمنا وتسيطر على كـل خلجة من خلجـاتنا وحـركة من

حركاتنا عبر حياتنا . . في مدارسنا نحصّل كل أنواع الدروس ما خلا العلوم الدينية التي تعتبر غذاء الروح والنفس . إننا نلهث خلف حضارة مادية تتمثل في كثير من الأدوات التي نستخدمها أبرزها التلفزيون حيث البرامج الغربية التي تفسد أخلاق أبنائنا وبناتنا . . كل ذلك يحدث باسم الحضارة والمدنية والتقدم . . إن هذه الحضارة تفترس الإنسان فينا وتحيلنا إلى وحوش آدمية أنيقة يأكل بعضنا البعض الآخر . والمحزن في الأمر أننا نقف مكتوفي الأيدي لا نحرك ساكناً ولا نبدي حركة كأننا أموات ، تبلدت مشاعرنا وتحجرت أحاسيسنا . . فبئس الحياة هذه وبئست الحضارة التي تبعدنا عن ديننا وتبعدنا عن علي بن أبي طالب وتضع الحواجز بيننا وبين إسلامنا الذي لا خلاص لنا إلاَّ به وبالعودة إلى ديننا وإلى فطرتنا الإسلامية التي فطرنا الله عليها .

إنها حضارة مادية بحتة جعلت قلوبنا خاوية من تلك الصور الرائعة لأهل البيت . . . صورة عليّ في بيته ، مع الزهراء التي كانت تدير الرحى وتطحن الشعير حتى مجلت يداها . . . هذه الأسرة التي صامت ثلاثة أيام متواصلة لا يفطر أفرادها إلاَّ على الماء فقط ويطعمون طعامهم للمسكين يوماً ولليتيم يوماً وللأسير يوماً . ومع ذلك فهم يخافون من ربهم يوماً عبوساً قمطريراً .

إن الإمام علياً يحرك فينا أرواحنا ونفوسنا في هذه الليلة عبر وصيته الرائعة :

«أوصيكما بتقوى الله ، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما» لأنها دنيا مادية لا قيمة لها تبعدنا عن الله .

«ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما» أي على شيء ضاع منكما «لكي لا تأسوا على ما فاتكم ، وقولا بالحق واعملا للأجر وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً» .

إن هذه الوصية تركت أثراً بعيداً في أجيال فقد صنعت أبطالاً يقفون

مواقف رائعة لا خوف فيها ولا وجل ، يقفون أمام الطغاة والجلادين .

ومن هؤلاء الجلادين الطغاة ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، طاغية العراق وصنيعة بني أُمية الذي كان يشعر بضيق إذا لم يَلِغْ بدماء الناس . وكان إذا شعر بمثل هذا الضيق كان يأخذه أحد جلساء السوء إلى السجن فيمر على السجناء فيسمع أنينهم فيقول : الآن ارتحت .

هذا الطاغية وقفت في وجهه حفيدة حليمة السعدية التي تلقت تربيتها في بيت علي بن أبي طالب . فقد ألقي عليها القبض وجيء بها إلى الحجاج فوقفت أمامه من غير خوف ولا وجل . قال : بلغني أنك تقولين إن علي بن أبي طالب أفضل من صحابة رسول الله . قالت : أنا لم أقل ذلك . فارتاح الحجاج وظن أنها قد تراجعت عن موقفها . قال : أنت لم تقولي مثل هذا القول ؟ قالت : أنا لم أقل إن علياً أفضل من صحابة الرسول وإنما قلت وأقول : إن علي بن أبي طالب أفضل من الأنبياء أُولي العزم باستثناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فتعجب الحجاج وردّد : أفضل من أُولي العزم ؟ قالت : نعم . وأنا أوضح لك ذلك بالبرهان :

أولاً : إن علي ابن أبي طالب هو أخو الرسول ووصيه ، وهو نفس النبي كما نص على ذلك القرآن الكريم ، والنبي أفضل الأنبياء وبالتالي فإن هذا الحكم ينطبق على أمير المؤمنين .

ثانياً : النبي إبراهيم الخليل عليه السلام يقول : **﴿ربِّ أرني كيف تحيي الموتى﴾**(1) فهو وإن كان يسأل عن كيفية إحياء الموتى وعن حقيقة القدرة الإلٓهية مع ذلك فهو يسأل وكأنه يريد أن يطمئن إلى ذلك . أما علي بن أبي طالب فيقول : «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً» .

وبالنسبة لسليمان عليه السلام يقول : **﴿ربِّ آغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من**

---

(1) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٦٠ .

بعدي﴾(١) . أما علي بن أبي طالب فقد كان يركل الذهب والفضة بقدمه ويقول : «ياصفراء ويا بيضاء غري غيري» . وفي حياته ومسلكه كان أشبه ما يكون بحياة أولي العزم من الأنبياء وسيرته كانت سيرتهم . من أجل كل ذلك ، أنا أفضله على بقية الأنبياء لأنه أخو النبي وزوج الزهراء وأبو السبطين وحجة الله في أرضه .

بهذا المنطق وبهذه الحجة والجرأة وقفت هذه المرأة البطلة تواجه واحداً من أعتى العتاة والطغاة . فهي وأمثالها ومثيلاتها ساروا على نهج الأئمة واختزنوا فضائل عليّ وفضل عليّ . بينما كان غيرهم من ضعاف النفوس وسِقْط الناس يتخاذلون أمام هؤلاء الطغاة ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر» .

واحد من هؤلاء الجبناء الذين دُيِّثوا بالصَّغار يدخل على الحجاج لكي ينال لديه حظوة فيقول له : أيها الأمير إن أهلي عَقُّوني . قال : كيف ؟ قال : سمّوني عليّاً . فقال الحجاج : إنها لمكرمة . . إنها لمكرمة . . .

وجيء إلى الحجاج بشاب يرتجف فرقاً وضعفاً . قال : ويلك ما بك ؟ قال : أهلي سمّوني حسيناً ، وقد ألقت الشرطة القبض عليّ ، وأنا خائف منك أن تقتلني . . . فقال الحجاج : بالرغم من خوفك فأنا قاتلك . .

ولنعد الآن إلى اللحظات الأخيرة في حياة هذا الإمام الخالد ، ولنرهف السمع جيداً إلى هذه الوصية الرائعة تنطلق من شفتيه الشريفتين وهي ترسم للأجيال واضح الحق فتهديهم إلى واضح الطريق . يقول :

«الله . . الله في الأيتام ، فلا تُغِبُّوا(٢) أفواههم ، ولا يضيعوا بحضرتكم» إنه عليه السلام وفي هذه اللحظات الصعبة لا ينسى اليتامى فيوصي

---

(١) سورة ص ؛ الآية : ٣٥ .

(٢) لا تغبوا أفواههم أي لا تجيعوهم بأن تطعموهم غبّاً أي على سرعة وعجلة .

بتفقدهم .

يُروى عن الإمام الحسن أنه قال : بعد أن رجعنا من دفن أبي مررنا بخربة فسمعنا أنيناً . . دخلت فرأيت شيخاً طاعناً في السن يفحص برجليه الأرض . قلت : ما بك يا شيخ ؟ هل أنت من أهل هذا المصر . . أي الكوفة ؟ قال : لا يا عبد الله . . بل أنا رجل غريب قدمت الكوفة منذ مدة ، وكان ثمة رجل يتعهدني فيأتيني كل يوم ، عليه سيماء الأنبياء والصالحين ، فيجلس عند رأسي ويتعهد ملابسي فينظفها ، ويمرضني ويعالجني ، يسقيني ويطعمني ثم يضاحكني فيملأ عليّ هذا المكان غبطة ثم ينصرف . وقد مضت ثلاثة أيام وهو منقطع عني ولا أعرف من خبره شيئاً ، فلعله قد نسيني . فاستعبر الإمام الحسن . قال الرجل : يا عبد الله تبكي ؟ قال : بالله عليك أعرفته ؟ قال : لا والله ، فهو لم يعرفني اسمه . . لكنه لا شك أنه من الصالحين . قال الحسن : يا شيخ ، هذا إمامك ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . وإنما انقطع عن زيارتك هذه المدة لأنه ضُرب على رأسه بالسيف منذ ثلاثة أيام فهو لم ينسَكَ . قال الرجل : ومن أنت ؟ قال : أنا ولده الحسن فراح الرجل يحثو التراب على رأسه . وقال : أين هو الآن ؟ قال : عظّم الله لك الأجر ، فقد رجعنا الآن من دفنه .

ما أروعك يا سيدي وما أعظمك . . فقد كنت رائعاً في حياتك وعظيماً في مماتك . . وإننا لذاكروك ما هلّت علينا ليلة القدر التي قضيت فيها . . وإننا لمنادوك ما نزل بنا ضيفاً شهر رمضان الذي منعوك من إتمامه وقيامه . . وليس من باب الصدفة أن شاء لك ربك الأعلىٰ أن تقضي في هذا الشهر الكريم وفي هذه الليلة الكريمة التي جعلها الله تعالىٰ خيراً من ألف شهر .

ويتابع أمير المؤمنين وصيته الخالدة : «الله . . الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ، ما زال يوصي بهم حتى ظنّنا أنه سيورثهم ، والله . . الله . .

في القـرآن ، لا يسبقكم بالعمـل به غيـركم . والله . . الله في الصـلاة فـإنهـا عمـود دينكم» . ثم يلتفت إليهم ويتأملهم جميعـاً ويقول متـابعاً : «لا ألفينكم يـا آل عبد المـطلب تخوضـون دماء المسلمين خـوضاً ، تقـولون قُتـل ابن أبي طـالب ، ألا لا يقتلن بي إلاَّ قاتلي . وإذا أنـا متُّ فاضـربوه ضـربة بضـربـة ، ولا يُمثّـل بالـرجل فـإني سمعت رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقـول : إيـاكم والمُثْلة ولـو بالكلب العقور» .

ما زلنا في ليلة الـواحد والعشـرين من شهر رمضـان . وفي صبيحة هـذا اليوم أُذن للناس بـالسلام عليـه . فدخـل عليه أصحـابه ومحبـوه كالأصبـغ بن نباتة وحجـر بن عديّ وغيـرهما ، وكـان معصّباً بعصـابة صفـراء لا يُفرّق بينهـا وبين وجـهـه في اللون ، فيقول لهم : «سلوني قبـل أن تفقـدوني . . وخففـوا سؤالكم لمصيبـة إمامكم» فضجّ الناس بـالبكاء كـاليوم الـذي مات فيـه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . وبنـات أمير المؤمنين طلبن لـه جرّاحاً طبيباً، وقـد سمح الإمـام بذلك حتى يخفف عن قلوب بنـاته ولا سيمـا عن قلب الحوراء زينب عليها السلام . جاء الطبيب وكشف عليه فاحصـاً ثم قال لـه : يا علي اعهـد عهدك . . فهـذه الضربة لا قومة بعدها أبـداً . قال الـطبيب ذلك وبنـات الإمام يسمعن فجـرت الـدمـوع وعـلا النحيب وتتقـدم منـه الحـوراء فتقف عنـد رأسـه وتقـول : من لليتـامى بعـدك ؟ من للصغيـر حتى يكبـر ؟ . . ومن للكبيـر بين المـلأ ؟ . . الجميـع يبكون . . الحسن والحسين والبنـات والأصحاب والمخبـون . . وقد كان الحسين يكثر من قول: «إنا لله وإنا إليه راجعـون» يروي الأصبـغ بن نباتـة فيقــول : ليلة الحـادي والعشــرين من شهـر رمضــان دخلت على عليّ عليه السلام فقلت له : سيدي حدثني . قال : يـا أصبغ ، إعلم أني قـد دخلت يومـاً على رسـول الله كما دخلت عليَّ أنت السـاعة ، فقلت لـه : حدثني يـا رسـول الله وكان ذلك في مرضه الذي مات فيـه . فقال لي : اخـرج إلى الناس ونـادِ بهـم الصّـلاة جامعـة . فإذا حضـروا فاصعـد المنبر وكن دوني في مـرقـاة واحـدة . واخـطب في النـاس وقـل لهم : يقـول رسـول الله «ألا لعنـة الله على من عقَّ

أبويه ، ألا لعنة الله على من ابتعد عن مواليه ، ألا لعنة الله على من استأجر أجيراً فبخسه حقه». يقول: خرجت فألقيت على الناس ما أمرني به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . فقام رجل وقال : يا عليّ أوجزت الكلام ولم تشرح . قلت : أَذْهَبُ إلى رسول الله ثم أرجع .

يقول الإمام عليه السلام: فرجعت إلى رسول الله وأخبرته بما قالوا . فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : يا علي ارجع وقل لهم : يقول رسول الله «إني وعليّ أبوا هذه الأمة فلعنة الله على من عقّنا . إني وعليّ مولياً هذه الأمة ، فلعنة الله على من أَبِقَ(1) عنا وهرب منا . إني وعليّ أجيراً هذه الأمة ، فلعنة الله على من بخسنا حقنا» .

يقول الأصبغ : لما رأيت حالة سيدي ومولاي أجهشت بالبكاء . فقال لي : يا أصبغ لا تبك . . إنها الجنة . قلت : والله يا سيدي أدري أنك تصير إلى الجنة ولكن أبكي لفراقك .

وفي تلك الأثناء علا الصراخ وضج الناس بالبكاء ، وهم هائمون على وجوههم . . إنهم يكادون أن يفقدوا إماماً عظيماً ورجلاً لا كالرجال . ودخل الحسن والعباس على أبيهما ، وأبو الفضل العباس له مكانة خاصة بين إخوته وأخواته . وإذ سمعت الحوراء الصراخ يعلو نادت أخاها أبا الفضل فأقبل عليها : أخيّة زينب ما عندكِ ؟ قالت أخي إني أسمع صراخاً وبكاءً . . ما الذي حدث ؟ قال : جيء بالجرّاح عُمير ، وقد أشار على أبينا أن يكتب وصيته وعهده . فقالت الحوراء : يا أبا الفضل استئذن لي أخي الحسن فإني أريد أن أدخل على أبي وألقي عليه نظرة تبل القلب وتخفف الوجع .

في هذه اللحظات الأخيرة كان الإمام ينقّل بصره بين أفراد عائلته ويتأمل أولاده وبناته ، ثم التفت إلى ولده الحسن واعطاه مواريث الإمامة وجعله خليفة من بعده وقال : بني حسن إذا متُّ فأنت الخليفة والإمام ،

---

(1) أبق : هرب .

وأخـوك الحسين من بعـدك ثم علي بن الحسين ثم . . ثم . . حتى وصــل إلى الإمام الحجة (عج) .

يقـول محمد بن الحنفيـة : بتنا ليلة الحـادي والعشرين لـدى أبينـا وقـد احمرت رجلاه من السُّمّ ، واشتـد عليه الـوجع فـآيسنا منـه ، وهو يفقـد وعيه ويروح في غيبوبة فترة بعد فترة كمـا حدث لـرسول الله . . استفـاق عليه السلام هنيهة والتفت إلى الحـوراء فأشـار إليهـا أن اقتـربي . وهمس قـائـلاً : بنيـة زينب ، أحدثك بما سوف يُجـرى عليك يـوم عاشـوراء . قالت : أبي ، إن حـديث أُم أيمن بت أعـرفـه ، فقـال : الحـديث كمـا سمعتـه من أُم أيمن فكـأني بـكِ وبنـاتي ونساء أهـل بيتك في هـذا المصر يـدار بكنّ من مكـان إلى مكـان ، سبايا ، فصبراً صبـراً . . إن الله معكم وناصركم وخاذل أعداءكم .

فـألقت الحوراء بنفسهـا على أبيها والعبـرة تخنقها . التفت إلى الحسن وقـال له : نـادِ أخاك أبـا الفضل العبـاس . جاء أبـو الفضـل وأقبـل على أبيـه فـأجلسه أميـر المؤمنين إلى جانبـه وقبله بين عينيه وقـال لـه : « يـا ولـدي . . أوصيك خيراً بأخيك الحسين يوم عاشوراء . . عندما يجتمع عليـه الظلمـة . . فـانصره وكن إلى جـانبه ولا تبخـل عليه» . فقـال له أبـو الفضل : «لأنعمنـك عيناً يا أبي» .

لقد كان الموقف رهيباً يفتت الأكباد ويدمي النفوس ، تمامـاً كما حـدث من ذي قبـل يوم مـات رسـول الله . وبعـد ذلـك عـرق جبينـه وسكن أنينـه . فسـألـه الحسن : أبي أراك قـد عـرق جبينــك . قـال : نعم يــا ولـدي . إن المؤمن إذا نـزل به المـوت عرق جبينـه . بنيَّ حسن : إذا أنـا قضيت فغسّلني وحنـطني ببقية حنـوط أخي وابن عمي رسول الله وكفّني وصـلّ عليّ وادفني ، ولا تقتربوا من مقـدم السريـر فإن جبـرائيل وميكـائيل سيحمـلانه ، فـإذا حُمل مقـدم السريـر عليكم بمؤخره ، وسيـروا حيث يذهب المقـدم وهنـاك تجـدون قبراً محفوراً . .

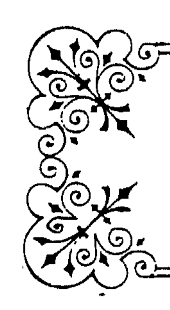
ثم قـال لـه : الله . . الله في أخـوتـك أبـا محمـد . . الله الله بـاختـك

الحوراء . ثم قال : استودعكم الله السميع العليم ولمثل هذا فليعمل العاملون . وبعد أن سكت لحظات إذا به يقول : وعليكم السلام يا ملائكة ربي . . . ثم عاد ينظر إلى بناته وأولاده وقال : الله خليفتي عليكم .

إن الله مع الذين أحسنوا والذين هم متقون .

إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

إنا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .




الليلة الثانية والعشرون
عليّ عنوان الحق والعلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض . إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعلِ الله له نوراً فما له من نور﴾[1] .

إن أروع ما في القرآن الكريم ، وكل ما فيه رائع وعظيم ، إنه يتناول قضايا دقيقة ، كثيراً ما يعجز فكر الإنسان عن إدراكها ومعرفة مراميها . ثم إنه يتناولها بذلك الأسلوب المعجز الذي يدهش العقل ويحرك الذوق والنفس في آن معاً .

وفي هاتين الآيتين نستشفّ صورتين للناس جميعاً . الصورة الأُولىٰ ترسم لنا ملامح أولئك الكفرة الذين بدت أعمالهم كالسراب الذي يلمع في الصحراء فيظنه الظمآن ماءً فيركض لاهثاً وعندما يصل إليه لا يجد شيئاً . ولكنه يجد الله هناك فيوفيه حسابه ، وما حسابه ؟ .

---

(١) سورة النور ؛ الآيتان : ٣٩ و ٤٠ .

أو بدت أعمالهم كظلمات في أعماق بحر مظلم فوقه موج متراكم وفوق الموج سحاب ، ظلام يتكدس فوق ظلام فلا تكاد ترى شيئاً .

والصورة الثانية هي صورة النور التي نلمحها في ذيل الآية الثانية .

إن الصورة الأُولىٰ ترسم لنا أعمال الذين كفروا إذ لا أثر في أعمالهم لأي بصيص من نور ، بل هي ظلمات متراكمة يراكم بعضها البعض الآخر .

وخلاصة القول : إن الإنسان الكافر يرد يوم القيامة على الحق وهو يظن أن له أجراً على أعماله فيجد الله له بالمرصاد إذ لا يجد شيئاً سوى ناراً حامية تكون مصيره ومأواه خالداً فيها . أما النور الذي حرم منه فقد خصصه الله للذين آمنوا وعملوا صالحاً في الحياة الدنيا فنورهم يسعى بين أيديهم .

الانسان وإرادة التغيير :

خلق الله الإنسان ووهبه كثيراً من الصفات التي تميزه من سائر المخلوقات ومن بين هذه الصفات والمزايا قدرته على التغيير . فالإنسان هو الكائن الوحيد بين سائر الكائنات القادر على التغيير . فهو قادر على تغيير ما في نفسه ، وتغيير المجتمع . قد يرتفع ويسمو إلى أعلى عليين وقد يسقط ويهوي إلى أسفل السافلين . إنها ميزة من أشرف المزايا خصه بها الله تعالىٰ دون المخلوقات جميعاً . فالحيوانات مثلاً تسيّرها غرائزها ، والشمس لا تملك تغييراً لمسارها والقمر مرهون بخط سيره ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**﴾[1] . . وهكذا سائر الكائنات ، ما خلا الإنسان .

خصائص الشعائر :

وإذا ما حاولنا أن نبحث في شعائر الله التي فرض الله علينا القيام بها

---

(١) سورة يس ؛ الآية : ٤٠ .

وأوجب علينا ممارستها لأنها تقوي فينا الإيمان ﴿**ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**﴾[1] ، إذا دققنا في هذه الشعائر نجد أن لكل شعيرة خاصة تميزها عن سائر الشعائر . فميزة الصلاة مثلاً هي أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر فهي تقف حائلاً بيننا وبين الفحشاء والمنكر ، والزكاة تطهر نفس الإنسان وتزكيها ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾[2] فهي تطهرنا من الأدران والأمراض القلبية والنفسية إذ تدخل أعماقنا وتنير زوايا نفوسنا وتشيع فيها كل دوافع الخير . وشعيرة الحج تعطينا درساً في السعي والحركة والاعتماد على النفس وبعد ذلك التوكل على الله .

خاصة الصيام :

أما الصيام فهو ينفرد بخاصة هي أنه يهب الإنسان «القدرة على التغيير» التي سبقت الإشارة إليها على انفراد الإنسان بها دون سائر المخلوقات . فالصيام يجعلنا نمتلك هذه القدرة التغييرية . هذا لا يعني أن الصيام لا يشترك مع الشعائر الأخرى بصفات مشتركة ، فهو كالصلاة أيضاً ينهى عن الفحشاء والمنكر وكل العبادات الأخرى قد تؤدّي إلى هذه النتيجة . ولكن الصيام ينفرد بهذه الميزة لأنه يعمق فينا جانب الإرادة والتقوى .

إن الصيام يخلق فينا قدرة رائعة تمكننا من السيطرة على غرائزنا وشهواتنا فيصبح زمام النفس بأيدينا ، نحن الذين نسيطر على هذه النفس الأمارة بالسوء لا هي التي تقودنا . وإذا كان الصيام يكثف ويعمق هذه القدرة فينا ، وبالتالي يعطينا القدرة على تغيير أنفسنا ، فقد استحق شهر رمضان أن نسميه «شهر التغيير» لأنه ليس كغيره من الشهور . «لا يكن شهر صومكم كشهر إفطاركم» .

ولعل هذا ما يفسر نزول القرآن الكريم في هذا الشهر المبارك . فإذا

(١) سورة الحج ؛ الآية : ٣٢ .
(٢) سورة التوبة ؛ الآية : ١٠٣ .

كان شهر رمضان هو شهر التغيير فإن القرآن الكريم قد أنزله الله تبارك وتعالىٰ في هذا الشهر ليكون أداة للتغيير في حياة الناس وانقلاباً في مسيرتهم وسلوكهم وتفكيرهم وعباداتهم ، وقد خص الله تعالىٰ هذا الشهر بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر . وعندما يصل الإنسان في صيامه إلى هذه الليلة الكائنة في العشر الأواخر من شهر رمضان يكون الإنسان قد قطع شوطاً بعيداً في عملية التغيير هذه فهو يكاد يقتلع من نفسه كل نوازع الشر . أما إذا كان الصائم في صيامه مجرد ممتنع عن الطعام والشراب دون أن ينتصر على نفسه وشهواتها وغرائزها فليس له من الصوم إلاّ شكله فقط . وبالتالي يصح عليه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «كم من صائم ليس له من صومه إلاّ الجوع والعطش» . وبالتالي ما زالت نفسه مخزناً لكل أنواع الشرور والرذائل من كذب ونفاق ونهش لأعراض الناس وامتناع عن أداء حقوق الناس وبعد عن الله . وإذا كان الإنسان مكلفاً بتجنب هذه الرذائل في حياته فهو في هذا الشهر أكثر تكليفاً لأن الله سبحانه وتعالىٰ قد جعل هذا الشهر مناسبة لكي يخلع الإنسان كل خطاياه من خلال هذا الشهر فيخرج منه صفحة بيضاء كما خرج من بطن أمه . لذلك إذا أساء استخدام هذه الفرصة ولم يحسن انتهازها واقتناصها يكون قد رفض عرضاً مقدماً من رب العالمين وجعل من نفسه مبارزاً للحق سبحانه وساعتئذٍ يكون قد استحق غضبه سبحانه ونزلت به اللعنة وسوء العذاب .

يقول الله تعالىٰ في كتابه الكريم :

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1] . وهذا التغيير رهن بإرادة الإنسان . فكم هي كثيرة نقاط الضعف فينا ، والأمر بأيدينا والخيار عائد لنا . والله سبحانه لن يغير فينا شيئاً إذا كنا قد وطنّا العزم على رفض هذا التغيير وصمّمنا على أن نبقى ضعفاء تسيطر علينا غرائزنا وشهواتنا ونكون بالتالي غير جديرين برحمة الله ومغفرته .

---

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ١١ .

وبهذه المناسبة ، لا يظنّن أحد أن هذا الواقع قد كَتَبَ علينا أن نتردّى فيه . وكثيراً ما نسمع أحدهم يقول : «كُتب عليَّ ألا أُصلّي وألا أصوم ، ولو كان الله يريد لي ذلك لصلّيت وصمت» . وقد نسي هذا الرجل أو تناسى قوله تعالىٰ : **﴿إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً﴾**[1] وبالتالي **﴿وأن ليس للإنسان إلاَّ ما سعىٰ﴾**[2] .

وإذا كان هذا المنطق صحيحاً ، إذن لماذا أرسل الله الأنبياء والرسل ؟ ولماذا أنزل القرآن بكل ما فيه من أوامر ونواهٍ ؟ وإذا كان قد كُتب علينا مثل هذا الواقع فلماذا الثواب والعقاب ؟ ومن أجل من أعدت جنة عرضها السماوات والأرض ؟ ولمن أُضرمت نار جهنم تنتظر نزلاءها وسكانها الخالدين فيها ؟ .

إن الله سبحانه وتعالىٰ قد خلق الإنسان ليكون عرضة للإمتحان والاختبار وزوده بعقل قادر على التمييز بين الخير والشر ووهبه القدرة على الاختيار بينهما ، فيه القدرة على الانطلاق مع الحق ولديه أيضاً الميل إلى الباطل وهو الذي سوف يختار سبيله فهو يمتلك حرية الخيار والاختيار وبناء على اختياره إما أن يصير إلى جنة وإما أن يصير إلى نار . وكل ما سوف يحدث لهذا الإنسان إنما نقع عليه تبعته ومسؤوليته .

إرادة التغيير واختيار الحق :

إن الله سبحانه قد وهبنا القدرة على التغيير لكي نختار الحق في سلوكنا ونقف إلى جانبه ونلتزمه ونحاول أن نكون ممن يعملون على نشره . والعمل بموجبه . فالحق يحتاج هذه الإرادة وهذه القدرة ، وإذا كان الإنسان لا يحسن استخدام هذه القدرة فإن الباطل سوف يحيط به **﴿موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض﴾** .

---

(١) سورة الإنسان ؛ الآية : ٣ .

(٢) سورة النجم ؛ الآية : ٣٩ .

إن الله تبـارك وتعـالىٰ قـد بنى هـذا الكـون كله على الحق وقـامت السمـاوات والأرض عليه وفي الجـانب الآخر يقف الهـوى وتتـربص الغـريـزة والشهوة : ﴿ولو اتبع الحقّ أهواءهم لفسدت السمٰوات والأرض﴾(١) .

والحق هـو وضـع الشيء في مـوضعـه ، والحق هــو ألا تكـون هنـاك معصيـة ، ومن أجدر من الإمام المعصـوم أن يكـون مـع الحق ، فهـو وحـده الـذي لا يقع في معصيـة رب العـالمين فقـد عصمـه الله تعـالىٰ ، في محكم كتابه الكريم . مع أن هذا الإمام المعصوم عرضـة للتجربـة فهو بشـر من لحم ودم ولكنه لا يسقط في التجربة بل يجتاز الامتحان والابتلاء بنجاح .

إن الحق يحتاج مثل هذا الإمام المعصوم لينعكس عليه وتظهر أنواره . كالنور تماماً فهو لا ينعكس إلاَّ من خلال المـادة . إن النور الـذي نشاهـده هو في الـواقع منعكس على ذرات الهـواء . النور مـوجود في الكـون دائمـاً ولكن لا نـراه ليلاً إلاَّ من خـلال القمر الـذي يعكس نـور الشمس ولـولا القمـر لمـا أحسسنا بوجود هذا النور ولما رأينا له أثراً .

وإذا كـان النور كمـا رأينا لا ينعكس إلاَّ من خـلال المـادة أو من خـلال الأجسـام فالحق أيضـاً من هذا القبيـل ، لا ينعكس إلاَّ من خـلال الـرجـال . يجب أن يجـد إنسـانـاً يتجسـد فيـه وهـذا الإنسـان سـاعـتئذٍ يمثـل الحق ، وبـالتالي ينفـرد عن سائـر الناس بـأنـه مـع الحق . يقـول الإمـام علي بن أبي طالب : «ابحثوا عن الرجال في الحق» .

إن هذا الرجل هو علي بن أبي طـالب ، هو الميـزان وهو المقيـاس لأنه يمثـل الحق ، وسـاعـتئذٍ ننـظر ونـرى هـل النـاس سـائـرون على منهـج أميـر المؤمنين أم لا ؟ فمن عاش بعيداً عنـه وبالتالي بعيداً عن الحق فهـو في ظلام دامس لأن الباطل هو الظلام نفسه . أما الحق فيتبعـه عدالـة وحريـة واستقامـة ونـور وسعادة . والإنسـان مخير بين الحق والبـاطـل فمن اختـار الحق اهتـدى

---

(١) سورة المؤمنون ؛ الآية : ٧١ .

بنوره ومن اختار الباطل غرق في ظلامه . وهل هناك عاقل يختار الباطل ويفضله على النور ؟ إن أي إنسان يمتلك عقلاً لا بد له أن يختار النور لأنه يحتاجه .

وقد ورد نقلاً عن أهل البيت أن الصلاة تخلق نوراً في أعماق الإنسان والصدقة التي نتصدق بها تترك أثراً منيراً في نفوسنا . وبهذه المناسبة لا بأس من أن أشير إلى مقالة قرأتها في مجلة «المختار» من «ريدرز دايجست» . فقد جاء في هذا المقال أنه قد ثبت علمياً أن المصلّي عندما يقف للصلاة فإن بدنه يطلق نيوتونات نورانية . أي أن بدنه تشع منه كتلة من النور في أثناء الصلاة . وكلما كانت صلاته أعمق كانت موجات النور أقوى . وأنا لم انتظر مجلة «المختار» حتى تؤكد هذه الحقيقة ، لأن الله سبحانه وتعالىٰ كثيراً ما يشير في قرآنه الكريم إلى مثل هذه الأنوار التي تحيط بالمؤمنين فهم في الجنة نورهم يسعى بين أيديهم . إن هذا النور موجود وإن كنا لا نراه ، ولكن المؤمنين يعيشونه ويحسونه بعميق إيمانهم وخشوعهم :

﴿**ألا بذكر الله تَطمئن القلوب**﴾[١] .

إن مثل هذه الحقائق كثيراً ما يشير إليها أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم ، فقد رُوي عنهم أنه إذا أحسست بقسوة في قلبك ، والقسوة سببها الباطل ، فَقَرِّبْ منك يتيماً وامسح بيدك على رأسه فإنك سوف تشعر برقة في قلبك . ونحن نسأل ما سرّ هذه الرقة أو ما سرّ هذه الحالة النفسية ؟ إنه نور يغمر قلب الإنسان ويبدد ظلام الباطل . لذلك فإن الكافر ، مهما كثرت أمواله ومهما بلغت مكانته في الحياة ، لا قيمة له عند الله ولا وزن ، لأنه لم ينطلق في أعماله من الحق ولم يرد بها الحق وإنما انطلق من الباطل .

إن أمير المؤمنين عليه السلام هو الحق وقد جعله الله ميزان الأعمال يوم

---

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

القيامة ﴿والوزن يومئذٍ الحق﴾[1]، فمن ثقلت موازينه نجا ومن خفت موازينه في النار تردّى .

صور من حياة الامام علي عليه السلام:

كان الإمام عليّ عليه السلام إذا فرغ من صلاة الصبح يجلس إلى الناس يقضي حوائجهم ويدير أمور الرعية ويدبر السياسة ويبعث الرسائل . . الخ .

وبينما كان جالساً والناس مجتمعون من حوله إذ أقبل عليه رجل . قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . نظر إليه الإمام وتأمّله مليّاً ثم قال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . مَن الرجل ؟ فقد عرف بفراسته أنه غريب . قال : سيدي أنا رجل من رعيتك ومن أهل بلادك . قال : لا ، لست من رعيتي ولا من أهل بلادي . انتسب ، من أنت ؟ قال الرجل : سيدي . . الأمان . قال : لعلك أحدثت حدثاً منذ أن دخلت الكوفة ؟ قال :لا . قال : فلعلك من رجال الحرب (حرب صفين) ؟ قال : نعم . قال الإمام : إذا وضعت الحرب أوزارها فلا بأس . ثم قال له : ما عندك ؟ قال : سيدي يا أمير المؤمنين : إن ابن الأصفر (أي ملك الروم) بعث بأسئلة إلى معاوية وقال له : يا معاوية إن كنت أنت خليفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فابعث بالأجوبة حالاً ، لأن من كان خليفة النبي فهو لا يتلكأ بها . لذلك أرسلني معاوية إليك لكي أعود بالأجوبة فيرسلها إلى ملك الروم على أنها أجوبته . فقال الإمام عليه السلام: قاتل الله ابن هند ، والله لقد أعتق جارية وما أحسن أن يتزوجها ثم انحى باللائمة على الأُمة . ثم قال عليه السلام: قطعوا رحمي وأضاعوا أيامي وحالوا بيني وبين حقي ، وما حفظوا حق رسول الله في ذريته وعترته ، والرجل واقف .

التفت الإمام عليّ إلى من حوله وقال : عليّ بالحسن والحسين ومحمد بن الحنفية . فلما حضروا عليهم السلام التفت إلى ذاك الشامي وقال له : يا

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٨ .

شامي هـذان الحسن والحسين ابنا رسـول الله ، وهـذا محمـد ابني ، فَسَلْ أيهم شئت ؟ وواضـح أن الإمـام عليه السلام قـد نسب الحسن والحسين إلى رسـول الله أمام هذا الشامي لأنهم في الشام قطعوهما عن نسب رسول الله .

فقال الرجل : أسأل ذا الـوفرة (والـوفرة الشعـر المنسدل على الكتفين ، والإمـام الحسن عليه السلام كان شعـره طويـلاً) . تقدم الحسن وقـال : سـل مـا بـدا لك . قال الشامي : الأسئلة هي على التوالي :

١ ـ كم بين الحق والباطل ؟ .

٢ ـ كم بين السماء والأرض ؟ .

٣ ـ كم بين المشرق والمغرب ؟ .

٤ ـ ما هو قوس قزح ؟ .

٥ ـ ما هي العين التي تصير إليها أرواح المشركين ؟ .

٦ ـ ما هي العين التي تصير إليها أرواح المؤمنين ؟ .

٧ ـ ما هي عشرة أشياء بعضها أشدّ من بعض ؟ .

وعندما انتهى الشامي من طرح أسئلته قال له الإمـام الـحسـن عليه السلام :

ـ بين الحق والباطل أربعة أصابع ، وهي المسافة بين الأذن والعين ، فكل ما رأته عينك فهو حق ، وربما سمعت باطلاً كثيراً بأذنك .

ـ وبين السمـاء والأرض دعوة مـظلوم (والله لـو بحثت ونقّبت في بـطون الكتب وعقـول المفكـرين عن جـواب لهـذه المســافـة بين الأرض والسمــاء بـدءاً بـأرسـطو وصـولاً إلى اينشتين ومـروراً بـأفـلاطـون وبـطليمـوس ونيـوتن لمـا حصلت على أدق من هـذا الجواب ، علمـاً أن الإمـام يـريـد أن يؤكـد على هـذه الحقيقة التي تعتبـر أن دعوة المـظلوم تخترق كـل الحجب فتصـل إلى العرش حيث يهتزّ لها الرّحمٰن) .

ـ وبين المشرق والمغرب مسيرة يوم للشمس تراها بعينك حين تطلع من مشرقها وحين تغرب في مغربها (إن الإمام عليه السلام لم يقل : مسيرة يوم للشمس فقط لأن الشمس لها مشارق ومغارب فهي تشرق في كل لحظة على منطقة وتغرب كل لحظة عن منطقة ، ففي كل لحظة مشرق ومغرب . فشرطه أن تراها بنفسك) .

ـ ثم قال له : لا تقل : قوس قزح فقزح من أسماء الشيطان . إنما هو قوس الرحمة والنعمة . (إن هذا القوس الذي نراه هو دليل على النعمة وأمان لأهل الأرض من الغرق فقد ثبت علمياً أن المنطقة التي يظهر فيها هذا القوس تكون آمنة ومأمونة من أمواج البحر) .

ـ أما العين التي تذهب إليها أرواح المشركين فهي «عين برعوت» .

ـ والعين التي تذهب إليها أرواح المؤمنين هي «عين سلمى» في أعلى عليين في عالم البرزخ .

ـ أما عشرة الأشياء وبعضها أشدّ من بعض فهي :

الحجر ، وأشد منه الحديد لأنه يقطعه ، والنار أشد من الحديد لأنها تذيبه ، والماء أشد من النار لأنه يطفئها ، والسحاب أشد من الماء لأنه يحمله ، والريح أشد من السحاب لأنها تسوقه ، والمَلَك أشد من السحاب لأنه يدفعه وملك الموت أشد من المَلَك لأنه يميته ، والموت أشد من مَلَك الموت لأنه يميته وأمر الله تعالىٰ أشد من الموت لأنه يميته .

بعد أن دوّن الشامي أجوبة الإمام الحسن ، استأذن الإمام عليّاً وانطلق إلى الشام لينقلها إلى معاوية الذي كان ينتظره بفارغ الصبر . وبعد أن سأله معاوية عن الأجوبة بادره بسؤال آخر : هل عرفك عليّ ؟ قال الشامي : بالطبع ومنذ الوهلة الأولىٰ . فقال معاوية : وهل عاملك معاملة سيئة ؟ قال : لا . وبعد ذلك طلب معاوية من رسله أن يحملوا الإجابات إلى ملك الروم . وعندما تلقى ملك الروم تلك الأجوبة قال : والله ما هو قول معاوية بن أبي سفيان . هذا علم ، ومصدره نور .

ونحن نستدرك فنقول : من أين يأتي النور معاوية ؟ أمن أبيه أبي سفيان ؟ أم من أمه هند ، آكلة الأكباد ؟ .

وسرعان ما وصلت من ملك الروم رسالة جوابية إلى معاوية : يا معاوية ويلك . . . هذا العلم ليس منك ولا أنت أهله . . والله إنه لمن معدن الرسالة وموضع النبوة . . إنه من علي بن أبي طالب عليه السلام .

إن هذه الرواية تستوقفنا لنلاحظ عدة أمور تتجلى في تسامح عليّ الذي يقف أمامه رجل من أعدائه فلا يصيبه بأذى ، ويطرح عليه اسئلة فيجيبه عليها وهو يعلم أن معاوية سوف ينتحلها لنفسه ، هذا فضلاً عن مضمون الأسئلة والإجابة عليها ، فلا تظن أن حاكماً أو مسؤولاً قديماً أو حديثاً يمكن أن يكون رد فعله شبيهاً بموقف الإمام علي عليه السلام. إنه الرجل الأنموذج الذي أراده الإسلام .

صورة أخرى من مواقف الامام علي :

يروى أن رجلاً من الكوفة التحق بمعاوية بن أبي سفيان في الشام . وقد ترك زوجة تدعى النوار . طالت إقامته في الشام ، وفي هذه الأثناء شاع في الكوفة أنه قد قتل ، وبلغ هذا الخبر زوجته . فاعتدَّت[1] المرأة وذهبت إلى شريح القاضي وأعلمته بمقتل زوجها وبأنها قد أكملت عُدّتها وهي تريد الزواج . وبعد أن تثبت القاضي من صحة أقوالها عقد زواجها على رجل من الكوفة .

وزوجها الأول الذي كان خبر مقتله لا صحة له علم بالأمر ، فطار صوابه وأسرع بالمجيء إلى الكوفة وسأل عن زوجته . فقيل له إنها قد تزوجت من العاص بن وائل العمري . استوضح عن بيت العاص هذا ثم جاء فطرق الباب يريد أن يسترجع زوجته ، ولكنها رفضت قائلة له : كيف أعود معك وأنا على ذمة رجل آخر تزوجته بعد أن بلغني خبر موتك ؟ ثم

(١) أي أكملت عُدّتها المفروضة عليها .

طرده زوجها العاص متوعداً إياه إن عاد مرّة أُخرى إلى هذا البيت . خرج الرجل هائماً على وجهه لا يدري ماذا يفعل . وأخيراً قرر الذهاب إلى عليّ ابن أبي طالب علّه يجد حلاً لمعضلته . علماً أنه خائف من أن يقبض عليه لأنه من رجال معاوية .

وفي اليوم التالي دخل على عليّ وهو في مجلسه يحيط به أصحابه يتلقى مشاكل الرعية ويدير شؤون الأمة ، قال الإمام : إيه يا عبد الله ما وراءك . قال : سيدي أنا ظالم نفسي إذا التحقت بمعاوية . ولكنني أنا الآن بين يديك لتجد حلاً لمشكلتي . قال : وما مشكلتك ؟ فأخبره بقصته وزواج زوجته .

نظر إليه الإمام وسأله : يا عبد الله أتدري ما صنعت يوم صفين ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . ولكني أريد أن أسألك . قال : سَلْ . قال : أنا معترف بكل ذنوبي وإنني كنت إلى جانب معاوية ، ولكن أيمنعني ذلك من عدلك ؟ فها أنا تائب إلى الله وأنت بابه . فقال الإمام : إن تبت ، تاب الله عليك .

ثم أرسل الإمام بطلب المرأة وزوجها العاص فطلقها منه وقد كانت حاملاً . ثم أشار عليها بأن تلزم بيتها من غير رجل حتى تضع طفلها الذي يلحق بالزوج الثاني لأنه «ابن شبهة» وبعد ذلك تستبرىء وتعود إلى زوجها الأول .

وقد أوردنا هذه الرواية لا لحكمها الفقهي بل لنؤكد على القيادة والإمامة والعدل والصفح وسعة الصدر لدى عليّ بن أبي طالب . إن إمامته لم تكن بالسوط والسيف ، وإنما كانت بهذه الصفات التي جعلته في كل قلبٍ وفي كل وجدان . يقول الله تبارك وتعالىٰ في محكم كتابه الكريم : ﴿**فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم**﴾[1] .

---

(١) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٣٧ .

الخـلاصـة :

وخلاصة القول أيها الأخـوة : إن الله زوّدنا بـالقدرة على التغييـر وهو لا يغيـر ما بقـوم حتى يغيروا مـا بأنفسهم ، والبـاطل كله ظـلام . والنـور والأمن والأمان لا نجدها إلاّ عند أهـل البيت ، عند الإمـام عليّ فقد جعـل الله الحق واستودعه رسـول الله ومن بعده عليّ بن أبي طـالب ومن بعده الأئمـة ، إماماً بعـد إمام . وقـد ورد في الأخبار المتـواترة أن الإمـام المعصـوم عنـدمـا يولـد يتفجـر النـور في البيـوت وفي الـوجـود . ولهـذا نقـول في زيـارة أهـل البيت عليهم السلام : «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة» .

إن النور الذي نتحـدث عنه أيهـا الأخوة المؤمنـون هو الصفـاء والصدق والإخـلاص . إنه نـور الإيمان الـذي ينيـر البصـائـر والقلوب ويجلب التـوفيق لـلإنسان مهمـا كان عنـوانه . فـالطبيب والعـالم لا قيمة لأي عمـل يقومـان به بدون هذا النـور الإيماني . ومن أجـل ذلك كـان الشرط في الحـاكم الشرعي الصدق والطهارة حتى يوفق في استنباط الحكم الشرعي .

فتعـالوا أيهـا الأحبة نحـاسب أنفسنا في هـذه الليلة المباركـة من ليـالي شهر رمضان ، فنبادر إلى إطعام الجائعين ودفع الزكاة وتـأدية الحقـوق ندفعهـا لأصحـابها . ومن لا يصـلِّ منكم فليبادر إليهـا وليصم هذا الشهـر الفضيـل . لنـأتِ الله بقلب مفتوح ولنتب إليـه توبـة نصوحـاً فهـو يقبـل التـوبـة من عبـاده ويغفر لهم ذنوبهم إنه هو التواب الغفور .

تعالوا أيها المؤمنون ، نؤدِّ الحقـوق ، إن لنفسك عليـك حقّاً ولـزوجتك عليـك حقّاً ولأولادك وجيـرانك ومجتمعـك عليك حقّـاً . يجب أن نؤدّي هـذه الحقـوق حتى نكون على طـريق أمير المؤمنين عليه السلام وحتى تكـون أعمالنـا هذه نوراً نحمله معنا إلى القبر فينير ظلمتـه ويبدد وحشتـه . فنحن نحتاج مثـل هذا النـور في القبر وهنـاك في عالم البـرزخ كما نحتـاجه في عـرصات القيـامـة . ﴿نـورهم يسعى بين أيـديهم﴾[1] في حين أن المنـافقين والكـافـرين يفتقـرون

(١) سورة التحريم ؛ الآية : ٨ .

إلى مثل هذا النور . ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم . قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً**﴾[1] وهذا النور يمكن أن نلتمسه بالدعاء والتوجه إلى الله سبحانه وتعالىٰ وهو فقط ما يتبقى لنا .

إن هذا النور يمكن أن نتلمسه أيضاً عندما نتوجه إلى أهل البيت ، أرواحنا لهم الفدىٰ ، وهذه الليلة الرمضانية هي ليلة زيارة أمير المؤمنين إنها زيارة «الوحشة» ، نتوجه إليه عليه السلام ونقول :

«السلام عليك يا أمير المؤمنين وعلى ضجيعيك آدم ونوح وعلى جاريك هود وصالح . السلام عليك يا أمين الله في أرضه ، وحجته على عباده» وعندها نشعر بأصابع النور تتغلغل في حنايا نفوسنا وزوايا قلوبنا وبراحة عميقة تبدد كل وجعنا وهمومنا .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم طبيباً دوّاراً بطبّه ، وهذا الطب انتقل إلى علي بن أبي طالب ، إنه طب الأرواح والنفوس لا طب الأجساد الفانية . فالقلب إذا انحرف عن جادة الحق لا علاج له إلاَّ بذكر الله ، والعقل إذا ضلَّ فعلاجه العلم ، والروح إذا أصابها السقم فعلاجها الدين . وشهر رمضان أيها الناس هو مرفأ الأمان وشاطىء السلامة فلنبادر إلى أن ننهل منه ما طاب لنا من بركاته فنقوّم الأخلاق ونحاسب النفس قبل أن تهرب منا الفرصة السانحة وقبل أن يدركنا الموت ولات ساعة مندم . إن الندم لن ينفع بعد فوات الفرصة ، فكم من إنسان أصبح في أحشاء القبر يتمنى أن تعود به الأيام القهقرى ، ويحضر مثل هذه المجالس ليتزوّد منها إيماناً وصفاء ونوراً . . ولكن هيهات لهم ذلك ، فهم والله في قبورهم يتحسرون على جلسة واحدة من هذه المجالس .

يروى أن عيسى عليه السلام مرّ على قبر أُمه مريم ، ففي الخبر الصحيح أنها

---

(١) سورة الحديد ؛ الآية : ١٣ .

ماتت قبل أن يرفعه الله إلى السماء ، فقال لها : يا أماه ، هل تودين العودة إلى الدنيا ؟ قالت : بلى . قال : لماذا ؟ قالت : لأصلّي في الليل وأصوم في النهار .

وهنا يحضرني قول الإمام عليّ «ولا تستوحشوا الطريق الحق لقلة سالكيه فإن الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل» فما أقصر الحياة وما أجدرنا أن ننتهز الفرصة السانحة ، لأن الموت سوف يدهمنا قبل أن نتزود لآخرتنا ، فلنتذكّر الموت دائماً لكي نحضّر أنفسنا للقائه وقد أنجزنا ما علينا من واجبات .

ذهبت منذ مدة لزيارة مريض في المستشفى . فسألته : يا فلان أطال الله عمرك ، هل أنجزت ما عليك من حقوق وواجبات ؟ هل أديت الحقوق ، إذ ثمة فقراء ومحتاجون ، وثمة ملايين من المسلمين بشرق الأرض وغربها ، هل أديت الحقوق فهناك من لا يجد حتى سحوره في شهر رمضان ؟ هل أديت الحقوق فهناك من يبحث عن الطعام لأولاده بين ركام القمامة ؟ هل عملت حساب ما عليك من خمس وزكاة وصدقة ؟ قال : والله الحساب في الصندوق ، ولكنني لا أملك القدرة على البذل إلَّا مرغماً . لقد مات هذا الرجل تاركاً أمواله التي لا تعد ولا تحصى ، وأولاداً أربعة اقتسموا الأموال وراحوا يبذرونها يميناً وشمالاً غير عابئين بحلال أو حرام . هم يبذرون المال وأبوهم مسؤول يوم الحساب العسير أمام الله تعالىٰ الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة ، فزنوا أنفسكم أيها الناس من قبل أن توزنوا ، وأدوا الحقوق قبل أن تصير في أيدٍ لا ترحم . . . أدوها الآن وفي مواضعها وخففوا عن كواهلكم عبء يوم عظيم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلَّا من أتى الله بقلب خاشع سليم .

والآن عودة بنا إلى أمير المؤمنين لنرى كيف كان يحفظ أموال المسلمين . فقد كان في يوم الخميس يوزع الذهب والفضة على الناس وإذا به يرى عقداً من اللؤلؤ على صدر ابنته خديجة . فيسألها : من أين ؟ .

قالت : أخذته من عبد الله بن أبي رافع أتزين به يوم العيد . فغضب الإمام وقال : يا ابن أبي رافع لو لم تكن عارية مردودة أي مسترجعة ، لقطعت يدها . . . ثم قال : بنيّة ، هل كل الفتيات يتزينّ بما تتزينين به ؟ قالت : لا . فأخذ العقد وأعاده إلى مكانه في بيت مال المسلمين . وهذا المال في بيت المال ، ماذا كان يصنع به الإمام عليّ ؟ .

تعالوا نرافقه في جولاته لنرى مواضع صرف هذا المال .

في أثناء تجواله في أزقة الكوفة وبرفقته قنبر ، يسمع بكاءً مرّاً . فيسأل : ما هذا البكاء ؟ ويأتي الجواب : أطفال يتامى يكاد يقتلهم الجوع فيجيء لهم بالطعام وتمر به امرأة تحمل على ظهرها قربة من الماء ، ويعلم أنها أُم لثمانية أطفال يتامى فيأتي لهم بالطعام والثياب ، ويمرّ على امرأة أوقدت النار تحت قدر فيها ماء تلهي به أولادها عن الجوع وتوهمهم أن في القدر طعاماً ، فيأتي باللحم والزيت والأرز ويرميها في القدر ثم يروح يطعم الأولاد بنفسه . . . وتتوالىٰ الصور الرائعة أمامنا كالشريط ، إنها تتلخص جميعها في صورة واحدة ، هي صورة الحاكم المسؤول عن رعيته ، يتفقد شؤونهم ويغيث ملهوفهم ويطعم جائعهم ويبلسم جراحهم ويخفف عنهم آلامهم .

يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «من كان له صبيّ فليتصابَ معه» أي لاعبه وداعبه كأنك طفل ، كي تدخل السرور إلى فؤاده . وذاك ما كان يفعله أمير المؤمنين . إذ يروي قنبر فيقول :

رأيت سيدي يلاعب أطفالاً وهم يتضاحكون ويمرحون ثم ودّعهم وانصرف. قلت: سيدي ما رأيت منك مثل اليوم ، تحبو على يديك وتلاعب الأطفال . قال : يا قنبر . . هؤلاء يتامى ، دخلت عليهم وهم يبكون ، وهم لا يحتاجون إلى الطعام فقط بل يحتاجون إلى أبيهم لكي يدخل السرور إلى نفوسهم فأحببت أن أتركهم وهم يضحكون يا قنبر . .

أيها الأخوة : إن من أصعب الساعات وأحرجها عندما يعود أهل الفقيد

إلى البيت بعد دفنه «ليلة الوحشة» ، إذ يشعرون عندها أن البيت أصبح خاوياً من راعيه فيعم الحزن ويسود البكاء والأنين .. النفوس حزينة والأسىٰ يدمي القلوب ، الأولاد يبكون والبنات تجري دموعهن بحرقة وألم فها هنا كان معنا البارحة ، وهنا كان يجلس ، وهناك كان يصلّي ... وهكذا تتوالى الذكريات موجعة ..

وفي مثل هذه الليلة رجع الحسن والحسين بعد دفن أبيهما ... طُرق الباب ففتحت الحوراء ليقع بصرها على إخوتها الحسن والحسين ومحمد والعباس فانفجرت بالبكاء المرّ تذرف الدموع عاد أخوتها ولكنّ أباها ليس معهم .. إنه لم يعد موجوداً .. وهي لا تكاد تصدق .. وامتلأ البيت بالبكاء والنحيب ... إنها ليلة الثاني والعشرين من شهر رمضان ، فما كان أقساها من ليلة وما كان أمرّها على قلوب أبناء عليّ وبناته وسائر أهل بيته .

يقول الحسن عليه السلام «في هذه الليلة ، ليلة الوحشة كان أكثرنا بكاءً أختي الحوراء زينب . يقول : كلما حاولت أن أهدئها كانت تزداد نحيباً» . فالإمام علي كان يقسم لياليه وأيامه في شهر رمضان بين الحسن والحسين والحوراء . وهذه الليلة كانت نوبة زينب . وكانت قد هيأت الطعام . يقول الحسن : أحضرت رغيف الخبز (من الشعير) وملحاً جريشاً وهي تقول : أبي يا أمير المؤمنين .. هذا إفطارك يا نور العين ... الليلة نوبتي .. فأين أنت ؟ وإلى أين ذهبت ... ؟ .

بأبي وأُمي الحوراء زينب ، لقد أصبح الوداع عادة من عاداتها .. فقد شاء لها الله أن تودع الأحبة واحداً بعد الآخر . ودعت منذ مدة بعيدة جدها رسول الله ثم ودعت أُمها الزهراء وها هي اليوم تودع أباها علي بن أبي طالب وفي الغد القريب سوف تودع أخاها الحسن ثم أخاها الحسين . وقد كانت كلما ودعت واحداً منهم تقبل يده ، إلاّ الحسين .. فأين قبلته ؟ .

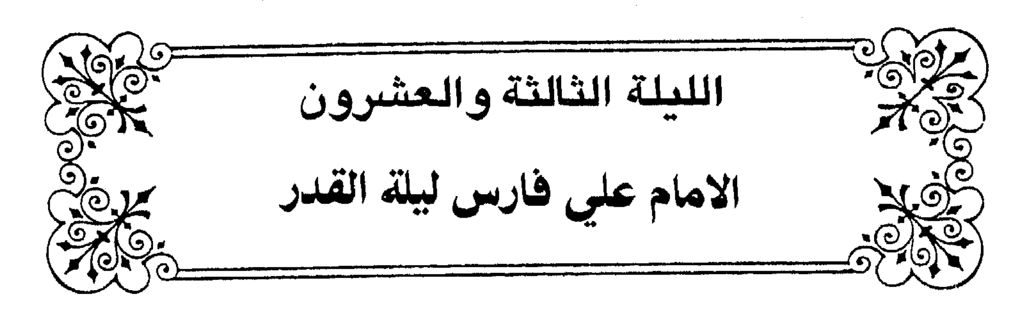
في يوم عاشوراء اعتلى الحسين حصانه ويمم وَجهه نحو القوم فتشبثت به الحوراء وقالت : أخي يا أبا عبد الله انزل عن حصانك ، فنزل .

مـاذا تريـدين يا أخيّـة ؟ قالت : أدنُ مني . فلمـا دنا منهـا قـالت : اكشف لي عن صـدرك ، فكشف الحسين عن صـدره ، فقبلتــه في صـدره وشمتّــه في نحره ثم اتجهت نحو المدينة وقالت : أماه يـا فاطمـة لقد استـرجعت الوديعـة وأُخـذت الأمانـة . فسألهـا الحسين عن ذلك فـأجابتـه : أخبرتني أُمنا فاطمـة قبيـل وفاتهـا : بنيّـة زينب ، سـوف تـرين أخـاك الحسين وحيـداً فـريـداً يـوم عاشوراء فقبليه في صدره وشميّه في نحره . فهذه رسالة من أُمك الزهراء .

وما كاد الحسين يبتعد عنها حتى سمع صوتاً من خلفه يناديه : أبي . . يـا حسين . . قف لي يا نـور العين . نظر إلى الـوراء وإذا هي ابنته سكينـة. سألها : ما عندك ؟ قالت : أبي أريدك أن تنـزل من على ظهر الجـواد وتمسح بيدك على رأسي :

سيـطول بُعـدي يـا سكينـة فـاعلمي   منـكِ البكـاء إذا الحِمـام دهـاني

إنـا لله وإنّـا إليـه راجعـون ولا حـول ولا قـوّة إلاّ بـالله العلي العـظيم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الليلة الثالثة والعشرون

الامام علي فارس ليلة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إنَّ المتَّقينَ في جنَّاتٍ وعُيونٍ . آخِذينَ ما آتاهُمْ ربُّهُمْ إنَّهم كانوا قبلَ ذلكَ مُحْسِنينَ . كانوا قليلاً مِنَ اللَّيلِ ما يَهْجَعونَ . وبالأسْحارِ هم يستغفرون . وفي أموالِهِمْ حقٌّ للسائلِ والمحرومِ . وفي الأرض آياتٌ للموقِنينَ . وفي أنْفُسِكم أفلا تُبصِرونَ﴾[1] .

في هذه الليلة المباركة ، انطلق في رحلة مع الله ، تحرّر من الأرض ولُزوجتها ، ومن نذالة الإنسان البعيد عن الله سبحانه وتعالىٰ . انطلق مع القرآن ومع الرسول وأهل البيت عليهم السلام . . . .

في هذه الآيات يتحدّث القرآن عن الإنسان المتّقي الطيّب الذي يرتفع فوق الملائكة ، ويتحدّث عن الإنسان الشرّير الدنيء الذي ينافس الشيطان بدناءته ! . . ﴿كمَثَلِ الشيطانِ إذْ قالَ للإنسانِ اكفُرْ فلما كَفَر قال إنّي بريءٌ منكَ إنّي أخافُ اللَّهَ ربَّ العالمينَ﴾[2] .

فالخير والشرُّ موجودان في الإنسان . فإذا عاش الإنسان حياة ترف ،

---

(١) سورة الذاريات ؛ الآيات : ١٥ ـ ٢١ .

(٢) سورة الحشر ؛ الآية : ١٦ .

وأطغته المادة ، وانقطع عن الله ، استولى عليه الشيطان ، وعشعش في صدره وأنساه ذكر الله العظيم . . أما الإنسان المؤمن فإنه يربح نفسه ويربح الدنيا والآخرة .

وهذا شهر رمضان ، شهر الربح . فلذلك علينا أن نحرص على الربح في هذا الشهر المبارك ، وخصوصاً في هذه الليلة العظيمة . . يقول أمير المؤمنين : «ألا وإنَّ الشقيّ من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم» .

صحيح أن الله سبحانه وتعالىٰ قد أخفى ليلة القدر ، ولكن الأخبار عن رسول الله تؤكّد على هذه الليلة ، ليلة الثالث والعشرين من رمضان . . . جاءه أعرابيٌّ اسمه الجهين ، قال : يا رسول الله ، أهلي في البادية وفي مكان ناءٍ عن المدينة ولا أدري أية ليلة يمكن أقوم بها وتكون ليلة القدر ؟ . . . قال : «عليك بليلة الثالث والعشرين» . .

وفي الأخبار أيضاً أن ليلة التاسع والعشرين يكون فيها توزيع وتقدير الأُمور ، وليلة الحادي والعشرين إبرامها ، وليلة الثالث والعشرين إمضاؤها . . .

حريّة الانسان في الاختيار بين الخير والشرّ :

إذا ألقينا نظرة على الإنسان والكون والقرآن وجدنا تناسقاً عجيباً بين هذه العناصر الثلاثة ، لأن الخالق واحد ؛ فهو الذي خلق الكون ، وأنزل القرآن وخلق الإنسان .

والخالق سبحانه وتعالىٰ يعلم بما يصلح لهذا الإنسان ؛ ولذلك نرى أن القرآن يتحدّث عن حرية الإنسان وكرامة الإنسان . هذا الإنسان الذي سجدت له الملائكة ، وعلّم الملائكة ، وكرّمه الله . . إنه الإنسان المتّقي الطاهر الطيّب الذي دعاؤه مستجاب .

والقرآن الكريم عندما يشير إلى حرّية الإنسان واختياره فإنما يرشده في نفس الوقت إلى وجود مرجع أعلى يراقبه وإلى محكمة تحاسبه : ﴿أَلَمْ

نجعَلْ له عينين ولساناً وشفتينِ وهديناه النَّجدينِ﴾[1] . فالذي أعطاك البصر والسَّمْع إنما يبصرك ويسمعك ويعرف ما أنت عليه . . . وكذلك عندما يقول القرآن الكريم : **﴿لا أُقسمُ بيومِ القيامةِ ولا أُقسِمُ بالنَّفسِ اللوَّامةِ﴾**[2] فإذا كنت تشعر في قرارة نفسك بقوَّة تحاسبك ، وبمحكمة داخلية ، فمعنى ذلك أنك سوف تنتقل إلى عالم آخر فيه محكمة عليا تحاكمك وتحاسبك . . . فهذا الكتاب ينطق بالحق ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها . .

ولما كان الإنسان حراً فهو مهيّاً للخير والشرّ . . . **﴿ونَفْسٍ وما سَوَّاها فألْهَمَها فُجُورَها وتقواها . قد أفلح من زكّاها وقد خابَ من دسَّاها﴾**[3] . ومعنى ذلك أن الإنسان يمكن أن يسقط في التطبيق والممارسة أحياناً . ولكن الله قد أعطاه العقل والسمع والبصر ، وأوضح له «النجدين» أي طريق الخير وطريق الشر ، وما عليه إلاَّ أن يختار . . .

التوبة باب الرحمة :

وإذا كان الله قد جعل الإنسان بتركيبة خاصة مميّزة ، فهو ليس ملاكاً حتى لا يخطيء ، ولا هو حيوان حتى تسيّره غرائزه ، بل هو تركيبة معرّضة للخطأ والصواب . . . إذا كان الأمر كذلك فما العمل حين يسقط الإنسان في الخطأ والخطيئة ؟ هل ينتهي أمره وينحدر إلى جهنّم دون رجعة ؟ . . . كلا ! إن رحمة الله واسعة، ولذلك فتح الله له باب التوبة . لأن الذي لا يخطىء هو المعصوم وحده . فإلى جانب الحساب والعقاب فتح لنا الله باب التوبة والاستغفار . . الرسول الكريم يعلّمنا ويقول لنا أنه يستغفر الله في اليوم والليلة خمسمائة مرّة من دون ذنب اقترفه ! . . لماذا ؟ لأن لنا في رسول الله أسوةٌ حسنة . . .

هذا هو القانون الإلهي الذي يتميز بالرّحمة الواسعة ، حيث لا يمكن

---

(١) سورة البلد ؛ الآيات : ٨ ـ ١٠ .
(٢) سورة القيامة ؛ الآيتان : ١ ـ ٢ .
(٣) سورة الشمس ؛ الآيات : ٧ ـ ١٠ .

لإنسان في قلبه ذرة خير أن يقنط من رحمة الله . أما القانون الوضعي فإنه قانون قاسٍ وأعمى ، ! ليس فيه بابٌ للتوبة والاستغفار . . .

فمثلاً في القوانين الشرعية أنك إذا اعترفت أمام الحاكم الشرعيّ بجريمة ما ، فإنه لا يأخذ بكلامك في المرّة الأُولىٰ . وفي المرّة الثانية يفسح أمامك في المجال للعودة عن اعترافك . وفي المرّة الثالثة يعطيك مجالاً لأن تذهب وتستغفر ربك ، طالما لم تقم عليك بيّنة . وفي المرة الرابعة تقوم عليك الحجة . . . وحتى عندما تقوم عليك الحجة ، ولا تكون هناك بيّنة ، فإن الحاكم الشرعيّ مخيَّر بين أن يُقيم عليك الحدّ أو أن يعفو عنك .

وهل أعظم من جريمة ابن ملجم المرادي ؟ ! . . . مع ذلك فإن أمير المؤمنين يقول : «اللَّهَ اللَّهَ في أسيركم ! أطعموه مما تأكلون ، واسقوه مما تشربون . . . وإذا أنا متُّ فاضربوه ضربةً بضربة ، ولا تمثّلوا بالرجل . . . وإذا أنا حييت فأمره إليَّ» أي يمكن أن يعفو عنه . .

والرسول الأعظم ألم يعفُ عن أبي سفيان ومعاوية ؟ ألم يَعْفُ عن هند آكلة الأكباد ؟ .

إذن لاحظ كيف يكون القانون عندما يكون صادراً عن ربِّ العالمين . . . إنَّ فيه خط الرجعة والعودة إلى الله .

وهذا رجل يعترف بجريمة الزنا ، وتقوم الأدلّة عليه ، فيدخل في حفرة ليقام عليه الحدّ . . . فإذا تمكن هذا الرجل أن يهرب من الحفرة وينجو بنفسه فليس لأحد أن يمسكه أو يلحق به . يعني إذا تبرّع أحد الواقفين وأمسك به فإن الحاكم الشرعيّ يعزّره ويضربه ، ويقول له : من قال لك أن تُمسكه ؟ !! .

إن أبواب التوبة في القانون الإلٰهي مفتوحة مباشرة بينك وبين ربّك وبدون أية واسطة . . . ما عليك إلاّ أن تصلّي ركعتين وتتجه إلى الله وتتوب

توبة صادقة فيغفر الله لك .

إن الله يغفر الذنوب جميعاً . . . فقط الشرك ليس له مغفرة . . وهذا يعني أن الإنسان إذا مات مشركاً بالله ليس لذنبه هذا غفران . أما إذا تاب في حياته فإن ذنبه هذا يسقط عنه . فالله يقول في كتابه العزيز : ﴿**يا عِبادِيَ الذينَ أسرفوا على أنْفُسِهم لا تقنطوا من رحمةِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً**﴾(١) .

أبواب الغفران دائماً مفتوحة ، خاصة في شهر رمضان ، وبوجه أخصّ في هذه الليلة .

إن الله سبحانه وتعالىٰ يخاطب داوود : «يا داوود إني لأستحي من عبدي يمدُّ يديه إليَّ فأردّ يديه خاليتين وخائبتين» .

ويقول سبحانه : «يا ابن عمران ! كذب من زعم أنه يحبني ، فإذا جنَّ عليه الليلُ نام عنّي ! أليس كل محبّ يحب خلوة حبيبه ؟ !» .

إنَّ ركعتين من صلاة الليل يصلّيهما المؤمن هما أفضل من الدنيا وما فيها . . فهذه الدنيا ليس فيها إلَّا ما هو حقير وفانٍ . هل يوجد فيها غير آبار البترول والنفط والغاز والعقارات والبنوك ؟ ! ولذلك حطَّ الله من قيمتها . . . «ومن هوان الدنيا على الله أنه لا يُعصى إلَّا فيها» .

ولكن الإنسان في بعض الأحيان يطغى ، وينفر إذا سمع ذكر الله : ﴿**وإذا ذُكِرَ اللّهُ وحدَه اشمأزَّت قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾(٢) وهذه من العلامات الخطرة الموجودة في الناس ، في حين أن المؤمن يستبشر بذكر الله ويطمئن قلبه : ﴿**ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب**﴾(٣) .

وفي هذه الليلة علينا أن نتوجه إلى الله بقلوب مؤمنة مطمئنة ، فنخرج

---

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٥٣ .
(٢) سورة الزمر ؛ الآية : ٤٥ .
(٣) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

منهـا وليس علينا ذنب واحـد . . . . من قال سبـع مرّات «يـا أرحم الرّاحمين» قـال الله له : «عبـدي لبيك» . يقـول الله : «عبدي لبيـك . . سَـلْ حـاجتـك تُقضى» ثم يلتفت إلى الملائكة ويقـول : «يا مـلائكتي ، انظروا إلى عبـدي : النـاس نيام في جـوف الليل وهـو يناديني ويـناجيني . . اعلموا أني قـد غفرتُ له ذنوبه وأدخلته الجنّة» .

وفي الأرض آياتٌ للموقنين وفي أنفسكم :

إن الآيــات القـرآنيــة تعبّـر عن نـظام بــديــع منسجم يحكم الكــون والإنسان . فالآية التي تقرأهـا من القرآن تحسُّهـا في فطرتـك وفي أعماقـك ، وتـراها كـذلك في الكـون من حـولـك : **﴿وفي الأرض آيـاتٌ للمـوقنين وفي أنفسكم أفلا تُبصرون﴾**[1] .

وهؤلاء الموقنون المؤمنون بآيـات ربِّهم يتلقّون عـطاياه وهـداياه بنفـوس مستبشـرة فـرحـة ، لأنهم كـانـوا من المحسنين المصلّين المستغفـرين : **﴿إنَّ المتَّقين في جنَّـاتٍ وعيـون . آخـذينَ مـا آتـاهم ربُّهم إنهم كـانـوا قبـلَ ذلـك مُحسنين . كانوا قليلاً من الليلِ ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون﴾**[2] .

هؤلاء الموقنون نـومهم قليل ، وأكلهم قليـل ؛ إنهم في حـالـة صفاء في نفوسهـم ، وفي حالة أُنس مع الله .

وهؤلاء الذين يعيشون هذه النعمة والـرحمة الـربانيـة لا ينسون إخـوانهم في الـدين والإنسـانيـة ، وخـاصـة الفقـراء والمحـرومين ، لـذلـك فإن **﴿وفي أمـوالهم حقٌ للسائـلِ والمحروم﴾**[3] إنـه حقٌّ مطلق غيـر محدّد ؛ وهـو غيـر الحقِّ المتعلّق بـالخمس والـزكـاة الـذي أشـارت إليـه الآيــة : **﴿والـذين في أموالهم حقٌ معلوم﴾**[4] .

---

(١) سورة الذاريات ؛ الآيتان : ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) سورة الذاريات ؛ الآيات : ١٥ ـ ١٨ .
(٣) سورة الذاريات ؛ الآية : ١٩ .
(٤) سورة المعارج ؛ الآية : ٢٤ .

وإذا رجعنـا إلى الآيتين المـذكـورتين سـابقـاً : ﴿**وفي الأرض آيـاتٌ للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ نجد فيهما طريقـاً واضحاً اختـطه الله لنـا للتعرّف إليـه ولتـوحيـده : فـلـو ألقيت نـظرة على نفسـك ، وتـأملت في صنعهـا وتكوينهـا ، ورأيت هذا النـظام البديـع الذي خلقـه الله في بـدنـك ، لعرفت أن وراء ذلك صانع مبـدع هو الله سبحـانه وتعـالىٰ . . . فهذه الأجهـزة الـدقيقة التي يتكـوّن منها جسمـك ، وتلك الخلايـا المعقّـدة التي لا تعـدّ ولا تحصى ، وكل واحدة منهـا هي أعقد وأدقُّ صنعـاً من أكبر جهـاز الكتروني في العالم . . . كل ذلك يشير إلى عظمة الخالق .

وإذا تـأملت في عمـل تلك الأجهـزة والخـلايـا تـرى عجبـاً . . . فـأنت تتناول الطعـام الذي يحتـوي على أنواع مختلفـة ومتعددة من المـواد الغذائيـة والفيتـامينات والمعـادن والأملاح . . . فتـأتي تلك الخلايـا وتأخـذ الفـوسفـور والصوديوم والكبـريت والكالسيـوم والعناصـر الكيماويـة الأُخرىٰ وتمتصهـا من الطعام ، ثم تحـوّلها إلى غـذاء وطاقـة تنتشر في جميـع أنحاء الجسم ، وكـل خليّـة من الخلايـا تأخـذ غذاءهـا الذي ينـاسبها من حيث النـوع والكميّة . . . ومن عجيب صنـع الله أن غذاء جميـع الخلايـا ليس موحـداً : فخـلايـا العين تحتـاج إلى فتيامين A ولا تحتـاج إلى فيتامين C . . . وهكـذا كل نـوع من الخـلايا يـأخذ مـا يناسبـه وما يحتـاجه من عنـاصر الغـذاء والفيتامينـات ويترك الباقي لغيره .

لقـد اكتشف العلم كل ذلـك ، وعرف أن هـذه الخلية تعمـل على هـذا النحـو ، وأن ذلك الجهـاز يعمل بتلك الـطريقة ، ولكنـه لم يستطع أن يجيب على السؤال التالي : لماذا تعمل هكذا ، ومن علّمها ذلك !!! .

إن العلم يستـطيع أن يقـول لـك أن هـذا الجنين الـذي تخلّق في بـطن أُمه هو ذكـر أو أُنثى . كما يستـطيع أن يكتشف أن أول جهـاز يبدأ العمـل في جسم الجنين هـو القلب ، وكذلـك تنتهي الحياة وتتـوقّف مع تـوقف القلب . (صحيح أن الدماغ يستمر في إرسـال الشحنات الكهـربائيـة لفترة محـددة بعد

توقف القلب ، ولكن عمل الدماغ في هذه الحال ليس عمل حياة ، وإنما هو عمل طاقة كهربائية لا غير) . . . . إذن يستطيع العلم أن يكتشف ذلك ، ولكنه لا يستطيع أن يعرف السبب . هل يستطيع العلم أن يقول لنا لماذا هذا الجنين تخلّق بنتاً وذاك تخلّق صبياً ؟ ؟ . .

إن العلم يستطيع أن يكتشف كثيراً من أُمور الحياة ، وربما هو قادر أن يكتشف كل يوم جديداً ، ولكنه في مطلق الأحوال لا يستطيع أن يخلق الحياة . . . إنه يكتشفها فقط . . أما خلق الحياة والوجود فهو من إبداع الله سبحانه . . . وهذا هو المعنى الدقيق الذي يريدنا الله أن نلتفت إليه : فالإنسان العاقل المفكّر المزوّد بإمكانيات الفهم والاستيعاب والاستنتاج عندما ينظر في نفسه وفي الكون ، ويرى دقّة الصُّنع وعظمة الخلق يهتدي إلى معرفة الله وإلى توحيده : **﴿وفي الأرض آياتٌ للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾** . ويقول سبحانه وتعالىٰ : **﴿سَنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم حتّى يتبيَّنَ لهم أنَّهُ الحقُّ﴾**[1] .

ومن الأُمور المذهلة العظيمة أن أهل البيت أشاروا إلى كل هذه الاكتشافات وغيرها قبل ألف وأربعمائة سنة !! فأنت ترى أمير المؤمنين يتحدّث عن فسلجة وبيولوجية الجسم وعن سيكولوجية النفس في نهج البلاغة ، وكذلك سائر الأئمَّة ذكروا كل هذه القضايا . وهذه المسائل تجدها في كتب الشيعة مثل «البحار» و «الوسائل» وغيرها .

ليلة القدر :

هذه الليلة هي ليلة القَدْر التي نزل فيها القرآن : **﴿إنَّا أنزلناه في ليلةِ القَدْرِ . وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْرِ . ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ . تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذنِ ربِّهم من كل أَمْرٍ . سلامٌ هي حتى مَطْلَعِ الفجرِ﴾**[2] .

---

(١) سورة فصّلت ؛ الآية : ٥٣ .

(٢) سورة القدر ـ مكية .

ولقد تكررت لفظة «القدر» ثلاث مرّات في هذه السورة القصيرة المؤلفة من خمس آيات ، وهذا إشارة إلى أن هذا القرآن ذو قدر عظيم ، ونزل على نبي ذي قدر عظيم ، وإلى أُمة هي خير أُمة أخرجت للناس .

وهذه الليلة المباركة علينا أن نتعرّف إلى فلسفتها وإلى الحكمة الكامنة في معناها . . . إنها ليلة من الزمن . والزمن ليس له قيمة بالمطلق ، وإنما قيمته في ما يحتوي عليه من أثر إيجابي أو سلبي ، أو من عمل صالح أو طالح : فأنت إذا قضيت في ساعة من الساعات حاجة أخ مؤمن تكون تلك الساعة ساعة عظيمة بالنسبة لك ، وهي عظيمة أيضاً في ميزان الحق . «فمن ذهب في قضاء حاجة أخيه المؤمن كتب الله له سبعين حسنةً ، ومحا عنه سبعين سيئةٍ ، ورفع له سبعين درجة» . هذا إذا سعى فقط في قضاء الحاجة . أما إذا قضاها ، فإنه يناديه منادٍ من السماء : يا فلان ، قد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك .

وعلى العكس من ذلك ، إذا أمضى الإنسان ساعة في النميمة والغيبة والنفاق والبهتان ، أو في ارتكاب المحرمات ومقارفة الإثم ، فإنها تكون ساعة شنيعة في حياته ، وتكون جحيماً عليه في الآخرة . . . إذن المسألة في يدك : فالوقت موجود ، إما أن تجعله نعمة وإما أن تجعله نقمة .

وليلة القدر هذه هي ليلة عظيمة مباركة لأن فيها نزل القرآن الكريم الذي هو رحمة وهدى للعالمين .

وفي نزول القرآن تكون السلامة للناس ، وكل شيء يقدّره الله في هذه الليلة هو سلام : ﴿**سلامٌ هي حتى مطلع الفجر**﴾ . فالكون في الأصل وُجِدَ قائماً على السلام ، والله لم يخلق الناس ليتحاربوا ، وإنما خلقهم ليتعارفوا وليتعاونوا . ولذلك عندما طرح الملائكة ذلك السؤال على ربّ العالمين : ﴿**أتجعلُ فيها من يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكَ الدماءَ ونحنُ نُسَبِّحُ بحمدِكَ ونُقَدِّسُ لكَ قال إني أعلمُ ما لا تعلمون**﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٣٠ .

ما المقصود بقوله تعالىٰ : ﴿**إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ ؟؟ .

المقصود بذلك أن الله سيخلق في هذه الليلة خلقاً كله خير وكله بركة ، يوافق عظمة ليلة القدر . . . وهؤلاء هم النبيَّ الأكرم وأهل بيته الطيبون .

وليلة القدر هي فاطمة الزهراء عليها السلام .

قد يتعجّب البعض ويقول : ما هذه المغالاة ! وما علاقة الزهراء بليلة القدر ؟ وكيف تكون الزهراء ، وهي امرأة ، ليلة من الليالي ؟؟ ! . . .

ولكي نعرف معنى أن فاطمة الزهراء هي ليلة القدر ، نرجع إلى أحاديث الأئمَّة عليهم السلام .

الإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول : «من عرف فاطمة حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر» .

والإمام موسىٰ الكاظم عليه السلام يقول : «إن الليلة المباركة هي فاطمة الزهراء» . فلقد كان أحد علماء النصارى عند الإمام الكاظم يناظره ويحاججه ، فسأله عن الآية : ﴿**حمٓ . والكتابِ المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة**﴾[1] فقال له الإمام الكاظم :«حمٓ :هو الرسول الأعظم محمد بن عبد الله . والكتابُ المبين : هو علي أمير المؤمنين . . لأن القرآن يقول : ﴿**وكل شيء أحصيناه في إمام مبين**﴾ والقرآن كتاب صامت ، أما الكتاب المبين الناطق فهو الإمام علي . وفي صفين قال لهم الإمام علي لما رفعوا المصاحف على الرماح : ويلكم هؤلاء رفعوا القرآن ! فهذا كتاب الله الصامت وأنا كتابه الناطق ! . . . والليلة المباركة : هي فاطمة الزهراء» .

من الممكن أن يقول البعض أن الحديث السابق ضعيف السند . فلنرجع إلى القرآن الكريم لنرى ماذا يقول ، ولنستدل منه على أن ليلة القدر

(١) سورة الدخان ؛ الآيات : ١ ـ ٣ .

هي فاطمة الزهراء ، وأن هذه الليلة مرتبطة بالزهراء عليها السلام .

يقول القرآن الكريم : ﴿**والليلِ إذا يَغْشَىٰ . والنهارِ إذا تجلَّىٰ . وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَىٰ . إن سَعْيَكُم لشتّىٰ**﴾[1] . . . هنا القرآن الكريم فيه إشارة صريحة وتلميح واضح إلى أن عنصر الليل في الطبيعة يقابله عنصر النساء في البشر . . لماذا ؟ لأن الليل والنهار انفصلا من شيء واحد اسمه الزمن ، فانقسما إلى ليل ونهار لاختلاف الوظيفة . والرجل والمرأة انفصلا من شيء واحد اسمه الإنسان ، وانقسما إلى ذكر وأُنثى لاختلاف الوظيفة .

ولكن ما هي مناسبة النساء لليل ومناسبة الرجال للنهار ؟ . . . بما أن الليل للسكن والهدوء والراحة والطمأنينة فكذلك خلق الله المرأة للسكن والهدوء والراحة والطمأنينة . . وبما أن النهار للكدّ والتعب والجدّ والكدح ، كذلك خلق الله الرجل للكدّ والتعب والجدّ .

والمسألة واضحة جداً في قوله تعالىٰ : ﴿**ومن آياتِهِ أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها**﴾[2] ، وفي قوله : ﴿**هُنَّ لِباسٌ لكم وأنتم لِباسٌ لهنَّ**﴾[3] . فوظيفة اللباس الأولىٰ هي الهدوء والسكن .

فإذا نزع الإنسان لباسه ، أو إذا كان لباسُه غير ملائم ، فإنه لا يشعر بالهدوء والطمأنينة . . . وكما أن الليل للهدوء والسكن والطمأنينة ، فكذلك المرأة هي للهدوء والطمأنينة والدفء والعطاء ، لأن المرأة هي قائدة في مؤسسة عظيمة هي مؤسسة الأسرة ، ووظيفتها هي وظيفة الأنبياء .

وكما أن الرجل مسؤول عن الكدّ والبحث عن الرزق خارج باب الدار ، كذلك المرأة مسؤولة عما هو داخل الدار . . . عندما تزوّج أمير المؤمنين فاطمة الزهراء ، قال له الرسول : «يا علي ! من باب البيت وإلى

---

(١) سورة الليل ؛ الآيات : ١ ـ ٤ .
(٢) سورة الروم ؛ الآية : ٢١ .
(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٧ .

الخارج عليك ، ومن الباب وإلى الداخل عليكِ يا فاطمة !» . . . وهذه إشارة واضحة إلى الاختصاص في العمل . طبعاً هذا لا يمنع أن تخرج المرأة ؛ فالزهراء عليها السلام كانت تخرج ، وكانت حاضرة في حروب أبيها وزوجها تضمّد الجراح . ولكن الوضع الأمثل للمرأة أن تكون ربّة بيت وأن تربّي الأجيال .

الأم مدرسةٌ إذا أعددتها أعددتَ شعباً طيّب الأعراقِ .

وإذا كان القرآن الكريم يطلق على النساء الليل ، وعلى الرجال النهار ، من ناحية الوظيفة والعمل والموقعيّة ، فمعنى ذلك أن الليالي في الزمن تقابلها النساء في البشر .

وكما أن فاطمة الزهراء هي سيّدة نساء العالمين ، فإن ليلة القدر هي سيّدة الليالي . وبما أن سائر الليالي هي لسائر النساء، فإن سيّدة الليالي (ليلة القدر) هي لسيّدة النساء فاطمة الزهراء .

إذن أصبحت الفكرة واضحة . . . وهذه المسألة أصلها في القرآن ، كما هي موجودة في السنّة النبوية وفي الأحاديث .

نأتي الآن إلى نفس الفكرة من الناحية العلمية : لماذا جعل الله ليلة القدر لفاطمة الزهراء ، أو أن فاطمة الزهراء هي ليلة القدر وملازمة لليلة القدر ؟ .

من هذه الناحية نقول : إن ليلة القدر هي الليلة التي أنزل فيها القرآن ، والقرآن الكريم من دون فاطمة الزهراء لا يساوي شيئاً . . . لماذا ؟ لأنه لولا فاطمة لما وجد الرسول نفسه . . وهذه ليست مغالاة . فلو كانت فاطمة غير موجودة لكانت الإمامة غير موجودة ، وبالتالي فإن الرسالة لا قيمة لها بدون الإمامة ، لأنه بدون الإمامة تكون الأمور عبثية وفوضى ، والله حكيم لا يصنع العبث . . إذن لا بد من وجود الإمامة . . وأين هي الإمامة ؟ . . إنها بفاطمة الزهراء ، لأنها تحفظ القرآن والرسالة بالأئمة من

أبنائها وذريتها .

وحتى تكتمل الصورة نعود إلى قوله تعالىٰ : **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾** . إن ما لا يعلمه الملائكة ، عندما تساءلوا عن خلق آدم ، هو أن الله سبحانه وتعالىٰ عندما خلق آدم من طين نفخ فيه وقذف في صلبه أنوار أهل البيت : محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وسائر الأئمة المعصومين ؛ ولما حملهم آدم في صلبه فقد حمل الكرامة العظمى والسرّ الأعظم . ولذلك عندما خلق الله آدم أمر الملائكة بالسجود له ، فسجدوا ، إلاّ إبليس أبى واستكبر فجعله الله من الملعونين إلى يوم يبعثون .

وقد تباهى إبليس بكونه من عنصر النار ، في حين أن آدم من عنصر الطين . . . والحقيقة أن الطين أكرم من النار ، لأن النار تحرق وتدمّر ، أما الطين فإنه مصدر خصب ونماء : فلو أخذتَ فسيلة وألقيتها في النار فإنها تحترق وتموت ؛ أما إذا زرعتها في الطين فإنها تنمو وتكبر وتزهر وتثمر . . .

بعد هذه الجولة يتضح أن الزهراء هي أُم الإمامة ، وأن الإمامة منها . . .

أما المشركون والكفار من قريش فقد كانوا يقولون : سيموت محمد ونستريح منه ، لأنه لا عقب له ولا ذرّية من الذكور . . . إنه أبتر . . . وابنته فاطمة ستموت وينتهي كل شيء .

كان الرسول يسمع ذلك ويتألّم . . . ولكن سرعان ما نزل عليه الوحي قائلاً له : **﴿إنا أعطيناكَ الكوثر ، فَصَلِّ لربِّكَ وانْحَرْ ، إن شانِئَكَ هو الأبْتَر﴾**(1) .

فالكوثر هي فاطمة الزهراء . وأما الأبتر المشار إليه في الآية فهو العاص بن وائل السهلي ، الذي يُنسب إليه عمرو بن العاص . والحقيقة أن

---

(1) سورة الكوثر .

العاص هذا أبتر لا عقب له . وانتساب عمرو بن العاص إليه هو مثل انتساب زياد ابن أبيه إلى أبي سفيان . فعندما وُلد عمرو المذكور تنازع سبعة من الرجال أمره ، فنسبه كل واحد منهم إليه .

وكذلك نسبة زياد إلى أبي سفيان هي قضيّة ملفقة ، كانت الغاية منها إطلاق يد زياد في البصرة والكوفة للتنكيل بأهل البيت وأصحاب علي بن أبي طالب . . . ولكن الترغيب والترهيب ، المال والسيف ، كمّت أفواه الناس فسكتوا عن الحقيقة ، وأطلقت ألسنة البعض فعملوا له شجرة نسب ، وألفوا القصائد المطولة في مدحه ومدح البيت السفياني .

وهنا نذكر حادثة طريفة تتعلق بزياد المنسوب إلى أبي سفيان : كان موكبُ زياد ابن أبيه يمرّ في شارع من شوارع البصرة ، وكان يجلس في ذلك الشارع رجل أعمى سليط اللسان يدعى أبا العريان . سمع ذلك الرجل هرجاً ومرجاً ، فسأل : من هذا ؟ قالوا : هذا موكب زياد بن أبي سفيان ! قال : قاتل الله الظالمين . وأين زياد من أبي سفيان ؟ ! أنا أعرف قصته . . . وصار يحدّث الناس بقصة زياد ابن أبيه ، وتجمهر الناس حوله . . . ذهب بعضهم إلى معاوية وأخبروه بخبر ذلك الأعمى ، فقال لهم : ابعثوا إليه بعشرة آلاف دينار ! . . . حملوا إليه المال وقالوا له : هذه أرسلها إليك معاوية ، وهو يرجو بركاتك ودعاءك . . . أخذ الرجل المال ، وشكر عطاء أمير المؤمنين معاوية . وفي اليوم التالي جلس في نفس المكان وأخذ يبكي وينتحب . . فلما سئل عن سبب بكائه قال : الله أكبر ! البارحة عندما مرّ عليّ موكب زياد وهو يتكلم مع أخيه معاوية ، ذكّرني صوته بصوت أبيه أبي سفيان !!! .

ذكرنا بعض الأمثلة عرضاً لنشير إلى أولئك الظلمة الفسقة وأسيادهم من حكام بني أُمية الذين تربعوا على عروشهم فظلموا وأحرقوا وأبادوا الزرع والنسل ، وفي نفس الوقت كانوا يدّعون الإسلام ، ويريد البعض أن نأخذ الإسلام عنهم ونعتبرهم من أولي الأمر . . . في حين رأينا فضل أهل

البيت ، ورأينا فضل الزهراء عليها السلام ، أم الأئمة ، وليلة القدر التي أنزل فيها القرآن .

ليلة التوبة والغفران :

هذه الليلة المباركة ليلة عظيمة ، لأن فيها التوبة والغفران العظيم . وبإمكان كل واحد في هذه الليلة أن يتخلّص من جميع ذنوبه وجميع آثامه إذا توجه إلى الله بنيّة صادقة وقلب سليم .

وفي هذه الليلة المباركة أيضاً يجب أن نقتلع الشرّ من نفوسنا ، مستغلين القوة الموجودة لدينا والطاقة الجبارة التي تزودنا بها ليلة القدر .

فالشرّ في الإنسان يشبه الشجرة . هذه الشجرة تحتاج إلى قوة وطاقة كبيرة حتى تقتلعها . فما دمت قوياً فاقتلعها وأنت قوي ، لأن الشجرة ضعيفة أمام قوتك . أما إذا تركتها ، ومضت سنوات العمر ، فإن الشجرة تقوى وتستعصي ، وأنت تهرم وتضعف قوتك ، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً حيالها .

وفي هذه الليالي المباركة ، ليالي رمضان ، وخاصة في ليلة القدر ، نحن كلنا أقوياء ، ونحن أقوى ما نكون . إن هذه الليلة تزوّدنا بقوة هائلة لو وجهناها على الجبال لأزاحتها . فلنقتلع الشرّ من جذوره ، ولنغيرّ ما بأنفسنا ﴿**إنَّ اللَّهَ لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾(١) .

وفي ليلة القدر هذه يجب أن نتوب إلى الله توبة نصوحة ، ويجب أن نتذكر القبر أول محطة ، والمحطة الثانية وهي البرزخ . . . إن الأرواح تأتي في ليالي رمضان وفي ليالي الجمع وفي ليلة القدر ، وتقف عند أهلها وتقول : «يا أهلنا ، اذكرونا قبل أن تكونوا مثلنا فلا يذكركم أحد !» .

الآن يجب أن نصفي حسابنا مع الشهوات والغرائز : فمن لم يحدّد لنفسه رأس سنة ، فليبدأ من الآن وليدفع الخمس والزكاة . ليدفع الحقوق .

---

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ١١ .

ليتفقد الأرامل واليتامى والمحتاجين ، لأن توبتنا إلى الله وحبنا لرسول الله ولعلي يجب أن يكون عملياً وفعلاً لا قولاً : **﴿قُلْ إنْ كنتم تحبُّونَ اللَّهَ فاتَّبعوني يحبُبكم الله﴾**[1]. فالحب يترجم إلى سيرة ، لأن الحب في الواقع معناه العمل .

وهذه الليالي أيضاً تزوّدنا بالصبر على المكاره ، وتزوّدنا بالإيثار ونكران الذات . وهذا المعنى نراه عند أبي الفضل العباس : كان عطشان ومدّ يده ليشرب . تذكر أخاه الحسين ، فارتدّت يده عن الماء :

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنتِ أو تكوني
هذا حسين وارد المنونِ وتشربين باردَ المعينِ
هيهات ما هذا فعال ديني .

لاحظ المعنى الرفيع الطاهر : **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصةٌ﴾**[2]. هو يحتاج إلى الطعام ، لكنه يقدّم الآخرين والمحرومين على نفسه ، وهو يحتاج إلى الماء ، لكنه لا يشرب ويقول : أنا أشرب ، وسكينة وعبد الله الرضيع في الخيام يتلظون عطشاً !! . . . . يومها كان هناك خمسمائة طفل وطفلة ينادون : العطش ، العطش ؛ فكيف يشرب أبو الفضل العباس ؟ !! .

وهذه الليلة ليلة إحياء إلى الصباح ، فلا تفوتنا أبداً هذه المسألة . يجب أن نقضيها في قراءة القرآن وفي الدعاء والتوجه إلى الله . . . وليكن قلب الواحد منا خاشعاً : **﴿أَلَمْ يأْنِ للذين آمنوا أَنْ تَخْشَعَ قلُوبُهم لذكر الله﴾**[3] . . .

وفي هذه الليلة اذهب لزيارة أخيك بقلب خاشع ، وإذا كانت صلتك

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ٣١ .
(٢) سورة الحشر ؛ الآية : ٩ .
(٣) سورة الحديد ؛ الآية : ١٦ .

مقطوعة بأحد أرحامك فاذهب لزيارته ؛ وحتى إذا أعرض عنك ، اذهب إليه وقبله في وجهه وصافحه ، فإن هذا يرقّق القلب ، وتنصبُّ عليك وعليه رحمة ربّ العالمين .

وعليكم بالبذل والعطاء والتودد ، وإياكم والتدابر والتقاطع ؛ فإذا كان شخص مخاصماً لزوجته فليصالحها ، وإذا كانت الزوجة مخاصمة لزوجها فعليها أيضاً مصالحته . . . فإذا سقت المرأة زوجها شربة ماء كتب الله لها سبعين ألف حسنة . وعلى الزوج أن يرعى زوجته ويحفظها ويهتم بشؤونها . . وهكذا حتى تكون حالة السكن والهدوء والطمأنينة : ﴿**خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها**﴾ . . ولذلك يقول أمير المؤمنين : «كنت إذا نظرت إلى فاطمة انجلت عنّي الهموم والأحزان» . وكذلك النظر إلى وجه أمير المؤمنين عبادة . ومن ذكر فضيلة من فضائل عليّ رفعه الله سبعين درجة . . . لأن فضائل الإمام علي ترسخ الإسلام في النفوس ، وفضيلة واحدة من فضائله أعظم من عبادة الثقلين إلى يوم القيامة : «ضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين» . . . ولو أن السماوات والأرض قرطاس ، والأشجار أقلام ، والبحار مداد ، والإنس والجنّ كتّاب ، على أن يحصوا فضائل علي بن أبي طالب لا يتمكنون أن يحصوها . . .

مجلس الزهراء عليها السلام :

وفي ليلة القدر نختم مجلسنا بذكر الزهراء وندعو . . . . . الرسول الأعظم كان إذا دخلت عليه الزهراء يقوم إجلالاً لها ويقبّل يدها . . . وكان إذا مرَّ على دارها يقرأ : ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويطهِّركم تطهيراً**﴾[1] . . . وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا شعر بضعف يذهب إلى فاطمة . . قال : بنيّة إني أجد في بدني ضعفاً ! قالت : أعيذك بالله يا أبتاه من الضعف ! قال : بنيّة ! ائتني بالكساء اليماني فغطيني به . . . قالت

(١) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٣٣ .

فاطمة : أتيته بالكساء اليماني . غطيته وصرت أنظر إلى وجهه يتلألأ كأنه البدر في ليلة تمامه وكماله . . . اللّهمَّ صلِّ على محمد وآل محمد .

كانت فاطمة ملاذ أبيها . . . وكان الرسول عندما يسافر تكون فاطمة آخر من يودّعه ، لأنها كانت تشيّعه إلى خارج المدينة . . وعند عودته كان يصلّي في المسجد ركعتين ثم يتوجه إلى فاطمة . . . .

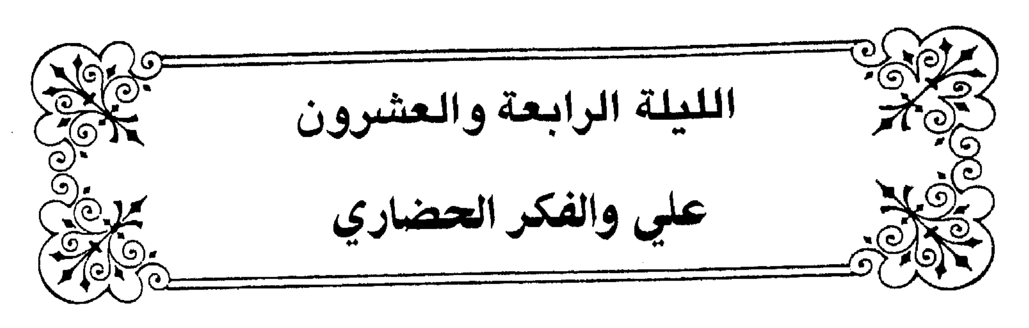
لمّا صار الهجوم على باب الدار ، كانت الزهراء خلف الباب ؛ فأحسَّ بها بعضهم فضغط على الباب . . . كانت فاطمة شابة في الثامنة عشرة من عمرها ، وكانت حاملاً في الشهر السادس . . . ضغطة الباب أسقطت جنينها وكسرت ضلعها . . . خرج الإمام علي من الدار ـ ساعد الله قلبك سيدي يا أمير المؤمنين ! ! . . . صاحت الزهراء : فضّة ! إليكِ . . . . ثم صاحت يا عليّ !! . . . . لم يسمعها الإمام . .

أيـن مـن لـو دَعَـتْـهُ   بالثريا مَرُوعَةٌ لبّاها ؟ !!

صاحت الزهراء ثلاث مرّات : يا علي ! يا علي ! يا علي ! . . . ولما لم تسمع الجواب صاحت :

يا فضّة إليكِ اسنديني   فقد وربّي أسقطوا جنيني !

إلٰهنا تقبّل أعمالنا .



الليلة الرابعة والعشرون

علي والفكر الحضاري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الذينَ أساءوا السُّوأىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وكانوا بها يَسْتَهْزِئون﴾[1] .

أنواع الاستجابة : الفعل وردّ الفعل

لما كان الإنسان بطبيعته التكوينية مزوّداً بقوى حاسَّة ومدركة فإنه ينفعل بالمؤثرات والمثيرات الخارجية ويستجيب لها على أصعدة مختلفة ، وذلك حسب نوع ودرجة المؤثر . فتارة تكون الاستجابة عقلية إذا كان المؤثر يثير العقل ، وطوراً تكون غرائزية إذا كان يثير الغريزة . وتكون الاستجابة أحياناً وجدانية عاطفية إذا حرّك المؤثر الوجدان والعاطفة .

وربما كان للمؤثر والفعل الواحد استجابات مختلفة لدى الشخص الواحد في أوقات مختلفة ، وذلك حسب جاهزية هذا الشخص للتلقّي والانفعال . فأنت في وقت من الأوقات تسمع خطبة معينة تثير فيك الحماس والحميّة والاندفاع ، وربما تسمع نفس الخطبة في وقت آخر تكون فيه مشتّت الذهن منشغل البال بأشياء أُخرى فلا تثير هذه الخطبة فيك شيئاً .

---

(١) سورة الروم ؛ الآية : ١٠ .

كـذلـك فـإن المؤثـر الـواحـد يثيـر استجـابـات وردود فعـل تختلف من شخص إلى آخـر ، وذلـك حسب درجـة وعيـه وسمّـو نفسـه وعلوّ همتـه : لنفرض أن شخصاً اعتـرض شخصاً آخـر وصفعه على وجهـه ؛ فهذا الشخص الـذي تلقى الضربـة تكون استجـابته واحـدة من ثلاث : إمـا أن يـردَّ الصفعـة بمثلها ، أو أن يعفو عن المسيء ويقـابله بالإحسـان فيسامحـه ويعظه ويبيّن له خطأه ، وإما أن يسكت فيتخذ مـوقفاً بين بين ، فـلا يردّ بـالمثل ولا يسـامح ، ولكن يتابع طريقه . . . .

في الحـالـة الأُولىٰ يكـون الإنسـان من النـوع الغضبيّ الغـرائـزي ، إذ أثارت فيه الضربة قواه الغرائزية فغضب وانفعل وردَّ بالمثـل . وهذا النـوع من الناس يكون عـادة ضعيف العقل لأنـه يترك نفسـه لقواه الغـرائزيـة والغضبية . وفي هــذا المعنى يقـول الإمــام عليّ : «سـرعــة الغضب تــدلُّ على ضعف العقـل» . ولعل مـوقف أمير المؤمنين في وقعـة الخندق تمثـل النموذج الأعلىٰ والقمـة التي لا تدانى في قـدرة الإنسان العـاقل على كبـح جمـاح غضبـه في أصعب اللحـظات : رفع الإمـام السيف ليضـرب بـه رأس عمـرو بن عبـد ودٍّ العـامري ، فبصق هـذا الأخير في وجـه الإمام وشتمـه . . . في هـذه اللحـظة بالذات ارتدَّ عنه الإمـام وابتعد ، وجـال بعض جولات في السـاحة حتى هـدأ غضبه ، ثم عاد إلى عمرو فأجهز عليه . . . هذه درجة عـالية ومثـالية لا يـرقى إليهـا إلاَّ قلّة قليلة من البشر . أمـا الحـالـة السـائـدة فهي التي نصـادفهـا كـل يوم : فهذا يـدخل إلى بيتـه ، فإذا سمـع كلمة لا تعجبـه لطم زوجتـه وضرب أولاده ؛ وذاك إذا أخـطأ معه جـاره فإنـه يخاصمـه ويعاديـه ، وربما دخـل معه في عـراك وشتائم . . . . وهكـذا نجد هـذه الحـالـة وهـذه النمـاذج في البيت والحيّ والمكتب والمدرسة والشارع وسائر الأماكن في المجتمع . . .

وفي الحالة الثانية فإننا أمام شخص آخر مختلف تماماً عن الأول. إنه يعفو ويقابل الإساءة بالإحسان كان الإمام زين العابدين يمشي في الشارع، فاستقبله رجلٌ وشتمه. أعرض الإمام عنه وأدار وجهه وتابع طريقه، دار ذلك الرجل واستقبل

الإمام مرّة أُخرىٰ قائلاً: إياكَ أعني !.. قال الإمام: «وعنك أُغضي». أي إني أتجاوز عن إساءتك وأقابلك بالحسنى. ﴿**وعباد الرّحمٰن الذين يمشونَ على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**﴾[1]. فهذا الإنسان الذي يقابلك بالغضب والغيظ والإساءة إنما هو كالإناء الذي ينضح بما فيه. فالإناء إذا كان مملوءاً زيتاً فإنه يعطي الزيت، وإذا كان مملوءاً ماءً فإنه يُعطي الماء، أما إذا كان مملوءاً سماً وقطراناً فإنه لا يعطي إلاّ السمَّ والقطران... وأخلاق الإسلام تعلمنا ألا نقابل الجهل بالجهل والغضب بالغضب، لأن ذلك من أخلاق الجاهلية التي تجاوزها الإسلام.

لاحظوا أخلاق الجاهلية في شعر عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهَلَ فوق جهل الجاهلينا.

أما الإسلام فإنه يقول: ﴿**ولا تستوي الحسَنَةُ ولا السيِّئةُ ادفَعْ بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنَّهُ وليٌّ حميمٌ**﴾[2].

ويقول الشاعر، وهو يعبّر عن أخلاق إسلامية:

جازِ الإساءة بالإحسان إن صدرت من امرىء زلَّةٌ تدعو إلى الغضبِ
سجيَّةُ النَّخْلِ من يرميه بالحجرِ كافاه عن ضربه بالبُسْر والرُّطَبِ

إن الله سبحانه وتعالىٰ أرسل الأنبياء لينمّوا في الناس عقولهم ويهذّبوا فيهم غرائزهم. يقول أمير المؤمنين: «أرسل الله أنبياءه للناس ليثيروا لهم دفائن العقول». أي أن الله سبحانه وتعالىٰ أودع في عقل الإنسان قوى وطاقات رهيبة جبّارة هي مدفونة في هذا العقل، فإن استطاع الإنسان أن يحرّك دفائن عقله، فينظر في الكون وفي نفسه، ويكتشف أسرار هذا الكون وأسرار نفسه، يصل بالتالي إلى الإيمان القويّ الراسخ بعظمة

(١) سورة الفرقان؛ الآية: ٦٣.
(٢) سورة فصّلت؛ الآية: ٣٤.

الخالق ووحدانيته .

إن الاستجابة للموعظة الحسنة والقول النافع تختلف من شخص إلى آخر وذلك تبعاً لطهارة داخله وصفاء نفسه . فالاستجابة للخير والموعظة الحسنة هي مثل انعكاس الصور في المرآة . فكلما كانت المرآة مجلوّة مصقولة صافية كلما انعكست فيها الصورة بشكل واضح . وكذلك إذا كانت المرآة مقعّرة مثلاً فإنك ترى فيها الصورة مشوّهة معوَجّة على غير حقيقتها .

وهكذا فإن نفس الإنسان إذا ما أصابها التشوّه والانحراف والإعوجاج عن الفطرة السليمة فإنها لا تستطيع أن تستوعب الموعظة الحسنة ، بل إنها تستقبلها مشوَّهة معوجَّة . فالرسول الأعظم كان يخاطب الناس بالحكمة والموعظة الحسنة وبما يصلح أحوالهم ، وكذلك كان يفعل أمير المؤمنين والحسن والحسين وسائر أئمة أهل البيت . ولكن النفس المعوجّة والفطرة المشوّهة في أبي جهل وأبي لهب وفي معاوية ويزيد وغيرهم كانت تحول دون تلقيهم للخير ، بل إنها كانت تشوّه كلام الرسول والأئمة وتفهمه على هواها ، بل ربما أعملت فيه تحريفاً وتغييراً كما رأينا في غير مناسبة . . . . إن نفوس هؤلاء كمثل المريض الذي أصابته حمى قوية فاختل مزاجه وتشوّهت أحاسيسه ، فإذا جئته بطعام حلو طيّب يقول لك : هذا طعمه مرّ ! في حين أنك لو عرضت الطعام نفسه على إنسان صحيح سليم الذوق والإحساس لعرف مذاق الطعام الحقيقي واستساغه وانتفع به .

إذن عندما تكون النفوس مريضة والعقول يغطيها صدأ الجهل والجهالة فإنها لا تستسيغ الكلمة الطيبة بل تُعرض عنها . وعلى العكس من ذلك ، كلما صفت النفوس واستقامت العقول وجُليت الأرواح فإن الحكمة والموعظة والخير تؤثر فيها تأثيراً كبيراً يدهشنا في بعض الأحيان : انظر إلى همام صاحب الإمام عليّ عليه السلام . كان يستمع إلى الإمام يعظ الناس ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! صف لي المتّقين حتى كأني أنظر إليهم ! . . . . فاندفع أمير المؤمنين يصف المتقين وأحوالهم وكرامتهم بكلام يأسر العقول

ويتغلغل إلى القلوب . . . فما كان من همام إلاَّ أن صاح : يا الله !!! ثم وقع إلى الأرض ميّتاً !!! . . . قال الإمام : «هكذا تصنع المواعظ بأهلها» . .

هكذا فعلت موعظة الإمام بهذا الرجل من أهل الموعظة . . . ولكن في المقابل نرى صورة أُخرىٰ معاكسة : فالإمام يصعد المنبر ويعظ الناس ، ويكون في الحاضرين بعضٌ ممن انحرفت نفوسهم وانطمست بصيرتهم ، أمثال شبث بن ربعي وسمرة بن جندب والأشعث بن قيس وسعد بن أبي وقّاص . فهؤلاء لا يهتمون بالمعنى العميق في كلام الإمام وإنما يصرفون كل اهتمامهم إلى الكيد وسوء النوايا . . . . عندما سمعوا الإمام ورأوا الأثر العظيم لكلامه في نفوس الناس ، اتفقوا على مكيدة يكيدونها : إذا صعد عليّ المنبر في الغد ، نطلب منه أن يأتينا بخطبة ليس في كلماتها نقطة ! فإن عجز عن ذلك خجل من نفسه ، وأظهرنا للمدّعين من أنصاره أنه ليس أفصح العرب ! . . . . وفي اليوم التالي صعد الإمام المنبر ؛ وقبل أن يبدأ كلامه وقف شبث بن ربعيّ وقال : نريد منك يا أمير المؤمنين خطبة تتحدث فيها عن التوحيد والنبوّة والعدل والإمامة والمعاد ، ولا يكون في حرف من حروفها نقطة !!! . . . . بدأ الإمام خطبته بقوله :

«الحمد لله مالك الملك» واندفع كالشلال في خطبة مطوّلة أتى على نهايتها دون أن يلفظ حرفاً منقوطاً . . . ذهب المنافقون من هذه القدرة العجيبة لدى الإمام ، وقال الأشعث بن قيس لشبث بن ربعي : لا بدَّ وأن أحداً قد أخبره بما كنا قد بيتنا له فتحضَّر للأمر وأعدَّ الخطبة سلفاً . . . نمتحنه في الغد بأن نطلب منه خطبة ليس فيها ألف . . . . وفي الغد أيضاً ألقى الإمام خطبة كاملة ليس في كلماتها ألف ، وأولها : «حمدتُ من عظمت مِنّته وسبغت نعمته» . . . . ثم ينزل الإمام من على المنبر ويتوجّه إلى خارج المسجد . وفيما هو يضع رجله في ركاب فرسه أقبل عليه أعرابي وقال : سيدي عندي مسألة حسابية ! . . . قال : ما هي ؟ . . قال : أُريد

منك أن تعطيني رقماً يقبل القسمة على جميع الأرقام من اثنين إلى عشرة دون أن يبقى كسر !! قال له الإمام على الفور : اضرب أيام سنتك في أيام أسبوعك تحصل على هذا الرقم . . . . وركب جواده وانطلق . . . . والرقم الذي طلبه ذاك الأعرابي هو (٢٥٢٠) أي حاصل عملية (٣٦٠×٧) .

إذن الفرق واضح بين الإنسان الذي يستمع إلى الموعظة فيتفهّمها وتدخل إلى عقله وقلبه ، وبين ذاك الذي يتلهّى بالصيد في الماء العكر ويبحث عن سفاسف الأُمور وقشورها . . . والإمام في جميع الأحوال هو ذاك المقام السامي الذي لا يرقى إليه أحد ، أو هو على حدّ تعبيره «ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير» . وهو كما يقول : «نحن أمراء الكلام ، فينا تنشّبت عروقه ، وعلينا تهدّلت أغصانه» . . .

وبعض الناس يذكر الرسول الأعظم وفضائله ولا يذكر أهل البيت . وهذا خطأ كبير ، لأن من يذكر الرسول دون أهل بيته إنما هو متآمر على الرسول . وإذا رجعت إلى آية المباهلة تجد كيف أن الله سبحانه وتعالىٰ ربط بين الرسول وعلي وفاطمة والحسن والحسين : ﴿**قُلْ تعالوا ندعُ أبناءَنا وأبناءَكم ، ونساءَنا ونساءَكم ، وأنفسَنَا وأنفسَكُم ، ثم نبتهل إلى الله** . .﴾[1] وقد بحثنا هذا الموضوع مطوّلاً في ليلة خاصة فارجع إليه .

ويوم كان المسلمون معتصمين بحبل الله كانوا يعرفون حق أهل البيت ، ويعرفون أن حبّ الرسول يعني حبهم لأهل البيت . وحديث الكساء معروف وموجود في صحاح المسلمين جميعاً . . . . يومها ألقى الرسول على نفسه كساءً ، ووضع تحت الكساء علياً وفاطمة والحسن والحسين ، ودعا الله وقال: «اللّهمَّ إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي وحامتي . لحمهم لحمي ودمهم دمي . يؤلمني ما يؤلمهم ويحزنني ما يحزنهم . وأنا حربٌ لمن حاربهم وسلمٌ لمن سالمهم . فاجعل صلواتك وتحياتك وبركاتك

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ٦١ .

عليّ وعليهم ، وأذهِب عنهم الرِّجْسَ وطهّرهم تطهّيراً» . . . فهبط جبريل يقرأ قول الله تعالىٰ : ﴿إنما يريدُ اللَّهُ ليُذهِبَ عنكمُ الرِّجْسَ أهلَ البيتَ ويُطهِّرَكم تطهيِّراً﴾[1] .

المستجيبون لآيات الله هم الفائزون والمكذّبون عاقبتهم السوءَىٰ

بعد أن بيّنا في المقدمة أنواع الاستجابة ، وكيف أن نوعيّة الاستجابة ودرجتها إنما تتعلّق بصفاء النفس والاستعداد لتقبّل الموعظة الحسنة والهداية . بعد هذا نعود إلى الآية التي افتتحنا بها كلامنا : ﴿ثمَّ كان عاقبةَ الذين أساءوا السُّوءَىٰ أنْ كذَّبوا بآياتِ اللَّهِ وكانوا بها يَسْتَهْزِئون﴾ .

لماذا كانت السُّوأىٰ (والسُّوأىٰ مؤنث الأسوأ ، أي هي العاقبة الأوخم والعقوبة الأشدّ) عاقبة الذين أساءوا ؟ . . . لأن هؤلاء كذّبوا بآيات الله وكتابه ونبيّه واستهزأوا بهم . .

العاص بن وائل السهلي كان يمشي خلف النبيّ ويمطط فمه ويحرّك يديه استهزاءً وسخرية بالنبيّ . قال له الرسول دون أن يلتفت إليه : «يا ابن وائل ! كن كما أنت !» فبقي على حركته وعلى حاله ! أتى الناس إلى النبيّ يتوسلون إليه أن يفك الشدّة عن هذا الرجل ، فهو زعيم عشيرة وشيخ قبيلة ، ولا يجوز أن يبقى على حاله تلك ! . . . نظر إليه الرسول فوجده يبكي . . قال له : «ارجع إلى حالك يا ابن وائل» فعاد الرجل إلى حالته الطبيعية . . . . كان أبو لهب حاضراً المشهد ، فقال : عجبت من سحر محمد ! . .

أبو لهب هذا فسَّر الموقف بنوع من السِّحر ، ولم يدرك أن ما حصل إنما هو آية من آيات الله ، وتأييدٌ من الله لنبيّه في ردّ كيد أعدائه . . . . ولكن أنّىٰ لأمثال أبي لهب والعاص أن يهتدوا !! . . . . إن أمثال هؤلاء قد

(١) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٣٣ .

صغّرت نفوسهم الذنوب ، وأعمى أبصارهم الكبر ، وانحطّت بهم الآثام فصاروا كالبهائم في انحطاطهم وضلالهم : **﴿إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضَلُّ﴾**(١) . هذه هي نتيجة الذنوب والسيّئات . . .

وأما من يأتي الطاعات ويتجنبّ المعاصي فإنه يرتفع ويسمو . لذلك كانت الهمّة العالية وسموّ النفس ملازمة للإيمان . وأما من انحطت نفوسهم وفسدت فطرتهم فلم يستجيبوا لداعي الحق وكذّبوا بآيات الله ، فإن هؤلاء لهم درجة لا تعلو عن درجة الكلب: **﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْناه بها ولكنّهُ أخْلَدَ إلى الأرضِ واتَّبَعَ هواهُ فمثَلُهُ كمَثَلِ الكلب إنْ تَحْمِلْ عليه يلهَثْ أو تتركْهُ يلهَثْ ذلك مَثَلُ القومِ الذينَ كذَّبوا بآياتِنا فاقصُصِ القَصَصَ لعلَّهم يتفكّرون﴾**(٢) .

إذن علينا أن نلاحظ دائماً علوّ الهمة عند المؤمنين المصدّقين بآيات الله ؛ ويقابل ذلك الدناءة والانحطاط واللها ث عند المكذبين بآيات الله .

وعلوّ الهمّة يعني التصديق بآيات الله ، ثم العزم القوي ، ثم التوكُّل والاستمداد من الله ، ثم العمل والسعي . يقول الرسول : «لو توكلتم على اللهحقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خماصاً وتروح بطاناً» . فالطير يرزقها الله وهي تغدو وتروح ، لا حيث تبقى ثابتة في أوكارها وأعشاشها .

وكذلك فإن علوّ الهمّة عند المؤمن المصدّق ينتج عنها الحِلْم والأناة ، أي التبصّر والتدبُّر والرويّة وهدوء النفس . يقول أمير المؤمنين : «الحلم والأناة توأمان ينتجهما علوّ الهمة» .

والهمّة عزمٌ وقوّة : «همم الرجال تزيل الجبال» .

والهمّة ارتفاع وسموّ . يقول أمير المؤمنين : «يطير المرء بهمته كما يطير الطائر بجناحيه» .

---

(١) سورة الفرقان ؛ الآية : ٤٤ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٧٦ .

وهكذا فإن النفوس إذا صفت ، والقلوب إذا اهتدت وآمنت وصدّقت ، فإنها تشهد عندئذٍ للحق . . . فأبو العلاء المعرّي يرى الحمرة المغربية فيقول : «هذه من دماء عليّ والحسين» . . . وأحمد بن حنبل يقول : «يوم قُتل عليٌّ وُجد تحت كل حجر دم عبيط ، ويوم قتل الحسين قطرت السماء دماً» . . . وابن حجر العسقلاني حافظ أهل زمانه ومحدّث عصره ينقل فضائل عليّ وأهل البيت ويسطرها في فصول مطولة .

والاستجابة لداعي الحق والتصديق بآيات الله إنما هما رحمة ومنّة وهداية من الله سبحانه وتعالىٰ . فهذا أبو العلاء المعرّي الشاعر المفكر الفيلسوف ، كان في البداية بعيداً عن طريق الهداية والتصدّيق ، فكان يصعد جبلاً في اللاذقية ويقول مخاطباً ربَّه : «أي ربّ ، كلمني ! أنا أفصح من نبيّك موسىٰ !» . . قال :

ونارٍ لو نفختَ بها أضاءت ... ولكن ضاع نفخك في الرمادِ
لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي .

ثم ينزل من الجبل في اللاذقية فيسمع أصوات المؤذنين تنطلق من المساجد ، وأصوات الأجراس من الكنائس ، فيقول متشككاً :

في اللاذقيّة ضجةٌ ... ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدقُّ ... وذا بمئذنة يصيح
كل يعزِّز دينَه ... يا ليت شعري ما الصحيح

ولكن عندما اطمأن المعرّي للإيمان ، نراه يقول :

غيرُ مُجدٍ في مُلّتي واعتقادي ... نَوْحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِ
وشبيهٌ صوتُ النعيِّ إذا قِيسَ بصوتِ البشير في كل نادِ
أبكتْ تلكمُ الحمامةُ أم غنّتْ على فرعِ غصنها الميَّادِ
صاحِ هذي قبورُنا تملأُ الرَّحْبَ فأين القبورُ من عهد عادِ
خفِّفِ الوطء ما أظنُّ أديم الأرضِ إلاَّ من هذه الأجسادِ

ودفين على بقايا دفين | من طويل الأزمان والآبادِ
رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً | ضاحكٍ من تزاحم الأضدادِ
سِرْ إنِ اسطَعْتَ في الهواء رويداً | لا اختيالاً على رُفات العبادِ
ضَجْعَةُ الموتِ رقدةٌ يستريح الجسم فيها والعيشُ مثلُ السهادِ
خُلق الناسُ للبقاء فضلت | أمة يحسبونهم للنَّفادِ
إنما يُنقلون من دار أعمالٍ | إلى دار شَقْوَةٍ أو رشادِ

من دروس هذه الآية الكريمة :

ومن الدروس العظيمة لهذه الآية الكريمة أنها تدعونا للتفكير في نوعية استجاباتنا لكل ما يتعلق بأُمور حياتنا . فمثلاً ما هي استجابتنا للمال ؟ هل نجمع المال في البنوك ولا ننظر إلى المحتاجين والفقراء الذين يلهثون وراء الرغيف ؟ إذا كان هذا هو نوع استجابتنا للمال ، فإنها بِئسَ الاستجابة !! وكذلك إذا كنتَ فقيراً فما نوع استجابتك ورد فعلك ؟ هل تيأس وتقنط من رحمة الله ؟؟ . . . . إن الله سبحانه وتعالىٰ يمتحننا في حالتي الفقر والغنى ، ويجازينا ويحاسبنا على موقفنا في الحالتين : فإن كنتَ غنياً فإنك تُسأل : هل زكّيتَ مالكَ وساعدت المحتاج والفقير ؟؟ وإن كنتَ فقيراً فإنك تُسأل : هل عملت وسعيت وكنت مؤمناً برحمة الله ، أم كنتَ من اليائسين القانطين ؟؟ . .

وكذلك المركز الاجتماعي المرموق ، أو الوظيفة العالية ، أو السلطة ، فإنها جميعاً امتحان لك ليرى الله نوعية استجابتك لهذه الأُمور . . . فإذا كنتَ في هذه المواقع الحساسة هل تساعد الناس وتقضي حاجات المحتاجين ؟ أم أنك تتجبّر وتتكبّر وتعطِّل مصالح الناس إرضاءً لرغباتك وشهواتك ؟؟ .

وفي هذا المجال أيضاً هناك ناحية عظيمة الشأن وخطيرة في ميزان الأعمال ، ألا وهي صلّة الرّحم . فالرسول يقول : «لا صدقة وذو رحم

محتاج» . . . ويقول : «الرحم معلّقة في العرش تقول : أي ربُّ ! صِلْ من وصلني واقطع من قطعني !» .

وأضرب لكم مثلاً على ذلك : امرأة مات زوجها وبقي عندها طفلٌ يتيم . هذه المرأة كانت تتصدّق عن زوجها ولكنها في نفس الوقت كانت تجوّع طفلها . . . فكانت في كل ليلة جمعة تطبخ الطعام وتعطيه إلى طفلها وتقول له : «اذهب به إلى ذاك الكوخ ، فإن فيه رجلاً فقيراً ؛ فإذا نحن تصدّقنا في هذه الليلة فإن الطعام يصل إلى أبيك !» . . . وكان هذا الطفل المسكين يحمل الطعام في كل أسبوع إلى ذاك الرجل ، ولا يجرؤ أن يأكل منه شيئاً بالرغم من جوعه الشديد . . . وفي إحدى المرات اشتدَّ به الجوع ، ففتح صرَّة الطعام في الطريق وأكل ما فيها ، وعاد إلى البيت ونام في حالة من الشبع والارتواء . . . في تلك الليلة رأت المرأة زوجها في المنام يقول لها : يا فلانة ! لماذا لم تذكريني إلاَّ في هذه الليلة ؟ ! لقد كنت انتظر منك أن تذكريني وتتصدَّقي عن روحي في كل ليلة جمعة من الأسابيع الماضية ، فلماذا تأخرت صدقتك إلى اليوم ؟؟ . . . انتبهت المرأة ، وقفزت من فراشها ، وذهبت إلى طفلها تسأله وتوبخه ؛ لماذا لم تكن توصل الطعام إلى الفقير في الأسابيع الماضية ؟ ! لماذا أوصلته الليلة فقط ؟ هل كنتَ تأكله في الليالي السابقة ؟ هل كنت ترميه في الطريق وترجع ؟ !! .

قال الطفل المسكين وهو يرتعد خوفاً : الحقيقة يا أماه أنني كنت جائعاً كثيراً في هذه الليلة ، ولم استطع مواصلة السير من شدّة الجوع ، فأكلت الطعام . أما في الليالي السابقة فقد كنت أوصل الطعام بكامله إلى ذاك الرجل الفقير . . . . انتبهت الأُم إلى ما فعلت ، وفهمت الدرس : «لا صدقة وذو رحمٍ محتاج» .

والحقيقة أيها الإخوة أننا نعيش في زمن غزتنا فيه الحضارة الغربية وقيم الحضارة الغربية . ولعلّ أسوأ ما أخذناه عنهم هو قطع صلّة

الـرحم . . . فأنت تـرى بنـايـة ضخمـة كبيـرة فيهـا عشـرات النـاس يـدخلون ويخـرجون ويصعـدون وينزلـون ويكادون يصـطدمون ببعضهم البعض ، ومـع ذلـك نادراً مـا تجد واحـداً يسلّم على الآخـر ، ونـادراً مـا تجـد واحـداً يـزور الآخر !! . . وكذلك ترى الأهـل والإخوة لا يـرون بعضهم إلاّ في المناسبات المتباعدة !! هل تصدّق مثلاً أن أكثر الناس في العـواصم الغربيـة مثل بـاريس ولنـدن ونيويـورك لا يزور الـواحد منهم أُمـه أو أبـاه إلاّ مـرّة واحـدة في السنـة بمناسبة عيد الميلاد ؟ !! .

ذكرى أهـل البيت :

ونعـود إلى الآية الكـريمة : **﴿ثم كـان عاقبـة الذين أسـاءوا السُّوأىٰ أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾** .

ويزيد بن معاوية لعنه الله كان رأس أُولئك المكذّبين المستهـزئين بآيـات الله . . .

كان يزيد جالساً وأمامه رأس الحسين ينكته بقضيب بيده ، ويقول :

لعبَتْ هـاشم بـالملك فـلا خبـرٌ جاء ولا وحيٌ نـزل .

هكـذا بكل وضـوح وصراحـة ينكر يـزيـد الـوحي والـرسـالـة والإسـلام جميعاً !! .

وقفت الحوراء زينب أمام يزيد وقالت له :

«يا يزيد ! صدق الله سبحانه حيث قال : **﴿ثمَّ كان عـاقبة الـذين أساءوا السُّوأىٰ أن كذّبوا بآيات الله وكانـوا بها يستهـزئون﴾** . . . . أَمِنَ العـدل يا ابن الـطلقاء تخـديرُك حـرائرك وإمـاءك وسوقُـكَ بناتِ رسـول الله سبايـا قد هَتكْتَ ستـورَهُنَّ وأبـديتَ وجـوههـنَّ ، تحـدو بـهن الأعـداء مـن بلد إلـى بلد ، ويستشـرفهن أهـل المناهـل والمعاقـل والمناقـل ، ويتصفّح وجـوههن القريب والبعيـد والدنيء والـوضيـع ، ليس معهن من حُمـاتهن حَمِيٌّ ولا من رجالهن وليٌّ ؟ ! وكيف تُـرتجى مراقبـةُ ابن من لفظ فُوه أكبـاد الأزكيـاء ، ونبت لحمـه

بدماء الشهـداء ؟ !! . . . أم كيف يُستبطأُ في بُغضنـا أهل البيت من نـظر إلينا بـالشَّنَف والشَّنَآن والإحن والأضغـان ؟ !» . . . إلى أن تقول : «غيـر متأثِّم ولا مستعظم بقولك : لأهلّوا واستهلّوا فرحاً» . . . لأن يزيد كان ينشد :

ليت أشيـاخي ببـدر شهـدوا   جزع الخزرج من وقع الأَسَـلْ
لأهـلّوا واسـتـهـلّوا فـرحـاً   ثم قـالـوا : يـا يـزيـدُ لا تُشَـلّ .

منحنيـاً على ثنايـا أبي عبـد الله تنكتهـا بمخصـرتـك . وكيف لا تقـول ذلـك وقد نكـأتَ القرحـة واستـأصلتَ الشـأفـة ! . . . وإني لأستصغـر قـدرك وأستعـظم تقريعـك ، لكن العيون عَبْـرَىٰ والصدور حـرَّىٰ ! . . . ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الـطلقاء . . وهـذه الأيدي تَنْـطفُ من دمـائنـا ، والأفـواه تتحلّب من لحـومنـا ، وتلك الجثث الـطواهـر الزواكي تنتابُها العواسِلُ وتعفّرها أُمهات الفراعِل . . . فمهـلاً مهلاً ، لا تـطش جهـلاً ! وهل رأيـك إلاّ فَنَـد ! أَنَسيتَ قـول الله تعـالىٰ : **﴿ولا يَحْسَبَنَّ الـذين كفروا أنَّما نُملي لهم خيـرٌ لأنفسهم إنما نُملي لهم ليـزدادوا إثماً ولهـم عـذابٌ مُهين﴾**(١) . . . وهـل رأيكَ إلاّ فَنَـدٌ ، وجمعُكَ إلاّ بَدَدٌ ، وأيامُـك إلاّ عَدَدٌ ، يوم ينادي المنادي **﴿ ألا لعنة الله على الظالمين﴾**(٢) .

كانت الحوراء زينب تخطب وبناتُ أخيهـا الحسين حولهـا . . . فاطمـة الصغيـرة ، إحدى بنـات الحسين ، كانت تقـول لعمتها : قـولي ليـزيـد أن لا يضرب رأس والدي الحسين !! . . . تلك رقيّـة الصغيرة التي علمهـا الحسين أن تفترش له المصـلاّة . . كانت تبحث عن أبيهـا الحسين ، وإذا بيزيـد يبعث إليهـا رأس الحسين . . . لما رأت الـرأس قـالت : مـرحبـاً بـك يـا والـدي ! مرحباً بك يا نور عيني ! . . . بكت حتى ماتت حسرة عليه .

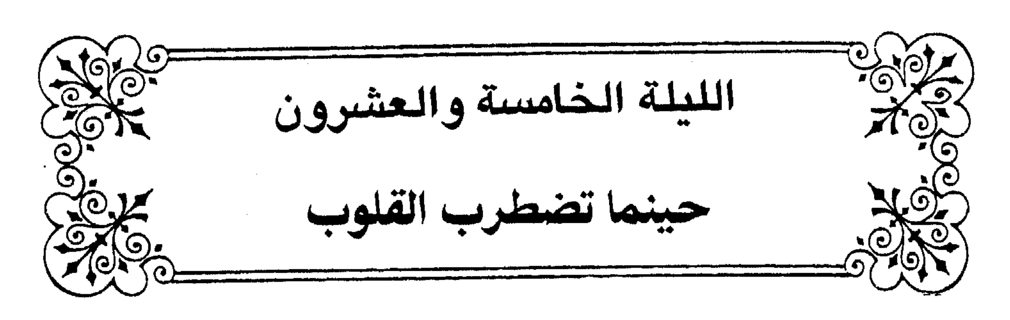
وكانت أيضاً فاطمة الكبرى مع عمتهـا . . . رجلٌ من أهـل الشام يقـول ليزيد : هَبْ لي هذه الجارية لتكون خـادمة عنـدي . . . . تقول فـاطمة : لمـا

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٧٨ .
(٢) سورة هود ؛ الآية : ١٨ .

سمعت هـذا خفت ، ولذتُ بثياب عمتي زينب . . . قـالت زينب : مـا كـان ذلك لك ولا لأميـرك هذا الجـالس !! قال يـزيد : إن هـذا لي ، ولو شئت أن أفعـل لفعلت ! . . . قالت زينب : إلَّا أن تخـرج من ملَّتنا وتـدين بغير ديننـا ! قـال : إنما خـرج من الدين أبـوكِ وأخـوكِ !! قـالت : إنمـا بـدين أبي وأخي وجـدّي رسـول الله اهتـديتَ أنت وأبـوك إن كنت مسلمـاً ! . . . قـال ؛ إيَّـايَ تستقبلين بهـذا الكلام يـا عدوة الله ؟ !! . . . هنـا حزنت زينب بنت الـزهـراء وسالت دموعها . . . فهذه أول مـرّة يتجرّأ إنسـان ويقول لابنـة أمير المؤمنين : يا عدوّة الله . . . قـالت : أنت أمير تشتم ظـالماً وتقهـر بسلطانك، وأنـا اليوم لا والـد لي ولا عمّاً ألوذ بـه . . . أخي ذبيح ، ورَحْلي قـد أُبيـح ، وبي ضـاقَ الفسيح ، وأطفالي بغير حِمى !! .

سمعت هنـد زوجة يـزيد بـالخبر ، فـدخلت على يزيـد حاسـرة الـرأس تـولول . . . قـال لهـا يـزيـد : أما تستحين تبـرزين بين الـرجـال ؟ ! قـالت : ويلك ! أنـا أستحي ، وهذه صـريخـة آل عبـد المـطلب بمجلسـك !! . . . . نظرت زينب إلى هند ، فجرت دموعها وغالبتها عبراتها .

إلهنا تقبّل أعمالنا . .



الليلة الخامسة والعشرون

حينما تضطرب القلوب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1] .

أيها الأحبّة :

إن المسائل المادية والمنافع الشخصية تطغى على حياة الناس فتكاد تخنقهم وتعمي أبصارهم ، فلا يرون حقيقة الإسلام وأحكامه الأصلية الصحيحة . وإذا تضاربت مصالحهم المادية مع حقيقة الإسلام فإنهم ينحازون إلى مصالحهم ويضربون بالأحكام عرض الحائط . . . . وهذا أمرٌ وجد في الزمن القديم وما زال موجوداً إلى أيامنا هذه .

فالحسين عندما خرج لم يخرج معه سوى سبعين رجلاً ، في مقابل سبعين ألف خرجوا في الجهة المقابلة . . . سبعون رجلاً باعوا أنفسهم لله ، مقابل سبعين ألفاً باعوا أنفسهم للشيطان ولأنانياتهم الذاتية ومصالحهم المادية . والآلاف المؤلفة من رسائل التأييد التي وصلت للإمام الحسين ودعته للقيام في وجه يزيد ، ارتدّت ونكصت على أعقابها لما رأت أن

---

(١) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٨ .

مصالحها المادية الذاتية قد تتهدّد ؛ وطمعت بوعود يزيد المادية .

وهذا الأمر يتكرر في كل زمان . فأنت ترى العديد من الناس يصاحبونك ويظهرون المودّة والمحبّة ، حتى إذا مسَّ ذلك شيئاً من مصالحهم المادية فإنهم ينفضّون من حولك ويتركونك وحيداً .

والكثير من الناس يحاول الابتعاد عن أي شيء فيه تصدّق بالمال. وغالباً ما يأتيني سؤال من نوع آخر : ألا يمكنني أن استعيض عن إطعام المسكين في شهر رمضان بصلاة ركعتين مثلاً ؟ . . وهكذا . . .

يقول الإمام الحسين عليه السلام : «الناسُ عبيد الدنيا ، والدينُ لعقٌ على ألسنتهم يحوطونه ما درَّتْ معايشهم» . أي أن الدين مُصانٌ ومحافَظٌ عليه لدى بعض الناس طالما أنه يوافق مصالحهم الشخصية ويدرّ عليهم المنفعة ؛ فإذا لم يعد مصدراً للمنفعة والربح فإنهم يضربون به عرض الحائط .

والأمر لا يقتصر على ذلك عند بعض الناس ، خاصة إذا كانوا من أهل الثروة والسلطان ؛ فإنهم في هذه الحالة مستعدّون للتزوير وتحريف الحقائق بما يتناسب مع مصالحهم . ولعل قصّة مالك بن نويرة شاهد ساطع على ذلك .

بعد وفاة الرسول جاء مالك بن نويرة يحمل أموال الزكاة يريد أن يدفعها لخليفة رسول الله ، فدخل مسجد المدينة وأخذ يسأل عن خليفة رسول الله .

ومالك بن نويرة هذا كان زعيماً بدوياً يعيش في الصحراء ولا يتردد إلى المدينة كثيراً ، ولكنه كان مسلماً صادق الإيمان ملتزماً بأحكام الإسلام وبأقوال الرسول . ولذلك كان يقول عنه الرسول : «من أراد أن ينظر إلى أهل الجنّة فلينظر إلى مالك بن نويرة» . وقد شهد مالك بن نويرة حديث غدير خُمّ ، وسمع من الرسول حديث الغدير والولاية لعليّ بن أبي طالب ،

ورأى النـاس يقبلون على أمير المؤمنين يبـايعونـه ، وسمع بـأذنه من قـال له : «بَخٍ بَخٍ لـك يـا عليّ ! لقـد أصبحت مـولاي ومـولى كـل مؤمن ومؤمنـة» . فلذلك جاء مالك إلى المـدينة يبحث عن أميـر المؤمنين ليدفـع له الـزكاة التي جمعها من قبيلته .

دخل مالك المسجد وسأل عن الإمام علي بن أبي طـالب . قـالـوا : ومـا تريد منه ؟ قال : معي أموال الزكاة وأريد أن أسلمهـا له !! . . . قـالوا : ليس لك أن تعطيه أموال الزكاة ، فهـو ليس الخليفة بعـد رسول الله ، وإنمـا عليك أن تدفع الزكاة هنـاك في ذاك الجانب . . . . قـال : والله لست بدافـع الزكـاة إلّا لصاحبها ! . . . . ولما رأت تلك العصابة إصراره ، هجمـوا عليه وأوسعـوه ضرباً وتعزيراً ، وأخـرجوه من الجـامع متهمينـه بالكفـر والارتداد عن الإسـلام بحجـة أنه منـع الزكـاة . . . . وفي اليوم التـالي كانت حملة خـالد بن الـوليـد على جمـاعـة مـالـك ، فقتله واحتـاز زوجتـه . تلك الجـريمـة هـزّت ضميـر المسلمين الحقيقيين ، فقـال عمـر بن الخـطاب لخـالـد : «لقـد قتلتَ امـرءاً مسلماً ونزوتَ على زوجته ؛ والله لأرجمنّك بـأحجارك !» ؛ ولكن الخليفـة أبا بكـر الصدّيق قـال : «لقد تـأوّل خالـد فأخـطأ . ولا أشيم سيفـاً سلّه الله على المشركين» . فاعتبر أبو بكر أن فعلة خالد هي من نوع الخطأ في الاجتهاد ، ولذلك فـإنه لم يـوافق على عقابـه ، لأنه لا يـريد أن يـذلّ سيفاً رفعـه الله في وجه المشركين !! . . .

وفي ليلة سابقة تعـرّضت لبيت مال المسلمين ، وذكـرت كيف أن الإمام علي بن أبي طـالب كان يكنس بيت المـال في كـل ليلة خميس وجمعـة . . . فيـظهر أن قـولي هـذا لم يعجب بعض الـذين يكـدّسـون أمـوالهم في البنـوك فـأخذوا يشيعـون أن الشيخ المهـاجر يتهجّم على العلمـاء والمراجـع الـدينيـة ويدعو إلى عدم دفع الزكاة عن طـريقهم !! . . . والحقيقة أننـا نحترم العلمـاء ونجـلّ المراجـع الدينيـة ، ولكن بعض الذين في قلوبهم مـرض وفي نفوسهم غرض لا يتورّعون عن تحريـف الكلم وتشـويه الحقـائق . وإننا والحمـد لله لا نخاف في الحق لومة لائم . وما قلته على المنبر حـرفياً هـو أنه لا يشتـرط في

دفع الحقوق الشرعية الإذن من الحاكم الشرعي ، ولم أقل : لا تدفعوا للحاكم الشرعي !! . . .

وما ذكرته من أمر الحقوق الشرعية موجود في كتب العلماء والفقهاء الكبار من الشيعة ، أمثال السيد الحكيم في «المستمسك» وكتاب «الحدائق الكبرى» ، وكذلك الشيخ يوسف البحراني ، والشيخ المفيد ، والسيد الطباطبائي في الميزان في تفسيره لقوله تعالىٰ : «خذ من أموالهم صدقة» ، والشيخ محمد جواد مغنية في كتابه «فقه الإمام الصادق» وغيرهم كثير . . . . . وهؤلاء مجمعون على أنه ليس عندنا دليل واحد يقول بأنك ملزم بدفع الحقوق الشرعية للحاكم الشرعي أو أنه عليك أن تأخذ منه إذناً لتنفقها في وجوهها الشرعية . فأنت مسؤول عن أموالك ، وإذا كنت تعرف وجوه إنفاقها فلا حاجة لمراجعة الحاكم الشرعي . . . أما من يريد أن يعطي المراجع فليتفضّل ولا أحد يقف بوجهه . وكل المراجع نحترمهم ونجلّهم ، ولكن لا بدّ من توضيح هذه الأمور الأساسية . وإذا قيل إنه من الأفضل أن ترجعها إلى المراجع الشرعية ، فهذا يكون في حال عدم معرفتك معرفة صحيحة بوجوه ومواطن صرفها وإنفاقها . أما إذا كنت عالماً بذلك محيطاً بالمسألة فلا حاجة إلى الإذن ولا يستطيع أحد الاعتراض عليك .

والحقيقة أن القضيّة لا تخرج عن حبّ المال والشهوة لجمع المال . والحقيقة أيضاً أن بعض من يُطلق عليهم صفة التقديس لا يملكون من الوعي والفهم شيئاً ، والأمر لا يتعدّى عندهم الصوم والصلاة ؛ أما الوعي الحقيقي بأحكام الشرع والدين فهم بعيدون عنه . . .

وعلينا أن نأخذ درساً من أولئك المبشرين المسيحيين الذين يذرعون القارة الأفريقية طولاً وعرضاً ، ولا يستكينون أو يملّون من الحركة ، في حين نرى البعض عندنا يطلبون منك أن تأخذ إذناً إذا أردت أن تدفع عشرة دنانير لتوصل صوت أهل البيت إلى أفريقيا . . ومن هنا نستطيع أن نرى حالة ومستوى التبليغ عندنا . ولنسأل أنفسنا : كم عالماً أو مرجعاً دينياً ذهب

إلى أفريقيا ؟؟ أين هم الخطباء والمبشرون والوعاظ ؟؟ هناك الناس لا يعرفون شيئاً عن دينهم ؛ هم مسلمون بالشكل وبالاسم فقط . وأنا رأيت بأم عيني هناك أناساً مسلمين يدفنون موتاهم مع النصارى !! . . . وماذا نرى في المقابل ؟ ألا ترون أن بابا روما المرجع الأعلى للمسيحيين في العالم يطوف على جميع القارات ويبشّر بديانته ويبارك جهود رسله ومبشريه ومبعوثيه ؟ .

وأنا من عادتي أن أذهب كل سنة في شهر رمضان إلى بلد من البلدان في أميركا أو أوروبا أو أفريقيا . وبالفعل عندما أذهب إلى تلك البلدان تقوم المهرجانات الضخمة ، ويشارك في ذلك الإذاعة والتلفزيون والصحافة ، فيصل صوتنا إلى ملايين البشر . . . . في نيجيريا مثلاً هناك مائة وثلاثون مليوناً سمعوا محاضرات إسلامية بثها التلفزيون على مدى أربع عشرة ليلة . وكنت أتحدّث إليهم بالعربية والإنكليزية والفارسية ، كما كان هناك علماء ومترجمون ينقلون إلى اللغة السواحلية أو الفرنسية .

وفي تلك البلاد التقيت بأحد القُسُس المسيحيين ، وكان يجيد اثنتي عشرة لغة ، وعنده طائرة خاصة تنقله أينما شاء ، فيهبط في الأحراش والغابات ويزور القبائل الأفريقية في كل مكان . هذا المبشّر المسيحي قال لي : أنا أذهب وأطوف حيثما أردت ، وعندي تذكرة خاصة أدخل بها جميع البلاد ، حتى بلادكم في الشرق الأوسط والبلاد الإسلامية أدخلها دون أي تأخير ؛ فعندما أصل المطار أدخل تلك البلاد مباشرة ولا يعترضني أحد . . .

أقول هذا لنأخذ العبرة من الآخرين ، ولننظر إلى حالنا ونرى التقصير الفادح في حركتنا ونشاطنا وإلاّ فإن حبنا للرسول وأهل البيت يبقى كلاماً لا فائدة منه إذا لم يترجم إلى عمل .

الايمان حاجة فطرية والضمير محكمة في داخل الانسان والمال مفسدة لضعاف النفوس

بعد هذه المقدمة الطويلة التي اقتضتها مني بعض الملاحظات

والإشـارات الضرورية ، نعود إلى الآية المباركة : ﴿**والذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ .

إن الإنسان بفطرته وتركيبته لا يستطيع أن يعيش مطمئناً من دون معتقد أو دين . وهذه العقيدة إما أن تكون صحيحة فيكون دينه صحيحاً ، وإما أن تكون فاسدة ومنحرفة فيكون دينه فاسداً ويشعر بالانحراف والفراغ في نفسه .

وأنا أذكر لكم هنا مثلاً يبيّن حاجة الإنسان إلى شيء يعتقد به فيستلهم منه الروح ويبث فيه الطمأنينة : لقد كان جواهر لال نهرو يأتي دائماً إلى قبر المهاتما غاندي ، فيسجد أمامه ، ويجلس عنده مفكراً متأملاً !! ولما سئل عن ذلك قال : إني أشعر أحياناً بفراغ في داخلي ، فآتي إلى غاندي أستلهم منه الروح ، وكأنما هناك نداء في داخلي يلحّ عليَّ ولا أجد له تفسيراً .

وإلى جانب هذه النزعة الفطرية في الإنسان إلى الروحانية والدين ، فإن في داخله صوتاً منبهاً يوقظه ويحرّكه على الدوام ؛ وهذا الصوت هو صوت ثلاث محاكم في داخله : محكمة الوجدان ، ومحكمة الضمير ، ومحكمة النفس اللوّامة . . . . فإذا أخطأ الإنسان فإن هذه المحاكم تبدأ بدقّ أجراسها وقرع طبولها وإرسال إشاراتها وتحذيراتها . وحتى لو كان الإنسان فاسداً ، ووصل في فساده إلى درجة معاوية بن أبي سفيان ، فإن نداء المحكمة الداخلية لا يسكت . . . لقد قتل معاوية حجر بن عديّ ، ولكنه لم يستطع أن يستريح بعدها لحظة واحدة ، فكان دائماً يصيح : «ليلي ويومي منك يا حجر طويل !!» .

وهناك قصة حدثت في أيام أمير المؤمنين والخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، وهي تبيّن بوضوح وجود صوت المحكمة الداخلية وأثره الكبير : كان عمر بن الخطاب يسير ليلاً في أحد شوارع المدينة فصادف شاباً يقول : «يا عدلُ يا حكيم ، أحكم بيني وبين أمي» . . . ناداه الخليفة

وسأله : ما بالك أنت وأمك ؟ . . قال : «إن أمي حملتني تسعة شهور وأرضعتني حولين كاملين ، ولما كبرت وعرفت طريقي وأصبحت أميّز بين الخير والشر رفضتني وتنكّرت لي وأعلنت أنها لا تعرفني !» . فأتى به الخليفة إلى المسجد ، وأرسل من يحضر أُمه . . . وصلت المرأة ، وكانت شابة في الخامسة والعشرين من عمرها ، ومعها إخوة أربعة . . . وقفوا أمام الخليفة فسألهم : هذه أختكم متزوجة ، وهذا ابنها ، فلماذا ترفض ولدها ؟ صاحت المرأة : «الله أكبر يا أمير المؤمنين ! إني بِكْرٌ عذراء لم أتزوّج بعد ! وهؤلاء إخوتي» . فثنّى إخوتها على كلامها بقولهم : «نعم يا أمير المؤمنين ! هذه أختنا عذراء لم يخطبها أحد ، فمن أين جاءها هذا الولد ؟ ! إن هذا إلّا شابٌ مستهتر يريد أن يدنّس كرامتها ، ولا بد أن يقوم عليه الحدّ بما افتراه !» . قال عمر : «أعندكم شهود ؟» . قالوا : نعم . . . ثم جاؤوا بأربعين شاهداً حضروا أمام الخليفة وشهدوا وصدّقوا على كلام المرأة وإخوتها . . . عندها غضب الخليفة وقال : «عجيبٌ أمرك يا فتى ! أنت في دولة إسلامية وتعتدي على أعراض الناس ! . . . خذوه إلى السجن» . .

وبينما الحرس في طريقهم إلى السجن يصطحبون هذا الفتى المسكين ، صادفهم في الطريق الإمام عليّ بن أبي طالب ، وسألهم عن الخبر ، فذكروا له القضية . . . فقال لهم : «عودوا به وأرجعوه إلى المسجد» . فلما رجعوا به إلى الخليفة ، سألهم عن سبب ذلك ، فأخبروه أن علياً أمرهم بهذا ، فقال عمر : «لا بأسَ عليكم ! رأي كريمٍ لا يردّ ، فلعلَّ أبا الحسن يرى أمراً لا نراه» . . . . وكان للإمام عليّ مكانة معروفة عند عمر بن الخطاب ، فهو يجلّه ويحترمه ويسعى دائماً للإسترشاد برأيه ، وكان يقول : «لا يفتينَّ أحدكم وعليٌّ في المجلس» .

لما حضر الإمام عليّ طلب أن يستمع إلى القصة من الفتى ، فأسمعه ظلامته ، وأعاد ما قاله أمام الخليفة والحاضرين . ثم سمع الإمام مقالة المرأة وإخوتها والشهود الأربعين ، فأعادوا جميعاً ما قالوه سابقاً .

عندها قال لهم الإمام عليّ : إن أمر أختكم بيدي ، وأنا سأحكم في هذه القضية . . . ثم رفع صوته قائلاً : «اللَّهمَّ إنك تشهد ، وإن ملائكتك تشهد ، وإن هؤلاء كلهم يشهدون عليَّ أني قد زوّجت هذه الفتاة من هذا الشاب بخمسمائة درهم أدفعها من أموالي الخاصة» ثم قال لخادمه : يا قنبر ، عليّ بالدراهم . فاحضر قنبر المال ، فدفعه الإمام إلى الشاب وقال له : «قم وخذ زوجتك ، ولا تأتنا إلاَّ وعليك آثار الغسل والعرس !» . . .

عندها صاحت المرأة فزعة مذعورة : «النارَ النارَ يا أبا الحسن ! كيف تزوجني من ولدي ؟ !» قال الإمام : «فلم زعمتِ أنه ليس بابنك وأنك عذراء ؟» . . قالت : «يا أمير المؤمنين ! لقد مات أبوه وترك ثروة كبيرة ، فطمع إخوتي بهذه الثروة ، وأجبروني على التنكّر لابني حتى لا يذهب بالميراث . . وهؤلاء الشهود جميعاً كاذبون قد اشترينا شهادتهم بالمال» ثم صارت تبكي واحتضنت ولدها .

هذه الحادثة نستدلّ منها على أمرين أساسيين : الأول أثر المال الكبير على بعض النفوس ودفعها إلى الانحراف والخطيئة والإثم ، والثاني أهميّة المحكمة الداخلية التي تقوم على صوت الضمير والوجدان والنفس اللوّامة . . . . فهذه المحكمة الداخلية هي التي اعتمد عليها الإمام لإظهار الحقيقة . . . وهذا لعمري أمرٌ عظيم لا يقوى على اللجوء إليه إلاَّ القضاة العظام أمثال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . . ولهذا نرى الخليفة عمر بن الخطاب يقول بعد هذه الحادثة : «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن» .

أما إذا أردت أن تتعرّف إلى النفوس العظيمة التي تترفّع عن المال ، وعن الشهوات ، وعن المنافع الشخصية ، وعن مراعاة القريب على حساب العدل والحق والإنصاف . . . فتأمّل في قول أمير المؤمنين عليه السلام :

«واللَّهِ لقد رأيت أخي عقيلاً وقد أملق ، حتى استماحني من برّكم صاعاً ، ورأيت صبيته شُعْثَ الشعور غُبْرَ الألوان من فقرهم ، كأنما سوِّدت

وجوههم بالعِظْلِم (وهو نبت يستخرج منه صبغ أزرق يعرف بالنيلة ، وهو أيضاً الليل الشديد السواد) ، فعاودني مؤكداً ، وكرّر عليَّ القولَ مردّداً ، فأصغيتُ إليه ، وسمعني فظنّ أنني أبيعه ديني وأتّبع هواه مفارقاً طريقتي ، فأحميتُ له حديدة ، ثم أدنيتها من بدنه ليعتبر بها ؛ فضجَّ ضجيجَ ذي دَنَفٍ من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها ، فقلت له : يا عقيل ! ثكلتك الثواكل ! أتئنُّ من حديدة أحماها إنسانُها للعبه ، وتجرّني إلى نارٍ سجّرها جبّارها لغضبه ؟ ! أتئنُّ من الأذىٰ ولا أئنُّ من اللظىٰ ؟ !» ...... ثم يتابع الإمام مشيراً إلى أولئك الذين يتقبلون الهديّة وهم في موقع القضاء والفتيا ، فيقول : «وأعجبُ من ذلك طارقٌ طرقنا بملفوفةٍ في وُعَاقها ، كأنما عُجنت بريق حيّةٍ أو قَيْئها! فقلت : ما هذه ؟ أزكاةٌ أم صلةٌ أم صدقة ؟ ! فذاك حرامٌ علينا أهل البيت . . . قال : لا ، ولكنها هدية ! فقلت له : هبلتكَ الهَبُول ! أعن دين الله جئتني لتخدعني ؟ !» .

الايمان طمأنينة وراحة والكفر قلق واضطراب :

إن الدين والإيمان ضرورة ملحّة للإنسان ، به يتكامل وجوده فيصل إلى حالة من الراحة والطمأنينة ، ومن دونه يبقى أسير الحيرة والقلق والاضطراب .

وعلامة الإيمان هي ذكر الله . وفي ذكر الله شفاء للنفس من مرض النفاق . يقول الإمام علي : «من أكثر من ذكر الله برِىءَ من النفاق في قلبه» . ونسيان الله يُنبت النفاق ويُنسي الإنسان نفسه : **﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسَهم﴾**[1] ويقول الإمام عليّ عليه السلام لولده الحسن ليلة وفاته : «أي بنيَّ ! وليكن لله ذكرك على كل حال» . . . فذكر الله يكون في جميع الأحوال : في السرَّاء والضرَّاء ، في الشدَّة والفرج ، في الرخاء والبلاء .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٩ .

وذكر الله هو التفكّر في خلق السماوات والأرض ، والتأمّل في عظمة الخالق سبحانه : **﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السمٰوات والأرض ربّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فَقِنا عذابَ النار﴾**[1] .

وذكر الله يكون أيضاً في العمل الصالح والإحسان . لأن الإيمان بدون عمل صالح يكون ناقصاً : **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾**[2] .

إذن بالإيمان وذكر الله ، وبالعمل الصالح والنظر في آيات الله ، يكون تكامل الإنسان ووصوله إلى حالة الاطمئنان : **﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾** .

وفي مقابل الاطمئنان يكون القلق والاضطراب الناتج عن نسيان الله . . . . ومن هنا نستطيع أن نفهم سبب مرض العصر في أيامنا هذه . . . فالبشرية تعيش في قلق واضطراب وخوف . . . خوف من الحاضر والمستقبل ، خوف على المصير ، خوف من المرض ، خوف من الجوع ، خوف من الموت ، خوف من الفراغ ، خوف من الفراغ واللاجدوى . . . إنه القلق والاضطراب وما سبب ذلك ؟ . . . إنه عدم التكامل في الإنسان . . . ولماذا هذا النقص وعدم التكامل ، فالإنسان المعاصر حصل على كل شيء من حاجاته المادية ؟ . . إنه ناتج عن غياب الإيمان . . .

وإذا نظرنا إلى إنسان العصر الخائف القلق المضطرب فكيف نجده يعالج مرضه هذا ؟؟؟ . . . .

إنه يعالجه بأقراص الفاليوم والمنوّمات والمهدّئات . أطنان وأطنان من هذه الأقراص توزّع على الشعوب لتنام !! . . . ولكن هذا الإنسان الفزع

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٩١ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٨٢ .

المذعور مـا يكاد يصحـو من نوم قصيـر مضطرب متقـطع حتى يهرع إلى نـوم آخر . . .

وهـذا الإنسان المـريض يعالـج مرضـه أيضاً بـالهروب ! إنـه يهرب من مشكلتـه بواسـطة المسكرات والمشـروبات الـروحية ، ويهـرب منها بـواسـطة المخـدّرات على أنواعهـا . . . حتى بات هـذا العـلاج الـذي يلجأ إليـه ذاك الإنسـان القلق وتلك المجتمعات المضـطربـة ، هـذا العـلاج الـذي تـوهمـوه عـلاجـاً بـات يشكـل آفـة إجتمـاعيـة كبـرى ومـرضـاً عضـالاً تضـجّ منـه تلك المجتمعات بشعوبها وحكوماتها !! . . .

ولعلّ أسوأ مـا في الأمر أن يتخـذ الهروب من القلق والاضـطراب شكل الانتحار ! . . وهذا ما يحدث لدى أكثر الشعـوب تقدمـاً من الناحيـة الماديـة وتوفير الخدمات والرفاهية . فالفـرد في السويـد يعتبر أكثر إنسان يتمتـع بدخـل مرتفع وخدمات عالية . وفي نفس الـوقت نجد نسبـة الانتحار في السـويد هي أعلى نسبة في العالم !! . . . وكذلك تجـد نسبة الانتحـار عاليـة لدى أولئـك المشـاهير الـذين يحققون درجـة كبيرة من النجـاح الماديّ ولكنهم يقعـون في مأزق الخواء النفسي والفـراغ الوجـداني والإيماني فيلقـون بأنفسهم في هـاوية الانتحار . . . . كذلك فإن تلك المجتمعـات المتقدمـة ماديـاً المتخلّفة إيمـانياً تـوجد فيهـا أكبر نسبـة من الأمراض النفسيـة والعصبيّـة ، تلك الأمـراض التي يقـرّر العلم أنها نـاتجة في معـظمهـا عن القلق والاضـطراب . . . فـالعُصـاب وانفصام الشخصيّة والانحراف السلوكي على أنواعـه ، كلها نـاتجة عن القلق والاضطراب . . .

ذات مرّة ، ومن باب حب الاستـطلاع ، أردت أن أعرف شيئـاً عن هذا المغني الشهير الذي سلب عقول شبابنـا وعقول المـلايين من شباب العـالم ، والـذي يدعى مـايكل جـاكسون ! . . . قـرأت كتابـاً صدر عنـه لأعرف قصتـه وسيـرة حياتـه . . . هـذا الإنسـان الـذي يملك مـائتي مليـون دولار ، ويـطلق الأغـاني المليئة بـالدنـاءة والرذيلة والانحـطاط فتفعل فعـل السحر في مـلايين

الشباب . . . لديه أغنية تعلّم الشاب كيف ينتحر !! ولديه أغنية كلها أفكار يهودية جهنمية !! . . هذا المغني قرأت سيرته فإذا به يمضي أربع سنوات من حياته في عزلة تامة . . . كره الناس والمجتمع وكل شيء حوله وانزوى وحيداً لا يريد الاتصال بأحد . . . بقي مدة ستة أشهر يرفض تناول الطعام لأنه رأى أن الحياة ليس لها معنى . واضطر الأطباء أن يحقنوه بأبر خاصة ليحافظوا على حياته . ومع ذلك بقي أربع سنوات في عزلة وكآبة . . . بعد هذا جاءه الأطباء وقالوا له : ماذا تريد أن نفعل لك حتى تخرج من حالتك ؟ قال : أريد أن تغيّروا وجهي وشكلي ! هذا أنفي وهذه عيوني وهذه خدودي كلها لا تعجبني . . . وهكذا اشتغلوا فيه ثمانية أشهر حتى غيروا وبدّلوا من شكل وجهه ، حتى خرج بعد ثمانية أشهر بوجه آخر !! . . . ونحن نعتقد أنه ستأتيه موجات كآبة أخرىٰ وأمراض نفسية وغير نفسية ، سوّد الله وجهه في الدنيا والآخرة .

إن الأمثلة المتعددة التي رأيناها عن حالات القلق والاضطراب إنما هي ناتجة عن عدم التكامل في الإنسان . والتكامل يعني أن هذا الإنسان بتركيبته الخاصة قد خلقه الله ليسمو ويرتفع بنفسه وعقله وروحه وهمته ، فيسعى ليلتقي بالله عن طريق الإيمان . . . عندها يعرف الهدوء والاطمئنان ويتكامل بالدين والإيمان : ﴿**يا أيها الإنسانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلى ربِّكَ كَدْحاً فمُلاقيه**﴾[1] .

إن علماء الأحياء يؤكدون أن الكتكوت الصغير داخل البيضة يبقى في حالة اضطراب مستمر إلى أن يكتمل نموّه ، فينقر القشرة ويخرج قوياً . . . كذلك الجنين في رحم أمه ، فإنه يبقى في حالة اضطراب منذ الشهر الأول حتى الشهر السابع . وعندما يتكامل نموّه في الشهر الثامن والتاسع فإن حركته تهدأ ويذهب اضطرابه .

---

(١) سورة الانشقاق ؛ الآية : ٦ .

وَيل لمن خلا قلبه من ذكر الله ! :

إن معرفة الله والسير في طريق الإيمان يؤديان إلى التكامل والطمأنينة . وهذه المجالس التي نعقدها لإحياء ذكرى أهل البيت عليهم السلام ونذكر الله فيها ونسبّح بحمده إنما تُحِلُّ الطمأنينة في قلوبنا لأن فيها تكاملاً وسموّاً وارتفاعاً . . . يقول الإمام الصادق : «أحيوا أمرنا . . رحم الله من أحيا أمرنا» . . .

وأما من ابتعد عن ذكر الله ، فإن الرّحمة تبتعد عنه ، فيجفو ويقسو قلبه ، وتستولي عليه الشهوات والنزعات الشيطانية التي تؤرقه وتقضّ مضجعه حتى تقضي عليه . . . وهذا هو مثال عمر بن سعد .

رآه الإمام الحسين يوم عاشوراء فقال له : يا ابن سعد ! انظر لنفسك ، فإن رجلك باتت في القبر ! ـ وكان عمر بن سعد قد تجاوز التسعين من العمر ـ فقال ابن سعد : لقد أعطاني ابن زياد ملكَ الريّ ! . . . قال الحسين : فإني أعطيك أكثر من ملك الريّ ! . . قال ابن سعد : إن لي داراً في الكوفة أخشى أن يهدمها ابن زياد على أولادي ! . . . قال الحسين : أتخشى على أولادك ولا تخشى على بناتي وأولاد رسول الله ؟ !! أدار عمر بن سعد وجهه ، فقال له الحسين : يا ابن سعد ! لا أكلت من بُرّ العراق ولا شبعت ! . . . يا ابن سعد ، إعلم أن الله سيسلّط عليك غلام ثقيف ، يذبحك على فراشك ، وكأني برأسك على قصبة يتلاقاه صبيان الكوفة ويتخذونه غرضاً بينهم ! . . . .

وتمرّ الأيام . . . ويخرج المختار بن أبي عبيد الثقفي رحمه الله ، وينادي : يا لثارات الحسين .

وذات يوم دخل على المختار رجلٌ ومعه طفلٌ عمره ست سنوات . . . . هذا الطفل كان أحد أبناء الحسين : لما هجمت الخيل على المخيم ، هرب وهام على وجهه . بحثت عنه عمته زينب فلم تجده . . . .

في ذاك اليـوم قسم من الأطفـال سحقتهم الخيـل ، وقسم أكلتهم النيـران ، وقسم هـام على وجهه في الصحـراء ! . . وهـذا الـطفـل التجأ إلى قبيلة من البـدو ، فـاستقبلتـه وآوتـه . وكـان إذا سئـل عن اسمـه يقـول : اسمي غريب !! . . . ولما سمع هذا الطفل بخـروج المختار الثقفي في الكـوفة قـال لشيخ القبيلة : إذا ذهبت إلى الكوفة احملني معك ! .

دخـل الـطفـل على المختـار الثقفي ، وشقَّ صفـوف النـاس حتى وقف أمامه ، وفي وجهه سيماء الأنبياء وتشعّ منه الروح الهـاشمية العلويـة . . . قال المختـار : بنيَّ من أنت ، بارك الله فيك ؟ . . . قال : عمٌّ ! أسـألـك : هـل تعرف والدي الحسين ؟ . . . لمـا سمع المختـار هذه الكلمـات أصابتـه رعدة وقشعـريـرة وسـالت دمـوعـه على وجهـه . . . . ثم قـال لـه : أنت ابن الحسين ؟ !! أين كنتَ بنيّ ؟؟ . . قـال : لمـا هجم القـوم على المخيم ، كان عمر بن سعد على رأسهم . صاح عمـر بن سعد وبيـده شعلة من النار : : أحـرِقوا بيـوت الظالمين على أهلهـا !! . . يومهـا رأيت أخاً لي يـدعى أحمـد سحقتـه الخيـل أمـام عينيّ ! ورأيت أختين لي هجمت عليهمـا الخيـل ، فاعتنقتا ومـاتتا تحت حـوافر الخيـل ! ورأيت بعض إخوتي تسقط عليهم عمـد الخيمـة ، وعمتي زينب ما تمكنت من إخـراجهم ، فداستهم الخيـل !!! أمـا أنا فقد هربت مع من هـرب . . . ثم صار الـطفل يعـزّي المختار ، والمختـار يبكي وينتحب ! .

في تلك الأثنـاء جـاء رجـلٌ بـالبشـرىٰ : لقـد جـاؤوا بـرأس عمـر بن سعد !! . . . وكيف كان ذلك ؟ . . . لقد خرج عمر بن سعـد على ناقتـه ليلاً هـارباً من المختـار الثقفي . . . وبينما نـاقته تسير به في الليـل ، غلب عليـه النعـاس فنام . . . رجعت النـاقـة إلى الكـوفـة ، وأخـذت تسيـر في شـوارع الكـوفة إلى أن ارتفعت الشمس في السمـاء . فاستيقظ عمـر بن سعد فـزعاً ، ولمـا انتبه التجـأ ثانيـة إلى بيته واختبـأ فيه . . . كـان يلاحقـه رجـال المختـار الثقفي وعلى رأسهم رجلٌ يدعى حُميدة . . . ذهبوا إلى بيت ابن سعد وألقوا

القبض على ولده ، فأنكر وجود والـده في البيت . . . أشارت إليهم امـرأة بأن ابن سعـد مختبىءٌ في الدار . . . دخلوا فـوجدوه نـائماً في فـراشه . . قبضـوا عليه وذبحوه في الفـراش !!! . . . . وهكذا تحققت دعـوة الحسين ونبوءتـه : «سيسلّط الله عليـك يـا ابن سعـد غـلام ثقيف ، يـذبحـك على فـراشـك . . وكـأني بـرأسـك على قصبـة يتـلاقـاه صبيـان الكـوفـة ويتخـذونـه غـرضـاً بينهم !» . . . .

لما رأى ذلك الطفل رأس ابن سعد ، لم يستطع أن ينـظر إليه طـويلاً ، وأخـذ يبكي بحـالـة عجيبـة !! سئـل : لمَ بكـاؤك يـا ابن رسـول الله ؟ ! . . قال : لقد تـذكرت ذلـك الموقف الـرهيب ! . . . لما هجمت الخيـل ، قالت لي عمتي زينب : اذهب إلى ذاك الفـارس ، وقل لـه أن يأمـر الخيل بـالابتعاد عنّـا . . . ذهبت إليـه ، وإذا هـو عمـر بن سعـد . سـألته أن يبتعـد ، فـأبى واستكبر ، وأمر بـإشعال الخيـام !! . . . يقول الـطفل : عمتي زينب ربـطتني بـأخٍ لي حتى لا نفترق ونضيـع وتسحقنا الخيـل !! وأين هـو أخـوك ؟ ! . . . لقد سحقته خيـل ابن سعـد ، وأمـا أنـا فقـد خـرجت هـائمـاً على وجهي في العراء ، لا أدري أين أذهب !!! .

إلٰهنا تقبل أعمالنا .

محتويات الكتاب



